

رواية

النزِيل الجديد

د . عبد الرحيم درويش

الطبعة الأولى

الكتاب : النزىل الءءءء

المؤلف : ء. عبء الرءءم ءروءش

ءصنءف الءءاب : رواءة

ءصمءم الءلاف : أءمء مءمء وهىب الرارءقء

إءراء : أءمء عبء الءلءم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإءءاء : ٢٥٧٧٠ / ٢٠١٥

الءرقءم ءءولء : ٠ - ١٤٢ - ٧٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ءار ىسءرون



طباعة وتوزءع الءءب فى ءمءع أنءاء العالم

المءءبة والمطبعة : ٣ ش صفوء -مءطة المطبعة

شارع الملك فىصل - الءءزة

ءمهورءة مصر العربءة

٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ - ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩

مءءر الإناءء : أءمء عبء الءلءم

المءءر العام : أءمء فؤاء الءاءى

رئءس مءلس الإءارة : عماء سالم

برىء إلكءرونى : yastoron@gmail.com

موقءنا على الفءس بوك : مؤسسة ىسءرون لطباعة وتوزءع الءءب

ءمءع الءقوق مءفوظة للمؤلف

النزيل الجديد

الجو حار خانق. قطرات العرق تتساقط على الوجوه الكالحة. عزت النسومات وصارت أملاً بعيد المنال، همهمات الرجال تتلاشى فى محاولات بعضهم ولو بيده أن يزيل قطرات العرق الملحية، حتى الأيادى المتحررة من أسر القيود المعدنية تستطيع بالكاد أن تزيل حبات العرق فى حين تظل الأيادى الحبيسة أسيرة مع أيادى رفاق الحبس. أى أسر هذا؟ كيف تربط أيادى الأعداء بهذه الطريقة؟ عندما كانوا أحراراً قبل ساعات من هذا الحبس البغيض. كانت الكراهية طريقهم والمشاجرات سمتهم والدماء سيبلهم، الآن تُربط يد الظالم بيد المظلوم كما تُربط يد الضارب بيد المضروب، كل اثنين يرتبطان بسلسلة واحدة. منذ ساعات كان كل اثنين يتضاربان ولا يطيق أحدهما الآخر. والآن يتلاصق جسد العدوين.

لم يقطع هذه الهمهمات سوى صوت الشاويش وهو يصيح بأحد الزملاء الجدد بعد أن سُمعت ركلاته فى مؤخرة الحبس الجديد. كان الشاويش يدفع نزيلاً جديداً بهذا الحبس ويقول بعد أن صفع النزيل على قفاه: «ادخل مكانك يا مجرم»

كانت لهجة الشاويش صعيدية صرفة. لم يتحدث النزيل الجديد. دخل مكانه كما أمره الشاويش. باغته الشاويش بركلة قوية فانكفاً على وجهه. قال الشاويش فى غضب بنفس لهجته الصعيدية: «تباً لكم يا أولاد المتشردين. يا أولاد البلطجية واللصوص. ملأتم البلد. والله إنكم لتستحقون الحرق، أعوذ بالله. لقد امتلأت الأقسام وغرف الحبس بكم» نظرات النزيل الجديد تشى بالغضب، اقترب الشاويش وهم بصفعه مرة ثانية على قفاه إلا أن الحبس الجديد أمسك بيد الشاويش بعنف ثم اعتدل واقفاً وقال فى غيظ: «أظن أن هذا يكفى»

بهت الشاويش واعتقد كل الموجودين أن هناك معركة ستكون حتماً بين الشاويش وهذا النزيل الجديد، إلا أن النزيل الجديد قال فى هدوء: «ممنوع الضرب فى الأقسام يا شاويش»

كاد الشاويش أن يضرب النزيل الجديد على وجهه إلا أن نظرات
النزيل الجديد الصارمة وقسماته الحادة جعلته يتراجع. خرج الشاويش
والخزى يملؤه. قال النزيل الجديد: «سأسامحك هذه المرة ولكن يجب
أن تعلم أن الضرب ممنوع في الأقسام طبقاً للقانون»
صفر المحبوسون في غرفة الحبس وصاحوا في صوت واحد:
«يسلم فمك يا أبو الرجال»

تناسى المحبوسون الحر والعرق والزحام في غرفة الحبس، واتجهت
أنظارهم نحو زميلهم الجديد. صاح أحد المحبوسين: «نورت الحبس
يا زُمْل» وصاح محبوس ثان: «الحبس للجدعان»
خرج الشاويش وصاح وهو يغلق باب الحبس: «سكوت يا أوباش. صمت
يا أولاد اللصوص ويا أبناء الزنا، ممنوع أى صوت يا حثالة المجتمع،
سأريكم من هو عشماوى جمعة. أنا عشماوى جمعة أقدم شاويش هنا.
سأريك أيها الكلب كيف تتحدث معى بهذه اللهجة يا هلفوت يا ابن..»
قاطعه النزيل الجديد وهو يصيح: «اخرس يا شاويش عشماوى.
إياك أن تسبنى ثانية»

احمر وجه الشاويش. إن النزيل الجديد يتحداه ويرفع صوته عليه،
هدأ الشاويش قليلاً. نظر الجميع بنظرات تملؤها سمات الإكبار
والإعجاب لزميلهم النزيل الجديد.

صاح جميع المحبوسين في صوت واحد: «يسلم فمك» يبدو أنهم
نسوا أنهم في الحبس ويبدو أن النزيل الجديد ألهم حماسهم. توحّد
صوتهم وتناسوا خلافاتهم. تلاشت كل الاختلافات وتلاشى صوت
السلاسل التى تقيّد أيديهم.

ضرب الشاويش باب الحبس بيده فى غيظ وغضب وقال: «اخرس
يا مسجون أنت وهو. والله لأعلمنكم الأدب يا رعاى يا قاع المجتمع.
أما أنت أيها النزيل الجديد..» قاطعه النزيل الجديد وقال فى هدوء:
«احفظ لسانك يا حاج عشماوى. والله لو لم تكن فى سن والدى لرددت
عليك اللطمة باللطمة والصفعة بالصفعة» وللمرة الثانية يبهت عشماوى
ولا يرد. وضع يده على شاربه المفتول وبرمه من جديد وقال والعروق
فى رقبته تنتفخ: «والله لأعلمنك الأدب يا كلب يا ابن الكلاب»
باغت النزيل الجديد عشماوى بكلمة فى صدره من خلف القضبان،

أصابته اللكمة الشاويش. قال النزيل الجديد: «أخرس. أنت لا تعرف من الذى يتكلم معك يا عشناوى. أخرس»
صرخ الشاويش قائلاً فى تساؤل يملؤه السخرية: «ومن الذى أكلمه يا مجرم؟ معالى وزير الداخلية !! والله لأربينك، عندما يضبط لص أو مجرم خارج عن القانون يقول «أنت لا تعرف من ذا الذى تكلمه من سيكون؟! أكيد مجرم ابن مجرمين»
أحكم الشاويش إغلاق باب الحبس ثم تراجع فى خوف واضح.
نظرات الإعجاب تتراقص فى أعين المحبوسين. هدا النزيل الجديد وجلس على الأرض. ليست فى يده أية قيود أو سلاسل مثل معظم الموجودين فى الحبس. لم يكن يتردد فى أذهانهم جميعاً سوى سؤال واحد: «ترى من هذا النزيل الجديد؟!».

الطفل العنيف

تمام الثانية عشرة ظهراً. دق جرس الفسحة. هرع كل التلاميذ إلى حوش المدرسة بعد عشاء أربع حصص متتالية منذ الصباح. لم يتخلف عن النزول سوى تلميذ واحد. جلس فى ركن بعيد فى الفصل وأخذ يبكى. أخرج من حقيبته ساندويتشاً. نظر إلى الساندويتش فى حسرة، لم يقضم منه قضمه واحدة. بللت الدموع عينيه ثم انحدرت من خديه إلى أسفل ذقنه. نظر إلى الفصل الخالى فى أسى. ولماذا ينزل إلى حوش المدرسة؟ لقد كان أبوه يأتى إلى حوش المدرسة قبل الفسحة. كان ينتظره على أحر من الجمر، كانت قطع الحلوى تملأ جيوبه كما كانت القصص والمجلات تملأ حقيبته. كان الطفل ينتزع الحقيبة من يد والده ويتفحص محتوياتها بدقة ثم يقبل والده ويحتضنه فى صدره بعد أن يثنى الأب ركبته حتى يستطيع الطفل أن يحتضنه، ثم يغمز لوالده قائلاً: «بابا أنا لا أحبك» يحتضنه الأب ويلصقه ب صدره مستمعاً إلى دقات قلبه. يقول الأب فى نفسه: «آه يا صغيرى لو تعلم كم أحبك» يغمز الأب لابنه بعينه اليسرى ويقول: «أحمد. أنا أيضاً لا أحبك»

يتسابقان ويجريان. يغضب الصغير فيضطر الأب إلى التباطؤ ليسبقه ابنه. لحظات رائعة فى دفء والده. منذ قبل أمس لم يأت الأب. مرت

مس منى على الفصل فوجدته خالياً إلا منه. سمعت نهضة الطفل، اقتربت منه وربتت على ظهره قائلة: «أحمد شريف شكرى» وقف الولد فى ثبات. احتضنته المدرسة وقبلته بعد أن مسحت على رأسه وسألته: «لم البكاء؟»

لم يرد الولد. أخذت المدرسة الطفل ونزلت به إلى حوش المدرسة. رمقته بتعجب. إنه لا يأكل ولا يشارك زملاءه فى اللعب. لم تذهب المدرسة بعيداً بل راقبت الطفل، اقتربت منه إحدى زميلاته سألتها: «هل تسابقني يا أحمد؟» «لم يرد عليها وإنما عاد إلى بكائه ووجدته. اقترب منه أحد زملائه وقال فى هدوء بعد أن لوح بالكرة: «هل يمكن أن تدخل فى هدف؟!»

كانت المدرسة تراقب. كان أحمد ماهراً فى تسديد الكرة فىرمى. لم يرد أحمد، أعاد زميله السؤال ثانية ولم يرد أحمد فى هذه المرة وإنما اكتفى بتسديد لكمة قوية إلى زميله فسال الدم من فمه. جرت المدرسة بسرعة نحوهما وأبعدت أحمد الذى اشتبك مع زميله بعراك دام. أخذت المدرسة التلميذين واتجهت إلى حجرة ناظرة المدرسة. كان أحمد يسير فى هدوء وشموخ وكان شيئاً لم يحدث. كان كل ما يشغل تفكيره والده. كان يتساءل فى نفسه: «لماذا لم تأت يا أبى؟». لن أغمز لك بعينى. سأخذه بحضنى وأقول له: «أحبك يا بابا، أنت أحسن أب فى الدنيا. أنا أقول لك أنا لا أحبك لأن جدتى تضربني وكذلك أمى تضربني إذا قلت أنا أحبك. لقد علمتني أن أغمز بعينى اليسرى وأنا أقول إنى لا أحبك»

شدت المدرسة أذن أحمد وعاتبته وأظهرت غضبها. فلتغضب الدنيا جميعاً. إن أبى لم يحضر اليوم ولا منذ يومين. وما قيمة الحياة بدونك يا أبى؟ ألست وحيداً بدونك؟ من سيهتم بى؟

اقتربت مس منى من مكتب الناظرة. قال الطفل الذى ضربه أحمد للمدرسة: «مس منى لقد سامحت أحمد. أرجوك ألا تبلغى الناظرة. لا أحب أن تضرب الناظرة أحمد. لقد سامحته»

تعجبت المدرسة من قول الطفل المضروب ولكنه نظر إلى أحمد وقال فى هدوء: «معدور يا مس منى. إن والده لم يحضر لزيارته. إنه يحب والده جداً يا مس. أنا سامحته. أرجوك»

شدت مس منى أذن أحمد وطالبته أن يعتذر لزميله فطأطأ أحمد رأسه وبكى. ربت الطفل على ظهر أحمد وطمأنه بأن والده سيأتي ولكن أحمد أخبره بأن قلبه يحدثه بأنه لن يأتي.

دق جرس المدرسة معلناً انتهاء الفسحة. أخذت مس منى بيد الطفل المضروب وذهبت للممرضة بعد أن مسحت الدم وأثر اللكمة ونظرت إلى أحمد الذى اتجه نحو الفصل والدموع تترقق فى عينيه. تم تطهير جرحه. اتجهت إلى الأخصائية الاجتماعية وطلبت منها تقريراً مفصلاً عن حالة الطفل أحمد شريف شكري. ما أن شرعت فى قراءة التقرير إلا وأعطته لزميلتها التى أجهشت فى البكاء، أية حالة هذه؟ صاحبت منى: «معقول؟! نفس حالتي. آه.. ليتنى ما سألت. لقد انفصل أبوه عن أمه. لاشك أن حياته ستكون أصعب. لاحظت الأخصائية دموع زميلتها فقالت لها مستسلمة: «هذه هى الحياة» قالت مس منى وهى تحاول إخفاء مشاعرها: «وتتكرر المأساة من جديد» قالت الأخصائية الاجتماعية فى ألم: «والأطفال دائماً الضحية» سألت مس منى الأخصائية فى تردد عن حالة أحمد الدراسية فأخبرتها أنه متميز ولكن المدرسين قلقون بشأن العنف الذى يتعامل به مع زملائه، ولما سألتها منى عن الحل فأخبرتها بضرورة استدعاء ولى الأمر. انصرفت مس منى من أمام الأخصائية الاجتماعية والدموع تكاد أن تبلبل عينيها فلم تعد قادرة على رؤية أي شئ ولم تعد قادرة على أن تواصل بقية اليوم الدراسى فكتبت إذناً للانصراف مبكراً ووقعته باسمها. قرأت النافذة الإذن بصوت مرتفع واختتمت قراءتها قائلة: «مقدمه لسيادتكم: منى عشناوى جمعة».

ابنه عنيدة

نغمات الموسيقى تتصاعد هادئة من كاسيت السيارة مع نسمات العصر. يقف محب عاشور أمام سيارته الفخمة ويستمتع إلى الموسيقى في وله. إنه يقف تحت شرفة نافذة منى. لم يستمتع بنظرة حب واحدة منها رغم أنه نظر كثيرا إلى وجهها الجميل، إنها لم تخرج حتى الآن. منذ أكثر من شهر وهو يتبعها جيئة وذهابا، لا يحصل منها سوى على جبين مقطب، يتساءل دائما عن سر عبوسها. كان يتبعها دائما بسيارته منذ خروجها من بيتها إلى أن تصل إلى محطة الأتوبيس، كان يرجو نظرة أو ابتسامة ولكنه لم يحصل حتى الآن على أى شئ، أكثر من مرة تبعها إلى المدرسة. إنها لا تنظر إليه ولا تهتم به. وقف أمام سيارته فى يأس وتساءل عم يمكن أن يفعله مع هذه الفتاة الجميلة، ترك عمله تماما وتفرغ لملاحقتها، اقترب منه رجل ضخم الجثة يرتدى جلبابا أبيض. عندما شعر أن الرجل الضخم يقترب منه دخل سيارته بسرعة وأغلق باب السيارة وأغلق زجاج نافذته. لمح محب الرجل يقترب، خرج الرجل من محله، كان محل الجزارة مكتوبا عليه بخط جميل: «جزارة الأمانة لصاحبها المعلم زين جمعة» يبدو أن هذا الرجل الضخم يمتلك المحل. لقد رأى صورته معلقة على أحد جدران المحل. اقترب الرجل الضخم من السيارة وفى يده سكين.

بدأ محب يستشعر الخطر، طرق الرجل نافذة السيارة وأشار له أن ينزل. كان يتساءل فى نفسه: «هل يستحق الحب كل هذا؟» ود لو أن منى تنظر إليه الآن من شرفتها.

تردد محب فى الخروج من السيارة، يمكنه أن يضغط على دواسة البنزين ويهرب تاركا المكان، ولكنه فضل أن ينزل ويواجه الرجل. نزل فى هدوء ومد يده للرجل الذى رمقه باستغراب، كان كل تركيز محب على السكين الكبير الذى يمسكه الرجل الضخم. قال محب فى هدوء والخوف يزين صوته بعد أن مد يده ليسلم على الرجل:

— محب عاشور، مهندس مدنى
لم تصدر أياه حركة من الرجل الضخم، ولكنه رفع صوته ونادى
أحد الصبية الذين فى محل الجزارة وأعطاه السكين ثم توجه إلى
صاحب السيارة وقال فى تفاخر:

— محسوبك زين جمعة، جزار
لم يدر محب كيف يتصرف ولكنه مد يده مرة ثانية ليسلم على
الرجل وفى هذه المرة مد الجزار يده وسلم على محب فكاد أن يخلع
يده، تساءل محب فى نفسه كيف يمكنه أن يخرج من هذا الفخ. أين
أنت يا منى؟ تعسا للحب ولسنينه.

رفع رأسه إلى أعلى الشرفة فوجدها. لقد أشرقت شمس حياته.
إنها منى. إنها تقف كالبدن المنير فى الشرفة، رملها بحب وبود
بالعين. لم يمهله زين الجزار وبادره فى تسأول يشي بالحذر عم يريده.
رفع محب رأسه خلسة فوجد منى تبتسم. آه... لقد رأته، ولقد وقعت
فى الفخ يا محب. نظر محب إلى منى ثم نظر إلى الجزار وقال:
— منطقكم حلوة جداً يا معلم زين وأشعر أن الهواء فيها يرد الروح.
بدا الغضب على وجه زين. وأمسكه من قفاه وقال:

— ولهذا تأتى إلى هنا كل يوم يا روح أمك
كان الشرر يتطاير من عيني زين. رمق محب منى بنظرة تجمع
بين الحب والاستعطاف. ضحكت منى وقالت موجهة حديثها للجزار:
— إنه يتبعنى كل يوم يا عم زين.

أحكم زين يده على خناق محب وسأله عن سبب مجيئه. تملك
الخوف محب ولم يسمع سوى صوت الصفعات على وجهه. خرج
بعض الصبية من محل الجزارة وأوسعوا محب ضرباً حتى تكوم
بحوار سيارته. سقط على الأرض والدماء تملأ وجهه. كان يبتسم وهو
يوجه نظراته إلى منى التى كانت تضحك وتقول:

— كفى يا عم زين، يبدو أنه تأدب بما فيه الكفاية. أعتقد أنه
لن يتبعنى ثانية

لم تكذب كلماتها إلا وكان والدها عشناوى جمعة يدخل الشارع
وهو يسير بخطواته العسكرية، سأل عشناوى عن الأمر فأجابه زين
بأنه كان يؤدب الافندي.

- أمسك عشاوى بمحب ثم ركله بعد أن صفعه وقال:
- اركب سيارتك واخرج من هنا ولا ترنا وجهك مرة ثانية.
- تحامل محب على نفسه ودخل سيارته ثم هرب بعيداً ولكنه قبل أن يهرب كان قد ألقى نظرة حب أخيرة على وجه منى الحبيب إلى قلبه، لم يظهر على وجه منى التأثر أو الشفقة.
- توجه عشاوى إلى محل أخيه، شربا الشاي سوياً، أبدى عشاوى غضبه وقال:
- لا أعرف ما الذى جرى فى الدنيا؟ لقد تغير كل شئ ربت زين على كتف أخيه وقال:
- ولا يهمك يا حاج عشاوى، ليتك سمعت كلامى من البداية وعملت معى فى محل الجزارة بدلاً من العمل فى الشرطة.
- انتهى عشاوى من شرب الشاي وقال فى غيظ وقرق:
- يبدو أنى كنت على خطأ كبير. لقد تغيرت الدنيا. الناس لم تعد تخاف من الشرطة. ما الذى حدث فى الدنيا يا عالم؟ سكت عشاوى. هل يخبر زين بما حدث معه فى الحبس، لم يكن يجرو أحد أن يرفع صوته أو يحادثه بمثل هذه الطريقة. ماذا حدث؟ أكان على خطأ عندما فضل العمل فى الشرطة على العمل مع أخيه. يتقاضى جنيهاً معدودة آخر كل شهر، بينما زين فتح الله عليه من كل الخيرات.
- تنحى زين وقال بعد أن رشف آخر قطرات فى كوب الشاي:
- ماذا فعلت فى موضوعنا يا حاج عشاوى؟
- أى موضوع؟
- موضوع مبروك يا عشاوى.
- والله أنا قلت لك أكثر من مائة مرة.
- وأين تأثيرك يا حاج عشاوى؟
- منى ليست صغيرة. إنها عنيدة. عنيدة جداً.
- وهل ستظل هكذا بدون زواج؟
- والله هذه حياتها ولها الخيار.
- ابنى مبروك ذراعى اليمين فى المحل. إنه رجل كسيب. إنه يتلاعب بالآلاف.

- يا حاج زين أنت أخی الأصغر وأنا أحبك، ولكن البنت لا تريد أن تتزوجه.
- إذا تريد أن تتزوج غير ابن عمها؟
- لا والله. إنها ترفض فكرة الزواج تماماً وتقول أنها ستواصل دراستها.
- لقد انتهت من دراستها في الجامعة.
- يا سيدى إنها تريد الانتهاء من الماجستير والدكتوراه. تريد أن تصبح دكتورة.
- على كل حال ابني مبروك تتمناه زينة البنات.
- سكت عشماوى عن الكلام تماماً، إن ابنته عنيدة جداً. إنها لا تريد مبروك ولا غير مبروك. تساءل فى نفسه قائلاً: «وما آخر عنادها؟ إنها تصر على عدم الزواج. تقول إنها مضربة. وما آخر هذا العناد وهذا الإضراب؟ ألم أقل إن الدنيا قد تغيرت؟ لقد تخطت العشرين بأكثر من سبع سنوات. يا رب ماذا أفعل؟ » .
- ترك عشماوى محل أخيه ثم اتجه إلى بيته فى حين دخلت منى من الشرفة لتفتح له الباب وعلى وجهها ابتسامة عريضة وأمل فى أن يكف محب عن مطاردتها.

امراة نادمة

- طرقات متتالية على الباب. قالت المرأة العجوز فى نفسها: «معقول يا أمينة. كل هذا النوم؟! أيعقل أن تكون قد نسيت موعد عادل؟ الساعة تقترب من السادسة. كيف ستقابله؟ » .
- واصلت المرأة طرقها على الباب، وتواصل السكون من داخل الحجرة. أتى الطفل أحمد وطرق الباب مع جدته وصاح متسائلاً:
- ماما. ماما. ألن تقرئى لى القصة التى أحضرها بابا الأسبوع الماضى؟
- بان الغضب على وجه المرأة العجوز وصرخت فى وجهه قائلة:
- بلا بابا بلا زفت
- أبعد أحمد يد جدته وقال فى عناد وعيناه تتسعان فى دهشة:
- بابا زفت؟ لا، بابا حلو
- ليس لدى المرأة وقت للدخول فى حوار عقيم مع الطفل، حتى

وإن كان الطفل يحبه فليحبّه إنه أبوه. آه، الحية تخلف الثعبان. أكيد أن والده مالأ قلبه حباً. لم لا؟ ألم يستطع شريف أن ينتزع ابنتها أمينة منها؟ لقد تزوجها رغماً عنها، ولكنها استطاعت أن تنهى هذا الزواج. انتهى للأبد. إنها ليست متأكدة تماماً من أنها ستستريح إلى عادل، ولكنه سيخلصها من إحساسها بالعجز وأن شريف شكري قد انتصر عليها عندما تزوج أمينة رغماً عنها منذ عشر سنوات ولعل هذا الطفل أكبر دليل على انتصاره.

تواصل المرأة طرقاتها على الباب ويتابع أحمد معها الطرقات ولكن لا صوت يأتي من خلف الباب. اعتري الخوف المرأة. صاحت المرأة: - أمينة يا بنتي. أرجوك ردى على

كانت أمينة تتقلب في فراشها والدموع تبلل عينيها. معقول؟! لا يمكن أن تكون قامت بهذه الفعلة البشعة. ماذا تفعل بطفلك؟ أيعقل أن تجعل العار وصمة دائمة في جبين ابنها؟ سيصير أبوه خريج السجون. مسحت دمعاتها ونظرت إلى صورتها في المرأة. بصقت على وجهها. أمسكت إحدى الزجاجات ثم بصقت على وجهها مرة ثانية وبأكبر قوة لديها رمت الزجاجاة في المرأة فتحطمت وتناثر الزجاج حولها. لم تعد ترى صورتها. ثم رجعت وارتمت على فراشها. طرقات أمها وأحمد على الباب تتزايد.

صرخت المرأة العجوز في الطفل وأمرته أن ينادي جده. جرى الطفل من أمامها، حاولت المرأة بكل ثقلها أن تفتح الباب ولكنها لم تستطع. لحظات من القلق والحيرة تملك المرأة وفجأة رن جرس الباب. تركت المرأة باب حجرة ابنتها ونظرت من العين السحرية فإذا به شخص متأنق. خمنت أنه عادل. إنه في قمة التألق، احتارت المرأة. ذهبت لزوجها فوجدته يقرأ القصة مع حفيده. صرخت المرأة في الطفل وطلبت منه أن ينادي الجد. تلثم الطفل، خلع الجد نظارته وقال :

- أفزعت الطفل يا نقيسة. بهدوء. إهدئي.

صرخت المرأة ثانية وقالت:

- دائماً يدك في الماء البارد.

تحاشى الجد النظر إليها. لحظة صمت مزقها صوت الجرس.

أشارت المرأة بيدها للباب ليفتحه الجد. قام الرجل فى تكاسل واتجه نحو باب الشقة. تذكرت نفيسة أنها منذ وقت طويل وهى تحاول أن توقظ ابنتها ولكنها لم تفلح. أمسكت زوجها بعنف وقالت مستنكرة:

— يا أخى ارحمنى. هل ستفتح له الباب بهذا الجلباب القذر؟

لوى الرجل رأسه وسألها ساخرا لماذا لم تغسله. اتجه نحو الباب فى بطء وكأنه يتعمد أن يغيظها، ثم فتح الباب فى تكاسل. دخل الضيف الذي تبدو عليه القرف. نظر إلى الشقة المتواضعة وكأنها لا تعجبه. رمقت نفيسة عادل وانبهرت لوسامته ثم اتجهت نحوه وبالغت فى الترحيب به: «أهلاً وسهلاً. نورتنا. شرفتنا يا أستاذ عادل» اصطحب الرجل الضيف وأدخله على أحد كراسى الصالون. بدا وكأن المكان لا يعجب الضيف. تظاهر أنه يسمح الكرسي بظاهر يده. نظر إلى يده ف شعر أنها متسخة. وضع يده فى جيبه ليخرج منديلاً. اتجه إلى الرجل المضيف وقال:

— آسف يا عمى. هل يمكن أن تأتى لى بمنديل لأنظف هذه الأوساخ؟! بدا الغضب على وجه نفيسة. لقد تذكرت أول مرة دخل شريف شقتهم. نعم لقد كان هذا الكرسي بالضبط. لقد جلس فى تواضع ثم شكر زوجها على حسن استقباله وقبل يده.

طرقت نفيسة الباب على ابنتها وقالت فى صوت حاولت أن يبدو والفرح يغلفه إن عادل قد أتى. الضيف ينظر إلى السقف بقرف ثم ينظر إلى الحيطان بنفس للاشمئزاز. سأل الضيف الجد الذى يرتدى الجلباب أمامه بشكل طفولي:

— الساعة السادسة ودقيقتان. أنا أحب المواعيد المضبوطة؟

نظر إليه الجد وقال فى برود:

— أنت مضبوط تماماً، لا مؤاخذه أدخل إلى أحمد بعد إذنك.

قال الضيف:

— آه.. أحمد.. ابن طليقها.. آه. كلمتني عنه.

قام جد أحمد بعد أن رمقه بنظرة احتقار وقرف وقال:

— آه... ابن طليقها يا أستاذ.

توقف الجد قليلاً ثم قال فى تساؤل يشوبه استهزاء:

— حضرتك اسمك عادل؟

- لم يرد الضيف وواصل الجد استهزاءه بنظراته وقال له فى سخرية :
- وكانوا يدللونك وأنت صغير ويطلقون عليك عدولة
قام الضيف مغتاضاً بعد أن دخل الجد غرفة أحمد وتركه وحيداً.
صرخ الضيف وقال :
- أمينة... أين أنت يا أمينة؟ ألا يهتم بى أحد فى هذا البيت؟!
أتت نفيسة بسرعة إلى الصالة وقالت :
- أهلاً وسهلاً.. شرفتنا يا أستاذ عادل يا ألف مرحباً
جلست نفيسة على أحد الكراسى وأشارت للضيف أن يجلس.
جلس وعلامات القرف والاشمئزاز تميز وجهه.
لقد حكى أمينة لأُمها عن عادل. تنحنحت نفيسة وقالت فى
تساؤل برئ يشي بجهل صاحبتة :
- وحضرتك وظيفتك حلوة؟
بدا عليه الغضب وقال :
- أنا قلت لأُمينة ألا تتكلم فى هذا الموضوع أبداً
قطبت الأم جبينها وقالت فى نفسها : «إنه وسيم ووجهه مثل البدر.
يبدو أنه فى مركز حساس. أكيد وظيفته محترمة. لا يمكن أن تقل عن
مدير تحرير. لا يمكن أن تقبل أمينة أحداً أقل من زوجها السابق» .
كانت أمينة تعاتب نفسها على فراشها. كيف تم إغراؤها بتلفيق
هذه التهمة لزوجها السابق. قامت والندم يملؤها. اتجهت نحو الباب.
خرجت فقالت والدتها :
- الله... شوف عروستك يا أستاذ عادل. مثل القمر. وحضرتك أيضاً
مثل القمر.
اتجهت أمينة نحو الضيف وصفعته على وجهه ثم بصقت فى
وجهه وقالت فى غضب :
- اخرج يا حيوان.
خرج الضيف مذعوراً والأم فى حالة تعجب بينما كان الجد وأحمد
يضحكان .

النزيل الجديد فى مشاجرة جديدة

يمر الوقت فى الحبس ببطء شديد. جلس شريف على الأرض فى إعياء وإحباط. إنه سعيد لأنه لقن الشاويش درساً مهماً. إنه مجرد اتهام. تذكر كيف جاء رجالان بالأمس وألقيا القبض عليه. كان فى عمله بالجريدة، إنه يغرق نفسه بالعمل لينسى همومه الشخصية، ابتسم لنفسه عندما تذكر ابنه أحمد. النسمة الوحيدة فى جحيم حياته. الزهرة البريئة التى أصرت حماته نفيصة على قطفها من بستان حياته. كما حكى له سكرتيرته نيفين فإن رجلين يرتديان ملابس غير عسكرية دخلا عليها وسألاها فى هدوء عنه بعد أن نظرا إلى صورة رئيس الجمهورية والتي تبدو فى مدخل الحجره فوقها تماماً. تملك الفزع السكرتيرة. نظرت إلى حيث محل صورة الرئيس فوق رأسها، وقفت وقالت فى فزع بعد أن نظرت إليهما فى خوف: «من أنتما؟» لم يرد عليهما أحد الرجلين أو كلاهما. وقفت السكرتيرة وسألتهما إن كان لديهما موعد مقابلة فتوجه الرجلان نحو السكرتيرة وأقعدها أحدهما بعنف وقال: «نحن نسأل ولا أحد يسألنا. فاهمة؟» ألجمت الدهشة السكرتيرة وأحاط بها الذهول حيث دخل الرجلان تجاه غرفة مدير التحرير. قامت السكرتيرة وحاولت منع الرجلين وقالت فى رجاء: «انتظرا حتى أبلغه» لم يتراجع الرجلان، وواصلوا الاتجاه نحو مكتب شريف. أسرع المرأة خلف الرجلين فقام أحدهما بصفعها بعنف وقال بغضب بعد أن دفعها: «لا تتدخل فى ما لا يعينك» سمع شريف الضجة بالخارج ففتح الباب فوجد السكرتيرة تبكى. اتجه نحوها وسألها عن الأمر.

قال أحد الرجلين لشريف متسائلاً فى غلظة وهو يمعن النظر فى صورة الرئيس المعلقة فوق رأسه تماماً وصوته يشي بالجدية والاتهام: «أنت شريف شكرى؟» أوما برأسه موافقاً فقال له: «اتبعنا فى صمت بلا فضائح» سألهما عن هويتهما فقالا بهدوء وأحدهما يضع أصبعه السبابة على فمه: «لو سمحت اتبعنا فى هدوء» أخبرهما بأنه

ليس بمجرم، فطلبنا منه أن يقول هذا الكلام فى قسم الشرطة. واصلت السكرتيرة بكاءها فى فزع وهي ترى رئيسها يتبع الرجلين فى صمت وشجاعة بعد أن فحص بطاقة أحد الرجلين. نظرت السكرتيرة إلى صورة الرئيس فوق رأسها ثم وقفت وتساءلت فى غضب قائلة وهي توجه نظراتها نحو الصورة: «هل يعجبك هذا؟» لم يستطيع نزلاء الحبس كتم إعجابهم بشرفى شكرى النزيل الجديد معهما فى الحبس منذ الأمس. توجه رجل ضخم الجثة تجاه شريف وقال: «أسمح لى بسيجارة؟» أخرج شريف سيجارة وقدمها للرجل الضخم، وضع الرجل الضخم السيجارة خلف أذنه. كان الرجل الضخم مكبلاً بالسلاسل مع نزيل آخر يتسم بالنحافة كما كان هذا النحيف غاية فى القصر. تحرك الرجل القصير تجاه شريف وقال فى تساؤل يملؤه شئ من رجاء: «أعطى سيد المعلمين منصور أبو دومة سيجارة واحدة؟ يا للمصيبة! ما الذى حدث فى الدنيا؟» ثم وجه كلامه للرجل الضخم وقال: «معدرة يا سيد المعلمين. إن الأفندى لا يعرفك، ومن لا يعرفك يجهلك» أغمض شريف عينيه وشرع يفكر فى ابنه الصغير أحمد. أكيد أن نفيسة الآن سعيدة. لقد خربت بيتيه ويتمت طفله. داخ شريف وراء المحامين منذ أكثر من سنة محاولاً أن يأخذ ابنه فى حضانتة ولم يفلح.

توجه الحبيب النحيف المربوط فى السلسلة مع الرجل الضخم نحو شريف وقال فى رجاء: «أرجوك يا سيدنا الأفندى لا تغضب منصور باشا أبو دومة وإلا خربت الدنيا» تساءل شريف فى براءة وكيف لا يغضبه فطلب منه النحيف أن يعطى علبة السجائر كلها لمنصور. هز شريف رأسه ساخراً وأخبره أن الرجل طلب سيجارة واحدة فقال النحيف: «هذا من حُسن أصله، إنه أقدم من بالحبس وله علينا جميعاً السمع والطاعة» عرف شريف أن اسم هذا الحبيب النحيف عوضين الطويل. ضحك شريف حتى كاد أن يستلقى من الضحك فلقد كان عوضين قصيراً جداً. صاح شريف فى عوضين قائلاً فى تساؤل ساخر: «أتأخذ سيجارة وتدعنى فى حالى؟» سكوت عوضين برهة ثم قال: «يا رب استر يبدو أن اليوم لن يمر على خير يا أستاذ. الله يكرمك. أنت رجل محترم ولست محلاً للبلاء. أعط منصور علبة السجائر كلها كاملة و بدون مشاكل»

ملاً الغضب وجهه شريف شكرى وصاح: «يبدو أن المشاكل قد فرضت نفسها» وبأقوى عزم لديه لكم عوضين فوقع على الأرض جاراً معه منصور أبو دومة الضخم. صفق المحبوسون وصفروا. توجه أحد المحبوسين إلى شكرى وقال: «سلمت يمينك. منصور رجل ظالم. أخيراً جاء من يريبه.»

ابتسم منصور أبو دومة وقال فى صياح عال: «أنا أقدم واحد فى الحبس يا حوش. أيا تى هذا المفصوص ويقلبكم على؟ لا.. لن أسكت. أنا منصور أبو دومة. أنا الذى درت على سجون مصر كلها سجننا سجننا. والله لأرينكم»

شرع الرجل يضرب يمينه ويسره ويساعده عوضين الطويل. كانا يمثلان ثنائياً بارعاً حتى خضع كل من بالحبس تحت سيطرتهم، فوقع من وقع وشجت رأس من شجت وتناثرت الدماء فى كل مكان. سكن كل المحبوسين إلا شريف.

اتجه منصور وعوضين تجاه شريف وحاولا أن يوقعا به إلا أنه خفض رأسه فانكفأ منصور على وجهه واصطدم بالحائط كما وقع معه عوضين ثم برك شريف عليهما وأوسع منصور صفعا على وجهه. صفر رجال الحبس وصفقوا جميعاً لهذا النصر الذى أحرزه النزيل الجديد على منصور أبو دومة وعوضين الطويل. تراجع منصور وقال مخاطباً كل من فى الحبس: «إياكم أن تعتقدوا أنه قد انتصر على. إنه طليق غير مكبل بالسلاسل مثلى. إياك أن تعتقد أنك انتصرت. أه يا زمل. آه لو قابلتك خارج هذا الحبس» لم يبد التأثر على وجه شريف ولكنه صاح بقوة فى منصور: «هات سيجارتى يا منصور» قدم الرجل الضخم السيجارة لشريف فى ذلة ومسكنة، ثم عاد شريف إلى تذكر مأساته ودموع ابنه التى كان دائماً يراها عندما كان يودعه عندما يغادر المدرسة فيمسح دمعاته قائلاً: «ابنى رجل لا يبكى. ابنى رجل.. لقد خلفت رجلاً شجاعاً اسمه أحمد شريف شكرى» ثم يغمز له بعينه اليسرى ويضحك وقلبه يدمى ويقول: «أحمد... مع السلامة... أنا لا أحبك».

العاشق يعترف

صارح محب عاشور آلامه وقاد السيارة وهو فى قمة التعب. ابتعد عن منى وقلبه الآن منها أكثر قرباً.. يا لجمالها الرائع وحسنها الفتان!! أية فتاة هذه؟! لقد قلبت حياته. أوقف السيارة. أخرج تليفونه المحمول. لقد صورها خلصة بجهازه المحمول. إن جمالها يصطبغ بمسحة حزن وكثير قسوة وبعض ألوان الكراهية للعالم كلها. لمح كل هذه الأحاسيس عندما نظر إليها ولاحظ ابتسامتها التعسة التي تكسو وجهها، آه لو يستطيع أن يحدثها.

نزل من سيارته منهك القوى. صعد إلى شقته وهو يستند على الحيطان ودرجات السلم. فتحت له أمه الباب وما أن فوجئت بحالته إلا وعلا المكان صواتها. وضع يده على فمها وقال:

— كفانا فضايح.. الحمد لله. أنا بخير

بللت الأم الشاش وأحضرت المعقمات وضمت جراح وجهه وسألته فى لهفة عم حدث فقال:

— لا شئ يا أمى.

— لا تخف عن أمك شيئاً. من ضربك؟ هل مشيت اليوم في مظاهرة جديدة؟ يا بني البلد لن تتغير. لا فائدة.

— أنا بخير يا أمى. الحمد لله.

— من فعل بك هذا يا ضناى؟ هل أخذوك إلي الحبس؟ ألم نقل كفانا سياسة؟

سكت محب برهة ثم تأوه من شدة الألم. أمسكت الأم بذراعه فإذا بها تسمع طقطقة العظام. قالت فى فزع:

— يبدو أن ذراعك قد كسر. ما آخر المعارضة؟ ماذا ستفعل الأحزاب؟ يا بني إنهم يحكموننا بالحديد والنار.

ثم نظرت الأم لصورة الرئيس في التلفزيون وأغلقتة. قالت فى فزع مواصلة كلامها:

— يا للمصيبة!! أيعجبك أن أتكلم في السياسة؟ للحيطان آذان. نحن نسير

بجوار الحائط. لا نحن نسير بداخل الحائط. يا بني أنت الوحيد الذي خرجت بك من الدنيا. أتريد لقلبي أن يموت؟ لا أتحمل أن أفقدك. ألم أقل لك ألف مرة ابتعد عن السياسة؟ أتريد أن تقتلني؟

— بسيطة يا ماما الحمد لله. الموضوع لا دخل له بالسياسة.
— يا بني أرح قلب أمك
— اطمئني يا أمي
— لا. سأتصل بخالك. يجب أن تذهب إلى الطبيب. ذراعك مكسور.
— أنا متأكدة.

— لا يا أمي ذراعي ليس مكسورا. قلبي مكسور لا ذراعي.
— ليس هذا وقت الكلام. سأتصل بخالك.
— لا يا أمي.. أرجوك ألا تزعجيه.
— هيا إذا إلى الطبيب.

قادت الأم السيارة وتم تجبير الذراع. دخلت الأم غرفة ابنها فسمعتة ينشد :

في اليسر والإعسار أذكرها في الحل والترحال أهواها
ألوذ بها أملا في كل ضائقة وفي بحار القلب مأواها
جحيم عمرى دون صحبتها وكل نعيم زال دون لقيها

احتضنت الأم ابنها وطلبت منه أن يحكي لها . صمتت محب. إن أمه تراه يهمل في عمله منذ فترة. خرجت أمه من حجرته وهي تبكي. إنه ابنها الوحيد. لقد كان في الرابعة من عمره عندما مات أبوه. رمقت الأم صورة والد محب. إنه صورة طبق الأصل من أبيه الذي رحل منذ سنوات وتركها وحيدة تصارع الحياة بدونه وترك لها زهرة عمرها ونور شبابها. محب ولدها الوحيد. صدق المثل القائل «من خلف لم يمت نفس العنين، نفس الشعر، نفس الرومانسية». ترملت أمه وهي في الخامسة والعشرين من عمرها. كرسَتْ حياتها له. كان يهوى الشعر والأدب مثل أبيه ولكنها أرغمته على دراسة الهندسة. لقد بنت كل لبنة في حياته حتي صار شابا يافعا تهوى العيون النظر إليه. صحيح أنه يحرق قلبها ويدمي فؤادها التحاقه بهذا الحزب المعارض. ماذا يا ولدي؟ أتقتل أمك. ماذا ستفعل. أدار محب التلفزيون. وجد الرئيس يفتتح أحد المشروعات. قام محب وأغلق التلفزيون بعد أن بصق علي التلفزيون وقال غاضبا:

- كاذبون ومنافقون. الناس تموت جوعاً ولا فائدة. البلد كلها تأخذ صفر.
- ألا يكفي صفر المونديال؟ كلنا صفر. كفانا. كفاكم كذباً. أعوذ بالله.
- مسحت الأم دمعاتها ودخلت في إباء وعزة إلى ابنها وقالت له متسائلة:
- أما أن لك أن تحكى لأمك ما حدث؟ يا بني ليس لنا في السياسة.
- أموت واعرف من الذي جرك إلي معترك السياسة. يا بني ماذا حدث؟ أتريد أن تحرق قلب أمك عليك؟
- لا شيء يا أمي. والله يا ماما الموضوع كله لا يرتبط بالسياسة. كل شيء ضاع. غدا يصير جمال الرئيس. ستضيع البلد وسيضيع كل شيء.
- كل الأمور لا تسير في اتجاهها السليم. اه يا ذراعي.
- كل ما أصابك وتقول لا شيء؟
- طيش شباب يا أمي.
- أتعنى أنك تشاجرت؟ لماذا يا ضناي؟! أتريد أن تموت أمك، إذا وقع لك أي مكروه. اعترف لأمك. ماذا حدث؟ أتقصد أن الموضوع لا علاقة له بالسياسة ولا بأمن الدولة؟
- أقسم لك يا أمي أن الموضوع لا دخل له بالسياسة ولا بأمن الدولة
- إذا أنت في أمان يا محب يا ولدي. أرجوك احك لي كل شيء.
- احتضنته أمه فشرع يحكى لها قصة غرامه بمنى وكيف أنه كان يتبعها كالمجنون. حكى لها عن العلقة الساخنة التي تلقاها، أخبرته أن هذه الفتاة بلا قلب، تذكرت الأم أمراً آخر فقالت لمحبه:
- أنت تحب منى ونوال ابنة خالك تحبك. ماذا نفعل إذا؟
- ماما.. هذه هي الحياة.
- أتقصد أننا لا نحب من يحبنا؟
- ماما.. إنها ابنة خالي ليس إلا
- الفتاة مجنونة بك. لقد كانت رفيقتك في المظاهرات
- وأنا مجنون بمنى. لقد كفرت بالمظاهرات. لا فائدة.
- نوال وأبوها مدعوان للغداء معنا غداً
- ليشرفا
- يا بني...
- قاطعها محب قائلاً:
- ما رأيك في أن نذهب لخطبة منى؟ لقد عرفت مكان بيتها.

- يا بنى الزواج نسب ليس مجرد فتاة أعجبتك فتتزوجها. الحمد لله أن الموضوع بعيد عن السياسة
- ماما.. كرهت السياسة. لا أمل. لن تغرق مصر ولن تتوقف. لا فائدة من كل المظاهرات. لقد استقلت من الحزب. الدنيا لن تتوقف ولكن ستتوقف حياتي بدونها. أحب مني.
- يا بنى نحن لا نعرف ظروفها. ماذا تفعل لو كانت تحب غيرك؟
- قلبي يحدثنى بأن أحدا لا يشغل قلبها. إنها تسير فى الشارع كأبيها الشاويش. إنها متجهمة لا تضحك أبداً. ماما لقد تغلغل حبها فى نفسى. جعلت منى شاعراً. سأترك السياسة من أجلها. أبوها يعمل فى الشرطة. لن أخسر حبي بسبب السياسة. قد أنضم للحزب الوطنى إن كانت تنتمى له.
- ولكنها لا تود السماع إلى شعرك. أنت لم تتكلم معها حتي يا ولدي. أخشى أن تكون واهما أو حالما بسراب حب. علي كل أكبر فائدة ستحققها هذه الفتاة أن تبعذك عن السياسة.
- بلا سياسة بلا وجع دماغ. لا فائدة. أنا ابتعدت عن السياسة بسببك. لأنني أحبك يا أمي وأخشى عليك. أخشى أن يصيبك أي مكروه.
- الحمد لله أنك قد عقلت وأن ربنا هداك.
- لا. الحمد لله أنني جننت فالحب جنون. ركبني شيطان الحب والضلال. اسمعى يا أمي قولي :
- أراها فى كل عين قمرين وهوها بكل ظلام بدرين
- أسير إليها منقادا فى نجدين شر يسبقنى إليها بكفنين
- حب يرجعني بصفر يدين وخير يهواها معصوب العينين
- أخذت أمه منه عنوان مدرستها وعزمت الذهاب إليها وطلبت من محب أن يركز فى عمله وأن يترك هذا الأمر لها، فالنساء يحسن التصرف فى هذه الأمور، اقترب من أمه وقبلها وأعطاه عنوان بيتها وقال فى هيام: طار الفؤاد لدارها واستقر هناك سجن الفؤاد بحسنها وما استطاع فكاكا
- لفظ الحياة بدونها يا قلب ما أجفاك علا واستقر بابها يا قلب ما أعلاك
- ربتت الأم على ظهر ابنها وقالت :
- يبدو أننى أخطأت عندما أجيرتك على دراسة الهندسة
- أنت على صواب دوما يا أمي. وإذا كنت ترين أنك أخطأت

فيمكنك أن تصلحى خطأك.

— سأفعل ما تريد . نم يا عزيزى قريبر العين حتى أرى هذه التى قلبت كيائك
أطفأت الأم النور وخرجت. غاب محب فى نوم عميق. رن هاتف
الأم. إنها نوال ابنة أخيها. تعجبت الأم. ستسأل نوال عن محب.
يا لها من حياة !! لم ترد الأم. دخلت غرفتها وغابت فى نوم
عميق لعلها تحلم بصورة منى أو تحادثها فى المنام إلى أن تلاقيها.
أما محب فلقد كان يحادث منى فى أحلامه لأنه لم يستطع أن
يحادثها فى الواقع. فليحلم بها ولينتظر ما ستسفر عنه جولات أمه.

أحمد شريف يضحك

لأول مرة منذ فترة طويلة يلمح صبرى المتولى جد أحمد حفيده
يضحك. لقد صفعت أمه الضيف غريب الأطوار على وجهه وطرده.
ضحك الجد والحفيد معاً. ضحك الجد لأن الضيف كان يشعر بالقرف
والاشمئزاز من كل شئ فى البيت، وضحك أحمد لأنه شعر بنفور
وكراهية شديدة لهذا الضيف وإن كان لا يدرى ما سببها.

سعد الجد بضحك أحمد. أخذه بحضنه، كان يحدثه بنظرات لم
يفهمها الحفيد: «لا زلت صغيراً يا ولدى على هذا الهَم، لقد كانت
قسماتك مضيئة قبل انفصال والديك، ترى ما الذنب الذى جنيتَه يا
صغيرى؟ أين الابتسامة التى لم تكن تفارق وجهك الصبوح البرئ؟ لماذا
هذا التجهم فى وجهك وأنت صبى لم تبلغ العاشرة بعد؟ لماذا هذه
الصرامة التى تشين ملامحك فى هذه السن المبكرة؟ هل آن لك الآن أن
تستريحى يا نفيسة؟ ليتنى طلقتك أولاً قبل أن يطلق شريف ابنتى».
قرأت نفيسة بعضاً مما يجول بخاطر زوجها. كانت أمينة قد
جلست على نفس الكرسي الذى لم يعجب الضيف، ووضعت وجهها
فى كفيها فى حين غلب الذهول على نفيسة فجلست ساكنة، فى
حين كان أحمد والجد يضحكان سوياً.

توجهت نفيسة إلى أمينة ابنتها وطلبت منها أن تنظر إليها وأن
تحدثها. رفعت أمينة وجهها إلى أمها، وفى هذه اللحظة دخل
أحمد إلى الصالون وسأل جدته متى العشاء؟ كانت الجدة مشغولة
بأمينة ابنتها. لم ترد على أمها، فكرر أحمد سؤاله. نهزته الجدة

ودفعته بعيداً وقالت: «أنت مفجوع مثل أبيك» ابتعد الطفل ثم دخل حجرة جده الذى احتضنه وأسر إليه أن يذهب إلى جدته ويقول لها «أبى ليس مفجوعاً». نفذ أحمد ما أسر به الجد، فإذا بنفيسة تصفع الطفل وتنهره وتسبه قائلة: «ابتعد الآن يا ابن الكلب». منذ أسبوعين تقريباً وفى إحدى زيارات والده الحبيب كان قد ذكر له أن جدته وأمه يسبانه دائماً وأن «ابن الكلب» صارت كلمة شائعة متداولة على لسانهما. احتضنه أبوه وقال له:

- وما رأيك يا أحمد؟
- ابن الكلب ليست سباً.
- لا يا أحمد. لا تدع أحداً يقول لك يا ابن الكلب
- أهى كلمة فيها عيب؟
- طبعاً.. أحمد شريف ابني ليس كلباً.
- ماما تقول يا ابن الكلب
- يا عبيط. افهم جيداً يا حبيبي. تقول مامتك يا ابن الكلب. من أبوك؟
- أنت بابا
- يعنى أنا كلب.. والكلب ينجب كلباً أليس كذلك.
- تقصد إنها تشتمنى وتعنى أننى كلب؟
- فهمت يا حبيبي؟
- فهمت يا بابا...
- نظر أحمد إلى أبيه فى حب وود وقال وهو يمسك بيديه:
- بابا.. إذا كنت كلباً فأمى وجدتى يسبان نفسيهما. فأم الكلب كلبة وجدة الكلب كلبة.
- عيب يا أحمد
- ليس عيباً.. إذا أمى كلبة وجدتى كلبة
- عيب يا حبيبي.. أحمد ابني رجل محترم لا يسب أحداً. لا تقل على مامتك كلبة.

قام أبوه واحتضنه وودعه بعد أن وضع بجيبه كيساً من الحلوى وبضعة جنيهات، وعندما عاد أحمد إلى البيت قلد أحمد صوت الكلب. جاءته أمه ونهرته وكذا جدته. أصر أحمد على محاولة النباح مرات عديدة إلا أن أمه نهرته من جديد. سبته جدته وقالت فى غيظ:

- اسكت يا ابن الكلب
- توجه إلى جدته فى عنف وعض يدها فقالت له فى غضب :
- يا ابن العضاض
- رمى الجد حفيده بنظرة حب. قال أحمد لجدته فى تساؤل :
- اختارى أمراً واحداً. هل أنا ابن الكلب أم ابن العضاض؟
- أخذه جده فى حضنه وكان سعيداً به. كادت أمينة أن تضحك. قال أحمد :
- بابا يقول لا تجعل أحداً يسبك ويقول لك يا ابن الكلب.
- ثم توجه إلى جده متسائلاً فى استنكار :
- هل لى ذيل يا جدى؟
- قبّل الجد حفيده وقال :
- لا.. أحمد رجل كبير. أحمد شريف إنسان.
- رفع الطفل رأسه فى شموخ وقال :
- إذا لن يقول أحد لى يا ابن الكلب بعد اليوم
- نفس طريقة أبيه فى الحديث والحوار. كانت نفيسة تغلى من
- الغيظ. كتمت غيظها وقالت موجهة حديثها للجد :
- آه.. الحية تخلف الثعبان.
- قبلت أمينة ابنها وقالت :
- أنت رجل كبير.
- نظر أحمد لجدته فى غيظ وقال :
- انتهينا من موضوع ابن الكلب ودخلنا فى موضوع الحية
- والثعبان. أحمد شريف إنسان. أحمد شريف رجل كبير.
- احتضنت أمينة ابنها فى حب ظاهر. دفنت وجه ابنها فى
- صدرها. إنه يشبه والده. نفس نظراته ونفس طريقة حديثه. انتزعت
- نفيسة الطفل من حضن أمه وأمرته أن يذهب إلى حجرة جده، وب نظرة
- آمرة رمقت زوجها فأخذ الولد وانطلقا إلى حجرة الجد. كانت تريد
- أن تستفسر من ابنتها عن سبب صفعها للضيف الغريب. لم يمهلها
- أحمد ولكنه قال ثانية فى رجاء :
- متى نتناول العشاء؟ أنا جوعان
- استشاطت نفيسة غضباً وقالت للولد فى غيظ :
- جدتك تكلم أمك

كرر أحمد سؤاله وأكد أنه جوعان. دفعته الجدة في صدره في غيظ وغضب وقالت:

— اسكت يا حمار يا ابن الحمار
وقع أحمد على الأرض ولكنه لم يبك. نظر إلى جده وغمز له بعينه اليسرى وقال:

— رجعنا مرة ثانية لموضوع الحيوانات.

وجه حديثه لجده في تحد:

— لست حماراً وليس أبى حماراً

ثم وجه حديثه لجده متسائلاً:

— جدى هل لى ذيل؟

رد جده فى تفاخر وسعادة بالطفل:

— لا

— هل لى آذان طويلة؟

— لا

— إذا لست حماراً ولست ابن حمار. إن كنت حماراً فأنا أعيش مع

الحمير. إن جدتي تشتمنا جميعاً

أخذت أمينة طفلها بحضنها وقالت فى نفسها: «مثل أبيه.

حتى فى عناده. حتى فى ضحكه. مثله فى كل شئ» أخذت بيده

واتجهت إلى المطبخ وبعد أن تناول عشاءه. كان يتجه إلى غرفة جده

حيث ينام دائماً فى حضنه، أمرته أمه أن يعتذر لماما نفيسة.

لم يكن الطفل ليفهم معنى الخوف، ومن أى شئ يخاف؟ أليس

لديه جد حان وأم محبة؟ لم يكن يحب جدته إلا أنه يثق أنها لا

تكرهه على الأقل. ألا تشجعه نظرات أبيه على عدم الخوف من

المستقبل؟ إن ابتسامات أبيه تمنحه الثقة والأمان وحتى إذا لم يكن

معه. أبوه رجل مهم جداً ويحترمه الجميع. جده يقول له إن والده

سيد الناس جميعاً ولولا جدته ما طلق والده أمه.

توجه أحمد إلى جدته. نظر إليها ثم نظر إلى أمه التى شجعتة

بنظراتها على أن يعتذر لجده. فتح أحمد فمه لينطق بالاعتذار ولكنه

تراجع. نظر إلى جده وغمز له بعينه اليسرى وقال موجهاً كلامه لجده:

— الكلب لا يعتذر والحمار لا يعتذر

- أخذ أحمد فى محاولاته المبدعة ليقلد نباح الكلب ونهيق الحمار.
قبلته أمه وقالت :
- أحمد شريف رجل كبير ومحترم. لا تقلد هذه الأصوات ثانية.
أنت إنسان. أنت رجل كبير
ثم أخذته فى حضنها. شعر أحمد بالراحة. قبل أمه قبل الدخول
لحجرة الجد ثم سأل أمه سؤالاً كانت تود أن تسأله جدته :
- لماذا ضربت الضيف يا ماما؟
لم ترد الأم. كاد الجد أن يضحك. ربتت نفيسة على ظهر أحمد.
كرر أحمد سؤاله مرة ثانية فقالت الأم :
- إنه حيوان
قال أحمد لجدته :
- يبدو أن الضيف كان يخفى ذيله فى البنطلون ولكنى لم أسمع
ينهق. غريبة
- شرع الجميع فى ضحك لذيذ وشقاوة بريئة، فى حين احتضنته
أمه فى حب وقالت فى نفسها : «ونفس طريقة أبيه فى السخرية.
لشد ما أفتقدتك يا شريف».

منى عشاوى تزور أمها

لم تكن منى تعلم أن أمها على قيد الحياة سوى منذ خمس سنوات، رباها أبوها عشاوى جمعة بمفرده وكان يزعم دائماً أنها يتيمة قد ماتت أمها وهى تضعها. إنها تذكر جيداً هذا اليوم الذى ألتها أمها فيه لأول مرة إلى الكلية عندما كانت فى السنة قبل الأخيرة فى كلية التربية.

كانت تشعر برقة وحنان والدها. تربت وترعرعت فى أحضانه. كان والدها على الرغم من صرامته فى عمله رقيقاً حنوناً معها. لقد فقدت الأم فى طفولتها على حد قوله فكان لزاماً عليه أن يكون أباً وأماً فى آن واحد. ساهم عمها زين جمعة فى تربيتها بشكل أثر فى حياتها. كان صارماً ذا بطش. دائماً ما يتشاجر مع زوجته ويهينها ويضربها. كما كان بطشه ينتقل أيضاً إلى ولديه مبروك وممدوح، إلا أنه نادراً ما كان يمد إليها يده بسوء.

ونتيجة لهذه البيئة الجافة فشل ممدوح فى الدراسة ولم يحصل على الابتدائية واستطاع مبروك بالكاد أن يحصل على دبلوم التجارة بعد أن رسب فى السنة الأخيرة ثلاث مرات. ولذا لم تكن تفكر فى الزواج قط لا بممدوح ولا بمبروك بالرغم من تلميحات العم وتصريحاته أحياناً وبالرغم من ضغوط الأب عليها.

إنها تذكر جيداً يوم عيد الأم وبالتحديد منذ خمس سنوات. كانت فترة الاستعداد للامتحانات وفوجئت بإحدى زميلاتهما تبحث عنها فى كل مكان، لم تجدها زميلتها إلا فى المكتبة، اقتربت منها زميلتها وقالت لها فى مداعبة أن تتهياً لمفاجأة قد توقف قلبها، فأخبرتها بأن قلبها كالحديد.

أصر أبوها على أن يلحقها بالثانوية العامة، كما أصر على أن تكمل تعليمها الجامعى رغم معارضة أخيه ووالده وقتها. ردد الجميع وقتها: «ليس لدينا بنات للتعليم» رفض عشاوى بشدة وشجع ابنته وكان يبسط لها من حنانه وتدليله حتى كادت الفتاة أن تنتهى من التعليم

لأن التعليم على حد قوله «ينير مخ البنت ويعطيها سلاحاً للزمن». ربيت الفتاة على صراع بين أبيها وبيئته فأرادت أن تثبت ذاتها في وقت فشل فيه الذكور في حلبة التعليم. كان حزن أبيها بمثابة الملجأ والملاذ. كان والدها مرافقاً لها في كل مراحل التعليم. في البداية كانت فرحة أن تذهب إلى المدرسة في كنف والدها الشاويش الذي يخشاه الجميع وانتهى الأمر بأنه كان يقوم بزيارات مفاجئة لها في الكلية وكانت في جميع الأحوال نموذجاً مشرفاً يعد مصدر فخر لعشماوى دائماً.

تفوقت الفتاة ونبغت في الكلية فلم يكن لها علاقات مع زملائها من البنين، وساهم خوفها من أن يتبعها عمها أو أحد من ولديه إلى الكلية فيجدها تجلس منفردة مع أحد زملائها فتحرم من مواصلة دراستها، وتضع رأس أبيها في الطين، كما أمدها أبوها بوابل من نصائح قائلًا: «لا أريد أن يوقف أحد طريق مستقبلك» رآها تبتسم وتضع عينيها في الكتاب وتقول له: «اطمئن يا بابا.. خلقت رجلاً». فيرد عليها بكل فخر: «لا.. أنت ابنتى الوحيدة وحببتي» همت مرة وسألته عن عدم زواجه بعد أمها فلم يرد عشماوى بسرعة ولكنه قال بعد لحظات من التفكير: «تزوجتك أنت. شغلت حياتى وتفكيرى. كيف أجئ لك بزوجة أب تنغص حياتك؟ أنت ابنتى وحببتي وزوجتى ودينياى كلها»

وفى يوم عيد الأم منذ خمس سنوات رأت أمها لأول مرة. قالت زميلتها أمانى بعد أن دخلت عليها المكتبة: «كنت أشتري معك فى صفة واحدة، أما اليوم فأنت من طريق وأنا من طريق آخر» ولما سألتها عن السبب قالت لها: «كنت أعتقد أنك مثلى يتيمة الأم ولكنى الآن صرت يتيمة وحدى»

تعجبت منى عندما دخلت امرأة فى أواسط عقدها الخامس. كانت المرأة تبكى. خرجت الفتاتان من المكتبة. ارتمت المرأة فى حزن منى قائلة: «بسم الله ما شاء الله لقد كبرت وصرت عروسة»

نظرت منى إلى المرأة فى تعجب.. كانت نظرات منى باردة حارقة فى ذات الوقت لهذه المرأة الغريبة. بكى أمانى فلقد أخبرتها جمالات حسنى منذ ساعات بأنها لم ترى ابنتها منذ أن كانت طفلة. تركت

منى حزن المرأة وابتعدت فنادتها المرأة قائلة: «لم أرك منذ ما يزيد على عشرين سنة» ردت منى ببرود: «من أنت يا حاجة؟» بكت المرأة وسألته كيف أنها لم تحس بها

فقالت منى بكل برود: «أرجوك دعيني. لدى مذاكرة فى المكتبة» بكت المرأة بدلا من الدموع دما. لم يبدُ التأثر على وجه منى. أسرت أمانى فى أذن جمالات قولاً. انصرفت المرأة وبكاد قلبها أن ينفطر من البكاء. دخلت أمانى وانتزعت منى من المكتبة وقالت متسائلة فى تعجب: «ألا تشعرين بأية عاطفة تجاه المرأة؟» أجابت منى بالنفي فقالت زميلتها: «ألا تشعرين بها تماما؟» تجاهلت منى الحديث فقالت أمانى فى غضب: «لقد ذهبت المرأة بلا رجعة» لم يبد أن منى تأثرت. قالت لها زميلتها: «فكرى فيها وتعالى غداً ومعك شهادة ميلادك»

لم تنم منى ليلتها. تساءلت فى نفسها: «ما الذى تريده أمانى بشهادة ميلادى وما حكاية هذه المرأة. اسمها جمالات؟ نفس اسم أمى. ولكن أمى ماتت بعد ولادتى. سأترك كل هذا، لدى امتحان غداً».

اقترب منها عشاوى جمعه بخطواته العسكرية بعد أن أعد لها كوباً من الشاي قبل أن يدخل حجرة نومه وسألها إن كانت تريد شيئاً آخر، ثم ضرب الأرض بقدمه وقال بلهجته الصعيدية وكأنه يستعد لتقديم التحية العسكرية: «تمام يا أفندم. أية أوامر أخرى؟ احتضنت الفتاة أبيها وقبلته وقالت: «شكراً يا أفندم. إلى السرير مارش» احتضن الأب منى بكل حنان وأخبرها أن لديه خبراً ساراً فسألته إن كان قد قرر أن يتزوج فأجابها بالنفي. سألته ثانية فأخبرها بأنها مفاجأة لها. طلبت منه ألا يحيرها لأن لديها أصعب امتحان بالغد، فقال لها: «حتى لا أعطلك. ابنتى وحبيبتى الأولى دائماً.. إن شاء الله بعد أن تنتهى من امتحاناتك سوف نذهب فى عُمر»

غمرتها السعادة وقالت له: «وأدعو لأمى أن تكون من أهل الجنة وأن يجمعنى بها يوم القيامة بعد أن فرقنا الدنيا؟ تخيل يا أبى أنى لم أرها ولم أر صورة لها» تغير وجه الرجل قليلاً. إنها لا تعرف أي شئ عن أمها ولا عن الذى كان منها. لم يخبرها بأي شئ عن أمها

سوي أنها ماتت بعد ولادتها. إنه لا يريد أن يفسد فرحة ابنته. قال لها في تراجع واضح: «نعم يا ابنتى. كما تحبين»
بكى الرجل واغروقت عيناه بالدموع ثم احتضن ابنته. إنه يخفي الكثير من شأن أمها عنها، واصل صمته ودخل إلى غرفة نومه وتركها تبكى وسمعها تقول في بكاء «اللهم ارحم أمى واجمعنى بها يوم القيامة فى أهل الجنة آمين يا رب ..»

وفى اليوم التالى منذ خمس سنوات تقريباً تم اللقاء بين أم حرمت من ابنتها منذ ما يزيد على عشرين سنة، كما انفطر قلب فتاة لم تر أمها منذ أن رأت عيناها الدنيا. أصرت الأم على أن تأخذ ابنتها إلى بيتها. كان اليوم يوم الخميس ومنذ ذلك اليوم ومنى تزور أمها كل يوم خميس باستمرار ولكنها لم تخبر أمانى قط بشأن هذه الزيارات كما لم تخبر أحدا غيرها ولم تخبر حتى والدها الحبيب. وليتها لم تقابل والدتها. ليتها لم تقابلها.

زيارة للنزيل الجديد

هدأ الرجال فى الحبس بعد عاصفة المعركة الأخيرة. كانت نظرات الإكبار والإعجاب من نصيب النزيل الجديد شريف شكرى. هدأ تماماً منصور أبو دومة وعوضين الطويل وظلا في حالة تفكير دائمة. لقد نجح هذا النزيل الجديد في أن يمحو سطوة منصور وعوضين، تكوما فى ركن قصى من أركان غرفة الحبس. أما شريف فاستغرق فى خيالاته التى كانت تتجه نحو ابنه أحمد. ترى كيف حاله؟ لقد مر يومان كاملان وهو فى الحبس ولا يعرف ما تهتمه. أخرج قلما من جيبه وشرع يكتب على علبة السجائر. فكر طويلا في حرية الصحافة وكرامتها التى تذبح كل يوم بعد أن تجلد من رجال السلطة. إنهم يريدونها دعاية للنظام الحاكم. إنهم لا يريدون إعلاما بل يريدونه إعلانا أو دعاية للرئيس ولن فى السلطة. أين دورنا نحن رجال السلطة الرابعة؟ أصارت اسما بلا مسمي أم أنهم يريدون أن يستأثروا بكل السلطات ولتذهب الحرية إلى الجميع. أيخلقون شعبا تافها يقولون له كن فيكون. أيطلبون منه أن يتحدث بحساب. أيطلبون أن يجلدوا

الشعب ويقتلوا الحربة بنيران السلطة بدون أن يتحدث أحد؟ أيريدون ألا يبدي أحد التألم أو حتي مجرد الشكوي؟

بدأ يخرج من همومه الوطنية والمهنية وأخذ يغوص في همومه الشخصية. تساءل في نفسه قائلاً: «تُرى يا أحمد ماذا تقول عنى الآن؟ لقد أعطيته الكارت الخاص بى. علمته أن يفخر بى. قال أمامى:

«بابا مدير تحرير أكبر جريدة فى البلد «يا الله !! ماذا سيقول لو عرف أننى فى الحبس؟» ترى هل افتقدنى؟ هل افتقد حضنى أم أنه نسينى؟ هل افتقدنى لأننى أزوره وأملاً جيوبه بالحلوى وأقدم له المجلات والقصص؟ أم افتقدنى لأننى أبوه؟ والله العظيم حرام أنفق عليه وأعلمه ومع هذا لا أراه إلا يوماً واحداً فى الأسبوع طبقاً للقوانين الوضعية الظالمة ولذا أضطر للذهاب إليه فى المدرسة. طيب وماذا سأفعل فى العطل الصيفية عندما تكون المدارس فى إجازة؟ أكل هذا بسبب قوانين الهانم. تبا لها من أم. أم ظالمة. قال ماما قال؟! ماذا لو تيتم الشعب كله بدلا من أن يري أما ظالمة بهذه الطريقة؟ يا أولاد الحثالة. لقد غيرت كل قوانين الأسرة وأجبرت الجميع علي الرضوخ لها. حتي زوجها يرضخ لها. أما من رجل فيك يا هذا البلد؟ قال القراءة للجميع؟ طيب قولوا الخبز للجميع. كيف يفكر العقل ويستمتع والمعدة خاوية؟ طيب قولوا اللبن للجميع. كلها عروض كاذبة ودعاية إعلامية لمجموعة من الأفاقيين والنصابين.

اشتاق إلى حضن ولده. أدرك المحبوسون أن هذا النزيل الجديد مهم. اقترب منه أحدهم وقال: «أبو زمل. لا مؤاخذه، حضرتك هنا فى أية تهمة؟ يبدو أنك محترم وابن ناس. لا يمكن أن تكون سرقة أو قتل أو نصب. هاء؟ تزوير؟» لم يرد شريف. كرر حبيس آخر نفس السؤال فقام شريف وقال بلهجة حاسمة: «والله العظيم لا أعرف» سكن الحبس من جديد ولم يقطع هذا السكون سوى صوت الشاويش عشاوى جمعة وهو يقول: «الحبيس شريف شكرى... المسجون شريف شكرى... زيارة» تساءل شريف فى نفسه قائلاً: «أصارت فضيحتى بجلاجل؟» «رمقه عشاوى جمعة بمزيد من الازدراء. سار شريف فى طريقة ضيقة واتجه إلى غرفة مأمور القسم فوجد سكرتيرته التى استقبلته

بالبكاء وقالت: «أزمة وتمر يا أستاذ شريف» هدأت قليلاً ثم قالت له في ود وأسف معا: «لقد أتيت لك بأكبر محامى فى البلد وتتبع الأمر. وسأتركك معه بعض الوقت لأنه يريد أن يتحدث معك»

خرجت السكرتيرة. أكد المحامى لشريف أن هناك خطأ فى الإجراءات وأنه سيخرج بعد يومين لأن التهمة غير ثابتة عليه. تساءل شريف عن التهمة فقال المحامى فى أذنه «التحريض والتآمر لقلب نظام الحكم» ضحك شريف وقال للمحامى: «كيف هذا؟ أنا أعمل فى جريدة حكومية، جريدة قومية يا عالم يا هو» ابتسم المحامى وقال: «أولاد الحرام لم يبقوا شيئاً لأولاد الحلال. أنا متأكد أنها تهمة كيدية» سأله شريف قائلاً: «يعنى أى أحد قد يتعرض لمثل هذا الموقف؟» حاول المحامى أن يهدئ من روعه قائلاً: «طبعاً يا أستاذ شريف. تأكد أنها أزمة بسيطة وستمر سريعاً»

نظر إليه شريف فى شك من لا يصدق المحامين فقال له: «اهدأ يا أستاذ شريف. يمكننى أن أطلب الإفراج عنك بكفالة أو بضمان وظيفتك» رد عليه شريف ساخراً: «لا... دعنى فى الحبس لقد تعلمت فى الداخل فى يومين ما يزيد عما تعلمته طيلة حياتى»

خرج المحامى بعد أن طمأنه. وجد شريف الجريدة التى هو مدير تحريرها على مكتب الضابط، أمسك الجريدة ورمها على الأرض ووطأها بقدمه، لم تدر السكرتيرة ماذا تفعل ولكنها قالت له فى فكاهة: «الحبس للجدعان يا أستاذ شريف» كاد أن يضحك وقال لها: «حتى أنت يا نيفين؟» نظرت إليه فى يقين ومودة وقالت: «الحبس يصنع نجومًا كبيرة والسجن واحة للتأمل، قلبى معك يا أستاذ شريف» دست نيفين سكرتيرته فى يده رزمة كبيرة من الورق وأعطته قلماً وقالت له: «اكتب.. اكتب يا أستاذ شريف، لا تدع قلمك يتوقف»

ابتسم لها وقال فى هدوء: «سأكتب يا نيفين. قد تتوقف حياتى ولكن لن يتوقف قلمي» أخبرته بأنها أزمة وتمر إن شاء الله. قال لها بيقين: «إن شاء الله ستمر يا نيفين، بعض الأدباء والكتاب قد دخلوا السجن، هذه تجربة جديدة ويجب أن أعيشها بكل حلوها ومرها

ولكن أرجو ألا تطول»

رمقها شريف بنظرات الشكر. مدت يدها لتصافحه. كادت أن تغيب من أمام عينيهِ. تساءلت فى هدوء إن كان يريد أي شئ فقال لها: «اذهبي لابني أحمد فى المدرسة وبلغيه أن والده يحبه ولكنه لا يستطيع زيارته لأنه مشغول». نظرت إليه فى أسى ومحبة وأومات برأسها بأنها ستنفذ طلبه ، نظر فى عينيها ولأول مرة يدرك أن عينيها عسلتان. لم ينظر إلى هاتين العينين من قبل. نظر إليهما لأن هاتين العينين ستريان ولده وفلذة كبده. أكيد إن زارته مرة ثانية سيرى أثر ابنه فيهما. ودعها بعد أن طلب منها أن تسأل ابنه إن كان يحب والده أم لا. أطرقت فى صمت.

استعدت نيفين للخروج من أمامه وعيناها تدمعان بينما كان شريف ينظر إلى الورق فى عزيمة وإصرار. نظرت نيفين إلى صورة الرئيس المعلقة أعلي المكتب وقالت فى غضب بصوت لا يكاد يسمع وهي تستعد للخروج: «هل يعجبك هذا؟ اللصوص والبلطجية خارج السجون فى حين تكتظ السجون بالشرفاء والمحترمين» وغالبت دموعها، فى حين كانت نظرات شريف قوية ومتحدية وهو يمسك بالأوراق وكأنها سلاحه الذي يحارب به مؤكدا أنه سيكتب وسيكتب إلى آخر يوم فى عمره.

مبروك يتهم

انهمك الحاج زين فى تقطيع اللحم لأحد زبائنه، ولما رأى سامية زوجة العجالاتى آتية إلى دكانه أسرع فى عمله وانتهى ليتفرغ لسامية تماما. كانت سامية تجلس على أحد الكراسي المنخفضة ومن ورائها صورة كبيرة للرئيس مبارك مكتوب تحتها اسمه بخط لا تفهمه إذ كانت أمية وكانت هذه الصورة معلقة منذ فترة طويلة. إنها لم تعلق هذه الصورة بنفسها، بل علقها زوجها الراحل الذي كان دائما ما يقول ضاحكا: هذه صورة والد شريكى فى المحل. كان زوجها يفزع كثيرا ويهزي بكلام غير مفهوم عن صاحب هذه الصورة وعن مصر كلها عندما يصد بضرائب باهظة يعجز عن سدادها أو عندما لا يستطيع أن يدفع فاتورة استهلاكه للكهرباء، وكثيرا ما كان يلقي بالنكات السياسية التي تنتقد أوضاع البلد خفية فى البداية، فلما ضاق به الحال كان لزاما عليه أن يفرغ كبتة علانية.

اضطر إلى الاستغناء عن الكهرباء واكتفى فى عمله بضوء النهار وكثيرا ما كان يضطر إلى غلق المحل شهورا حتى يختفى عن أعين رجال الضرائب والبلدية، وكذا سارت زوجته على نهجه بعد رحيله فصارت تغلق دكانها بعيد المغرب.

كان بجوار الصورة صورتان للرئيس عبدالناصر والسادات. زاره رجال من أمن الدولة وأجبروه على نزع صورتي الرئيسين السابقين فاكتفى بهذه الصورة فقط. ومنذ ذلك الحين لم يغلق دكانه أبدا. كان السبب الحقيقي فى تحسن أحواله منذ ثلاث سنوات قبل موته عندما أيد وبشدة أحد مرشحي الحزب الوطني فى حملته للحصول على مقعد فى مجلس الشعب فبح صوته للدعاية من أجل هذا النائب ورقصت زوجته فى كل حملة كان يقوم بها. تحسنت أحوالهما، ولكن زوجها فجعهما برحيلة وتركها عرضة للعيون التي تنهشها وللذئاب الجائعة التي لا تشيع أبدا والرجال الذين يخترقون جسدها بعيونهم ويشتهونها وحيدة بلا سند من زوج ولا ابن.

كانت منى تتابع الموقف من خلف نافذتها؟ ولما سأل عمها سامية عن حالها بعد موت زوجها قالت له فى ميوعة واضحة: — والله العملية صعبة جداً يا معلم زين.

ترملت سامية بعد موت زوجها محمد فضة الشهير بمحمد العجلاتى منذ سنة. كانت امرأة فاتنة الجمال، قيل أن الحاج زين تقدم لها ليتزوجها ولكنها رفضت بحجة أنها لا تريد أن تتزوج نصف رجل لأنه متزوج. أقسم بأغلظ الأيمان على أنه على أتم استعداد أن يطلق زوجته ليصير ملكاً لها لكنها رفضت بحجة أنها لا تريد أن تأخذ رجلاً من زوجته وأولاده.

وفى وقت الفراغ اعتادت منى بعد أن تصحح واجبات التلاميذ أن تنظر من نافذتها أو من الشرفة فتريح عينيها قليلاً من عناء التركيز فى كراسات التلاميذ. غاصت منى بنظرها فى صورة الرئيس وتذكرت راتبها الذي لا يكاد يفي بمتطلبات الحياة ولا بنصفها، ولولا فسحة العيش مع أبيها لاضطرت إلى العمل مع مجموعات المدرسة الخاصة بالتقوية أو لاضطرت إلى إعطاء بعض الدروس الخصوصية. قالت فى نفسها متسائلة وهي تنظر إلى الصورة: «أيعجبك راتبي؟ كيف أعيش؟ لو كنت من جنس الرجال كيف كنت سأتزوج وأفتح بيتاً. الله يسامحك» تابعت منى موقف عمها من سامية. كان الرجل يلتهم جمال سامية الفاتن بعينييه. كانت سامية فى البداية تتعمد أن تشير عمها فتقترب منه بجسدها اللدن فيطير عقله. كانت ترتدى ثوباً يبرز مفاتن صدرها. كاد عمها أن يغمس نظراته فى صدر سامية، ابتعدت قليلاً وقالت فى شبه رجاء:

— لى طلب يا سيد المعلمين

كاد الرجل أن يغيب عن الوعي عندما تخيل نفسه يحتضن هذه المرأة، أفاق عندما قالت سامية:

— ماذا قلت يا سيد الرجال؟

— فى ماذا؟

— فى طلبى

— وماذا طلبت يا قمر شارعنا؟

سكتت المرأة فى دلال. قال زين مغزلاً:

- لو طلبت النجوم لأحضرناها إليك ولو طلبت القمر لنزل إليك و... قاطعته المرأة قائلة:
- أطلب مبروك ليساعدني في المحل يا معلم زين
- طلبك أمر يا ست الستات
- غابت المرأة عن عينيه ولكنه لم يبعد ناظريه عن مؤخرتها. التفتت وكأنها ضبطته ينظر إليها وقالت محذرة:
- عينك يا معلم زين
- جلس زين على الكرسي بعد أن غض بصره ولكنه رفع صوته وقال:
- خذي يا سامية قطعة اللحم هذه لترم عظمك
- شكراً يا سيد المعلمين لقد قاطعنا اللحم بعد موت محمد فضة
- هذه هدية. والنبي قبل الهدية
- عليه الصلاة والسلام. وأنا قبلت الهدية.
- قام المعلم زين في خفة ومهارة وقطع اللحم لفاتنته، أعطاهها اللحم ولمس أصابع يديها وحاول أن يصل إلي ساعدها ولكنها سحبته يدها بدلال، وفي هذه اللحظة دخل مبروك على والده وكأنه ضبطه في حالة تلبس، فألقى السلام. تصنع زين الجدية والتجهم وقال:
- الست سامية تريدك أن تساعدنا يا مبروك
- عيناى يا حاج
- الست سامية زينة شارعنا، اسمع لها ونفذ ما تأمرك به
- هي تأمر وأنا أنفذ
- أخذت اللحم وغابت من أمامهما وكانت منى لا تزال تتابع الموقف.
- قام زين ونادى صبي القهوة المجاورة وطلب منه أن يأتي له بالشيشة، ولما أتاه صبي المقهى تناول الشيشة على عجل. كان ينظر إلى مبسم الشيشة وكأنه فم فاتنته سامية، كان مبروك لا يزال صامتا. أخذت سامية عقل وقلب الأب والابن معاً. حرك الأب ناظريه بعيداً عن سامية فوقعت عيناه على صورة الرئيس فتحدث في السياسة ليعبد الابن عن تأنيبه لأنه ينظر لفاتن سامية قائلاً: «أنا تحت أمرك. أنا مع الحكومة ومع أمرك يا رئيس المحل. أمرك ينفذ كأمر الحكومة» كان الأب لا يفقه شيئاً في عالم السياسة ولكنه بما أوتي من معرفة بسيطة ببعض الحروف كان يشتري جرائد المعارضة ويحاول أن يفهم

ما فيها. يسمع كثيرا عن الفساد وعن الانحرافات وعن أصحاب الملايين. كان يحاول أن يتظاهر بأنه يفهم في أمور السياسة حتي يداري جهله وحتى يبتعد عن زوجته كثيرا بحجة القراءة ولكن زوجته كانت تتهمه دائما بأنه لا يعرف الفرق بين الألف وكوز الذرة.

كان يود أن يتعلم ولده. دفع الكثير من الرشاوي للمعلمين في المدرسة ولكن يبدو أن الولد قد ورث مخ والده. كان لا يفهم دروسه وكثيرا ما يهرب من المدرسة. لم يكن يحترم المعلمين إذ أن رواتبهم لا تكاد تكفي فكانوا يضطرون إلي إعطاء الدروس الخصوصية أو العمل في مجموعات التقوية.

خرج الولد من المدرسة وهو يعرف حروف اللغة بالكاد فكان والده يفخر به وكأنه قد حصل علي الدكتوراة علي حد قوله فلقد كان يكفيه ان يقرأ له عناوين الجرائد. لحق بمهنة أبيه ولكن والده كان يري أنه ولد تافه لا يزال يأكل من خيره فيجب أن ينصاع لإرادته وأن ينفذ رغباته.

أحس الأب بغيرة من ابنه عندما كانت سامية ترمق ولده وتخصه بنظراتها في حين لا تنظر إليه وهو سيد المعلمين. كان مبروك يتحاشى النظر إلى سامية في حين كان زين يلتهمها بعينيه. تنحسح مبروك وفتح فمه ليتكلم ولكنه صمت ثم حاول أن يفتح فمه ثانية ولكنه ارتبك. لمح زين ارتبাকে فقال في تشجيع :

— ما لك يا مبروك؟

— لا شئ يا معلم.

— ما لك يا بني؟ ألا تستطيع أن تقول كلمتين على بعضهما، لهذا لا تعيرك منى أدنى اهتمام. شباب خائب.

— أين أنا وأين هي يا أبي؟

— لا أحبك أن تتكلم بهذه الطريقة يا جحش. أبوك سيد المعلمين وأكبر جزارى المنطقة، أما أبوها فموظف مسكين. أنا أكسب عشرة أضعاف ما يكسبه يا مغفل. لولا ميراثه من جدك لما وجد الخبز الحاف ليأكله.

صمت مبروك. تمنى أن تنزل إلى عمها وتخبره أن الدنيا لا تقاس بالمال. تنحسح مبروك مرة ثانية وقال :

- يا أبى...
وعاد مبروك إلى صمته ثانية. شجعه المعلم زين وقال :
— مالك يا مغفل؟ تكلم يا دهل
— أصل..
— أصل..؟ أى أصل وأى فصل؟ تكلم يا بغل
— بابا.. منى تعمل وتكسب من التدريس. أما أنا..
— مالك يا دغف. أنت تعمل وتكسب معى. أنت تقول هي تكسب؟
مرتبتها لا يكفيها إلي يوم عشرة في الشهر. يا بني إنها مسكينة.
جميع الموظفين فقراء ومساكين. ليس هذا الزمان زمان الموظفين
والمتعلمين. إنه زمان البيزنس والمال. فاهم يا عجل؟ أياك أن تغتر
بأنها اسم النبي حارسها بسلامتها مدرسة. إنها أغلب من الغلب.
سمعت منى هذه الكلمات فسكنت ونظرت أمامها في صمت في محل سامية.
كان مبروك يود أن يستقل عن أبيه ولو أن يفتح دكاناً ولو فى أحد
الشوارع الجانبية. لقد صارع أمه بهذا فنهته أن يحدث والده فى هذا
الموضوع وخوفته من بطش أبيه، ولكنه ألح عليها أن تخبر والده. لم
تكن فكرة مبروك أن يستقل عن أبيه نابعة من تفكيره، فذات مرة
أراد أن يغازل سامية فتمنعت عليه قائلة فى تساؤل :
— أظن نفسك رجلاً وأنت لا زلت عالة على المعلم زين؟
أفهمته أنها تريد رجلاً بحق. تريد رجلاً مستقلاً يمكنه أن يفتح
بيتاً، ملأت سامية عقله بأفكار لم تدر بخلده من قبل، ماذا إذا
غضب أبوه عليه أو طرده من المحل؟ وذات مرة تتبع مبروك سامية
مقتوناً بجمالها الأخاذ إلى الميدان القريب من شارعهم فرآه أبوه.
تراجع وتمنى لو أن الأرض قد انشقت وابتلعتة، وعندما سأله أبوه
عن سبب وجوده بالقرب من الميدان قال له :
— كنت أتمشى يا أبى بعد العصر وجاءت بى رجلاى إلى هنا
لطمه أبوه بقوة بعد أن أحب أن يظهر قوته وبطشه أمام سامية
التي اقتربت منه وقالت :
— حلمك يا معلم زين الولد عظمة طرية، ثم طلبت من المعلم
أن يخف على مبروك ثم ربتت على ظهر مبروك وقالت فى
استهزاء :

- قبل يد أبيك
- بان الغضب على وجه زين وقال لها :
- هذا ولد مصيبة. نحاول أن نخطب له منى بنت عمه ولكنها لا تقبله. من تلك التى ستقبل هذه البلوة المسيحة؟
- ثم وجه حديثه إلى ابنه قائلاً :
- لو كنت منك لأريتها النجوم فى عز الظهري عبيط، اعمل أى شئ حتى تعلقها بك
- لوت سامية بوزها وقالت لنفسها : «إن زين عليه أن يوفر نصائح لنفسه. لقد حفيت قدماه ولم يستطع أن ينال منها نظرة أو همسة. لطالما ألح عليها فى طلب موعد ولكنها كانت تأبى وتتنمّع ، اسم النبى حارسك يا زين»
- انخرط زين فى تفكيره بسامية التى شغلت حياته ، كما انخرط مبروك فى صمته. نهض زين وقال : «سأذهب لصلاة المغرب فى المسجد الكبير، إياك أن تتحرك إلى أن أرجع إليك. الليلة نخطب لك منى بنت عمك».
- لم يكن زين يذهب إلى المسجد من أجل الصلاة فحسب ، بل كان يذهب إلى المسجد ويحافظ على الصلاة فقط من أجل أن يلقي نظرة على تلك التى أذهلته وقوضت دعائم حياته. لقد كان دكانها أمام المسجد مباشرة، ولما فهمت سامية مأرب زين كانت تتعمد أن تغلق الدكان قبيل الصلوات وبعدها حتى تقى نفسها من سهام نظراته.
- نهض مبروك وقبل يد والده وقال فى خشوع :
- دعك من هذه الخطوبة يا حاج
- ألا تعجبك الأستاذة منى؟
- هى ابنة عمى ولا داعى للكلام
- ماذا تقصد أيها الدهل؟
- انتبهت منى تماماً إلى ما يقال. كانت تسمع بالكاد كلام مبروك، ولكن كانت هناك كلمات تصدر من مبروك همهمة وسرا فلم تكن تسمعها جيداً، ولم تفهم كذلك فحوى الحوار ولا كل ما قيل بينهما.
- صمت مبروك قليلاً. صفعه والده وقال :
- ماذا تقصد يا عجل؟
- تردد مبروك وقال دفعة واحدة وهو يخفى صفحة وجهه حتى لا يلطمه أبوه :

— ممدوح أخى يقول أنها تذهب إلى إحدى الشقق فى المهندسين كل يوم خميس بعد المدرسة. صحيح أنها بنت عمى لكن يمكن أن تسأل ممدوح ابنك.

ابتعد مبروك قليلاً خوفاً من بطش أبيه. برم زين شاربه وقال:

— والله عال. وأنا آخر من يعلم

نظر إلى شرفة شقة أخيه عشاوى. ارتعدت منى من نظراته فابتعدت خلف النافذة. إنها لم تفهم لماذا تغير رد فعل عمها، ولكنها سمعت صوت عمها الأجدد يقول:

— تحت كل ساهية داهية، هذه آخر سكة التعليم. استغفر الله العظيم. ملعون أبو أى رجل يعلم بنته.

وانطلق تجاه المسجد يبسم ويحوقل، وقبل أن يدخل المسجد ألقي نظرة على دكان سامية. كان يتمنى أن يجدها فى الدكان ولكنه لم يجدها. دخل عتبة المسجد برجله اليمنى وكان قد عقد العزم على أن يزور الشاويش عشاوى بعد الصلاة، كما عقد العزم على أن يسود عيشة منى ابنة أخيه. كانت كل آمانياته الآن أن يري سامية فى الدكان على ينظر لوجهها فتبتسم له أو ينظر إلي ساقىها الفتنتين. وعندما دخل المسجد واستدار ليأخذ حذاءه، بصق عن يمينه وعن شماله ثم توجه بنظره إلي شبك أخيه واستغفر الله قائلاً فى سره: «أعوذ بالله من البنات ومن إنجاب البنات. أمسكت بنفسى شابا يتبعها والآن أعرف أنها تذهب إلي شقة بالمهندسين. ربنا يستر عليك يا عشاوى يا أخى. حظك قليل مع النساء. معقول ما يحدث وما سمعته؟ اكف القدر علي فمه تطلع البنت لأمها. ملعون أبو النسوان» أخذ يسب ويلعن فى سره، ثم اتجه نحو القبلة ونظر إلي سقف المسجد شاخصاً وقال بصوته الجهورى: «نويت أصلي ركعتين سنة صلاة المغرب. الله أكبر»

اقترب منه أحمد شريف شكري وانتظر إلي أن فرغ الرجل من صلاته للسنة وقال بأدب: «يا عم. النظر إلي محل السجود أقرب للخشوع» نظر إليه زين فى غضب وقال: «أنا أصلي هكذا منذ خمسين عاماً. أتعلمني ما الصواب وما الخطأ يا ولد؟»

اعتذر أحمد له بأدب وطلب منه زين أن يرجع إلي آخر الصفوف بالمسجد ولكن الصبي رفض لأنه يحفظ القرآن كما أنه صبي مميز. تعجب زين لما سمع هذا فسأله ورد أحمد بثبات: «صبي مميز يعني ممكن أكون أنا الإمام» تعجب الرجل قائلاً بأنه يصلي منذ خمسين عاماً واستنكر أن يأتي هذا الصبي يعلمه. قال الصبي بهدوء: «ليس بالسن يا عم. أنا أحفظ نصف القرآن. بابا حفظني القرآن. أنا اسمي أحمد شريف» رد زين في تعجب: «طيب. سلامات يا عم أحمد شريف. هل أنت عالم؟ ماذا تريد؟» رد عليه بأدب جم قائلاً: «لا تنظر لأعلي وأنت تصلي. انظر مكان سجودك. هذه نصيحتي يا عم. معذرة يا عم زين. لا تقل نويت أصلي سنة المغرب فالتلفظ بالنية بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»

زين يستمع ويتعجب. قال: «شكلك متعلم في الأزهر. أكيد أنت أزهري ودرست هذا في الأزهر» رد أحمد في هدوء: «لا يا حاج أنا في لست في مدرسة أزهرية. أنا في مدرسة حكومية عادية»

كان غريباً أن يتحدث زين مع أحمد بهذه الطريقة. آه. لقد تذكر والده الأفندي الذي عرف فيما بعد أنه صحفي عندما جاء معه هذا الصبي يشتري منه اللحم منذ سنوات. تذكره جيداً ولكنه لا يدري لماذا لم يكن فظاً مع هذا الصبي. أياً كان هذا بسبب نظرة الحزن التي تملأ عينيه أم بسبب الجدية التي يتحدث بها الطفل. إن الولد لديه ثقة بنفسه غرسها أبوه فيه وحصنه بالقرآن. عندما أقيمت الصلاة نظر الرجال إلي الصبية وكذا زين وصاح في الصبية بصوته الجهوري: «ارجعوا مع صفوف الصبيان».

تراجع الصبية ومعهم أحمد وهو يرمق الكبار بغيظ ويتساءل: «ألأنهم كبار يرجعوننا للخلف؟ أنا أحفظ من القرآن أكثر من أي أحد منهم. أين يكونون في باقي الصلوات؟ هل يطبقون ما يتعلمونه من دينهم في حياتهم؟ عندما أكبر سأكون مسلماً حقيقياً وسأضم الصبية الصغار إلي كنفي في صفوف الصلاة».

بدأ الإمام يتلو سورة الفاتحة وأحمد بعيد عن الصبية إذ كانوا يتضحكون ويدفع بعضهم بعضاً في حين كان هو غارقاً في صلاته ويدعو الله أن يأتي والده ليزوره في المدرسة غداً. لم يكن يعلم أن والده حبيس

وأن سجنه سوف يطول قليلا، ولو كان يعلم لدعا لله أن يفك سجنه وأن يعيده إلي حضنه قريبا.

وبعد الصلاة أخذ زين يفكر في الذي يمكنه أن يفعله في اتهام مبروك، الولد يتهم ابنة أخيه ويستشهد بأخيه ممدوح. لابد إذا من المواجهة. خرج من المسجد وهو يقصد قسم الشرطة. إن عشاوي يبيت في القسم الليلة وسيذهب إليه. أطلب منه في البداية يد ابنته أم يخبره بسرها الذي لم تخبر أحدا به. لاشك أن موقفك يا أخي سيكون صعبا. كيف يمكن أن أخبرك يا أخي؟ طيب ولماذا لا أتأكد بنفسني؟ سأكون وراءها طيلة يوم الخميس. هذه آخرة كل من يعلم بنته. والله لو كنت خاطئة لأقتلنك بنفسني يا مني. ولماذا لا أسألها أنا بنفسني. سأطلع إليك يا بنت عشاوي. لا. سأذهب لأبلغ أبيها وهو يتصرف معها.

أقبل أحمد شريف عليه وسلم عليه وأتي بشيخ المسجد ليلبغه صحة ما طلب منه. أكد الشيخ كلامه وطلب منه ألا يتلفظ بالنية في الصلاة كما طلب منه أن ينظر إلي محل سجوده أثناء الصلاة. بدا الغضب علي وجه زين وسأل الشيخ قائلا: «هل يصح أن يصلي بي هذا الطفل إماما وأنا أكبر منه؟» تعجب زين من رد الشيخ عندما قال له: «يجوز. الولد يحفظ نصف القرآن ودائما يصلي معنا في المسجد. إنه ابن الأستاذ شريف شكري الصحفي المشهور. ولا مؤاخذه يا حاج أنت تقرأ الفاتحة بالكاد. الإمام يجب أن يكون أعلم بالقرآن» مسح المعلم زين علي شعر الصبي وطلب من الله أن يبارك فيه واتجه خارج المسجد والتفكير يكاد يطير عقله وينثره في الهواء ويرميه في بئر سحيق من القلق والألم. أليست مني هذه ابنة أخيه؟ أليست ابنة عمك يا مبروك؟ خرب الله بيتك يا مبروك. ألم يكن من الأفضل ألا تقول لي؟ ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل؟

أحمد يبكي

طفل صغير يبكي. لا يمكن لأحد أبدا أن يتخيل مدى حالة الحزن التي قد تثيرها هذه الدموع. قد تشعر أن السماء ستقع علي الأرض، أو أنها ستنفطر حزنا وغما. قد تشعر أيضا أن أمواج البحار ستبصق علي البشر كلهم إن رأيت طفلا يئن. ستشعر إن رأيت طفلا يبكي أن الحياة مرة كئيبة، وأن مرارتها سم كالعقم، وستحس أن الشياطين يحكمون العالم وأن الدنيا إلي زوال. طفل يبكي أشبه بغضب الزهور، أو سخط الشمس، وحزن الأمطار، تشعر أن أصوات الريح تحذرك، وأن شواطئ الحب والأمل تلفظك.

تقوم شريف شكرى فى جانب من غرفة الحبس، وضع وجهه بين كفيه. فرد ذراعيه ثم وضع رأسه بين كفيه، تساءل في غم يمزق ذاته: أنى لك يا أحمد من أحضان أبيك الآن؟ أتراه يوما سىرى ذلك البريق اللامع فى عيني ولده الوحيد ثانية. لاك بعض اللقمة فى فمه ولكنه لفظها. أياكل هذه اللقمة ولا يعرف كيف حال ابنه؟ أياكون ابنه يبكي بالفعل أم أنه يتخيل أن ابنه يبكي؟ أخذ شريف شكرى يسأل نفسه قائلاً وهو يضرب رأسه بكفيه ووجهه ملتصق فى أرضية غرفة الحبس وباقي الزملاء فى الحبس ينظرون إليه بإشفاق: «ترى هل تذكرني يا أحمد؟ أشبعت أم أن أمك قد نسيت أن تطعمك؟ ليتنى أستطيع أن ألامس بأناملى أطراف شعر رأسك الرقيق فاحم السواد. ليتنى أستطيع أن أتلمس بأناملى ملامح وجهك الذي ينمو. أى لذة فى الدنيا يمكن أن تروق لى وحضنى يشتاك إليك؟ موافق أن تقول لى وأنت تغمز لى كما علمتك: «بابا أنا لا أحبك» قل ما تشاء».

أريد أن تلامس خدودى أطراف أصابعك حتى تنطفئ نيرانى التي تشتعل فى صدري عندما لا تكون بجواري. أريد أن أقتل كل لحظة لا تكون فيها بحضنى. لكم أدعو الله فى ليالى عمري الطويلة بدونك ألا أحرّم منك. لكم أود أن آخذك فى حضنى دهوراً طويلة وأزمنة لا نهائية.

حتى وإن قالوا: قلبي على ولدى انفطر وقلب ولدى على حجر. إنى أريدك. لشد ما اشتقت إليك ألن أستمتع بك وأنت تسابقني؟ ألن يصبح بمقدورى أن أتابع نموك وتقدمك فى المدرسة؟ ألن يصبح بوسعى أن أنتظرك وأنت تحكى لى عن زملائك وعن مدرسيك؟ ألن أتمتع بلذة القرب منك وانتظاري حتى أعود مساء لأرى عينيك الذكيتين المتلهفتين حتى تعرف بماذا أتيت لك يا ولدى؟ هل سأحرم من لذة قرب أصابعك الحبيبة إلي وهي تفتش بجيوبي عن حلولك المفضلة؟ صحيح أن أمك أخذت حضانتك بالقانون، ولكن الحمد لله أنها لم تسلب اسمى منك. نعم اسمه أحمد شريف شكرى وسيظل يكنى باسمى طيلة عمره، ولكن هذا لا يكفينى. لقد أخذته منى ولا يسمح لى سوي برؤيته سويعات معدودة كل أسبوع. لقد أضاعتنى قوانين الهانم الظالمة. لشد ما أكرهها. لقد كتبت طيلة الفترة الماضية عن قسوة هذا القانون. لقد كتبت وشجبت بيع القطاع العام. لقد كتبت عن تشرد الملايين من العاملين بسبب بيع القطاع العام والكوارث التي ستقع وصدق حدسي. حرام. جاء عبدالناصر ليؤمم ونحن اليوم نبيع. أضعتم البلد. والكارثة الأكبر أنك أم يا هانم. لقد وجهت لها سؤالاً ذات مرة فى منشيت الصفحة الأولى بعنوان: ماذا ستفعلن لو فقدت ابنك يا أم جمال. اعتقدت أنها لم تفهم. ظلمتنى هي وزوجها وظلمت الملايين. طلبت من الله أن يحرمها من ولديها لتهدأ ناري وليشفي غليلي. بكيت بعدما صليت العشاء وقلبي يقطر حزناً. رأيت مناماً ووجدتها تبكي وتصرخ وناداني مناد من السماء أن أبشر يا شريف. ستحرم منهما. أفقت وأنا سعيد. إذا ستذوق نفس لوعتي. ستقاسي طعم الحرمان وقسوة الانتظار حتى تري ولديها.

أى قانون ظالم هذا الذى يحرمنى من ابنى؟ حق الرؤية. دخت فى المحاكم عدة شهور حتى حصلت على حق الرؤية. أنا الذى أنفق وأنا الذى أدفع ومع ذلك يكون ابنى معى لمدة تقل عن ساعتين طيلة الأسبوع. أى عدل هذا؟ ساعتين من مائة وثمان وستين ساعة !! إذاً لن يسمح لى بمتابعة نمو ابنى. لن يسمح لى بمراقبته وهو نائم. لن يسمح لى أبداً أن أغطيه إذا تكشف فى نومه. كيف سأقوم سلوكه؟ إنى أحتلس الساعتين. ولما ذهبت إلى المدرسة وصرت ألتقي به كانت

ساعات المدرسة هي الحياة لى.

تبا لك يا أمينة، أنت السبب فى حرمانى من ابنى، كثيرا ما كانت تتحجج بحجج واهية حتي تمنعني من رؤية ابني. سأريكم يا أولاد السفلة. لن يضيع حقى. تذكرت مرة أن أستاذعى حمادة أكبر بلطجي في المنطقة لأخطف ولدى وأهرب من الدنيا جميعا ليكون في حضنى. أنا لا أريد شيئا من الدنيا سوى ولدى. لا أريد مالا ولا جاها ولا منصبا. أريدك أنت يا ولدى. أقنعتني سكرتيرتي نيفين يسري بأن أطرد هذه الفكرة من ذهني. كيف سمحت لنفسى أن تفكر في مجرد هذه الفكرة؟ كيف أعرض طفلى لتجربة قاسية كهذه؟ وماذا لو أخذ البلطجي حمادة ابني وساومني عليه؟ كيف أسمح لنفسى أن أحرم أما من ابنها؟ هي سيئة ولكنى لن أنحدر لمثل سوء خلقها. قابلت حمادة البلطجي وأعطيته ما اتفقنا عليه. كان في شبابه يغلق بمفرده منطقة بأسرها. كبر سنه وضعف بصره. أخذ المال وشكرنى. صرت أعطيه راتبا شهريا يتقوى به على الحياة شريطة ألا يعود إلي حياة البلطجة ثانية وسعيت له حتي حصل علي كشك صغير يتدبر به أمور حياته وصرت أراه في المسجد كل صلاة.

يا رب أين عدلك وأين رحمتك؟ إنسانة بهذه القذارة ستتزوج وسيربى غيرى ابنى. رحمتك يا رب. كيف يربي ابني رجل غيري وأنا علي قيد الحياة؟ أي ظلم هذا بل أي قانون يسمح بهذا؟ أيكون هذا قانونا وضعه الرجال أم وضعته الهانم وساعدها زوجها؟ القضاة رجال فكيف سمحوا بهذا الظلم؟ سحت دمعاته وبكى بشدة وكان جسده ينتفض. أضيع ابنه بالفعل من يديه؟ كيف يتصور حياته بهذه الصورة وابنه ضناه يضيع منه ويكون في أحضان رجل آخر قد لا يحبه. بالتأكيد لن يحبه وبالتأكيد سوف يؤذيه. ألن يذكره هذا الطفل بأن شخصا آخر قد ضاع أمينة فأنجب منها أحمد؟ سيذكره هذا بالطبع وسيؤذي الولد بلاشك. ألا يقول المثل قطع زوج الأب ولو كان هو العم؟ زوج أمه يربيه وهو علي قيد الحياة؟ أيعقل هذا يا قوم؟ أليس منكم رجل رشيد؟ أين الحق؟ أين حقوق الإنسان يا من تتشدقون بها؟ أيحرم أب من ابنه وهو علي قيد الحياة؟ وما كاد ينتهى من حديثه مع ذاته إلا وسكنت حركاته. لقد تكوم

مكانه بلا حراك، اشتدت شفقة زملاء الحبس. تقدم منصور أبو دومة منه ولمسه بأنامله فوجد جسده بارداً، وأحس عوضين الطويل بجسده يرتعش، صرخ الرجلان وصرخ كل من بغرفة الحبس فى صوت واحد وبشفقة وود لهذا النزيل الجديد: «الحقونا.. الرجل سيضيع منا.. لا حول ولا قوة إلا بالله»

وفى اليوم التالى كان أحمد يبكى بالفعل كما كان والده يبكى فى الليلة الماضية. كان مبتعداً عن زملائه منزوياً فى ناحية بعيدة فى فسحة المدرسة. كان يبكى بالفعل كما تخيله والده وبنفس الهيئة تماماً وكأن أبوه كان يراه ويبتحصص حالته. أليس قلب الأب يري تماماً كما تري عيناه؟ أليس فؤاده يري ولو علي بعد أميال؟ أليس لأب نظرات تخترق آفاق الزمان وتنفذ فى آفاق المكان؟

نظر أحمد إلى الساندويتش الذى فى يده. قضم قضمتين ثم لفظهما ورمى الساندويتش على الأرض تماماً كما فعل والده بالأمس.

نظر أمامه وخلفه فلم يجد أحداً، اختبأ خلف شجرة بعيدة وأخذ يبكى بحرقة «مثل الآن كان أبى يجئى ويأكل معى ويضحكنى ويحضننى ويسبقنى. ألم تعد تحبنى يا أبى؟ أكيد أنه سيتزوج امرأة أخرى ويكون بحضنها، لقد سمعت من جدتى أن أمى ستتزوج، وكأنها تقول لى لتوصينى: «استعد ستتزوج أمك. عامله كأبيك» لا. لن أحب أحداً كأبى ولا حتي أنت يا جدتى. لقد رأيت عادل عندما زارنا ذلك اليوم. سأكون بلا أب وبلا أم. كلاهما سينشغل فى حياته، قالت لى أمى: «سأتزوج وأتركك مع جدتك إن رفضت أن تكون معى أو أن تعامل زوجى الجديد مثل أبيك. فاهم؟»، كانت دمعاته تغرقه. وفجأة لمح لعبة صغيرة تجرى بجواره، أبعد أن يجئى أبوه لمجرد دموعه؟ عندما بكت سندريلا أتاها الفرج. وذهبت إلى الحفلة وتزوجت الأمير... هذا يحدث فى القصص فحسب. إن اللعبة تقترب منه، تحسسها بيده، إنها حقيقة، إنه لا يحلم، نهض واقفاً، اختطف اللعبة وقال دون أن ينظر خلفه: «بابا أنا لا أحبك» ثم غمز بعينه اليسرى

إنه يشم رائحة أبيه الحبيبة إلى نفسه. أن والده قد حضر بالفعل. ومن ذا الذي يحضر له الهدايا غيره؟ صحيح أنه يشعر بحب أمه وجدته ولكن لا أحد ينفق عليه سوى والده. عندما كان يطلب أي

شئ كانت جدته تقول له باستمرار: «اطلب من بابا» إذا بابا هو الذي ينفق عليه وهو الذي يدفع له مصروفات المدرسة وهو الذي يأتيه بالملابس الجديدة وهو الذي ينفق عليه كل شئ. إذا هو والدي قد حضر ومعه هذه اللعبة. هكذا قال أحمد لنفسه.

لم يسمع صوت أبيه. التفت للوراء، مسح دمعاته، أصابته الدهشة عندما لم يجد والده، وجد فتاة أنيقة طويلة تقف تجاهه، صاح فيها متسائلا في عدوانية واضحة: «من أنت؟» ردت عليه بهدوء وابتسام: «نيفين يسرى» ثم سألته عن اسمه وهي تعرف أنه أحمد شريف شكري. قالت له: «أنا من طرف إنسان يحبك أكثر من أى شئ فى هذه الحياة»

رمقها الولد بحب وإعجاب. أمسك شفته اليسرى بأسنانه. إن ما يحدث فى القصص قد يتحقق فى الواقع. عندما ذهبت سندريلا إلى قبر أمها وبكت تحققت آمالها، ولكن والد سندريلا مات وأمها تزوجت رجلا غيره.. وأمي ستفعل مثل أمها، لا.. لن تتزوج غير أبي ولن أسمح لها. كيف أسمح لرجل غير أبي أن يحتضنها؟ كيف ستنام في حضن رجل آخر غير أبي؟ كان أبي ينام في حضني وهو بجوار أُمي. كان يترك حضنها ويأتي لي بقصة يقرأ لي منها حتي أنام ثم ينقلني إلي سريرى بعد أن أنام. بابا يقول لى أحسن حاجة فى الدنيا القصص. كان يأتى لى بالقصص والألعاب. كان أيضا يكتب القصص الكبيرة ويقول إن كتابة القصة أهم شئ فى حياته بل وأهم من كتابة مقالاته وتحقيقاته الصحفية.

مسحت نيفين على رأسه وجلست على ركبتيها على العشب. لمس أحمد شعرها بيده وقال لها متسائلا: «ولماذا لم يأت شريف شكري بنفسه؟» شعرت نيفين أنها أمام نوع مختلف من الأولاد. شعرت أنها أمام طفل كبر كثيرا بسبب انفصال والديه. إنه أكثر تحفظا وأكثر ذكاء. يبدو أنه بالفعل قد كبر أعواما كثيرة. تساءلت في نفسها: «ما ذنب هذا الولد؟» حاولت أن تحتضنه لعلها تخفف عنه بعضا من أحزانه وجزء من معاناته، رآته من بعيد. رآته يفكر ويتدبر في صمت ثم يبكي قليلا ثم يمسح دمعاته ويعود إلي تفكره. شعرت أنها تحب هذا الطفل. اقتربت منه لتحضنه ونجحت في احتضانه لمدة لحظات،

ولكنه شد نفسه من حضانها وقال: «أحمد كبير ولا يسمح لأحد باحتضانه» وقفت نيفين وأولته ظهرها وقالت: «ولماذا خمنت أننى من طرف شريف شكرى؟ ألا يمكن أن أكون من طرف والدتك؟» نظر إليها وقال: «أنت ذكية جداً يا أستاذة نيفين» ردت قائلة: «اسمى نيفين فقط يا أستاذ أحمد. ما رأيك أن تنادينى باسمى وأناديك باسمك. سنصبح صديقين حميمين. ما رأيك؟»

وافق واقترب منها وسألته:

— ألا تحبك أمك أكثر شئ فى الحياة؟

— تحبنى ولكن...

حتى فى صداقته لنيفين كان ينتابه بعض الحذر، قال أحمد فى هدوء:

— ولماذا لم يأت شريف شكرى ليلعب معى؟ هل بعثك رسولا عنه؟

— طبعاً.. وواجب الرسول أن يكرم، لقد أطلت معك الكلام ولكنى

لن أسمح بأكثر من هذا

— لماذا؟ أتصرفين وتتركينى؟

— نعم

— ماذا أفعل حتى تظلى معى؟

— توافق أن أحتضنك وأقبلك.

— نحن أصحاب؟

— طبعاً. لن أبلغ رسالة والدك كرسول أمين حتى تنفذ ما أريد.

— أنت رسول ماكر.

— أتريد أن أظلم؟

— نعم

سمح لها بأن تحتضنه وتقبله. سعدت بحضنه. لكم تمنيت أن يكون شريف شكرى مكانها. إن حضنا مثل هذا قد يعادل لذة الحياة الدنيا كلها عند شريف. أدركت وقتها فقط لماذا لجأ شريف إلي فكرة اختطاف ابنه. كادت تبكي وهى تود احتضان أحمد واحتضان أبيه معاً، لقد شعرت أن الولد أيضاً يرغب فى احتضان أبيه، إنها تتمنى أيضاً ان تكون فى أحضان شريف هي الأخرى. قالت له فى ود ظاهر:

— اسمع يا صديقى

— نعم يا صديقتي
بدا عليه الاهتمام وأنصت إليها فى لهفة وهى تحاول أن تقلد والده:
— شريف شكرى يحبك جداً. قال لى أن أبلغك هذا حرفياً: «أحمد.
بابا لا يحبك» ثم غمز بعينه اليسرى هكذا، وقال: أحمد ابنى
رجل وسيعلم أن هناك ظروفاً قاهرة تمنعنى من الحضور إليه،
ولكنى سأبعث لك رسولى الخاص. اسمع يا أحمد. أحبها
واحترمها فهى صديقتك، مفهوم؟
أدار أحمد الكلمات فى ذهنه. إنه نفس كلمات أبيه ونفس طريقة
كلامه. وقف أحمد وقال:

— مفهوم يا بابا
نظر إليها فى مودة وحب وغمز بعينه اليسرى قائلاً: «بابا، أنا لا
أحبك»

دق الجرس معلناً انتهاء الفسحة ولذا كان على الصديقة الكبيرة أن
تأخذ بيد صديقها الصغير وتدخله إلى الفصل. كانت حصة مس منى
التي كانت تنظر فى تعجب إلى نيفين يسرى التي تلوح لصديقها
الصغير فى حب ولكنها تعجبت أكثر عندما لمحت دمعة غالبت نيفين
فغلبتها نازلة على خدها، ولكنها مسحها بيدها بسرعة خاطفة، ثم
جاهدت لتبتسم تحية لأحمد صديقها الجديد.

رسول آخر

لم تكد مس منى تنتهى من الحصّة إلا وكانت قد ذهبت إلى حجرة المدرسين، أخبرها عم صلاح الفراش أن هناك امرأة بانتظارها، خرجت مس منى من فصلها وهى تتصنع الجدية. صحيح أنها صارمة ولكنها لا تدري من أين أتنها هذه الصرامة. أكون قد جاءتها من فقدان أمها طيلة سنواتها الماضية قبل أن تلتقيها من بضعة أعوام فأرادت أن تثبت للدنيا وللعالَم أجمع أنها قادرة على ابتلاع حزنها بصرامتها، أم تكون قد جاءتها هذه الصرامة من جدية والدها ومشيته العسكرية التي قد تكون تقلدها وهى لا تدري.

إن منى ليست جميلة بشكل يخلب الأبواب ويسرق العقول. إنها ليست فاتنة الجمال، ولكنها تتسم بمسحة من الجدية يغشاها حلاوة ابتسامتها وروعة صرامتها. لا يمكن أن يكون محب الذي يطاردها منذ فترة إلا شهادة لحسنها والذي تعده أكبر دليل على أنها مرغوبة مطلوبة. إنها لا تفكر أبداً في الزواج من مبروك. إنها متعلمة ولديها طموحات كبيرة بإتمام الماجستير، في حين أنه لم يكمل إلا الدبلوم بشق الأنفس.

ومن عسى أن يزورها فى المدرسة؟ قد يكون أحد أولياء الأمور، يمكن أن تكون أمها جاءت إلى المدرسة؟ إنها تزورها كل خميس باستمرار. اتجهت إلى حجرة المدرسين. تري من تلك التي ستزورها؟ إنها تقضي الساعات مع أمها كل خميس فتشعر أنهما تسترقان هذه اللحظات السعيدة من الزمان. تحاولان أن تعوضا حرمان الأيام الماضية. تدفن رأسها في صدر أمها وتدفن جمالات نفسها في أحضان ابنتها وتقلب البنات في حضن أمها ولا تود أن تتركه، تود أن تعوض ما فاتها إذ أخبرها والدها عشمائى أن أمها ماتت وهى تدها. تقول في نفسها: «إن طعم حضن الأم لا يقاوم. صحيح أنني أحس بلذة كبيرة في أحضان أمي، إن حضن أبي أشعر فيه بالأمان بينما أجد الحنان كله في أحضان أمي»

لقد أخبرتني في المرة الماضية أنها ستسافر إلي الكويت حيث يعمل زوجها أستاذًا بالجامعة هناك. كيف ستقبل أن تترك والدها عشاوي في هذه الحياة بمفرده وقد كبر سنه وانحني ظهره وضعف بصره؟ لن تتركه أبداً. هكذا قالت لأُمها مفضلة معيشتها بجواره إلي أن تنتهي من دراسة الماجستير. رفضت دعوتها للذهاب معها إلي الكويت. أغرتها أُمها بالحياة الرغدة والحياة المترفة هناك فرفضت وقالت إنها تحب أن تكون في مصر. رُمقتها أُمها جمالات بغضب وقالت: «أنت فخرية مثل أبيك» غضبت مني فقالت أُمها: «طبعاً يا مني. كل فتاة بأبيها مغرمة. لو قلت لك ما فعله معي لهربت منه. إنه إنسان لا يحتمل» استنكرت مني قولها وقالت: «ماما، لو سمحت بابا لا يذكرك إلا ويقول الله يرحمها»

لقد جعلها ميتة وهي حية. لقد حرّمها من ابنتها طيلة هذه السنوات. قالت مني إن هذا كان بينهما ولا ذنب لها فيه. بكّت أُمها وقالت: «بحثت عنك في كل مكان ولكنه كان يتنقل كالحرباء من مكان لآخر حتي كدت أفقد الأمل في أن أجدك يا مني» رفضت مني أن تنعت أُمها والدها بلقب الحرباء وغضبت أُمها لأنها تدافع عنه. قالت لها: «وأنّا؟ ألا تحبين أمك؟»

قالت لها وهي تحتضنها إنها تحبها ولكنها ترفض أن تسب والدها، فادعت الأم أن والدها جعلها تكره أُمها ولكن مني أنكرت هذا الادعاء فقالت أُمها:

- أبوك طلقني ورماني كالكلبة من بيته
- لا أسعي إليك لألتقيك يا أمي لتتذكر الماضي بل لنفكر في المستقبل ولأشبع من حنانك
- حناني الذي حرّمك أبوك منه
- ماما، لو سمحت. هذا أبي ولا يمكن أن أنكر فضله
- وأنا أمك. يعني أنا بنت كلب؟
- أنت أمي ولك كل حبي وتقديري واحترامي
- أبوك حرّمني منك. لو حكيت لك سكرهين كل ذرة فيه
- لن أسمع منك. ألا تريد أن تربني ثانية؟ يكفي أنني أقابلك بدون علمه.
- بلغيه يا بنت عشاوي. بلغيه فقد يقتلني وتستريحين

- يقتلك؟ نحن في بلد فيها قانون وحساب
- سلامتها يا بلد. سلامتها أم القانون والحساب. بمصر يمكنك أن
- تعملي كل شيء بالجنيه كل شيء في مصر يمشي بالمال. تريدين أن
- تكسبي قضية عليك بدفع المال
- قصدك رشوة يا ماما؟ ضاعت البلد يا ماما
- ضاعت يا بنتي. تعالي معي إلي الكويت. الحياة هناك أجمل
- ولا توجد مشاكل
- لن أترك مصر يا ماما. لن أترك أبي. لن أترك بلدي
- إذا عيشي في فقر طيلة عمرك
- مصر ليست دولة فقيرة. عندنا زراعة وصناعة وبتترول وقناة
- السويس وشعب كبير
- مصر دولة منهوبة يا بنتي
- سكتت قليلا وكأنها أحست أنها أخطأت. نظرت لابنتها وقالت
- وكانها تتلمس أن تعرف إن كان أحدا يسمعها وخوفت ابنتها قائلة
- بأنها لا تتكلم في السياسة فقالت ابنتها:
- لماذا؟ أليست بلدك وتودين مصلحتها
- كنت أتكلم في السياسة ولكن لا فائدة
- لنحارب اللصوص والسارقين. نحارب من ينهب مصر
- أرجوك لا تتكلمي في السياسة
- أنا لا أخاف يا ماما
- أنا أخاف عليك يا بنتي
- لا مجال للخوف يا ماما. الجرائد تتكلم عن الفساد
- لشد ما أخشي عليك. لن أدعك في مصر. تعالي معي الكويت.
- الحياة هناك مختلفة
- قصدك الحياة هناك حر. قصدك لا يوجد نيل هناك يعني لا توجد حياة
- لن تشعري بالحر. المكيفات تملأ الدنيا. من أين أتيت بهذه
- الوطنية يا مني؟
- سأظل بمصر يا أمي. أنا مولودة وحب الوطن يملأ كياني
- قصدك ستظلين بجوار أبيك.
- نعم

- وتتركين أمك؟
- أنت التي تتركين بنتك. أقصد أنك تودين أن تتركي بنتك ثانية
- يا بنتي لقد تزوجت وزوجي هناك
- اذهبي لزوجك ودعيني
- أنت مسكينة لو تعلمين ما يحصل عليه المعلم هناك لزحفت إلي الكويت. يا بنتي لو نظرت إلي أبواب سفارة الكويت بمصر ورأيت المصريين يحومون حولها للمعيشة هناك
- ماما. أنا مصرية ولن أغادر مصر مهما كانت المغريات. مصر جنة الله في أرضه. إنهم يظنون أن الحياة في الكويت كالحياءة في الجنة. وقصدك أنهم يحومون حولها كالذباب وأنا لست ذبابة
- ظلي في الفقر بمصر يا بنتي. أقصد ظلي بجوار أبيك. اشبعي به
- يا روح عشاوي
- نظرت إليها أمها في غضب وقالت:
- هل تعرفين كم يساوي الدينار الكويتي؟
- يساوي أكثر من عشرين جنيهاً يا ماما ولكنني لن أسافر ولن أترك مصر يا أمي
- لن أكلّمك في هذا الموضوع ثانية يا مني
- خرجت من شقة أمها غاضبة وقد كانت تقترب من العزم علي عدم زيارتها هذا الخميس. يمكن أن تكون أمها قد جاءت لتثنيها عن عزمها هذا. إنها أمها وهي تحبها. ما هذا التعالي الذي تتحدث به أمها. لقد اقتربت لهجتها من أن تكون لهجة خليجية. هل انسلخت من مصريتك يا أمي من أجل دنانير الكويت؟ أنا مصرية يا أمي وسأظل هكذا وسأفخر بلهجتي المصرية. سأفخر بفقري. الأيام دول بين الناس. أين كانت هذه الدول منذ خمسين سنة ومصر تنحت أسس التاريخ وتشيد أعمدة الحضارة؟ كانت مصر وستبقى. مصرية أنا. أفخر بتاريخي وبلدي وأنظر إلي الحاضر في سخرية. ستتعدّل الأوضاع. لن تظل مصر هكذا. لا تدري لماذا تذكرت أغنية أم كلثوم أنا إن قدر الإله مماتي لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي
- والله صدقت يا حافظ إبراهيم. أيها الشاعر الرائع. فعلا
- وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبناة الأهرام في سالف الدهر كفوني الكلام عند التحدي

لن تموتي يا بلادي. أرضي بك يا مصر. لن أترك أبي ولن أترك بلدي. لقد حاولت أن تغريني بالملابس والمجوهرات. كل هذا لا يساوي نظرة من أعين تلاميذ بلادي. هل أذهب لأعلم هناك وأترك بلدي. أي حس وطني يا مني يركبك هذه الأيام؟ انظري إلي الحياة تتغير من حولك. المال صار مقياسا يقيس به كل الناس. يبدو أنني كما تقول أُمي فقيرة. أحب الفول والطعمية. وأمي تعشق الفول والطعمية أيضا. وأحب مصر وأهلها الطيبين.

اقتربت مس منى من حجرة المدرسين وقلبها يخفق. إنها لا تريد أن تتشاجر مع أمها. قد لا تكون الزائرة أمها. فلتخرج من تفكيرها ولترضي بمقابلة الزائرة مهما كلفها الأمر.

دخلت المدرسة. سلمت على الضيفة، الحمد لله. ليست أمها. إنها امرأة لا تعرفها. أخرجت مني بعض الكراسات. لم تتحدث المرأة التي أمامها. كانت تراقبها فى هدوء. لا تدري مس منى لماذا برقت صورة محب عاشور فى ذهنها، نفس لون العينين وطريقة النظر.

نظرت مس منى إلى المرأة نظرات تشجعها على الكلام، ولكن المرأة لم تتكلم، بادرتها المدرسة متسائلة:

— أطلب لك كوباً من الشاي؟

لم ترد المرأة، وإنما واصلت صمتها ونظراتها لمنى. كانت المرأة تتساءل فى نفسها قائلة: «كل هذا فعلته بك هذه المدرسة؟ إنها عادية جداً بل أقل من العادية، تصورت أنى سألتقى عيون الغزلان وبياض الفاتنات وروعة النظرات. يا ميل بختك يا محب. أبسبب هذه نلت علاقة ساخنة؟! تباً للحب ولسنينه، ماذا كانت ستفعل بك يا بنى إن كانت فاتنة الحسن؟! آه... أهذه التي جعلتك تكتب الشعر يا ولدي؟ إنها فتاة عادية جداً. ماذا كنت ستفعل لو كانت جميلة حقاً. إن ابنة خالك أجمل منها بكثير. آه يا لطيش الشباب!»

تعجبت منى من صمت الضيفة وعدم ردها، وتضايقت من نظراتها الموجهة إليها وكأنها بضاعة ستشتريها، تناولت الضيفة الشاي وقالت أول كلماتها:

— أولاً شكراً لكرم ضيافتك

ثم رشفت رشفة من الشاي ووقفت ودارت حول منى كأنها بضاعة
تعاينها، وسكتت من جديد، حاولت منى أن تشجعها وقالت متسائلة:
— وثانياً؟

لم ترد المرأة. أخذت ترمق منى بعيني خبيرة على أعتاب الخمسين،
حاولت منى أن تظهر عدم الاهتمام والهدوء بصرامتها وصمتها، لقد
كانت باردة كعادتها، نظرت أم محب إلى قسما وجه منى الخالية
من أية تعبيرات. لم يبد الارتياح على والدها والمنطقة التي تعيش فيها.
جمعت بعض المعلومات عنها وعن والدها والمنطقة التي تعيش فيها.
إنها ليست جميلة جمالا مبهرًا، ولكنها ذكية وملاحة تتسم
بالصرامة التي تعجب النساء الطاعنات في السن. إنها ثقيلة متزنة
صارمة لا تتسم بميوعة الفتيات في هذه الأيام ولا بتدللهن.

حالة من عدم الارتياح شملت المرأتين، الغموض الذي كان يحيط
بوالدة محب زاد من برودة منى اللامتناهية، أما تبلد منى فأصاب
الضيقة بالإحباط وجعلها تتساءل في نفسها: «تري ما الذي رمى بك
يا محب إلى بر هذه الفتاة السخيفة؟ ألم تجد من بنات حواء سواها؟
كيف ستتعامل معها؟ عندما سألت زميلاتنا كان رأيهن في منى أنها
باردة صارمة، ماضية في سفينة الحياة بلا رفيق سوى والدها الذي
يعمل بالشرطة، متحفظة في كل شيء، بلا صديقات مقربات، ماذا
أفعل يا محب في بختك الأسود؟! أهكذا كل مواليد برج العذراء؟
لقد سعدت بمولدك أيما سعادة وسعدت بنبوغك وتفوقك، أي برج
حالم هذا؟ يا لسوء حظك، صحيح أنت عبقرى ولكن هذه الفتاة؟
ألم تحب غيرها؟ كانت فترة صباه ومراهقته عفيفة لا عنيفة، أتصوم
كل هذا العمر ثم تفطر على هذه الفتاة؟ ألم تستطع فتاة من طالبات
الهندسة معك أن تخطف قلبك؟ كنت دوما تقول لي: يا أمي دراسة
الهندسة صعبة ولهذا اختفت كل هرمونات الاستروجين عند زميلاتنا
في الكلية، ومع التخرج سيصبحن رجالاً مثلنا. وهذه المرأة. هذه
المدرسة التي فلقت رأسى بها. إنها كالرجال في الطول. إن تقاطيع
وجهها غير مريحة إنها أقرب للرجال منها إلى النساء. صحيح أن
بها شيئاً يشد المرء إلي التقرب منها، ولكن.. ولكن أليست نوال ابنة
خالك أيها العبيط أجمل منها بعشرات المرات؟ أستغفر الله العظيم،

يارب.. أتكون قد أخطأت ودخلت جنس حواء عن طريق الخطأ أو الصدفة؟»

بدا الغضب والملل يتسرب إلى منى ولولا الغموض الذى يكتنف الزائرة لصرخت فيها ولطردتها من الحجرة. رمقتها والددة محب نظرات تنم عن الاستغراب والشفقة. لقد لمحت بضعة شعيرات أعلى شفتها العليا لم تنجح محاولات محاولات منى فى إخفاء هذه الشعيرات، ولما نظرت إلى ذراعيها بتمعن وجدت بضع شعيرات أخرى. لم تكن منى مزججة الحواجب. كانت تترك حاجبيها على طبيعتهما.

شرعت منى تصحح بعض الكراسيات أمامها. رُمقت أم محب فريستها من جديد. تأملت قوامها. إنها كالبوصة رفيعة جداً، صدق من قال أن مرآة الحب عمياء. بالأمس قلت له يا بنى إنها غير جميلة.. قال إنها أجمل نساء الكون فى عيني ثم شرع يقول: اسمعى يا أمى ما كتبته فيها: أعذبت بحار العمر بعد مطلع شمسها أم تراءت الأكواخ قصراً بضياء غرامها أتفجرت أحجار قلب بعد عشق جحيمها نهراً أضاء ظلمات الحياة بقربها أنراه بدرأ قد أهل عند مفرق شعرها أم أن شمساً قد أطلت إذ تبسم ثغرها أرأيت ينبوع السعادة إذ واقعت عيونها برماد حب أشعلته من لهيب حنانها بردت أشعاري خجلاً من أتون خدودها واني قتيل إذ أجوب في ركاب جمالها أسكته حتى لا يكمل ألفيته الخائبة. صدق من قال أن القبيحات أسعد حظاً من الجميلات. قال آتون خدودها قال؟ إنها صفراء يا بنى، يا بنى إنها باب من النيران سيفتح عليك، معقول أن تظن أنها جعلت بحار عمرك عذبة عند رؤيتها. يا إلهى أترى الأكواخ قصراً لأنك أحببتها؟ هل استطاعت أن تفجر أحجار قلبك إلى نهر يضى ظلمات حياتك؟ أترى الشمس عندما تراها تبتسم؟ ثم أى حنان لقد نلت بسببها علة نصفها موت، وذكرت لى أن ساكننا لم يتحرك لديها. أى حنان هذا؟ أيعقل أن تكتب كل أشعارك فى هذه الفتاة الباردة؟ واصلت الأم تخيلاتنا قائلة: «إن ظفراً من أظفار نوال يساويها، أهذا ما تريده يا قلب ولدى؟ نوال ابنة خالك، إنها تعشق التراب الذى تمشى عليه، كما أنها تدرس الطب وستخرج بعد سنوات، يا لتعاستك يا ولدى يا محب !!» لقد غضب منى عندما واجهته قائلة:

أن نوال أجمل منها بأكثر من عشرين مرة، قال: أحبها، يكفيني أن أحبها. يا بنى إنك تحبها من طرف واحد. قال لينهى كلامه معى وكأنه أراد أن يغيظنى بشعره الذى لا تستحقه هذه التافهة.

أحبها إن أشعلت بالقلب ناراً
يصلى الفؤاد ويلهب الأشعارا
أحبها بداراً سلب العقول وفجر الأنهارا
أحبها قدرا فتن الحياة وأسعد الأبرارا
نوراً شق النهى وضيع الأفكارا
دك الحياة وأنطق الأحجارا
كم أنبت الأشجار وأطرب الأوتارا
كم أسعد الأزهار وأنطق الأشجارا
قبل أن يحكى لى عن حبه كنت أقلب أوراقه وأجد ما يكتبه
من خواطر أو أشعار ولكنى ظننت أن يتسلى أو أنه يكتب لمحبة
مجهولة والشعراء يتبعهم الغاؤون إلى أن كانت الليلة المشئومة التى
أتانى فيها كسير الجسد بعد ضرب أضناه. أذكر أنى كدت أحفظ ما
قاله فيها وهو يتأوه وأنا مؤرقة لم أنم، كان يهذى ويقول:

ألف أحبك لا تكفينى	عشقك فى قلبى يرضينى
ذكرك بالفكر سيطعمنى	نطقى بالحب سيسقينى
قربى من نورك يؤلمنى	ونيران البعد ستكوينى
أعشق لقياك يا أملى	وغيابك عنى يفنينى
أحبك شمساً يا عمرى	ونسيم هواك سيهدينى

أهذه الصعلوكة هى التى أجرت أشعار الحب أنهارا على لسانك؟
أنترك نوال التى نعرف أصلها وفصلها من أجل هذه التافهة؟ أهو حكم
قلبك يا ولدى أن تتردى فى هوة هذه الفتاة وتترك الطيبة الجميلة؟
كاد صبر منى أن ينفذ من هذه الضيفة التى تتأمل ملامح وجهها
وجسدها، وقفت وقالت فى نفاذ صبر:

— هل حفيدك تلميذ عندى؟

لم ترد الضيفة وإنما وقفت كمن تتهياً للرحيل. أغلقت حقيبتها
ثم غادرت حجرة المدرسين ولم تنبث بنبت شفة. قطب جبين منى
وأمسكت المرأة من ذراعها فى قلة ذوق وقالت:

— لماذا كنت تتفحصيننى طيلة هذه الفترة؟

يا لسوقيتها فى التعامل !! سحبت والدة محب يدها برفق وربتت على
كتف منى التى سرعان ما أبعدت يد المرأة عنها بقلة أدب متناهية النظير.
خرجت الضيفة ومنى تكاد أن تغرق فى حيرتها من هذه الضيفة الغريبة.

ونيفين أيضاً تحب

أجواء رومانسية حاملة تسيطر على حجرة نيفين. موسيقى أم كلثوم تطرب فتاة السادسة والعشرين بعبق حب ملاً كيائها وزلزل أرجاء حياتها. حب ملك مكابح كيائها واستأثر بمقدرات حياتها. حب صار يسير شراع سفينة حياتها فلم يعد لها هدف آخر سواه ولم يعد لها طريق ثان إلا إياه. حب صارت لا تجد نفسها إلا فيه. حب جعلها أسيرة له فصارت هي نفسها لا ترجو منه فراراً أو تود الهروب من قيوده.

يزورها طيف هذا الحب الوليد كل يوم. يأتيها كلما تصحو ويظل معها إلي أن تغفو، وحتى في أوقات النوم أو الغفوة يأبى أن يتركها. يرافقها هذا الحب عندما تصحو علي أمل أن تلتقيه وأن تحدثه وتنظر إليه وتخبره بما يجوب قلبها ويوجع فؤادها. قد يكون هذا الأمل بعيد المنال أو وهما من الأوهام أو ضرباً من آفاق الخيال. يرافقها عندما تغفو علي أمل أن تغوص في أحلامها بلقائها معه فتحدثه كيفما تشاء وترتمي بأحضانه بعيداً عن أعين الواقع الذي قد لا يتاح لها إلا أن تنظر إليه فقط. إنها تظل متعلقة بنور الأحلام مكثفية ببريق الأوهام، ومع ذلك كانت أجنة هذا الحب تكبر وتنمو يوماً بعد يوم، وكانت ثماره تنضج مما يزيد من تعلقها به. حجرة أنيقة مرتبة وملصق على جدرانها بعض مقالات شريف شكرى وصوره، وهناك بعض الكتب المتراسة والتي كان قد ألفها شريف شكرى في فترات عمره المختلفة. قرأت كتبه كلها، بل حفظت الكثير من عباراته التي غالباً ما يرددها والتي يتميز بها في كتاباته عن بقية الكتاب. له مصطلحات كتوحش الرأسمالية في التسعينيات وتقول رجال الأعمال وتسيد الفساد ونمو الانحرافات التي صارت شجرة متكاثفة الأغصان يجب استئصالها من جذورها حتي لا يصير لها أي قرار أو استقرار. كان ينتقد بشدة أن يكون رأس المال شريكا في الحكم. أكثر من مرة كانت تود ان تقول له: «أستاذ شريف، إنني

أخاف عليك. يمكنك أن تنتقد ولكن بشكل غير مباشر» ولكن أني لها أن تحدثه سوي في نطاق عملها والذي يحدده لها بدقة متناهية. تود لو وقفت أمامه لتسمعه كلماته التي ألفها. تذكر كتابه الشهير «نيران الحب الأول» ودت لو أخبرته أنها حفظت جميع عباراته عن ظهر قلب. ووراء الباب قد علقت آخر مقال كتبه يتهم فيه ويسخر من محاولات خصخصة بعض شركات القطاع العام. تنظر إلي مقاله تحت عنوان: «عبدالناصر يؤم ونحن ندفن طريقه باتجاهنا إلي الخصخصة».

الموسيقي الرائعة تصب في روحها آلام الحب وزفراته. تشير في نفسها كل لوعات الحب وحسراته. تتجه واقفة تجاه أحد الكتب وتأخذه في حضنها، صحيح أنه كهل تخطى الأربعين ببضع سنوات، ولكنه نجم بارز في سماء الصحافة، ولقد وثق فيها، جعلها تقابل ابنه ولقد نجحت في مهمتها أيما نجاح. لقد صار أحمد صديقها. أخذت تتساءل في نفسها قائلة: «ولماذا أنا؟» لأنه يثق في أم أنه يحبني؟ لا. لا يعقل أبدا. أفريقي وعودي إلي رشدك أيتها المجنونة. ما أنا إلا سكرتيرة بين يديه. لو كانت لديه سكرتيرة أخرى لطلب منها نفس الشيء».

لم تنس أنه.. أمسك بيدها وكأنما تحتضن يدها. إنها لا تزال تشم رائحة يده في يدها. عبق رائحته يعم تفكيرها ويخص يدها ويدمي فؤادها. نظر في عينيها وأوصاها بابنه، تساءلت في نفسها: «أيعقل أن ينظر إلي أنا؟! سكرتيرته، إنى لم أحصل على نصف تعليمه. لقد حاز الماجستير في الصحافة. هو نجم رائع في سماء الصحافة... لا... قمر. إنه قمر عمري الذي أثار حياتي وأثري قلبي بعد أن كان لا يشغله شاغل ولا يحول دون هدوئه أي حائل».

صوت أم كلثوم يصدّق كلماتها عندما تقول: «هذه الدنيا عيون أنت فيها البصر... هذه الدنيا سماء أنت فيها القمر»، عندما توالى الموسيقي أحست نيفين أنها تريد أن تطير في أجواء هذا الحب الذي كبلها بالجريدة أكثر من خمس سنوات. لقد عرضت عليها فرص كثيرة للعمل في جرائد ومجلات أخرى ولكنها كانت تتشبث بمكانها كسكرتيرة لمدير تحرير جريدتها ولرئيس تحرير حياتها. لكم ودت أن

يكتب كلمات الحب على قلبها وأن يمطرها بوابل من أعمدة المشاعر الملهبة وأن يكتب تحقيقات عن حب ملأ مشاعرها وتملك نفسها. أى حب هذا الذى أصابها بآثاره وغشيها بنيرانه؟ أتعيش فترة مراهقة جديدة ألقتها من قبل عندما كانت فى الدبلوم؟ لا.. إنها متأكدة من أن حبها يائس بلا أمل. إنه حب لقيط. لا.. إنه حب ولد ميتاً. ولد فى أرض قاحلة، فلا أمل فيه ولا رجاء. لقد وصلت إلي هذه السن ولم يطرق باب قلبها طارق. ومن ذا الذى يرضي أن يتزوج من فتاة لا دخل لها ولا عمل إلا أن تكون سكرتيرة وابنة لرجل فقير لا يمتلك إلا معاشه الضئيل الذى تلتهمه الزيادات المستمرة فى الأسعار؟ يجب أن تفيقي يا نيفين. هكذا كانت تحدث نفسها. إن كان الأمل لا يوجد فى الزواج فماذا أفعل؟ من الذى يتزوج هذه الأيام؟ لقد صارت العلاقات مفتوحة بين الجنسين. الإنترنت والمحمول والكورنيش واللقاءات التى تقتنص فيها القبلات والأحضان بعيدا عن العيون المتحفزة للانتقاد أو أمام أعين المارة. الشباب يشتكى أين نتزوج وكيف؟ كيف نتزوج ولا أمل موجود ولا عمل مضمون. حتى وإن عملت فى القطاع الخاص قد يتم طردى فى اليوم التالي، والقطاع العام إما أنه يباع وإما أن أصحاب الوسائط والرشاوي والمحسوبيات يتم حجز الأماكن لمن يعمل فيه مسبقاً، وطالما أنه لا يوجد أمل فى الزواج فلماذا لا يكون الحب الذى لا هدف له ملاذا وملجأ لمن لا يمتلك سواه؟

منذ سنوات أتاها خاطب عن طريق قريبة لوالدها فاشترط على أبيها أن يأتي لها بجهاز بمواصفات معينة وبالأجهزة الكهربائية وبفرش للشقة التى أخذها بالتقسيط على عشرين سنة. نظرت إليه فى احتقار وطرده شر طردة، وطردت معه أي أمل فى زيجة أخرى. أكثر من خمسة ملايين من مثيلاتها لم يتزوجن ولن يتزوجن. العنوسة رضية بها ورضيت هي بالعنوسة. كانت تبتلع نظرات الجيران والأهل وكأنها تبتلع الحنظل. تود لو استطاعت أن تصرخ قائلة: «هذه ليست مشكلتي هذه مشكلة جيل بأكمله» وتتعجب أكثر عندما تسألها زميلة قائلة: «ولماذا لم تتزوجي حتى الآن؟» وهل هذا سؤال أيتها الحمقاء؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟ هل أجر أي رجل

التقيته وأضربه علي يديه حتي يخطبني وهل سأنتظره إلي أن يبلغ الخمسين حتي نستطيع أن نتزوج؟ أية معيشة هذه التي نحياها في مصر؟ كل شئ في الحياة صعب بل يكاد أن يكون من المستحيل. حتي رغيف الخبز صار لا يحصل عليه الفرد إلا بشق الأنفس. الماء والكهرباء وأنبوبة الغاز. ارحموني ولا تنظروا إلي علي أساس أنني سبب العنوسة في هذه البلدة.

كل ما يقوله لها الأستاذ شريف ليست إلا مجرد أوامر من رئيس إلى مرؤوسه ، كانت تحلم الليالي الطويلة أن يناديها ويتغزل في شعرها وفي عينيها. تتمني أن يلمس يدها. أن يمر بشفتيه الصارمتين علي خديها أو شفتيها. دائماً كانت تفيق علي طلباته... اطلبى رئيس التحرير... اتصلى بهذه المصادر... كلمى المطبعة.. تأكدى أن مصحح اللغة العربية قد انتهى من آخر كتاب لى.

أين أنا منك يا شريف شكرى؟ ألسنت حبيب قلبي ، وملكى المتوج الذى اخترته ليملاً عرش حياتى؟ وحتى عندما كان لا يحدثها فى العمل وشئونه كان يحدثها عن مشاكله مع زوجته عندما احتدم الخلاف بينهما وكاد أن يصل إلى الطلاق أكثر من مرة. كانت تطلب منه الصبر والهدوء مع زوجته أمينة صبرى ، الصحفية التافهة التى صنعها وجعل منها اسماً يتلأأ فى عالم الصحافة. إنها اعتقدت أنها صارت صحفية. إنها تذكر أول مرة استلمت فيها العمل. كانت هذه المرة أيضاً أول مرة ترى فيها شريف شكرى حقيقة ، كانت تقرأ مقالاته وكتبه ، أما الآن فإنها أمامه مباشرة ولا يفصل بينهما سوى خطوات. إنه أجمل بكثير من الصور التى تنشر له وإن كان قد كبر فى السن قليلاً وزانت رأسه شعيرات بيضاء تزين سوافه ومقدمة رأسه. خرج من مكتبه ورحب بها.

نهضت واقفة وسلمت عليه ، وكما رأتة سريعاً انصرف سريعاً فلقد كان لديه أحد الاجتماعات مع رئيس التحرير. دخلت امرأة ممثلة القوام بعد ما خرج بدقائق. اقتحمت المكان ثم دخلت عنوة إلى مكتب رئيسها بدون استئذان ، عجبت عندما لم تمنعها زميلتها السكرتيرة الثانية معها في المكتب من الدخول والتي كانت قد استلمت عملها قبلها بشهور قليلة. إنها تعمل مثلها في هذا المكان

بعقد يجدد سنويا وقد لا يجدد كما تقول زميلتها.
وقفت نيفين وأسرعت خلف هذه المرأة الممتلئة التي تسير بخطى
سريعة وقالت فى هدوء:

— سيادة مدير التحرير غير موجود يا أفندم. ممنوع.
لم تعرّها المرأة أى اهتمام ولكنها دخلت مكتب مدير التحرير. لم
تنتبه نيفين إلى إشارات زميلتها إليها بأن تسكت وأن تدعها تدخل.
حاولت نيفين إبعاد المرأة عن الدخول إلى مكتب شريف ولكن المرأة
بوقاحة دخلت ثم جلست على المقعد المواجه لمكتب شريف ثم وضعت
ساقاً على ساق وأشعلت سيجارة فى هدوء. أخذت تهز ساقها وتقول
متسائلة فى سخرية:

— ما الممنوع يا شاطرة؟

دخلت زميلة نيفين إليها وحاولت إخراجها من غرفة مدير
التحرير ولكن نيفين شعرت بالإهانة. فأمسكت نيفين المرأة الممتلئة
من يدها مما أوقع السيجارة من يدها الأخرى. وبان جزء كبير
من فخذ المرأة. جذبت المرأة يدها من يد نيفين وقالت فى غضب:

— يبدو أنك قليلة الأدب

— أنا قليلة الأدب؟

— طبعاً

— لو سمحت تفضلى اخرجى يا هانم الأستاذ شريف ليس موجوداً.
فشلت كل محاولات زميلة نيفين أن توقفها، وبكل قوة شددت
نيفين المرأة وأخرجتها بالقوة من المكتب ولم تنتبه نيفين إلى
إشارات زميلتها أو تجاهلها ربما عن عمد حتى تنفث عن غضبها.

خرجت المرأة من المكتب ثائرة وقالت وهى تتأفف ثائرة:

— لا أدري يا شريف من أين تأتون بهذه الحيوانات؟

شعرت نيفين أن كرامتها قد ذبحت فوقفت من فورها وقالت:

— الحيوانات هى التى تدخل مكاتب الناس بقلة ذوق

— أتردين علىّ يا وقحة؟

— أنت البادئة يا قليلة الذوق

— عال يا شريف. إنك تأتى بتحف إلى مكتبك. والله لأجعلنه يفصلك.

— اطمئنى. هذا أول يوم لى هنا، وأنا التى سأترك المكان.

- فى ستين داهية.
- ومن أنت أيتها البغلة حتى تجعليه يفصلنى؟
- أنا ستك يا بنت الكلب.
- ستى ماتت يا هانم يا مؤدبة.
- جلست المرأة الممتلئة بعد أن أعيتها المشاجرة. خرجت زميلة نيفين برهة ثم أحضرت لهذه المرأة الممتلئة عصير ليمون وقالت فى خنوع:
- تفضلى يا أستاذة. هدنى نفسك. أنا آسفة
- ثم أشارت المرأة الممتلئة إلى نيفين بأصبعها فى احتقار وقالت متسائلة:
- أهذه هى السكرتيرة الجديدة؟
- شربت المرأة الممتلئة قليلا من العصير ثم انتفضت قائلة لزميلة نيفين:
- والله لن تستمر فيها.
- ووجهت حديثها إلى نيفين قائلة:
- اخرجى حالا من هنا أيتها الوقحة.
- اغتاضت نيفين قائلة:
- إنه مكان عملى. اخرجى أنت أيتها البومة.
- كادت المرأتان تتشابكان من جديد. ولكن المرأة الممتلئة خرجت بعد أن رمت كوب عصير الليمون الفارغ اتجاه نيفين ولكن الكوب لم يصبها.
- بصقت نيفين فى وجه هذه المرأة الممتلئة وقالت فى تساؤل ساخر:
- والله لا أعرف من أين يأتون بمثل هذه الأشكال الوسخة؟
- بلغ الجهد من المرأة مداه، قالت فى صياح وهى تنظر بقرف إلى نيفين:
- طيب يا شريف.
- ردت نيفين قائلة:
- اسمه الأستاذ شريف
- أستاذ عليك وعلى جميع أهلك وعلى كل الناس إلا أنا. أنت أيتها الحقيرة لا تعرفين مع من تتكلمين؟
- هل أكون أتكلم مع السفيرة عزيزة.
- احفظى أدبك أيتها الجربوعة.
- وأنت احفظى أدبك أيتها البومة.
- معركة حامية الوطيس. المرأتان متنمرتان ومتحفزتان للنزاع من جديد وزميلة نيفين فى حيرة من هذا الموقف الذى اندلع فجأة

وأشعل النيران في المكان. أخرجت المرأة الممتلئة تليفونها المحمول وقالت بصوت مرتفع وهى تصوب بصرها تجاه نيفين وهى تدمع :
- اترك ما بيدك الآن وتعال هنا.. لا يهمنى مع من تكون.. حتى ولو كنت مع رئيس الجمهورية لا رئيس التحرير. تعال فوراً... لقد أهينت زوجتك.. لقد أهينت فى مكتبك. أنا أمينة صبرى.. آه لقد أهانتنى. ثم ارتمت على المقعد باكية.

ووقتها أدركت نيفين خطأها الفادح. جلست هادئة. إنها لم تهزم. ما ذنبها إن كانت زوجة مدير التحرير وقحة واستفزتها. ظلت هادئة إلى أن جاء شريف شكرى بهدوئه المعتاد بعد دقائق. أمسك زوجته بهدوء وقال :
- ما الأمر يا حبيبتي؟

شعرت أمينة بنوع من الاسترضاء ووقفت فى شموخ وقالت وهى تشير إلى نيفين فى احتقار :
- اطرده هذه الحيوانة من هنا

ربت على ظهرها وأدخلها مكتبه ثم طلب لها عصير ليمون. صرخت قائلة : «بلا عصير بلا زفت» دخلت المرأة معه مكتبه وهى تنظر بشئ من الاحتقار تجاه نيفين يسرى والتى جلست على مقعدها فى هدوء وكأنها لم تفعل شيئاً فى حين كان شريف يهدئ زوجته ويطلب منها أن تهدأ. أما زميلة نيفين فقالت فى شبه استسلام لزميلتها :

- كنت أشير إليك وأنت لا تفهمين إشاراتي. إنها زوجته
- عرفت أنها الزفزة زوجته

أشاحت نيفين بيدها ورفعت رأسها بلا اهتمام وكأن الأمر لا يعنيهها ثم أخرجت ورقة بيضاء وكتبت :
” الأستاذ شريف شكرى تحية طيبة وبعد...

كنت سأتشرف بالعمل معك ولكن هذه المرأة اقتحمت مكتبك دون استئذان. لم أكن أعرف أنها زوجتك ولكنها استفزتني. أشعر أنها لا تناسبك أيها النجم اللامع فى سماء الصحافة. يا من كنت أشعر أنه ملك على عرش صاحبة الجلالة، سأترك المكتب ولن أعود. اطلب من زوجتك أن تسامحنى فأنا لم أكن أعرفها. يبدو أنك من طينة غير طينة هذه المرأة الشرسة. المخلصة التى تقرأ

لك دوماً وتلميذتك نيفين يسرى»

ألقت الورقة على مكتب زميلتها وخرجت رافعة رأسها في عزة وكرامة، وكان شيئاً لم يحدث في حين كانت زميلتها تشعر بالأسى لحال نيفين التي لم تكمل سوى ثلاث ساعات في وظيفتها الجديدة. صوت أم كلثوم كان يشدو «فارحم القلب الذى يهفو إليك.. فغداً تملكه بين يديك.. وغداً للمستقبل الزاهر نحيا.. نحيا.. قد يكون الغيب حلواً إنما الحاضر أحلى» الجمهور يصفق لكوكب الشرق وقلب نيفين يصفق لها. أعادها صوت أم كلثوم من الحاضر إلى الماضي ثانية. ذات يوم هانئ سعيد منذ خمس سنوات طرق أحد باب شقتها.. فتح أبوها الباب. تقريباً في اليوم التالى لواقعتهما مع أمينة صبرى. كانت غاضبة مستاءة من حظها. نامت أكثر من عشرين ساعة. دخل أبوها حجرتها وأيقظها. كان باب حجرتها الذى يؤدى إلى الصالة مفتوحاً. قال أبوها: «إن شخصاً يريدك بالخارج» تثاءبت وقالت: «دعنى أنام يا أبى أرجوك. أنا متعبة جداً ثم واصلت: «لا أريد أن أقابل أحد ولا أريد لأحد أن يقابلنى، دعنى أنام. أنا سيئة الحظ ولا أريد أن أتشاجر مع أحد ثانية». استلقت على فراشها واستعد الأب للخروج إلا أن الضيف تحرك من مكانه فى الصالة ودلف إلى غرفة نيفين بعد أن استأذن والدها وكان قد حكى له قصة الأمس وقال بهدوء:

— أستاذة نيفين

شعرت أنها تحلم. إنه صوته. لقد أحببت هذا الصوت. انشغل الضيف بمتابعة صورته على الحائط ومقالاته واستعرض بعض الكتب التى تحمل صورته. إنها أنفاسه، إن نيفين تشعر بأنفاسه.. إنه هو.. إنه شريف شكرى. أيعقل أنها تحلم؟ حاولت أن ترفع الغطاء عن وجهها.. لقد تأكدت أنه شريف شكرى بنفسه. جلست على السرير وأصلحت شعرها وقالت فى تعجب:

— أهلاً وسهلاً. الأستاذ شريف شكرى فى بيتنا. أنا لا أصدق

ثم وجهت حديثها لوالدها قائلة:

— بابا.. أنا لا أصدق. الأستاذ شريف شكرى هنا

نهضت من سريرها ونظرت لنفسها نظرة رضا فى المرأة. إنها

جميلة لا تحتاج إلى مساحيق. توجهت إليه وقالت :
- أنا آسفة لما حدث

قال بهدوء وتسامح ممتزج بالتواضع :

- لا حاجة بك إلى الأسف. زوجتي مخطئة.

ثم توجه إلى أحد مقالاته التي علقتها على الحائط وقال :

- يبدو أنك قرأت كل ما كتبتة

- طبعاً يا أستاذ

- زوجتي فظة غليظة. سامحها. أنا آسف. أيرضيك مجيئى إلى

هنا؟ أم تريدان أن أحضرها إليك هنا لتعتذر إليك؟

- لا يا أستاذ شريف. لقد شرفتنا.

نظرة واحدة التقت فيها العيون. عينا شريف بهدوءه

وتواضعه ونظرات عيني نيفين التى تعجز عن الشكر والتقدير.

انطفأت ذكريات الماضى داخل نيفين وعادت إلى الحاضر مع موسيقى

أم كلثوم. أسكتت التسجيل وصرخت فى حب يائس مرردة: «أنت

خلتني أعيش الحب وياك ألف حب.. كل نظرة إليك بحبك.. آه..

بحبك من جديد وأفضل أحب.. كل الناس حلوين.. فى عينا حلوين

طول ما عينا شايغة الدنيا وأنت قصاى.. آه.. أنت خلتني أعيش

الحب وياك ألف حب.. آه... وظلت تردها أكثر من مرة حتى

نامت وهى تحتضن حبا ملاً حياتها وصار يسير شراع سفينة حياتها

ولكنها لا تعرف إلي أين يسيرها..

سامية تخطط

قبيل المغرب ، وقبل أن يخفت ضوء النهار ليهبط ظلام الليل مؤذنا بنهاية نهار كان يعني الكدح والشقاء لسامية في محلها ، كانت عينا زين جمعة تتسعان دهشة وفرحة عندما كان يتلصص ببصره خلف شيش شباك النافذة في حجرة نومه التي زعم أنه سيستريح فيها قليلا . دخل حجرته علي أطراف أصابعه وكأنه يغافل زوجته السمينة . ظن أنه أغلق باب حجرته وراءه ، ولكنه لم يكن قد أغلق الباب بالفعل . أراد أن يتمعن في جسد سامية بدون أن تراه . أراد أن يراها من حيث لا تراه . إنها لدنة طرية ملفوفة القوام . بضة طويلة لا مدكوكة سمينة كزوجته بقرية الجسد . أحب أن يري منها رغما عنها و خفية ما لا يستطيع أن يراه منها برغبتها . إنه أحيانا ما كان يغافلها ويسترق النظرات إليها وهو يقطع اللحم أو يتعامل مع الزبائن .

في البداية كانت تشعر أن نظراته الزائغة تحرق جسدها وتخترق حياءها وتعريها من ملابسها . كانت تضع يدها علي جلبابها لتتأكد أنه بالفعل لم يقم بتعريتها من ملابسها . كانت تشعر أنه يتأمل كل جزء في جسدها بشهوة عارمة وبرغبة طامعة . شعرت وكأن عينيه تنطقان بالرغبة . لم تستسلم لنظراته أبدا ، ومع مرور الزمن صارت تتجاهل نظراته ورغباته . وماذا تفعل نظراته بها ؟ فلينظر . الكل ينظر إليها ويطمع فيها . أليست ملكا مشاعا للجميع كما يظنون ؟ لقد مات زوجها وتربصت بها العقول والعيون ، وشحذت لها السنة حداد لتلوك سمعتها . ماذا يمكنها أن تفعل ؟ لا يمكنها أن تضرب العقول أو تفقأ الأعين الناضرة إليها والراغبة فيها ، ليس لديها القدرة علي قطع السنة الناس التي تتحدث عنها خلسة . فلتواصل حياتها ولتكدح ولتكسب رزقها بعرق جبينها . كانت تعلم أنها مرغوبة مشتتهة . جميلة مبتغاة . ولكنها تعلم أن كل من يشتهيها لا يرغبها في حلال ، وإنما يرغب فيها ساعة من نهار ثم يزهدا ليلا ويلفظها بعد أن يقضي وطره ويشبع جوعه ويروي عطشه منها ولو

مرة واحدة. حتى تلميحات المعلم زين لها وتصريحاته المغطاة بمناسك الرغبة والمزجاة بأوتار اللهفة لم تكن تشعر بها سوى وسيلة للإيقاع بها واصطيادها.

كانت تجلس أمام دكانها تتحسر على زوجها العجلاى السابق الذى مات وتركها وحيدة تواجه مصاعب الحياة، ولم يترك لها سوى هذا الدكان. دكان تعمل فيه نهارا وتتعامل مع الأطفال. وحجرة واحدة خلف الدكان تببت فيها طيلة الليل، نهارا تؤجر لهم العجلات وتصلح ما أفسده الصغار أثناء لهوهم. تأخذ ما يكاد يسد رمقها بالكاد، وليلا تبطح علي سرير معدني رخيص. لم تنجب له ولدا ولا بنتا. كان زين يتعجب من كل هذه الأنوثة الطاغية. كان يتساءل وهي تفجر فيه بجلستها كل طاقات الرجولة التي كبتها زوجها، كيف لم تحمل هذه المرأة الفاتنة من زوجها؟ يبدو أن العيب منه. لقد تزوجته ثلاث سنوات. آه لو تزوجتك يوما واحدا يا سامية !! سأنجب منك عشرات الأطفال.

جلست على أحد الكراسي ثم فردت ساقها على كرسى مقابل. لم تنتبه إلى آثار الرياح فكشفت الرياح طرف جلبابها، ظهر بياض ساقها. ود زين لو استطاع أن ينزل بسرعة ليلمس هاتين الساقين اللتين بدتا له كوجبة شهية تنسيه القرف الذى يراه مع زوجته التى أكل الدهر عليها وشرب. ينظر زين إلى فتحة صدر جلباب سامية ويشتهيها، يغمض عينيه ويتمني ان تكون له ولو للحظات. يقول في نفسه: «هذا أفضل مكان يمكن لي أن أري منه صدرها النافر الذي يشي بأنوثة فاتنة ولذة قاتلة. إن الدور الثاني في بيتي نعمة. مكان مرتفع أستطيع أن أري منها ما لا يمكن لأحد رؤيته. يمكنني أن أري اكبر مساحة من صفحة عتقها شديدة البياض. أنت ملكة سأضعك علي عرش قلبي يا سامية. رفعت سامية بصرها إلى السماء، انتفض زين خوفا وفزعا. أتكون قد رأته من خلف الشيش؟ لا. دخل قليلا بعيدا عن نافذته. لا يمكن أن تكون قد رأته. انتبهت فأغلقت فتحة جلبابها وغطت ساقها. عاودت تفكيرها في حياتها. كانت تفكر كيف ستدفع إيجار المحل والحجرة التي تسكنها للمعلم زين، في حين كان يماني زين نفسه بأحلام عريضة ويتساءل: «كيف يمكنني أن

أراها عارية تماما؟ كيف يمكن لي أن أحتويها في صدري؟
ولسوء حظه كانت زوجته تراقبه. لقد ضبطته متلبسا بالنظر إلى هاتين
الساقين الفاتنتين. كان لعبه يسيل وهو يقترب من شبك البلكونة
عساه يري منها أكثر مما رآه من نافذته أو لعله يراها من زاوية
أخرى. لقد أصبحت نجمته الفاتنة ونعمته الوحيدة ولذته الحميمة.
يود أن يصيح: «آه.. هذا هو اللحم المعتبر. جزار. أنا جزار. البنت
حلوة. آه حلوة وبيضاء. أى ساقين هاتين؟! ساقان من المرمز. حورية
أنت يا سامية. جوهرة ولا تعرفين من الذى يريد أن يقتنيك»

خرجت كلماته وهو يجاهد نفسه ليرى أكبر قدر ممكن من ساقى
المرأة من خلف النافذة، ولكنها كانت قد غطت نفسها. يبدو أنها
ستقوم لتغلق الدكان. دقائق ويحل الظلام. عليها أن تستريح وأن تنام
استعدادا ليوم غد حيث الشقاء والعمل ثانية. أحس بيد تقترب
من كتفه. نظر خلفه فلم يجد أحدا. إن تهيؤات واهمة تحيط به.
آه لو أستطيع أن أكون معك يا سامية ولو لليلة واحدة، وماذا
يضر الرجل منا أو يعيبه إذا تزوج؟ إننى لا أجد منها رداً حلواً.
وما المانع من أن أتزوجها؟ أنا رجل أحب الحلال ولكن طرق
الحلال مسدودة فى وجهك يا معلم زين. أتراها ترضي بك؟
لا شك أنها سوف تسعد أيما سعادة عندما أطلب أن أتزوجها. برم
شاربه المفتول وأحكم وضع العمامة على رأسه ثم نظر إلى المرأة برهة
بطريقة تنم عن رضاه بنفسه ثم نفخ صدره وقال في فخر: «أنا زين
جمعة أكبر جزار فى المنطقة على سن ورمح. يا سعدك يا هناك يا
سامية. هى تطول؟ معلم بقدر الدنيا كلها. كفاك كلاما يا رجل..
المهم الفعل. سأنزل فوراً، سأجعلها تطير من الفرح. هذا نصيبها.
مات المغفل وترك هذه المرأة الرائعة. امرأة مهلبية. أقسم بالله إنه
مغفل. أيموت من يتزوج بهذه القشدة. ملبن. إنها امرأة ملبينة القوام
والهيئة. أموت فى الملبن. يا عينى على الملبن».

كانت كلماته تخرج منه بهدوء وبصوت خفيض إلا أنه شعر بنفس
اليد التى كان يشعر بوجودها منذ قليل، كان يعتقد أنه بمفرده فى
الحجرة وما كاد يلتفت إلا ووجد أم مبروك أمامه. ارتبك قليلا ولكنه
عاد بصوته الأمر يقول مخاطبا المرأة فى تساؤل: «أنت واقفة من فترة

طويلة يا أم مبروك؟» لم ترد المرأة. نظرت إليه فى غيظ وقالت: «من دقائق يا حاج زين، يا حاج بيت الله، يا مصلى، يا أبا الأولاد». خفض الرجل عينيه فى الأرض حياء وخجلا ولكن العنجهية الفارغة جعلته يرفع صوته متسائلا فى غضب إن كانت هنا منذ فترة طويلة، لم ترد المرأة. نظرت فى عينيه بشكل ينم عن الاحتقار. كانت تتحاشى أن يراها على الرغم من أنها وضعت يدها على كتفه منذ أول دقيقة دخل فيها الحجر. تذكر أنه استشعر يدها فقال لها متسائلا فى ذهول: «وهل رأيتنى؟ أقصد...» مسح عرقه ثم قال وهو يضغط على أضراسه: «البتت مسكينة...» قاطعته قائلة: «تقصد المرة قليلة الحيا». بادرة طيبة. ولكنه تأكد أنه تكلم ووصفها بالملبن والقشدة. غض زين رأسه حياء. شرع يتفحص حسنية بجسمها البرميلى أو البقرى كما يحلو له أن يصفها عندما يتشاجران. أكان ينظر إلى طاقة من طاقات الجنة منذ لحظات فإذا به الآن أمام طاقة من النيران تفتح له عندما يري زوجته. سكنت المرأة قليلا ثم اقتربت من الشاب وأغلقت الشيش. اتجهت إلى الشاب لتغلقه. أسرع زوجها وحاول أن يشدها من يدها حتى لا ترى ساقى سامية، أبعدت حسنية يد زين وشهقت قائلة بنفس طريقتة عندما رأى ساقى سامية: «آه... رجلها حلوة...» تصنع زين الغضب بعد ان تيقن انها رأتها وأنها كانت تراقبه، وقال فى عصبية: «ما قلة الأدب هذه يا مرة؟» نظرت إليه فى عتاب وقالت وكأنها تريد أن تبين له أنها رأتها وكشفته: «أقول أنا هذا الكلام أفضل من أن تقوله أنت. هل أنا قليلة الأدب يا معلم؟» ربتت على ظهره وقالت: «ما رأيك فى أن تتزوجها يا سبعى يا جملى؟» غض الرجل بصره عن زوجته حياء. دق جرس الباب فذهبت المرأة البقرية اللحم على حد قول زوجها لتفتح الباب، أغلق بابه خلفه تماما. المفتاح فى جيبه. تحسسه ثم عاود التلصص لرؤية ساقين فى غاية الجمال. تأكد أنه أحكم إغلاق الباب وعاد إلى فانتنته. لا شك أنه توصل إلى قرار أكد لنفسه فيه أنه يحبها فليتزوجها ولن يمنعه أحد. هل حرام أن يتزوج الرجل؟ لا.. من حقه أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع ولو عارضت زوجته فسيضربها بأقدم حذاء لديه.

هذه المرأة سامية دماغها ناشفة. لقد حاول أن يتقرب منها وأن يتبسط معها ولكنها كانت تصده بنظراتها و بكلماتها. وما يدريك يا زين أنها تتمنع وهي الراغبة؟ طيب ومن يدريك أنها فعلا تريدك؟ ألا يمكن أن تكون قد عرفت شابا آخر وتحبه ويحبها؟ من أين يا حسرة؟ إنها مرمية فى هذا الدكان منذ الصباح إلى المساء، يأتى الأطفال وتؤجر لهم العجل ثم تأخذ الأجرة. جنيهاً معدودة. وفي المساء لا تخرج. إنه يجلس إلي أوقات طويلة أمام بيته يدخل ويسعل. إنه متأكد أنها لا تبارح حجرتها ليلاً. أنا لها، لن أتركك يا سامية. سأفعل كل شئ من أجلك. شعر بوخزات الحب تنطلق فى قلبه، حاول أن يلتصق بالشباك أكثر عله يرى أكبر قدر من ساقها. آه.. يا للحظ التعس !! لقد أنزلت سامية رجليها ولقد تغطت بغطاء الليل. تجراً وفتح الشباك ونظر إليها فى وله، إن روحه تتوق إليها. تلاقت عيناهما فى غبشة المساء. هو بوقاحته المعهودة وكأنه يقول لها: لقد رأيت ساقيك. ردت سامية بعينيها: لقد رأيت مني رغماً عنى. صرف زين بصره عن المرأة مؤقتاً ثم عاد إليها قائلاً: «مساء الفل يا ست سامية.» امتعضت المرأة ولم ترد. لمح زين ابنه مبروك يقترب من دكان سامية. رفع مبروك صوته بتحيتها ولم يكن قد لمح والده. قال مبروك كلماته من صميم فؤاده ثم سألها إن كانت تريد أية مساعدة. لم ترد سامية ولكنها رفعت بصرها إلى أعلى لعل مبروك يفهم أن والده يقف فى الشباك ولكن مبروك لم يفهم. اقترب مبروك من سامية وجلس على الأرض وساعدها فى إغلاق الدكان. كان يود أن يقبلها. الولد كانت بعينه نفس نظرات أبيه. إن مبروك يشتهيها أيضاً وهي تعلم هذا، ولكن نظرات مبروك أخف وطأة وأقل حدة من أبيه المتنجح، وقفت ونظرت إلى أعلى وقالت: «شكراً يا سيد المعلمين. شكراً يا معلم زين يا زينة رجال الحى» وقف مبروك مذعوراً ونظر إلى أبيه الذي لم يكن قد رآه قبل كلمات سامية وألقى عليه تحية المساء. كاد زين أن يستشيط غضباً وقال بصوت قوى من صميم حنجرته: «أتركك محلك يا بغل وتجلس تحت قدمي سامية. اطلع فوق يا مغفل. اطلع بسرعة» ارتج جسد مبروك كله

- خَوْفاً وفزعاً وهرع بأقصى سرعة ليلبى طلب والده.
- ابتسمت سامية وقالت فى دلال :
- بالراحة على الولد يا سيد المعلمين. من أجل خاطرى برم زين شاربه وقال :
- خاطرك غال علىّ يا أحلى الستات رmqته سامية برضا مصطنع وقالت :
- والنبنى خف عليه يا معلم. الولد صغير ولحمه طري عيناى يا ست الستات. أنت تأمرى. ستسمعين ما يسرك حالا.
- ربنا ما يحرمنا منك يا معلم.
- دخل المعلم وأغلق الشباك وهو يؤكد لنفسه أن سامية ست الستات وأنها أجمل نساء الأرض جميعا، وأنه على استعداد لأن يفعل أي شئ من أجل أن ينالها. رجع ثانية وفتح الشباك وقال :
- لو تسمحى يا ست سامية ردت عليه قائلة فى مزيد من الدلال :
- طلباتك أوامر يا معلم زين أريد أن أتحدث معك فى موضوع مهم جداً.
- خيرا يا سيد المعلمين وهل يأتى من ورائك إلا كل خير. أنت سكرة الحى وقمر الشارع وزينة البنات.
- الله يكرم أصلك يا معلم أريدك فى كلمتين بعد صلاة العشاء
- أنت تشرف يا معلم.
- دارت التساؤلات فى ذهن سامية. وماذا يريد هذا العجل؟ أكيد سيطلب منها إيجار المحل المتأخر منذ عدة شهور، وقد يطلب منها أن تتركه.. لا.. إن لهجته معها تشى بغير هذا.. إنه يدللها ولا يكف عن ملاحقته لها بنظراته وعباراته. صحيح إنها تعلم مدى وقاحته ودناءة نفسه. أكثر من مرة تلمحه وهو يحاول أن يلتهم صدرها بعينيه من فتحة جلاببها العلوية. إن وقاحته تزداد يوما بعد يوم. إنه يحاول فى بعض الأحيان أن يلمس جسدها. لقد امتدت يده ذات مرة على مؤخرتها ولقد أمسك بيديها أكثر من مرة. إنه يطمع فيك يا سامية. لا رجل يحميك ولا أهل يدافعون عنك. لقد

حاول احتضانها أكثر من مرة لولا أن هددته بالفضيحة. لقد أخبرت الشاويش عشاوى ولكنه طلب منها أن تهدأ. وعندما كلمته ثانية طلب منها أن تتحمل من أجل خاطر الشاويش عشاوى، وإلي متى تتحمل؟ ولكن ماذا بيدها لتفعله؟ أليست هذه هي الحياة وأليس هذا هو قدرها؟ إن لهجته اليوم مختلفة. إنها تشعر أنها صارت رخيصة بعد موت زوجها بل أحست أن الكون كله يطمع فيها، ولم لا؟ أليست أرملة وحيدة ضعيفة مسكينة؟ ذات يوم راودها حلم بأن زين يحاول أن يغتصبها وأنها تصرخ ولا أحد يسمعها. كانت تصرخ ولا أحد ينقذها. كان يعتصرها بجسده الضخم وكانت تصرخ. كادت أن تستسلم لولا أن مبروك أنقذها في الحلم وعض يد أبيه. شرعت تخطط ولكنها لا تدري ماذا تفعل وهي بمفردها ستتترك الأمر لله. ستفكر قليلاً لقد كان كابوساً. طلبت من زين أكثر من مرة أن يدع مبروك يساعدها ووافق المعلم زين. إن نظرات مبروك لها كالرصاص. نظرات جائعة مثل نظرات أبيه ولكنها أخف.. إنها متأكدة من أن مبروك يتقرب إليها ويشتهيها مثل أبيه. تساءلت في نفسها قائلة: «ماذا أفعل يا ربى؟ الولد وأبوه؟» لم تكذب تنتهي من سؤالها إلا وكانت قد سمعت صراخ مبروك يتعالى. إن والده يضربه حتى وهو في هذه السن. لا شك أن المعلم زين قد قتلته الغيرة عندما رأى يد مبروك تلمس يد سامية عندما كان يساعدها لإغلاق الدكان. ولماذا لم تسمح له إذاً بملامسة ساقها؟ أكريمة هي مع مبروك وفي قمة البخل معه؟ حاولت حسنية أن تهدئ من روع زوجها. ارتفع الصراخ والصوات وكان الجيران في الشارع كله يسمعون القصة كاملة. وقعت حسنية على الأرض هامدة لا تتحرك بعد أن أعيتها المحاولات في إخماد غضب زوجها وإبعاد مبروك عن قبضة أبيه على الرغم من أنها قد تلقت بعض اللطمات والضربات. كان زين يهدأ قليلاً ويستمر في الضجيج والصراخ ولكنه لم يستطع السيطرة على أعصابه. لقد رآه يلمس يدها. قال لأبيه عساه ان يرحمه من شدة ضربه:

— أنت الذي قلت لي ساعدها يا معلم

— قلت لك ساعدها ولكني لم أقل لك أن تلمس يدها

عندها صرخ مبروك قائلاً:

- لمست يدها رغما عني. أحبها يا بابا.. أعبدها.. أتمنى التراب
الذى تمشى عليه.
— أمسك والده بخناقه وقال متسائلاً:
— ها. تحبها؟ وبنت عمك منى يا معفن؟
— لا أحبها
— هي بنت عمك وأنت أولى بها
— لا أحبها.. ظفر سامية بعشر بنات مثل منى.
— يا كلب يا قليل الأدب. إنها بنت عمك
— أحبها يا بابا.. أحب سامية،
— تحبها يا مبروك؟ وأنا أيضا أحبها.
— صاح مبروك قائلاً:
— بدلا من أن تضربني اضرب بنت أخيك. اضرب منى
وشرع يبكى وهو يتلقى صفعات أبيه ثم بكى بحرقه عندما
رأى أمه ملقاة على الأرض. اكتفى زين من ضربه واتجه إلي
بيت أخيه. عليه أن يعرف إلي أين تذهب منى كل خميس.
اتجه إلي بيت الشاويش عشاوي والغضب يقتله. إن بيت
أخيه علي بعد خطوات. نظري طريقه. هنا حجرة سامية
الغالية. أنتهي من موضوع بنت عشاوي وأتي إليك بعدها
يا قمر قلبي ونور حياتي. سأفاتها في موضوع الزواج
الليلة. ليكن كتب الكتاب والدخلة يوم الخميس القادم.
كان يخطط وكانت سامية أيضا تخطط وترسم طريقة يمكنها
الابتعاد بها عن سبيل هذا الرجل. كانت تتساءل قائلة: «أيضرب
ابنه بهذه الطريقة الوحشية؟ وماذا سيفعل معي إن صرت زوجة
له؟» اتجهت نحو سريرها بعد أن أحكمت إغلاق بابها علي نفسها.
إن التعب يستبد بها. فلتنم قليلا ثم تستيقظ لتغتسل من غناء
اليوم. نامت وعيناها تحلمان بقطرات الماء تتساقط علي جسدها
لتنظفها من إعياء اليوم وإرهاقه ولكنها أجلت الفكرة خشية أن
تتطرق أفكارها إلي ذهن المعلم زين إذ كانت تخشى أن يتلصص
عليها أيضا في غمرات أحلامه. نامت وألغت فكرة الاستحمام
تماما الليلة من ذهنها، ولكنها لم تكن تعلم أن طرقات زين
ستوقظها بعد ساعات.

زواج مزعم

طرقات على الباب. طرقات تبدأ ضعيفة ثم تتوالي شدتها. طرقات سريعة متتالية تشي بطارق يبدو خائف القلب مرتعش اليدين. طرقات والليل كان قد انتصف ومرت ساعة تقريبا بعد انتصافه. طرقات يتصف صاحبها بالجبن طرقات لشخص متلف يرتعد خوفا وتتابع جرأتها وتتحول من مجرد تلامس اليد بالباب إلي طرقات مسموعة.

طرقات متتابعة تشي بتخطيط وقع وإيذاء متعمد من شخص جاحد خائن. طرقات لشخص تحركه الرغبة والشهوة. رغبة متعة ممتزجة بشهوة في الإيذاء.

الساعة تقترب من الواحدة صباحاً. من الذى يمكن أن يزور الناس فى هذا الوقت المتأخر من الليل. تساءلت وهي ما بين اليقظة والغفوة. خيراً؟ اللهم اجعله خيراً. ومن أين يأتي الخير وهي تعيش في عالم لا يعرف إلا المستقوي بالشر. عالم يري بالخير ضعفا ووضاعة ويرى بالشر فخرا وشجاعة. لقد سقطت هي نفسها في براثن هذا الشر عندما ملأها الغضب واستبد بها الضعف واليأس. لن يعود إليك. سأحطمه بعد أن بناني.

سأحطمك. أنت فاهم يا شريف. لن تنقذك الدنيا مني ولن يمنعني من كسر كأي مانع. لن يردعني رادع. لن يقف أمامي أي عائق. إنني أحذرك. لا تستطيعي فعل أي شيء لي. الله يحفظني. الله يحميني. لن تفلت أبدا من يدي. سأعاقبك بطريقتي. وددت لو أنه توسل إلي واسترضاني. لن تتركني. أنا التي سأتركك. أنت لا تعرف ماذا يمكن للمرأة أن تفعل لو جرححت كرامتها. ستتحوّل إلي وحش كاسر وحيوان متبلد المشاعر تجمع شتات كرامتها الذبيحة. ستنتقم منك يا شريف. أنت تراني ضعيفة لاشك. تراني في قمة الضعف. سأريك قوة المرأة وجبروتها لتستعيد كرامتها الجريحة وعزتها الذبيحة. سأريك أياما أسود من ظلام الليل. سأريك معني الويل. حتي لو اضطررت إلي

التحالف مع الشيطان. سأريك أماكن لم يمكن لخيالك ككاتب وكأديب أن تتصور أنك ستراها. سأجعلك تري العذاب رأي العين. لن يكفيني حرمانك من ابنك. سأحرمك لذة النوم ومتعة الحياة. لن أسمح لامرأة أخرى ان تأخذك مني.

ظننت أنها تحلم. أيمكن قد جاء ورجع إليها؟ لا تعتقد أنه سيرجع إليها أبدا. من الأفضل أن تواصل نومها، فما حياتها بعده إلا نوم متواصل وهروب كبير من حياة صارت لا تذوق لها طعاما ولا تشم لها رائحة ولا تسمع فيها صوتا. لقد توقفت الحياة تماما عندما تركها. لقد أثبتت لجميع الخلائق أنها هي التي تركته. هو لم يتركني أنا التي تركته. لا يهم من الذي ترك الآخر ولكن المصيبة ما خسارة المتروك. المهم ما الذي خسرنه سويا. هو لم يخسر شيئا. أنا الخاسرة. لقد خسرت إنسانا رائعا لا ند له ولا نظير. هو الذي بناني وأقام كياني. أنا التي قمت بهده، لن يكفيني هذه. سأدكه تماما. سأمحوه من علي وجه الأرض. سأحرق كل كتبه وأشعاره. سأمزق قصصه ورواياته، ولكنه للأسف سيظل بنفوس معجبيه ومحبيه وقرائه. إذا فليذهب إلي حيث اللاعودة، أو هكذا اعتقدت أنني قوضت بنيانه؟ أعلم أنني أخذت منه روحه. لقد صار قلبه وعقله وكل فكره معي. أليس ابنه معي؟ أليس فلذة كبده وثمره فؤاده في حوزتي. إذا أنا أمتلكه. أمتلكه حتي وهو ليس معي. أمتلكه وهو بعيد عن أحضاني. أمتلكه حتي وإن تزوج بامرأة أخرى. يا ويحي !! لا يمكن أن تلمسه امرأة غيري. ألداعب شعيرات صدره امرأة سواي؟ أيمكن أن يضم امرأة أخرى في أحضان آماله وبنيان حياته سواي؟ أتحبه امرأة في الكون كله مثلما أحببته؟!!

أيمكن أن يحب امرأة سواي؟ أيريد امرأة غيري؟ لا. لن يحدث هذا. إنني أحبه وما انتقامي منه إلا دليل وتعبير عن حبي الشديد ولكنه لا يفهم. لقد كنت أصر علي الذهاب إلي جلسات المحكمة لأراه وأتملي من نظراته لي. إنني أحبك يا شريف أكثر من حبي للحياة. إنني أجرك إلي المحاكم وأتمسك بحضانة أحمد ابننا من أجلك. ألا تفهم يا حلاوة أيامي؟!! ألا تفهم يا روحي التي سلبت مني عندما نطق لي قائلا رغما عن: «أنت طالق» جاهدت وقتها

دموعي ودفعت عن نفسي بكاءها أمام الحاضرين ولكنني ظلت أنزف الدموع أياما وأطارح الحزن وآلام الفراق وحيدة بدونك، فلا يدك تلمسني لتخفف عني، ولا عينك تراني فأتمسك بأهداب الأمل الذي لا أستقيحه إلا منك. حبيبي يا شريف. لا أدري ما الذي حدث بيننا. أي شيطان تجرأ أن يقتحم أسوار حياتنا؟ أي إبليس قد تملك مني لأعاندك فأخسر حياتي وأصطلي بنيران بعدك وجحيم فراقك؟ لقد سلبته روحه وأمله. سلبته أغلي ما يملك. لا يهمني. كيف كان لي أن أثار لكرامتي الذبيحة؟ فليعلم الجميع أنني أنا أمينة صبري التي تركته. لا. ليست هذه هي الحقيقة. إنه هو الذي تركني. هو الذي أنزلني من قطار حياته وتركني وحيدة علي رصيف الحياة الواسع. لقد صفر وفاتني قطاره. انطلق وتركني متباطئة متكاسلة. تافهة واهنة. لاشك أنني المخطئة. لا. لست مخطئة. كان عليه أن يتحملني. أليس هو الرجل؟ ولماذا لم أتحمل أنا؟ إنه هو الرجل ولكنه لم يستطع أن يتحملني. أنا أحيانا لا أتحمل نفسي. لا. سأنهض وأركب قطارا آخر. سأقوم من جديد وستمتلئ حياتي بالحيوية والسعادة. سأبدأ من جديد. وسنوات العمر التائهة الضائعة في معين حبه وأبار حنانه وأنهار وفائه. لقد كنت ملكة متوجة علي عرش قلبه. كيف أسقطني هكذا؟ كيف يسلبني عرشي. سأسلبه أعز ما يملك في حياته. ستخسر كثيرا يا شريف. إذا لا أمل في عودته إلي؟ إذا فليذق من كؤوس مريرة أعدتها له. استعد حتي تتلقي مني غضبي وحصاد آلامي. وبعيدا عنك سأذوق معني السعادة حتي وإن كانت غائبة عني فسأثبت لنفسي ولو كنت أكذب علي نفسي أنني أغوص في بحار السعادة وأنهل منها وأجرع منها ما استطعت. سأمثل دور السعادة علي كل الناس وسأمثله علي نفسي أيضا. سعادة؟! وأية سعادة وأنا بعيدة عن أحضان حنانه؟ أية سعادة وأنا أشعر بالبرد بعيدا عن دفء عيني المملئت بالحب والخير لكل الناس؟ أية سعادة وأنا بعيدة عن ينبوع الرقة وبستان السعادة الذي يتفجر من بين نظراته؟ فلتنم ولتهرب بعيدة عن الحياة. لتهرب في عالم بعيد كل البعد عن واقعها. إنها في حزن أمها، ولكن الطرقات تتزايد وصوت هذه الطرقات يتعالي. تتأرجح بين الصحو والغفوة ولكنها تريد أن تهرب

من نفسها فلتقترب من الغفوة.

قام أحمد شريف من جانب جده متكاسلا. الكل نائم. استيقظ في براءة واتجه نحو الباب و نظر من العين السحرية بعد أن وضع كرسيًا خلف الباب حتى يستطيع أن يرى من الطارق. ترك جده غارقا في النوم ولمح والدته تنام في حضان جدته في دعة وهدوء. ساعات قليلة ويذهب إلي المدرسة. إنه لا يريد أن يزعج النائمين. إنه نفس الرجل الذي صفعتة أمه.

حار أحمد فيما يمكن أن يفعله. فتح الباب بهدوء وهو يفرك عينيه ويتثاءب ثم قال للرجل متسائلا:

— أنت مرة ثانية؟

بانست نظرة الغضب على وجه عادل فوزى. وضع أحمد يده علي فمه وهو يتثاءب بعد أن استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكنه لم يكن يدري أن الشيطان بالفعل يقف أمامه. أليس الشيطان قد تلبس عادل وسكن جوانح أمه؟ نظر إلي عادل في قلق، ولكن الزائر الثقيل قال له في أمر وكأنما ليخيفه:

— نادى أمك بسرعة

— يا أستاذ عادل الدنيا ليل والناس نائمون.

— أنت ولد طولك تقريبا متر ونصف ولسانك طوله متر ونصف، يا بنى أيقظ أمك.

كانت نظرات الكراهية متبادلة بين الغريمين. كان أحمد ينظر إلى الرجل باحتقار، كيف يأتي هذا الرجل ثانية بعد أن طردته أمه وصفعتة على وجهه، في حين كان ينظر الرجل إلى أحمد بتعجب. إن هذا الطفل ما هو إلا لسان يمشى على الأرض. لسانه طويل. إنه يكره هذا الطفل أيضا لأنه يذكره بشريف شكرى. وأحمد يكرهه أيضا. كيف سيكون زوج أمه؟ جدته قالت لأمه المرة الماضية: «عريسك وصل. عريسك جميل مثل القمر. أحلي بكثير من شريف». لحظة كدهر وأحمد ينظر إليه في غيظ مقترن بمزيد من الغضب. حاول أحمد أن يغلق الباب وعاد إلي تثاؤبه والاستعاذة بالله العظيم من الشيطان الرجيم. قد ينصرف الشيطان باستعاذة الطفل، أما هذا الشيطان فيبدو أنه لا يريد أن ينصرف من أمامه. نظر إليه في قرف

أشد، إلا أن عادل نهره بنظرته وأمره قائلاً بعنف :
— قلت لك أيقظ أمك

بدا الغيظ والقرف على وجه أحمد ولكنه قال بسخرية :

— حاجة غريبة. أيزور أحد الناس في الساعة الواحدة صباحاً؟!

نظر إليه الضيف في تأفف ظاهر، وبحزم أشد، وصار الرجل ينفخ كشيطان حقيقي بل إن أحمد تأكد من أنه شيطان رجيم فعلاً عندما قال له في غضب تفضحه ملامحه وعيناه تخرجان شراراً من شدة غضبه :

— كفاك طول لسان. قلت لك ولآخر مرة أيقظ أمك

أشار أحمد إلى الضيف برأسه وكأن كلام الضيف لا يعنيه وقال :

— يبدو أنك تريدها أن تضربك ثانية. أنا مالى. سوف أوقظها

دخل الولد إلى أمه وأيقظها فأعادها من تخيلاتهما وأوهامهما وتفكيرها من

الغفوة إلى الصحوه وأيقظها تماماً بعد أن تعدد أن يحدث جلبة وضوضاء

فأيقظ أهل البيت جميعاً. خرج الجد وخرجت جدته إلى الصالة.

وقفت أمينة أمام المرأة لحظة ثم خرجت فى غيظ إلى الضيف

وسألته وآثار النوم لا تزال عالقة بوجهها عن سبب حضوره فقال

في فزع :

— الموضوع خطير يا أمينة. لن تثبت التهمة على شريف شكرى.

إنه برئ.

— أعلم أنه برئ ولكنك أكدت أنه لن يخرج منها.

— لم يعترف عليه أحد.

— وما الحل؟

— ننزج وبأسرع وقت.

— ولماذا؟

— سيخرج شريف شكرى وسيعرف كل شئ. إياك أن تنسى أن له

علاقات واسعة ومتشعبة مع رجال الدولة. وساعة أن يعرف ما

دبرنا له سيخرج إلينا وينتقم منا.

— طيب فهمت. لكن علاقاتك أوسع.

بدت عليها قليلاً آثار السعادة ولكنها أحببت أن تخفيها عن

عينيه. سيخرج إذا. يمكنها أن تراه ثانية. برقت عيناها بفرحة أرادت

أن تخرج إلي وجهها ولكنها كبنتها. نظر إليها الضيف فأعادها إلي

حزنها ثانية. قال لها:

— على فكرة. أحبك يا أمينة. سأفعل كل جهدي ولو أدي الأمر إلي

حبسه في أمن الدولة واعتقاله

وقفت أمينة في عصبية وقالت:

— أتأتى فى منتصف الليل لتقول أنك تحبني؟!

لاشك أنه شيطان كما رآه أحمد. لقد بدأت تري آثار الشيطنة في

نظراته. اتسعت عيناه ولكنه خاف أن تكتشف شيطانيته فتراجع إلي

آدميته قليلا وقال لها بعد أن خلع عن وجهه قناع قبحه الشيطاني

فابتسم وقال لها:

— هذه هى الحقيقة. كل ما فعلته بصديق عمري وصاحب الفضل

علي ليس إلا بسبب حبك

كان أحمد خلف كنية الصالون يستمع إلى كل ما يقال. أصابته

الحسرة، ستتزوج أمه بالفعل شخصا آخر غير أبيه. سيكون هذا

الحيوان الجبان فى حضن أمه؟ وأين ستكون أنت يا أحمد؟ كاد

أن يبكي ولكنه مسح دمعاته وقال فى نفسه: «أحمد رجل.. أحمد

لا يبكي». كانت هذه آخر كلمات أبيه. فعلا. إنه رجل ولن يبكي.

إن صديق والده قد خانته. أنا عرفت يا أبي. أكيد أنك في مأزق.

لقد فهمت لماذا لم يعد يحضر إلي في المدرسة. لقد فهمت لماذا أرسل

إلي نيفين يسري. يبدو أنك تمر بمشكلة كبيرة يا أبي. رفع رأسه

إلي السماء وطلب من الله وهو يتمتم بدعواته أن يحفظ أبيه. إن أمه

قد اشتركت مع عادل هذا في تدبير مؤامرة ضد والده. يعلم أن أمه

لا تحب أبيه ولطالما حاولت زرع بذور الكراهية في نفسه تجاه والده

ولكنها لم تفلح. كان وقع مفهوم الخيانة علي الطفل كبيرا. حاول أن

يتصبر. سيخبر نيفين بكل شئ سمعه. طالما أنها رسول من والده

فستبلغه. يجب أن يبلغها حتي يأخذ أبوه حذره. كتم أنفاسه ليستمع

إلي حديث الشيطان مع أمه. أليست أمه شيطانة كبيرة أيضا؟

حاول عادل أن يمسك بيد أمينة ولكنها سحبته بسرعة. حاول

أن يحتضنها وأن يقبلها ولكنها نهزته ولما حاول ثانية صفعته على

وجهه وطرده قائلة:

— تفضل من غير مطرود

- لم يبدُ على الضيف الغضب. كان يبتسم ثم قال :
- سيكون زواجنا بعد أربعة أسابيع يا حبيبة قلبي.
- طيب مع السلامة. أعددت الوقت من غير أن تستشيرني؟
- مع السلامة يا قمر روحي وحياة قلبي.
- سأستشيرك في كل شئ بعد الزواج يا حبيبتي
- قلنا مع السلامة
- أحبك يا جميل
- يا أخى مع السلامة فى ستين داهية
- دخلت أمينة حجرتها. تحرك أحمد من خلف الكنية وقال للضيف
- في شماتة واضحة :
- قلنا إنها ستضربك ثانية
- رمى عادل الطفل بكل كراهية. أغلق أحمد الباب بشدة خلف
- الضيف وابتسامة الضيف الصفراء تتردد فى ذهن الطفل. سأريك أيها
- الصغير. ألسنت ابن الغالي وابن الغالية؟ سأريك ما لم يمكنك أن
- تحلم به يا روح أبيك وبأ قلب أمك. سمع أحمد ضحكات الضيف
- وتعجب كيف يمكن له أن يضحك بعد أن صفعته أمه. ذهب أحمد
- إلى فراشه وصورة الشيطان التي كانت أمامه متمثلة أمام عينيه عندما
- رأى الضيف. لم تفارقه هذه الصورة إلا بعد أن غاص في مواكب النوم
- وركب مراكب الأحلام فتبدت له صورة أبيه الحبيب يغرق في بحار
- من الطين ويحاول أن يسبح فيها ويمد يده إلى أعلي وهو يستغيث .

المعادلة الخطأ

أفاق شريف من نومه وبدأ يسترد وعيه. إنه يتذكر جيداً كيف كان الحزن يغلب رفاق الحجز عندما سقط علي الأرض يائساً حزينا فاقدا لوعيه عندما كان يتذكر ولده وعندما كان يعتقد أن ولده يبكي بعيداً عنه، وتذكر أيضاً كيف أن منصور أبو دومة وعوضين الطويل رفاقه في الحبس كانا أول من صاحا طالبين النجدة فأتاهم ع شماوي الذي سارع باستدعاء الإسعاف. غاب عن وعيه وعيناه علي رفاق الحبس وعلي ع شماوي هذا الشاويش الذي يحاول أن يظهر القسوة والطيبة تنطق من عينيه، غير أن حنان والد يطل من عينيه رغماً عنه. كان ينظر إليه بتحسر وكادت دموع ع شماوي تسقط. لقد سقطت بالفعل. دموع أب حان رفيق رقيق، لقد رأي دموعه تسقط شفقة عليه وخوفاً. بدا عليه الندم. لقد لكزه في بطنه من داخل أسوار الحبس. ما كان عليه أن يسبه او يهينه. أليس في سن والده أو أكبر؟ شعر أنه قد أساء إلي كل من بالحبس. لقد أساء إلي منصور وعوضين وهما مكانتهما، كان يمكنه أن يدافع عن نفسه بدون أن يضر بهما، لقد أساء إلي ع شماوي أيضاً. إنه يشعر الآن بعدما عاد إلي وعيه بأنه قد أخطأ في حق ع شماوي كما أخطأ في حق منصور وعوضين. ود لو قام من سريره ونادي بأعلي صوته طالبا من الجميع أن يسامحوه. إن لديه طاقة حب الآن تسع الجميع. إنه يشعر أنه يحب كل من كان معه، يشعر أن طاقة حبه يمكن أن تتسع لكل أعدائه ولكل من أساء إليه. أليست هناك بعض الحقوق لمن كان معه بالحبس؟ طاقة حبه تتسع لتأخذ الدنيا كلها في أحضانه. دخلت طبيبة شابة. عرف فيما بعد أن اسمها ريم المصري. فتاة ما تخطت الثلاثين بعد. إنها تقف علي أعتاب الثلاثين. تبدو عليها ملامح المصرية الأصلية. يبدو عليها أنها تغالب ظروف صعبة قاهرة. ومن منا لا يغالب مثل هذه الظروف؟ تغالبها وتغلبها. شعر بأن شمس التفاؤل والأمل تكاد أن تغرب من عينيهما، ومع ذلك تقوم بعملها. ابتسمت له

لتطمئننه فشعر أنها تنتزع الابتسامة رغما عنها في وجه مرضاها. إنه واجبها الذي تؤديه كل يوم. ما ذنب المرضي؟ واجب سيؤدي رغما عنها أو برضاها فلماذا لا تبتسم وإن كانت الدنيا كلها تعبس لها؟ شعر بروح الود وبطاقة الحب التي بداخله تنفتح عليها. كان يود أن يدخل كلية الطب ويصير مثلها ولكن المجموع خانة في الثانوية العامة فالتحق بكلية الإعلام مرغما. رسب في اختبارات قسم الصحافة فالتحق بقسم العلاقات العامة وواصل كفاحه فيما بعد حتي يكون صحفيا. لم يكن يحب قسم الإذاعة والتلفزيون. إنه لا يحب أن يكون بوقا للحكومة أو ببغاء يردد ما يقوم به الرئيس والوزراء. يريدون أن يوصلون لك رسالة مفادها أن كل الأمور مستقرة وكله تمام. لا. لن أرضخ ولن أقبل بالوضع الراهن. تشرد وبدأ حياته من الصفر. عاني من البطالة. اشتغل في مهن كثيرة حقيرة. اشتغل في أحد مصانع الكرونة فترة من عمره، وعمل مندوبا للمبيعات لفترات من عمره. ساعده قريب له ليعمل في التدريس فلم يجد نفسه. خشي أن يضيع عقله مع الصبية وفي حجرات الفصول المكتظة. بدأ يكتب عشرات القصص عن أمور واقعها وأيام شاهدها. كان يكتب عن طبقات الفقراء والمهمشين، كان يكتب عن العاطلين والمشردين. عمل بمهنة البحث عن المتاعب عندما لم يجد عملا، حفيت قدماه لسنوات حتي حصل علي كارنيه النقابة، ومع ذلك لم تهدأ نفسه وواصل كتابة قصصه ومقالاته في جرائد المعارضة حتي تم تعيينه في جريدة النهار حتي تأمن الحكومة شره ولكنه لم يمالئ الحكومة ولم يستجب لطلبات من فوقه. ظنوا أنه يريد الأكثر فتمت ترقيته إلي مدير التحرير ومع ذلك لم يكف عن انتقاداته. كان كثيرا ما يهرب من الجريدة ومن بيته متخفيا، وكان يساير الطبقات الفقيرة ويقضي بين أهلها أياما ثم يعود فيكتب قصصا تدمي لها القلوب وتبكي لها الأعين، ثم يواصل هجومه الشرس علي المسؤولين. وهاهي المتاعب تطارده من جديد. يبدو أن هناك وشايات جديدة من حساده أو من أعدائه. أمسكت الطبيبة المبتسمة بيده واطمأنت علي نبضه وتأكدت من أن ضربات قلبه سليمة وبمعدلها الطبيعي. قالت له والابتسامة تغلف وجهها وتبرز من ثنايا قسمات وجهها الجميل:

- الحمد لله. أنت بخير.
- شكرا دكتورة. أنا بخير وأحب كل الناس.
- يبدو أنك مسجون خطير. عليك حراسة مشددة.
- لست مسجوناً. لم يصدر ضدي حكم. لازلت في الحبس وأكثر من في الحبس من المظلومين.
- كلهم يقولون هكذا.
- ما قصدك؟ إنني برئ والله لم أعمل شيئاً. أنا صحفي. مدير تحرير جريدة النهار.
- رن هاتفها المحمول. نظرت إلي تليفونها في غضب ولم ترد. لماذا ترد؟ لم يتغير شيء ولن يتغير شيء. هربت ابتسامتها، ولكنها نظرت وتصنعت الابتسامة عندما نظر إليها شريف. تكررت رنات المحمول مرة ثانية وثالثة ولم ترد. نظر إليها وقال مداعبا بمزح:
- بما أنني حبيب المستشفي وأنت طبيبتي أنصحك بالرد علي هاتفك.
- لن أرد.
- هل لي أن أسألك لماذا؟ أنا سجين وقد أموت وسأتهمك بأنك قتلت مريضك.
- لا تتهمني ولا أتهمك.
- من هذا؟ من الذي يحاول أن يكلمك ولا تردين؟
- نظرت إليه في تعجب من جراته. أحست أنه ليس مريضاً عادياً.
- إنها تشعر بنظرات الود والحب تتقافز من عينيه، ليس لها فحسب وإنما للدنيا بكل ما فيها. قالت له وكأنها تريده أن يعود إلي رشده وأن يعلم أنها طبيبة وأنه مريضها:
- هل ستكتب قصتي؟
- ربما أكتبها يوماً ما. لدي العشرات من القصص والروايات.
- نظرت إلي ملفه بعد أن فتحته لتعرف من هذا المريض الذي يتسم بجرأة نادراً ما تصادفها. نظرت في الملف وتطلعت إلي الاسم. نظرت إليه متعجبة وقالت:
- الأستاذ شريف شكري. أهلاً وسهلاً بك. أقرأ لك كثيراً ولكنني لم أكن أعرف حضرتك شكلاً
- أنا هو بشحمه ولحمه

- لماذا أنت هنا؟ يبدو أن هناك خلطا. لا يمكن. أنا محظوظة. أنت كاتبتي المفضل
- وبما أنني كاتبك المفضل أنصحك بالرد علي هاتفك.
- لن أردد. معذرة
- طيب من علي هاتفك؟
- خطيبي الدكتور صابر وسأفسخ الخطبة.
- لماذا؟ آسف. أعرف أن هذه حياتك الشخصية ولكنني أسأل فقط.
- هذه مشكلة جيل يا أستاذ شريف. خطبني منذ ثلاث سنين ولا يحدث تقدم. لا شقة ولا سيارة ونحشر في الأوتوبيسات وننتظر الملايم التي نتقاضاها كل شهر. كل شئ صار صعبا في حياتنا. يبدو أننا لن نتزوج إلا بعد خمسين سنة علي رأي صابر خطيبي. سأرمي له دبلّة الخطوبة في وجهه. لقد فضل الماجستير علي. بدلا من أن نخصص كل جهدنا ووقتنا ومالنا للزواج، إذا به يتخذ طريقا آخر. أعرف أنه غير مقصر. يعمل في المستشفى وفي المستوصف وفي العيادة ليلا ومع كل ذلك يحاول أن يدرس أيضا، ومع ذلك لا يستطيع أن يحصل علي شقة. يقول إننا لو وفرنا مرتباتنا ثلاثين سنة لما استطعنا الحصول علي شقة. لا أحد يهتم بنا. ضاع نصف عمرنا في الكلية وسيضيع النصف الباقي في البحث عن شقة وفي محاولاتنا المستميتة لنتزوج.
- حرام عليك. الدكتور صابر يبذل أقصى ما بوسعه. ما الذي يمكن أن يفعله أكثر من هذا. أكونين أنت والزمن عليه؟ طالما أن الحب موجود فلا توجد مشاكل.
- الحب يموت مع الزمن. متي نتزوج وأنجب؟ العمر يضيع في لحظات الانتظار. لديه عقد عمل في الخارج، ولكنه يرفض السفر. الوطنية تنقح في تفكيره. يرفض أن يسافر. عندما يسافر ستتحسن أحوالنا. رفض أن يسافر. سأفسخ الخطبة.
- الصبر يا دكتورة ريم. حتي وإن ضاع العمر فلا تضيعي الحب. أتهمينه بالوطنية؟ لو سافر الجميع خارج الوطن لانهارت مصر. من سيبقي هنا يا دكتورة ريم؟ أتريدينه أن يسافر حقا ويتركك؟
- الصبر؟ إلي متي نصبر؟ إلي أن نموت؟ أنصبر ونشد الحزام مرات أخرى؟

- بدا أنها شعرت أنها أخطأت. تفكرت متسائلة في نفسها: «هل أخطأت؟ هذا تعبير الرئيس منذ أن تولي مقدرات مصر في عام واحد وثمانين. قال: شدوا الحزام. لا نستطيع أكثر من هذا سنتقطع بطوننا». يبدو أن الكيل طفح بها فقالت في غضب:
- البلد لا تقدر إلا الرافعات والمغنيات والمغنيين ولاعبي الكرة. البلد لا تقدر إلا هؤلاء. ألسنت أنت الذي كنت تقول هذا في مقالاتك؟ لقد كنت أتساءل كيف يتركون كاتباً مثلك في جريدة قومية؟ يبدو أنك تأخذ التعليمات منهم لتنفس عن الناس.
- أنا لا آخذ تعليمات من أحد. أنا أكتب ما أريد.
- يبدو أنني فهمت أو بدأت أن أفهم لماذا أنت هنا الآن.
- الحمد لله أنك فهمت. لن أحتاج إلي دفاع إذا.
- اعتقدت أن الجميع قد باعنا وخذلنا. آسفة يا أستاذ شريف. نحن جيل فقد الثقة في كل شيء. فقدنا الثقة حتي في أنفسنا. كفرنا بالماضي والمستقبل. كفرنا بكل قياداتنا.
- اقتربت منه وقالت في أسي:
- فشلنا في كل شيء. فشلنا في الجسد، وفشلنا أيضاً في الهلس. نحن صفر كبير. صفر في كل شيء. حتي حصلنا علي صفر ولن نستطيع أن ننظم كأس العالم. زهقنا. تعبنا. ليتنا ما تعلمنا. ليتني ما أضعت العمر هدرًا. متي سأنجب؟ متي ستكون لي حياة. الفقراء يظلون فقراء مهما بذلوا كل جهودهم. أسمعنا عن طالب الحقوق الذ تخرج بامتياز ولم يعين وكيلاً للنياحة وعين من حصل علي تقدير مقبول. لا أمل. لا فائدة ولن تكون هناك فائدة. من جلس علي قمة الهرم نسي من هم تحته. أخذت تبكي بشدة. أحس بها وبما تعانيه. لظالماً أحس بأحزانها وبأحزان غيرها. لظالماً كانت كلماته تجعل القراء يبكون. مسح دمعاتها بيده ناظراً إليها في حنان. حاول أن يهدئ من روعها. أليست علي صواب. لقد كتب كل ما كانت تقوله، ولكن الهدف انتقد وصرخ وقل ما شئت فلن يسمعك أحد ولن يتغير شيء. لحظات ودخل طبيب شاب. أمسك بيد الدكتورة ريم غاضبا وقال: لماذا لا تردين علي مكالماتي؟ آه. المرضي يمسخون دموع الأطباء.
-

- ابتسم شريف وقال :
- أهلا وسهلا دكتور صابر؟ أنت سبب دموعها.
- كيف عرفت اسمي يا أستاذ؟
- هذه قصة طويلة. خطيبتك إنسانة عظيمة لقد طلعت ثورجية كبيرة. دخل الشاويش عشناوي فأمسك كل من كان بالحجرة عن الكلام، ولأول مرة يراه شريف يبتسم. لأول مرة يري الرأفة والحنان في عينيه. تقدم منه وقال له :
- ألف حمدا لله علي سلامتك. أقلقتنا عليك يا أستاذ.
- كنت تشتمني وتسبني يا شاويش عشناوي أقصد يا عم عشناوي.
- معذرة يا بني. أنت أطلت لسانك يا محبوس. يجب أن تكون للشاويش هيبة. أنا رمز الدولة. الآن أنت مريض.
- آسف يا عم عشناوي. سامحني. أنت طيب القلب. رمز الدولة فوق العين والراس.
- اتجه عشناوي للطبيبة وقال لها متسائلا :
- هل سيعود معي إلي الحبس؟
- غمزت الطبيبة بعينها اليسري لشريف وقالت للشاويش :
- لا يا حضرة الشاويش. نحتاجه بعض الوقت. لن يخرج إلا بعض أن نظمئن عليه ونقوم بعمل بعض الفحوصات له.
- خرج الشاويش. قالت له الدكتورة ريم :
- لا تقلق. أنت بخير تماما.
- شكرا لك وأنا احتاج إلي الراحة قليلا. الحبس حار جدا والمحبوسون كثيرون في مكان ضيق. احتاج إلي أن أكتب في هدوء.
- لم أكتب منذ أن دخلت الحبس. اشتقت لمكتبي ولأقلامي وأوراقتي.
- أنت شرفتنا وأنا سعيدة بك. ستشرفنا بضعة أيام
- شكرا لك. أتصدقين أنني اشتقت إلي رفاقي في الحبس.
- أنت رجل طيب وكلك رقة وحنان. أنت بالفعل كما رسمت صورتك في ذهني.
- بدا الغضب علي وجه الدكتور صابر خطيبها. قال في تلفظ :
- الدكتورة ريم تغازل المرضى.
- ابتسم شريف عندما رأي الغيرة في عيني صابر وقال له :

- هي لا تغازلني. أنا الذي أغازلها. إنها تحبك يا دكتور.يا لحظك! أنت خطيبها.
 - لقد حكيت لك علي كل شئ.
 - نعم وأنا فخور جدا بكما. الحمد لله أن هناك شبابا مثلكما. لن تموت مصر. لن تموت بلدنا. الحمد لله أن عمري لم يضع هدرا. أخذت ريم بيد خطيبها وقالت:
 - تعال أعرفك بمريضنا شريف شكري
- المعادلة غير مضبوطة. أخذ شريف يتساءل: أهؤلاء هم صفوة شباب مصر؟ ماذا يحدث؟ مرتباتهم تमित من الضحك. كيف يمكن أن يعيشوا؟ حصلوا علي أعلي الدرجات في الثانوية العامة ودخلوا كلية الطب ولا يستطيعون المعيشة في حياة كريمة. جالت تساؤلات كثيرة بخاطر شريف. جالت نفس التساؤلات في ذهني صابر وريم. خرجا وأضواء الأمل تنير طريقهما، غاص شريف في تساؤلاته بعد أن طلب من ريم أن تستمسك بخطيبها فهو شخصية نادرة الوجود. أمسك بيدها وخرجا. تركا شريف في وحدته غارقا في تفكيره في معادلته الخطأ. كيف يمكن أن تتوازن المعادلة. ذات مرة كان مع أحد أصدقائه في أحد المقاهي. تذكر اسمه. رفيق حلمي. طلب رفيق قهوة مضبوط في حين طلب هو شاي بالنعناع. تأخر صبي القهوة. جاء صبي القهوة متأخرا. سمع الزبائن ينادونه ببوليكا. تعال يا بوليكا. الشاي يا بوليكا. شيشة تفاح يا بوليكا. نهر رفيق حلمي بوليكا بسبب تأخره. أتى صبي القهوة ضئيل الجسم مرتعدا وقال: «آسف لتأخيري. بوليكا تحت أمرك». قال صديقه في غضب للصبي: «لماذا تأخرت يا بوليكا؟» رد عليه صبي القهوة: «آسف يا باشا. المعادلة خطأ. إتش تو إس أو فور. طيب هذا حمض الكبريتيك. ذرات الماء إتش تو أو....» غضب جدا صديقه وضرب صبي القهوة بوليكا علي قفاه. لم يرد بوليكا وإنما واصل حسابه للمعادلة بتفكير عميق، وكأن شيئا لم يحدث. أصابت الشفقة قلب شريف ونادي لصبي القهوة قائلا: «ما اسمك؟ لا يمكن أن يكون اسمك بوليكا» واصل صبي القهوة حساباته في معادلته وكأن أحدا لا يقف أمامه. فقد صديق شريف صبره وصفع

صبي القهوة علي قفاه، ثم نادي صاحب المقهي الذي جاء مسرعا.
ربت شريف علي كتف صبي القهوة وسأله عن اسمه فقال في
خجل: «منصور العالم» وبدأ صبي القهوة يعود إلي حساباته وإلي
معادلاته التي تشغله. فقد صاحب المقهي أعصابه لبرود صبي القهوة
ثم ضربه علي قفاه قائلاً:

— الله يخرب بيتك يا بعيد. شوف طلبات الزبائن. اسمك الحقيقي
يا من المفروض أن يكون الغبي مهزوم الجاهل. قال منصور
العالم قال. يا حمار ما الذي كانوا يعلمونه إياكم في الكلية؟
وقف بسرعة وقال:

— حاضر يا معلم. طلباتك أوامر. لم يكونوا يعلموني في الكلية خدمة
الزبائن يا معلم. كانوا يعلمونا العلم.
ضربه المعلم علي قفاه وقال:

— هذا ما نأخذه منكم أيها المتعلمون.
بلغ الفضول بشريف مداه. أخرج خمسين جنيها من جيبه ثم
طلب من المعلم صاحب المقهي أن يتركه يتحدث مع منصور العالم
لمدة ساعة فقط. قال المعلم قرحا وهو يأخذ الخمسين جنيها في
جيبه: «تحدث معه خمس ساعات. إنه لا يساوي عشرة جنيها»
اقترب شريف من منصور في ود وحنان وسأله:

— منصور. اسم جميل. ومنصور العالم اسم أجمل
— آه. اسم جميل وحظ سيئ.
— أنت خريج كلية كما قال المعلم؟
— آه. خريج كلية العلوم.
— بكالوريوس علوم؟
— لا. ماجستير علوم يا أستاذ

أيعقل؟ ماجستير علوم وتعمل صبيا في مقهي يا ولدي؟ ما الذي
يحدث في هذه البلد؟ نظر إليه بغضب وقال:

— سأبحث لك عن عمل يليق بك
— قال لي الكثيرون مثلما تقول. الوظائف محجوزة لأصحابها يا
أستاذ. والإعلانات تنزل في الجرائد مفصلة علي من يريدونه أن
يشغلها. أستاذك يا أستاذ. لن أحلم معك. لم يعد لي الحق

في الحلم. دعني أري أكل عيشي. ليتنا ما تعلمنا. ماله الجهل؟
الجهل نعمة. ها نحن أولاء نعمل عند المعلم صاحب المقهي وهو
لم يحصل علي الابتدائية. عليك العوض يا رب.
قام من أمامه يفكر بعمق في معادلتة. أخذ يصيح. حمض كبريتيك.
إتش تو إس أو فور. اتجه نحوالمعلم صاحب المقهي وقال: «بوليكا وصل.
أيوه جاي. شاي. قهوة بوليكا تحت أمرك وسمعتي أحلي سلام. عظيمة
يا مصر.» ضرب شريف كفا بكف وهو يهذي قائلاً: «أكيد المعادلة خطأ»
خرج من المقهي وهو ينظر في غضب إلي صورة الرئيس المعلقة في
مدخل المقهي ونشرة التاسعة تتحدث عن إنجازات الحكومة وكيف
أنها تحسن حالة المواطنين. أغمض عينيه وهو في سرير المستشفى
بعد أن تذكر معادلة منصور العالم. إنه الآن يحاول أن يفكر في معادلة
الدكتورة ريم وخطيبها الدكتور صابر. يبدو أن معادلة البلد كلها خطأ.
لقد فضل أن يغيب عن الوعي هذه المرة بإرادته وهو يردد قبل أن
ينام: «أكيد كلنا علي صواب. هذه المعادلة خطأ. ليس المقهي مكان
منصور وليست هذه مكانة ريم وخطيبها. أين الطرف الناقص؟ كيف
يمكن أن نزن هذه المعادلة الخطأ؟»

أحمد يبكي ثانية

ابتعد أحمد عن أعين زملائه واتخذ مكانا قصيا له تحت شجرة في أقصى حوش المدرسة. أخذ يبكي بشدة وينتحب بلا صوت حتي لا يسمعه أحد. لقد ضربته بالأمس جدته ضربا مبرحا بلا وجه حق. لقد رأى نيران القسوة في عينيها، كانت تضربه بكل غل وبكل ما أوتيت من قوة. استغرب وتعجب من حقدها. تساءل في نفسه: «هل تعاقب والده في صورته هو. أتعاقب حفيدها لأن شريف والده؟» ألا يقولون أعز الولد ولد الولد؟ كيف ولقد أوجعته بعد أن فقدت صوابها عندما كانت تتشاجر مع جده؟ ماذا ستفعل به جدته إذا بعد أن تتزوج أمه وترحل؟ إنه لا يمكن أن يقيم مع زوج أمه الذي لم يشعر بأية راحة عندما ينظر إلي عينيها. إنه يراه في صورة شيطان. سيظل في قبضتها وستنفرد به. إنه يحب جده جدا ولكن بدأت الكراهية تتسرب إليه من سوء معاملة جدته وكثرة السباب الذي توجهه إليه. إنها تسب أبوه أو تسبه بأبيه. كان نائما في الليل، سمع جده بالأمس يتشاجر مع جدته نفيسة. تظاهر بالنوم ولكنه بالفعل تيقظ عند سماعه مشاجرتهما كالعادة. تظاهر بالنوم واستمع إلي جده يحادث جدته وقد اتهمها صراحة بأنها المسؤولة عن خراب بيت ابنتها. كان جده غاضبا جدا وصاح بها متسائلا في سخط وعدم راحة:

— أرايت نتيجة ما فعلت يا نفيسة؟

نظرت إليه جدته في غضب. وضعت يدها في خصرها ثم هزت جسدها مرتين أو ثلاثا، وكان كلامه لا يعجبها، وقالت مستنكرة وهي تكاد أن تشهق:

— وما الذي فعلته يا صبري يا عبدالدايم؟

— ستتزوج أمينة.

— وهل خرقت خرقا في الإسلام؟ الزواج حلال.

— الزواج حلال ولكنك أنت السبب في طلاق بنتك. أكثر من ألف مرة قلت لك ألا تتدخل في حياة بنتك. أكثر من ألف مرة قلت

- لك دعي ابنتك تحيا حياتها بنفسها ولا تخططي لها.
- لم أقدم لها سوي نصائح التي كانت تطلبها مني. آه أنت رجل
- وستدافع عن بني جنسك. جنس نمrod.
- وهذه أخرة نصائحك. خربت بيت البنت وستضيعين الولد
- المسكين. الولد لا يطيق عادل.
- لا أحد يطيق زوج أمه.
- ولا أحد يطيق ابن زوجته. أنت السبب يا نفيسة وأنت المسؤولة.
- أكثر من مرة حذرتك وطلبت منك عدم التدخل. كل البيوت مليئة
- بالمشكلات ولو نصحن بالطلاق ستخرب جميع البيوت. أذكر أول
- مرة أتتك ابنتك غضبي ففتحت لها صدرك وفتحت لها بيتك علي
- الرغم من أنني قلت لك وقتها دعي البنت تبيت في حضان زوجها
- ولكنك فتحت لها بابك علي مصراعيه. أخذتك العزة بالإثم. قلت
- لك لقد تزوجت ويجب أن تتعايش مع زوجها بنفسها وتأخذ
- علي طباعه. لطالما قلت لك يا نفيسة.
- صبري، كفاك. لست السبب. المشاكل بين ابنتك والرحوم كانت
- للسماء. أكنت تريدني أن أري ابنتي تهان وتظلم ولا أ تدخل؟
- وماذا فعل تدخلك؟ هل حررها من إهانتها وهل حررها من الظلم؟
- طلقت من الرحوم واسترحنا.
- من الرحوم؟
- شريف شكري
- ولماذا تقولين الرحوم؟
- لقد مات منذ أن طلق ابنتي. ابنتي ألف من يتمناها وسأزوجه
- سيد سيدة.
- وشريف سيقول علي ابنتك يا نفيسة المرحومة أمينة ويقول
- ستتمناني ست ستها. أنسيت أفضال شريف علي بنتك؟ أنسيت
- أنه جعلها تعمل في الصحافة وهي خريجة زراعة؟
- تعسا له وتعسا لأيامه.
- كان أفضل رجل في الدنيا من وجهة نظري. كنت أراه أعظم رجل
- وأؤمن بآرائه وأفكاره.
- أنت لا تفهم شيئا.

- احفظي لسانك يا نفيسة. أنا أفهم كل شئ ولا تعتقدي أن عدم تدخلتي كان ضعفا مني. لقد ارتكبت أبشع جريمة. لا تنسي أنني انتهيت من دراستي الجامعية في حين لم تحصيلي أنت علي الإعدادية. أنت التي لا تفهمين شيئا يا جاهلة. الطلاق أبغض الحلال عند الله
- الطلاق أحيانا يكون ضرورة. جاهلة جاهلة ولكني حررت ابنتي منه. لقد انتهت المشاكل. أحيانا يكون البتر أفضل من العلاج.
- انتهينا من المشاكل بلا وجع راس.
- انتهت؟ ها. لقد ابتدأت المشاكل. الله يسامحك يا شيخة. يتمت الولد وطلقت أمينة
- تتهمني وكأنني مجرمة؟
- طبعا مجرمة ولن أسامحك علي ما فعلت بابنتك وأحمك المسؤولية كاملة عما سيحدث لأحمد. ربنا يسامحك يا بعيدة.
- وكادت أن تدب بينهما معركة هائلة يمكن أن تصل إلي الشابك بالأيدي لولا أن تدخل أحمد. تظاهر أنه تيقظ ثم فرك عينيه وقال غاضبا بعد أن تساءل عن سر مشاجرتهما وهو يعلم. بكى أحمد قائلا:
- أبي أفضل رجل في الدنيا.
- غضبت نفيسة وقالت:
- أرايت كيف يفتخر ابن الكلب بأبيه.
- غضب الجد وقال لنفيسة وهو في شدة الغضب:
- ولقد كرمنا بني آدم. هذا كلام ربنا يا جاهلة.
- غضب أحمد وقال في غيظ:
- لا تقولي ابن الكلب. أبي أحسن رجل في الدنيا ومن يسبه فهو ابن الكلب
- لم تدر نفيسة بنفسها إلا وهي تصفع الولد. بركت فوقه وضربته بشدة قائلة: «أتسبني من أجله». خلّصه جده من بين يديها بالكاد. إذا استبدأ أيامك السوداء يا أحمد. كما قال جده وهو في قمة غضبه من نفيسة:
- حرام عليك يا مقترية. يا شيخة حرام عليك. ألا يكفيك أنك طلقت أمه من أبيه بنصائحك التي خربت بيت بنتك، والله لن يبارك الله لك. جعلت الولد يتيما لطيفا. أفقدته الأب والأم. حرام عليك. أين تذهبين من ربنا.
- أخذ أحمد يتصور كيف ستكون حياته بعد أن تتزوج أمه رجلا غير أبيه.

إنه لا يحب عادل. إنه رجل خائن. لقد خان أعز أصدقائه. كان والده أعز أصدقائه وصاحب فضل كبير عليه، ومع ذلك غدر به وسيتزوج زوجته. مسح أحمد دموعه بسرعة عندما أحس بصوت أقدام تقترب. أراد أن يبدو هادئاً متماسكاً وكأن شيئاً لم يحدث له وكأنه لم يكن يبكي من لحظات. أنته الأخصائية الاجتماعية. طلبت منه أن يكون مع أصدقائه. قام وجري تجاه أصحابه، وانتظر إلي أن غابت الأخصائية عن عينيه، وعاد مرة ثانية إلي مكانه البعيد وأخذ يبكي ثانية في صمت. إنه يتعجل البكاء. لم يحدث أي شيء إلي الآن ويمكنني أن أمنع زواج أمي. ومن أنا حتي أمنعها؟ أليس الزواج بعد أربعة أسابيع؟ تمنني لو جاء والده الآن ليرتمي في حضنه فيشعر بالأمان ولكن أين والده الآن؟ لاشك أنه لا يستطيع أن يأتيه. تمنني لو جاءت نيفين ليرتمي في حضنها ويبكي بحرقه.

مني في مأزق

أصبحت مني في حيرة من أمرها. ماذا يمكنها أن تفعل؟ لقد سمعت اتهام مبروك أكثر من مرة عندما كان يضربه أبوه. سينكشف أمرها بلا شك. ماذا ستقول لأبيها وكيف أخفت عنه أنها قد اكتشفت أن أمها علي قيد الحياة. ماذا ستفعل لو أتاها عمها وسألها ليتحقق فيما قاله مبروك؟ بالأمس كانت راجعة من المدرسة فإذا بأحد التاكسيات يقترب منها. توقف بجوارها تماماً وسمعت كلمات سخيفة من سائقه. قال لها بهدوء: — اركب يا جميل.

عادة لا تكثرث مني بمثل هذه التعليقات. لقد ألغت فكرة الزواج والارتباط وتكوين الأسرة من عقلها تماماً. وما الذي تستفيد المرأة إذا تزوجت؟ ستعمل خادمة عند زوجها وقد ينهي الزوج حياتهما الزوجية بكلمة واحدة أو بكلمتين علي الأحري «أنت طالق». بدأت تفكر في الحالة التي انتهت إليها حياة والديها. لقد صارت تكره فكرة الزواج. صحيح أنها أيام المراهقة الأولي كانت تسعد بمثل هذه الكلمات وتفكر في أمر من يغازلها باستحياء أو يلقي إليها بكلمة إعجاب. كانت تفكر في أمر الزواج ولكن بمن؟ كانت تشعر وقتها

أنها أنثى ومشتهاة، ولكنها لما دخلت مرحلة النضج تغير تفكيرها. إنها تعامل زملاءها كأخوة. لا يتزوج أحد في هذه الأيام. صداقات خائبة وثنائيات تافهة تحت راية الحب وتحت مسمى الارتباط. تسلية غير بريئة. حتي وإن نجحت تجربة حب لزميلين وكللت بالنجاح فلا يصح أن نعممها. ألا يمكن أن يتم الطلاق بينهما فيما بعد؟ ستكون قد كبرت وعجزت وسيفكر الرجل وقتها في تجديد شبابه وسيبحث عن امرأة أخرى أكثر شبابا وجمالا. لا شك انها تري نفسها محقة في تفكيرها. الرجال أنانيون. يأكلون المرأة لحما طريا ويسعون وراءها بكل قوة في البداية ثم يرمونها عظاما في النهاية. كانت تخشي أيضا من تلصص ولدي عمها. البنت الوحيدة التي دخلت الجامعة. يحاول عمها أن يثني والدها عن فكرة أن تكمل البنت تعليمها. خوفه بأن الفتيات يختلطن بالشباب في الجامعات، ولكنها حاولت أن تبعد نفسها عن نطاق الشبهات. لم تسمح لنفسها ولن تسمح أن تكون قصة تلوكها الألسنة، لم تسمح بأن تكون بمفردها مع زميل أبدا. كان نطاق الزمالة أيضا لا يتخطى نطاق قاعة المحاضرة فحسب، ولكن ها هو ذا لسان مبروك يبلغ والده أنها تذهب إلي المهندسين كل خميس. كيف ستخرج من هذا المأزق؟ فلتنتظر المواجهة. لم تخبر والدها أنها اكتشفت أمر أمها. لقد أخفي هو أيضا عليها أمر أمها. أخبرها أنها ماتت بعد أن ولدتها. لم تسأل نفسها أبدا عن سبب طلاقهما حتي بعد أن وجدت أمها. لم تسأل قط أمها، وكانت أمها إذا حاولت التحدث في هذا الموضوع تغلقه تماما ولا تدع لها الفرصة. إن أمها تري والدها أسوأ رجل في الدنيا وكذا أبوها. بالتأكيد لو سألته فسيقول لها إنه أخفي عنها أمر وجود أمها لأنه يري أمها أسوأ مخلوقة في الدنيا. الله يقول ولا تنسوا الفضل بينكما، ولكن بعد الطلاق تشتعل نيران العداوات ويحترق بها الأبناء. لن تتزوج، ولكن كيف ستخبر والدها؟ من المؤكد أنه سيأتي وقت تنكشف فيه جميع الأسرار. لن يسكت عمها المعلم زين ولن يسكت ولده. إنها لا تريد أن تتزوج مبروك وهو لا يريد أن يتزوجها، ولكن زين لن يكف عن مطالبة مبروك بالزواج منها حتي يخلو له الجو مع سامية. فكرت أكثر من مرة أن تتحدث مع

مبروك ولكنها كانت تخشي من تصرفاته. قد لا يحسن التصرف.
نداء سائق التاكسي يتعالي في عز الظهر بعد عودتها من المدرسة:

— اركب معنا يا جميل

كانت تتجاهل مثل هذه الكلمات. إنها تعلم أنها انثي وتعلم أن أي أنثي قد تكون مثيرة في نظر الرجال. تعلم أن المرأة قد تكون مطمعا لأي رجل. أليست سامية مطمعا لكل من عمها وابنه؟ إنها لهذا السبب لا تهتم ولن تهتم بمستحضرات التجميل. لم تكن تحرص علي أن تبدو في صورة جميلة. إنها لا تستخدم المساحيق ولا أحمر الشفاه ولا البودرة مطلقا. لم تذهب إلي كوافير قط. إنها تترك الشعر الزائد في وجهها ولا تفكر حتي في إزالته حتي لا يهتم بها أحد أو يغازلها أحد. ابتعدت عن التاكسي وسارت في حال سبيلها. بالأمس بعثت لها أمها رسالة علي تليفونها المحمول ترجوها أن تستعد للسفر معها إلي الكويت. تجاهلت الرسالة تماما. لقد أخبرتها برأيها في هذا الموضوع. لن تسافر. فلتذهب أمها مع زوجها الجديد. طرأت في ذهنها صورة محب وهو ينظر إليها بوله وعشق. أنت مخطئ يا ولدي. كيف أحببتي وأنت لم تعرفني؟ أنت لا تعرف عني أي شيء. أنا أعرف أنك لم تنظر إلي جيدا. لقد أحببت هيكल الأنثي الطويلة. الأنثي الطويلة الهيفاء نادرة الوجود في مجتمعاتنا العربية. معظم النساء عندنا قصيرات. عندما لمحته ذات مرة أكدت لنفسي أنه أكثر جمالا مني. إنه وسيم حقا. سعدت جدا بالعلقة التي أخذها بسببي. لن يتركني عمي زين. أعرف أنه سيخبر أبي وقد يخبرني أو يستجوبني. لن أجهز ردودا. لن أواجه أحدا حتي يواجهني. إنهم قد يشكون في ولكني بريئة. أنا أذهب إلي أمي التي أخبرني أنها قد ماتت، ولقد اكتشفت أنها لا تزال علي قيد الحياة. وما العيب في هذا؟ إنها أمي. أنا لا أذهب إلي أحد غير أمي. صوت سائق التاكسي لا يبدو غريبا. إنها تعرف هذا الصوت تقريبا. اقترب منها سائق التاكسي في بجاجة وكاد أن يلمسها بسيارته وقال:

— اركب يا جميل. اركبي يا مس مني

إنه يعرفها ويعرف اسمها أيضا. لم تنظر إلي السائق، ولكنها لم تكن قد نظرت إليه قط. إنها تعرف الصوت أو تعتقد أنها تعرفه. ألا تتشابه الأصوات؟ كل المعاكسات واحدة. اركب يا قمر. تعال يا جميل. شعرت أنها يجب أن تفعل شيئا. نظرت أمامها وواصلت المسير وابتعدت عن التاكسي الذي أصر أن يواصل سخافاته. نادي بصوته مرة أخرى: اركب يا جميل. والله أنا لا أعمل إلا في المساء. خرجت الظهر اليوم من أجلك أنت يا جميل. اركب يا قمر. نحن أولي من الغريب. اركب يا جميل. أنا عارف حكاية الخميس يبدو أنها يجب أن تتخذ موقفا. بدون أن تنظر وراءها قررت أن ترفع يدها وتضع سائق التاكسي. أمسك بيدها وأنزلها بقوة وقال متسائلا في احتقار:

— أنضربيني يا مس مني؟

لقد رأت وجهه. إنه ممدوح زين ابن عمها. إنه الأخ الأكبر لمبروك. نظرت إليه في غضب وقالت:

— أليس عيبا عليك أن تعاكس ابنة عمك؟

— أنا أولي من الغريب.

هكذا قالها بوقاحة. نظرت إليه في غضب ثم بصقت علي الأرض، تمنيت وقتها أن يكون محب موجودا. أترأه كان سيدافع عنها لو كان موجودا؟ سؤال ملاً تفكيرها وسارت نحو بيتها ودموعها تسيل علي وجهها وعزمت علي أن تخبر والدها بكل شيء. لقد آن وقت المواجهة، ولكنها لم ولن تواجهه. ماذا ستقول له؟ أقول له أنها أخفت عليه أنها عرفت بكل ما أخفاه عنها بشأن أمها منذ سنوات عمرها؟ أقول له أنها اكتشفت وجود أمها منذ خمس سنوات ولم تبلغه؟ لا. من الأفضل أن يظل سرها مدفونا في بئر حياتها.

مبروك يثور

تحاول منى أن تتسمع إلي كل ما يقال بين حسنية وابن عمها مبروك. فتحت نافذتها وأطفأت النور وراقبت من وراء شباكها، لقد اتخذت قرار بأن تخبر أبيها بأنها وجدت أمها وأنها تزورها باستمرار منذ فترة. لقد علمت أنها حية ترزق، وعلمت أنها لم تمت كما أخبرها. إنها لم تخطئ ولكنها تعود فتراجع نفسها خشية أن يغضب والدها. كيف أخفت عنه هذا منذ خمس سنوات. كانت حسنية تهدئ من روع مبروك بعد العلة الساخنة. ركب مبروك أعالي قمم أمواج غضبه. لقد ضربه أبوه وأهانته. لقد ماجت به أفكاره في معاندة أبيه وترك محل الجزارة وعدم العمل مع أبيه ثانية مع أمواج غضبه فتقاذفته من هنا ومن هناك ولم يجد شطا يستريح عليه سوى غضبه الذي يتزايد كلما تذكر والده وهو يصفعه علي وجهه ويضربه ويركله بكل ما أوتي من قوة.

إنه ليس بهيمة يجهز عليها والده ليعدها للذبح. تذكر أول مرة ذهب فيها مع والده إلي المذبح. إن مبروك يشعر أنه لا يقل عن البهيمة التي يسوقها والده لتذبح. إن البهيمة قد تستشعر دنو أجلها فتأبى مواصلة المسير مما يدفعها إلي العصيان. لن أكون أقل من البهيمة يا أبي. لن تذبحني.

لقد سمع كل الناس ما فعله أبوه به. لم يزعجه هذا بقدر ما أزعجته نظرات سامية. آه. سامية. فاتنته وفاتنة أبيه. يبدو أن والده المعلم زين أراد أن يثبت لسامية أن مبروك لا يساوي شيئاً في دنيا الرجال، وأنه هو الجدير بها. كيف يكون جديراً بها وهو لا يعمل إلا تابعا لوالده؟ كيف له أن يستقل من براثن أبيه وهو يطعمه ويسقيه ويؤويه؟ كيف سارفع عيني في عينيك الجميلتين يا سامية. أكثر من مرة كان يلح والده ينظر إليها نظرات جشعة جائعة. وما ذنبه وهو أيضا يحبها. لن أتركها لك يا أبي. صدقني. ولن أسمح لك بأن تهدر كرامتي ثانية لا أمام سامية ولا أمام غيرها. إن أي ثمن يمكنني

أن ادفعه من أجل أن تبتسم عيناك من أجلي يا سامية. أنت قمر الحارة وبدر الحياة ونور العين. سأستقل عن أبي. أنا لك. سأثبت أنني لك يا سامية.

كان علي أن أستقل بعيدا عنك يا معلم زين. يا أبي. يا من أهدرت كرامتي وذبحت رجولتي أمام القاضي والداني. لقد أفلح ممدوح إذ استطاع أن يهرب من فلئك. لقد خرج عن مدارك يا معلم زين ولم يعد تابعا لك ، سأسير علي نهجه وأتتبع خطواته. لقد اقترض ممدوح من أصدقائه مقدم التاكسي وصار يعمل عليه ويكسب. لا. لن أظل أحبو في أثرك ولن اعمل معك بالجزارة.

لن أكون جزارا بعد اليوم. سأنزل الليلة وأخطب سامية وأريك أنها ترغب في شاب مثلي لا في كهل مثلك. لن تفوز بها يا أبي. لن أدع نفسي تخسر حبها. إن سامية هي معركتي الحقيقية. لقد فشلت في التعليم وسأفشل بسببك ولن أكون جزارا بعد اليوم يا معلم زين. سأثبت لك يا سامية أنني رجلك وأستحقك.

إن نظرات سامية لي تشي بالحب. ومن أدراني؟ ألا تكون تشي بالشفقة من معاملة أبيك الجافة وشتائه المتتالية لك يا مبروك أمام من يساوي ومن لا يساوي شيئا. لقد طالبت سامية والدك أكثر من مرة أن يرفق بك ويعلم أنك كبرت وصرت رجلا. لا. إنها تحبني. لا. قل علي الأقل يا مبروك إنها لا تكرهك. ولماذا تحبني وأنا تابع لأبي فلا عمل ولا أمل لي بسواه؟

ركبته موجة عناد آتية من بحر غضبه فأطبقت علي تفكيره وجذبته إلي أمواج غضبه من جديد وصار في دوامته يتأرجح بين الرفض والغضب والعناد. لن أتزوج ابنة أخيك يا معلم زين. لن أتزوج مني. صحيح أنني لم أتعلم مثلها ولكن أنني لها بعريس مثلي. إنها ستصبح عانسا. سأتركها. لا زواج في هذه الأيام. ومن ذا الذي يقدر علي أن يخوض تجربة الزواج؟ أين هي من رقة سامية وقوامها وجمالها ودلالها. إن سامية هي حياتي التي يجب علي أن أعيشها. إنها معركتي التي سأنتصر فيها. لن أدعك يا سامية. كان يشعر بالدم يغلي في عروقه وهو يفكر فيما يجب أن يفعله. صارت عروقه تنفر فتري أمه أثر غضبه في عروق وجهه وفي عروق رقبتة. ازداد

نبضه. أخذ ينفخ وبعلو صدره ويهبط غيظا. وأخيرا أخذته موجة من
 موجات الحسرة وألقته في بحار من التفكير بمستقبل لا يدري له أية
 ملامح يتبينها في ذروة غضبه. قال لأمه والشرار يتطاير من عينيه:
 — لن أسمح له أن يمد يده عليّ بعد هذا، لقد تخطيت العشرين بكثير.
 قالت أمه محاولة أن تهدئ من ثورة غضبه:
 — إنه أبوك يا مبروك
 — أبي فوق العين والراس ولكن عليه ألا يظلمني وألا يهينني
 — أبوك وكان منفعلا وضربك. لا تعمل من الحبة قبة يا مبروك يا بني.
 — سأستقل عنه يا أمي. لن أعمل معه في المحل يا حاجة.
 — لن تستغنى عنه إنه أبوك ثم إن هذا البيت بيته يا عبيط.
 — لقد استغنى عنى إذ أهاننى وضربنى.
 — لقد قمت باستفزازه
 — وما العيب فى أن أحب سامية يا حاجة؟ سأخطبها يا أمي. أنا أحبها
 صرخت المرأة وكاد أن يغمى عليها. ضربت علي صدرها وشهقت
 مستنكرة وقالت وهي فى قمة الغضب خوفا علي ولدها من أن
 يتزوج سامية:
 — أنتزوج أرملة يا مبروك يا بنى؟! أريد أن أفرح بك يا ولدي.
 — مالها منى بنت عمك. هل عملت لك سامية سحرا يا ضناي؟
 — أحبها يا حاجة.
 — أترك ابنة عمك المتعلمة المتنورة لتتزوج من هذه الأرملة؟
 — وما لها الأرملة؟
 — إنها أكبر منك بعشر سنوات على الأقل يا بنى.
 — أحبها. إنها من ثوبنا يا أمي. إن منى متكبرة ومتعجرفة و...
 — وماذا أيضا يا بن زين جمعة؟
 — أراد مبروك أن يكسب أمه إلى صفه فقال لها وهو يتعمد أن يثير غيرتها:
 — أبى الحاج زين مغتاظ منى لأنه يريد لها نفسها.
 — اصمت يا قليل الأدب ولا تتكلم عن والدك هكذا.
 — إنه يحبها يا حاجة وأنت نائمة على أذنك ولا تعلمين شيئا.
 — هذه حياته. من حقه أن يتزوج. الشرع يبيح له أن يتزوج مثني
 وثلاث ورباع

- أنت زوجته. هل ستصيبيني بالجنون يا حاجة حسنية؟ سيتزوج عليك. لماذا لا تثورين؟ سيتزوجها. الكل يقول إن سامية لن تقبل بزواجه منها إلا بعد أن يطلقك.
- ضربت حسنية على صدرها بيدها وقالت:
- على جثتي. يطلقني بعد هذه العشرة الطويلة؟ لا. نجوم السما أقرب له من مجرد التفكير في هذا.
- تحركى يا حسنية، يا حاجة حسنية.. سيضيع الرجل منك. هكذا تعجيبيني. يدي في يدك.
- آه يا ابن زين.. وماذا أفعل يا بنى؟
- تيقظى معى وركزى يا أمى. الليلة سوف ننفذ خطة سامية. سأتزوج سامية حبيبة قلبى.
- قلبى يحدثنى بأنك خططت شيئاً ضد أبيك.
- ليس هذا بالضبط يا حاجة حسنية. سنتعدى به قبل أن يتعشى بنا. خرج مبروك من البيت وهو عاقد العزم علي أن يلتقى بسامية. سيستنشق أنفاسها. سيروي من ماء جمالها. لكم أحبكم يا سامية. روجي فداؤك. ألسنت أنت الحب يا ساميتي. اتجه نحو حجرتها وهو لا يدري أن والده المعلم زين كان لديها منذ لحظات. ترى ماذا يمكنك أن تفعل يا مبروك؟ لقد صارت المواجهة أقرب مما كنت تتخيل. لقد سبقك أبوك. غريمك ومنافسك في حب سامية. سأواجهك يا أبى. سأواجهك.

العاشق لا يزال ينبض شعرا

- ازداد حال محب سوءاً على سوء. أخبرته أمه أنها قابلت الفتاة ولم تحبها. سألها متلهفا:
- أصحيح أنك قابلت مس منى؟
- قابلتها يا ولدي مرتين. إنها متبلدة المشاعر والأحاسيس.
- أحبها يا أمى. لا أرى في الدنيا غيرها.
- ومالها نوال بنت خالك؟
- أشعر انها أختي. المهم يا أمى أن تحكي لي ما دار بينكما
- لماذا تتلهف هكذا. سأحكي لك. لقد زرتها مرتين ولكنى لا أستريح لها. جمعت عنها معلومات كثيرة وسأحكي لك كل شئ بالتفصيل.

تسأله أمه دوماً عن سبب حبه لها فيخبرها بأن الحب كالبرد يصيب الإنسان بلا مقدمات وبدون أن يقصد أخبرها أنها مخطئة فلقد كان يتحتم عليها أن تكلمها وتخبرها بعشق ابنها، هذه أول مرة يتحدث فيها محب معها بهذه اللهجة، أمن أجل هذه التافهة تقول أنى مخطئة؟ كانت والددة محبٍ تثني على أدبه وأخلاقه ولأول مرة تتمنى لو كان ابنها ضائعاً وعابثاً يصادق كل يوم فتاة ثم يتركها إلى غيرها. أتراه سيفضلها علي أمه. أنا أمك. أنا معك منذ سنوات طويلة. أنت لم تعرفها إلا منذ سنة واحدة أو أقل. نظرت الأم إلى محب في تعجب وتحسر على وقوعه في هوة حب لفتاة باردة بلا مشاعر وبلا أحاسيس. طلب محب من أمه أن تكرر ما حدث بالضبط تفصيلاً فى لقائهما مع قمر حياته الذي أزال كل تفكيره في السياسة وفي انتقادات الحكومة. لقد أصبحت مني هذه نور عينيه اللتين يري بهما حياة هادئة ينعم فيها بأسرة سعيدة وزوجة محبة وأطفال صغار بعيدا عن أوجاع ومشكلات السياسة وقرفها، وبعد أن تنتهي أمه من كلامها كان يطلب منها أن تعيد ما قالتها مراراً، ثم يسألها: «هل أحست أنك أُمى؟ إن بيننا تشابهاً كبيراً. أُمى هل أحست بحبى؟

أُمى كيف كانت عيناها وأنت تتكلمين معها. آه. أحبك يا منى» غضب عندما قالت له أمه: «آسفة يا ولدي. إن منى ليست إنسانة ولا تحس أبداً» إنه يقضى الليالى الطويلة متخيلاً أنه يلقاها ويرى طيفها ويناجيه عشقا. نهض محب من على كرسيه ونظر أمامه وكأنه لا يرى أمه وقال مناجيا طيف منى:

ألف أحبك لا تكفى تبكين دوماً في كنفى
ويداك تغرس فى كفى حبا وحنانا لا يبقى

حاولت أمه أن تقاطعه فلم يلتفت إليها. بدا أنه نسي ما كان يقوله فقال مخاطباً طيف منى حبيبته وهواه:

أغضبين إذا أتيتك عاشقا أبغى الهوى وأطارِد الآمالا
أسوق الوصال نحو قلبك آملا حبا ومُقَدما قربانا
أحصى الجمال بنور وجهك راغما لأنال من عينك الرضوانا
قربت دارك مسعدا ونظرت نورك راغبا قربا وإحسانا

وضعت الأم يدها أمام عينيه فقال: «لا تقلقى يا أمى. أنا بخير إن حبى لن يقتلنى. أريدك أن تحسى بحبى» ردت عليه امه قائلة: «أشك انها ستحبك. لا أعتقد ان لها قلباً» واصل حديثه معها قائلاً: «أخبرت نوال أنى أحب ولأول مرة فى حياتى و... قاطعته أمه قائلة وكأنها تحذره: «إنها تحبك يا ولدى. ألا تعلم ان نوال تحبك؟» أوما برأسه موافقاً وقال:

— أثق أنها تحبنى ولذا أخبرتها

— وماذا بعد يا روميو؟

— ذهبت معها إلى مدرسة منى وقابلناها سوياً.

— والله إنكما فى قمة الجنون.

— نوال فى قمة العقل.. أما أنا فمجنون فعلاً بمنى

— وما علاجك يا روميو؟ يا خيبة بختك الثقيلة يا منار يا معداوى !!

— نذهب ونخطبها يا أمى

— هكذا بكل بساطة؟

— نعم يا أمى

— يا بنى إنها متبلدة الحس والمشاعر

— ستحبنى عندما أخطبها. ستذيب كلماتى وأشعارى تبلد إحساسها.

— أحياناً لا تحب الفتاة إلا من يحبها. قد لا تحب البنت إلا من

— يحبها. سأذيقها من الحب صنوفاً وألواناً. حتى وإن كانت باردة

— كما تقولين فسأعقد عليها من فيض حبى ومن نبض أشعاري.

— لشد ما أخشى أنك واهم. يا بنى تزوج من تحبك لا من تحبها.

— هل ستحرث الصحراء؟

— القلب وما يريد يا أمى

— أخرج هاتفه ثم طلب رقماً فقالت له أمه متسائلة:

— أتكلم نوال لتخبرها بحبك وبأشعارك لمنى؟

— لم يرد عليها وإنما انتظر الرد من الرقم الذى طلبه. قالت له أمه

— فى تعجب:

— ألا تحس يا محب؟ تعرف أن نوال تحبك ثم تخبرها أنك تحب

— فتاة أخرى؟ هل أصابتك عدوى عدم الإحساس من منى؟ أصرت

— متبلد المشاعر مثل منى؟

— يا أمي. لقد أخبرت نوال بحبي لأنى واثق من أنها تحبنى
وستحس بى ولقد ساعدتنى بالفعل وأخذت تليفونها من إحدى
زميلاتهما فى المدرسة.

— يا مثبت العقل والدين ! أى جيل هذا؟! والله إنكم لا تفهمون.
أيعنى هذا أنك تحاول أن تكلم مني؟

— نعم يا أمي.

— وهل ردت عليك؟

— أبدا يا أمي. أرن عليها عشرات المرات ولا ترد

— ولن ترد يا ولدي. قلبي يحدثني بأنها لن ترد ولن تحبك. إنها
فتاة بلا إحساس.

طلب الرقم مرة ثانية وثالثة أمام أمه، ولكن منى لم ترد. ألقى
محب هاتفه المحمول فى غضب على الأرض ثم قال فى يأس:

رُدِّيْ عَلَيَّ إِنْ الرَّدِّ مَطْلُوبٌ فدمع العين للخدین مسكوب
أتاك هواى صدقا غير مكذوب وما سواك لدى يا ليلاى محبوب
«أقصد يا مناي محبوب»

فصوت حبك للآذان مصحوب ونور هواك عنى غير محجوب
ردي علي إن الرد مطلوب فشمس حسنك يا ليلاى مرغوب
«أقصد يا مناي»

أشاحت الأم بوجهها وقالت فى غيظ: «كلام فارغ. سنرى ما
ستسفر عنه أشعارك وجنونك» وما أن انتهت من سخريتها إلا وقد
كانت نوال تدخل من باب شقتها بعد أن فتح لها محب. صفقت
نوال وقالت:

— مَحْظُوظَةٌ وَاللَّهِ مِنْ سَتَمَعِ هَذَا الْكَلَامِ

ثم نظرت بكل حب وشوق فى وجه محب وهى تتمنى لو أن هذا
الكلام قد قيل لها. نظرت الأم إليهما فى تعجب وهى ترجو من كل
قلبها أن يتحول قلب محب إلى ابنة خاله ولكن هيهات. لقد ملأت
منى كل فؤاده ولم تترك مكاناً لأى أحد غيرها، ولكن من يدري.
ألا يسمى القلب قلبا لكثرة تقلبه؟ هكذا كانت منار العدوي تمنى
نفسها. فلتنتظر ما ستسفر عنه الأيام. أليس الغد بقريب؟

المعلم زين يفكر

بعد صلاة العشاء تنحنح المعلم زين وقبل يده ظاهرها وباطنها، جال ببصره فرأى أحمد بعيدا عن أقرانه ووجدته علي غير عادته ينتحي ركننا بعيدا في المسجد بمفرده، نظر يسرة ويمنة بعد انتهاء الصلاة وكأنه ينتظر شيخ المسجد أو يبحث عنه. استغرقه التفكير وهو يتمتم بكلماته ليختم صلاته. عدل من وضع عمامته ناصعة البياض علي رأسه، تحسس مكان محفظته التي ملأها بالنقود ليزغلل عيني سامية. الرجل لا يعيبه إلا جيبه، وهاهو ذا جيبه ينتفخ بالمحفظة يا سامية، ثم ذلك ذقنه فأحس بنعومتها. لقد حلقها بعناية من أجل سامية. وبعد حلاقة ذقنه وإزالة كل آثار الشعيرات النابتة جلس تحت الدش ما يقرب من ساعة ليدعك جسده. أرادت زوجته أن تدخل الحمام فصاح بها غاضبا: «أنا طول النهار في المحل يا مرة. دعيني حتي انتهي. أعوذ بالله. أتكندين علي كل الوقت. حتي الحمام يا حسنية؟ ألم يصيح الحمام رائعا في في عينيك إلا بعد أن دخلت؟ أصار الحمام حلوا الآن؟ ثم أنك قد أخذت دشا من شهرين يا حسنية. دعيني يا حاجة. أهم حاجة أن تسيري علي الأرض بهدوء حتي لا يسقط بنا السقف يا بقرتي الحلوب. يا حبيبة قلبي» سكنت المرأة ولم ترد فعاد إلي حمامه وهو يغني سعيدا علي غير عادته. كان يغني بصوته الأجش: «اتمخترتي يا حلوة يا زينة»، ثم واصل غناؤه المزعج قائلا بصوت ظنت زوجته أن الذباب سيملاً المكان ويتهاافت عليه بسبب قباحة صوت زوجها: «يا خارجة من باب الحمام وكل خد عليه خوخة». لقد ظنت حسنية أن زوجها قد جن، فتحاشت الحديث معه، ولو كانت تعلم إلي أين سيذهب لصوتت وملاّت الدنيا صواتا. إنك لا تعلمين يا حسنية ما الذي يدبره زوجك. أيمكن أن يتزوج عليك؟ لا. لا يمكن أبدا. يبدو ان ولدها مبروك قد أصابته لوثة. إنه يحب سامية. هذه البوصة النحيفة. وجهها جميل ولكنها رفيعة. لقد لحست عقل ابنها. لن تسمح له أن يتزوج

بهذه المرأة الأرملة. طيش شباب وسينتهي، ولكن مبروك حذرهما من أن أبيه أيضا يريد أن يتزوجها. لا الرجال يحبون النساء السمينات. السمينية فرش وغطاء لزوجها في الشتاء، وها هي أيام الشتاء ستدخل. هذه نسيمات الخريف. أنتظر الشتاء حتي أدقئ حياتك يا زين. إنه قد صار لا يقربها. لقد اتخذ حجرة مستقلة لنفسه. آه وضبطته ذلك البصاص ينظر إلي رجلي سامية. اللهم اخزك يا شيطان. استخدم أكثر من صابونة فقد يعجبها. عليها ترضي. وما يدريك يا زين لو رضيت. والله لأذبحن عجلا كاملا وأوزعه للفقراء والمساكين. إنها تستحق أكثر من عجل. عجلين أو ثلاثة. أنذر لك يا رب أن أتكفل بمائدة الرحمن هذا العام إن رضيت بي زوجا. يا رب. إني أريدها في الحلال فلا تكلني إلي الحرام. ألا تحس سامية بنظراتي؟ إنها متأكدة أنني سأصير رهن إشارتها. عليه أن يفعل كل شيء من أجل سامية. لقد صار بالفعل يعمل أي شيء من أجلها لقد استأجر محلا آخر قرب الميدان وبعث مبروك ليعمل فيه طيلة الوقت عندما أحس أن ولده يشاركه النظرات إلي سامية هذه الغزاة الشاردة التي طالما تمنى أن تسقط في شبك نظراته، وكثيرا ما تمنى أن تصيبه نظرة رضا من عينيها الكحيلتين.

كان يهديها أرغفة الحواشي الساخنة فتشكره في اقتضاب أو تدعو له فيبتسم قلبه ويسعد فؤاده ويسيل لعابه. إنها أجمل امرأة في عينية. إنها الحياة بالنسبة له. يبدو أنك قد غرقت في الحب إلي أذنيك يا معلم زين. كيف ستخرج من بحر حبها. المرأة جميلة ورائعة وتستحق أن تشغل دنياك. لماذا تخاف من أن تقترب من أسوار أحزانها؟ لقد انتهت عدة زوجها. لقد كنت تحسب عدتها يوما بيوم. بقي شهر. بقي أسبوع. لقد انتهت العدة. الحمد لله. أنا لك يا سامية. سأتيك ولو زحفا. أنت لا تعلمين كيف أحبك.

من حقا أن تقتطف هذه الثمرة اللينة. من حقا أن تشم ريحها وأن تنعم باللذات في أحضانها. لقد أصابتك زوجتك بالقرف وصرت أقرب إلي العفة في وجودها. أنت لست سميئا مثلها. أنت تحتاج إلي سامية. إنها غزالتك الرائعة. إنها فتنتك. أليست سامية حورية يسبح الجمال في قسمات وجهها ويتهدد قلبك وتفقد صوابك عندما

تنظر إليها نظرة واحدة. ما بالك لو صارت ملكا لك وطوع بنانك؟
آه يا السعدك وبالهنائك إذا تحقق حلمك.

لقد عقد العزم علي أن يلتقيها. ربت علي بطنه وأزال ذرة تراب
قد التصقت بجلبابه ناصع البياض. نظر إلي ساعته الذهبية الجديدة.
تمني من قرارة نفسه أن يعجب سامية. لقد شغلت كل تفكيره في
الفترة الأخيرة وأصبح يتمني لو استطاع أن يجعلها تظل أمام عينيه كل
الوقت. أليس هذا هو الحب؟ أنت تحبها يا زين. إنها معك ليلا
ونهارا، إنها تطاردك في أحلامك وفي يقظتك. تتمني أن تحادثها كثيرا
وبلا انقطاع. تتخيلها بجوارك دوما. تتخيلها في قميص نومها وتتحيل
أنك تنزع عنها ثيابها قطعة قطعة. أستغفر الله العظيم. لا تقلق. أنت
لن تقع في براثن الحرام. اطمئن ستصير زوجتك.

إنه يهيم بها. لقد أحضر بعض الصبية معه في محله حتي يتفرغ فقط
للنظر إلي محبوبته سامية ولكي يتخيلها في أحضانه. لقد صار لا يطيق
حسنية زوجته. لا وجه للمقارنة بين شاة صغيرة، لا، ليست شاة، إنها
عنزة رائعة، لا وجه للتشابه بينها وبين بقرة عجزت فانتفخت بطنها
وصار يؤذن بالانفجار في أي وقت. غاص في خيالاته. أيمن أن يستاجر
أحدا يصيح للتنبيه عندما تسير في الشارع فيقول وهو يسير أمامها:
«احذر. القنبلة علي وشك الانفجار». لقد أنجبت له الولدين فقط.

أخبرته الطيبية أن زوجته حسنية لن تنجب ثانية بسبب الدهون
المتراكمة علي الرحم. هذه حجة جديدة وذريعة سيتخذها ليفهم زوجته
أنه يريد الزواج. إنه لن يخرق أمرا في الإسلام. الرسول عليه الصلاة
والسلام يقول: «تزوجوا الودود الولود». ويقول عليه الصلاة والسلام:

«تناسلوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة» «لن يمنعه أحد
من الزواج بسامية. هذا حقه. وما ذنبه في أن امرأته لن تنجب ثانية؟
إنه يريد عشرة من الأولاد. أنا رجل غني ومقتدر. سأتزوجها. لقد
اشتريت سيارة جديدة من أجلها. من أجلك أنت يا سامية. راقبت
نظراتك بعد أن تعلمت قيادة السيارات من أجلك. من حقك أن تركبي
السيارة بجواري. إن السيارة وصاحبها سيكونان رهن إشارة من أصبعك
الصغير. متي تحسین بی آیتها الجميلة الرائعة. ساميتي حبيبتي.
ابتسمي لي. أنا رجلك. كن ادعك تعملين. ستصيرين سيدتي وتاج

راسي. ستصيرين ملكتي الجديدة. تأمرين فتطاعين وتنهين فأزدرج.
لن أؤخر لك طلبا. لن أمنعك عن شيء.

يا زين كن في جانب الصواب. أنت لم تفكر في الزواج إلا عندما
مات محمد العجلاتي زوجها. كان وجوده عائقا يمنعك من مجرد
التفكير فيها. صحيح أنك كنت تختلس النظرات لها، ولكنك سرعان
ما كنت تعود وتستغفر الله. تذكر كيف كان ينظر إليها من خلف
شباكها. متي يمكنني أن أحتويك في أحضاني يا كل أحلامي. أيمكنني
أن ألس ساقبيها المرمريتين، أيمكن أن أدوب في جسدها الرائع كالمهلبية.
أشهد الله أنني لم أتزوج من قبلها. كيف يا زين؟ لقد كانت زوجتك
حسنية من قبل كغصن البان. كانت ممشوقة القوام. كانت زينة بنات
الحي. لم تتعلم أو تذهب إلي المدرسة وكان هذا مصدر فخر لوالديها.
كانت صغيرة يانعة. آه يا من أخذت الصغيرة أنت فزت بالسوق.
وقتها كنت ستموت لو لم تقبل بك زوجا.

احتضنك أبوها وعلمك الجزارة. أ يكون هذا جزاؤه بعد أن مات
وتركها أمانة في يديك. لقد أوصاك أبوها بها خيرا قبل أن يموت.
طيب. لن أطلقها. سأتزوج سامية، ولكن سامية لن ترضي. لقد قالت
أكثر من مرة لن أتزوج نصف رجل. أنا رجل ونصف يا سامية.
قالت صراحة وهي ترفضني قائلة: «لن آخذ رجلا من زوجته
وأولاده». لقد أحل الشرع لي الزواج من أكثر من امرأة، لست أول ولا
آخر من يتزوج مرتين، ولكنك يا سامية ستصيرين كل حياتي. لقد
حذره الشيخ من قبل قائلا: «عليك أن تعدل بين زوجتيك إن كانت
لك زوجتان وإلا أتيت يوم القيامة وشقك مائل» أطلقها. سأطلقك يا
حسنية حتي أتمكن من حبة القلب ونور العين. من أجلك أنت يا
سامية سأفعل كل شيء.

تذكر حياته في الأيام الماضية التي زهد فيها زوجته بقرية الجسد كما
يسمونها دوما. إنه لا ينسي أنه جزار. كثيرا ما كان ينعثها بالجاموسة
أو يسبها قائلا في مداعبة سخيفة: «تعال يا بقرتي الحلوب». كانت
تتقبل الإهانة أحيانا ولكنها ذات مرة ردت عليه قائلة: «إذا لم يكن
يعجبك شكلي سأذهب إلي الجيم». غضب جدا فلقد كان لا يعرف
معني الجيم. نظرت إليه في براءة وقالت: «جيم يا معلم» رد عليها

بنظرة غضب وقال متسائلا في غضب: «أتستمينني يا حسنية؟» ردت عليه قائلة: «الجيم هو المكان الذي يعمل فيه التخسيس للنساء» فقال لها في سخافة مقصودة: «آه. النساء. طيب ولماذا تريدين الذهاب إلي هناك؟ أنت لست من النساء». ود لو قال لها ساخرا: «أنت من البهائم يا حسنية».

لم يكن قد سمن كثيرا بعد الزواج. إنه رشيق طويل القوام. يتعجب كثير من الناس الذين لا يعرفونه عندما يخبرهم بأنه جزار. لقد صارت حسنية شحمية الجسم دهنية الملامح منتفخة الوجه وكأن وجهها قد فقد ملامحه تماما، أما خداهما فكانا كبالونتين منتفختين يخشي من يراها أن ينفجرا في وجهه، فكادت سمنتها أن تغطي علي وجودها كإنسانة فتحولت إلي بقريّة القوام بلا ملامح تقريبا سوي أن تكون كروية الشكل، فلا رقبة لها يمكن أن تميزها، صارت أقرب إلي الطبيعة الدائرية منها إلي طبيعة النساء المتناسقة المثيرة. لها مؤخرة عظيمة يا ويله من تجلست فوقه. صارت مدكوكة تماما وأقصر مما كانت عليه من قبل.

إنه يريد سامية. لاشك أنها هي الأوزي التي ستشبعه. إن زوجته قد انتهت عمرها الافتراضي. لقد كانت رشيقة عندما تزوجها منذ ما يزيد علي عشرين سنة. كانت صبية جميلة. ماذا حدث لك يا حسنية. لقد تحولت إلي فيل ينقصه الخرطوم الطويل. لقد صارت قنبلة ذرية يخشي من أن تنفجر في أي وقت. صحيح أنها كانت فاتحة الخير له، ولكنها لا تصلح له الآن.

ساورته بعض الخيالات الجنسية. آه لو أكون في أحضان سامية. هذه المرأة ذات القوام الرائع. ليس حراما. سأتزوجها حالا. أنا لا أحب الحرام. هل يستشير الشيخ في موضوع زواجه؟ لا. من الأفضل أن يسر هذا الموضوع، ولماذا لا يفتحه؟ لو طلب منه أن يخطب له سامية لفعل. أليس الزواج شرع الله؟ إن للشيخ تأثيرا علي جميع من في المنطقة. فليطلب منه أن يساعده في هذا الأمر. لا. لن أطلب منه أن يخطبها لي. قد تزوغ عيناه عليها وقد يتزوجها هو. أليست سامية هذه قمر المنطقة؟ أليست هي الدنيا بالنسبة له؟ استغفر الله ونزع فكرة أن يطلب من الشيخ أن

يخطبها له. ألا يمتلك لسانا طويلا ليتحدث به مع سامية؟ ألا يستطيع أن يقنع سامية بنفسه؟ من رأسه. تذكر كلمات الشيخ من قبل في أحد دروسه التي كان نادرا ما يحضرها. لقد قال ذات مرة: «ما حك جلدك سوي ظفرك فتول أنت جميع أمرك». ماذا لو رفضت سامية الزواج مني؟ سأصير حكاية علي كل لسان. من الأفضل أن أكلّمها أنا بنفسي. ستقبل إن شاء الله. يا رب تقبل بي. أتمني أن توافق علي زواجي منها. أخذ يدعو الله من كل قلبه أن يوفقه وأن يهدى سامية وتوافق على زواجه منها. إنه لا يعرف كيف سيتكلم معها. برم شاربه ورفع رأسه للسماء داعيا لله أن ييسر له طريقه. نظر إلي أحمد وهو صامت ساكن. كان الحزن يسيطر علي الطفل. كانت ملامحه تشي بأن كل هموم الدنيا قد جمعت علي رأس هذا الصبي، لقد افتقد أباه ولا يدري أين هو، ستتزوج أمه بشخص لا يطيقه ويشعر بأنه شيطان. لشد ما يخشى علي والده. نيفين أيضا لم تزره. يبدو أن والده في خطر حقيقي. قد لا يكون فهمه صائبا ولكن إحساسه يؤكد له أن والده في خطر. إذا لم يخبر نيفين فمن ذا الذي يخبره؟ إنه لا يمكنه أن يخبر أمه. إن كل ما أدركه من حديث أمه وعادل لا ينبئ بخير. يبدو أنهما يخططان ضده. قال لها إنه يحبها ولقد فعل كل هذا بصديق عمره من أجلها. تري أين يكون أبي؟ هل أخبر جدي؟ إنه طيب القلب ويمكن أن يساعدني. لقد كان يحب أبي، ولكن أين أبي الآن؟ نظر إلي السماء وكأنه يدعو الله أن ينجي والده. رفع كفيه الصغيرين إلي السماء وقال بصوت ينم عن القهر الذي يشعر به والرجاء في أن يحفظ الله والده من كل سوء والأمل في كرم الله وفضله، ثم اغرورقت عيناه بالدموع. اقترب منه المعلم زين وحياه قائلا:

— مالك يا بني؟ شكلك مصفر وحزين.
لم يرد عليه الطفل، اقترب منه ومسح علي شعره فاحم السواد وقال له:

- لا شئ يا معلم زين
- أتعرف اسمي؟
- ومن في المنطقة كلها لا يعرف المعلم زين؟ لحمك أفضل لحم في المنطقة.

— أنا اشتغل بما يرضي الله.

ترك الطفل في حاله ثم تعمد أن يخرج من المسجد متأخراً. خبط صدره بيده عدة مرات وكأنه راض عن نفسه تماماً ثم تساءل في نفسه: «وماذا أفعل إن رفضت؟ لا. لن ترفض. كيف يمكن أن ترفضني أنا الحاج زين جمعة، أيعقل أن تكون هناك علاقة بين مبروك وسامية؟ هي التي كانت تطلبه ليساعدها في الدكان. لقد طلبت منه أن يساعد سامية. وماذا يساوي ابنه في سوق الرجال؟ لا شيء. إنه عالة على أبيه. إنه كالبغل ولا زال يأخذ مصروفه منه وينام في بيتي ويعمل في دكاني الذي فتحته خصيصاً له ليباعد عن سامية ولعله يستقل بحياته ويفكر في الزواج من مني ابنة عمه. لو رفض الزواج منها سأرميه في الشارع. سأطرده من بيتي. لا يمكن أن تختار هذا البغل وتتركني أنا المعلم زين علي سن ورمح. إن كان ابنه لديه الشباب والفتوة فإن المال ينقصه والمال لا يتوافر إلا معه.

خرج الحاج زين من المسجد ونظر إلى شقته فوجد الأنوار كلها مطفأة. تحسس مكان علبة السجائر في جيبه فلم يجدها. تردد قليلاً في أن يذهب إلى سامية ويطلب الزواج بها أم يذهب إلى شقته ويأخذ علبة السجائر ويأخذ للمرة مبلغاً أكبر من المال ليغري به سامية. وأخيراً استقر رأيه على أن يذهب إلى شقته. تعجب عندما لم يجد أحداً. أخذ السجائر ونزل تجاه دكان سامية وهو يتساءل: «أين ذهبت حسنية ومبروك البغل وممدوح المعفن. سأقطع رقابكم يا كلاب عندما أعود، ترى أين ذهبتم أيها الغجر؟». انتهى من سؤاله ثم بصق على شقته وتوجه إلى فانتنته، لم يكن يعلم أن فانتنته غارقة في النوم وتفكر أيضاً حتي وهي نائمة كما كان يفكر، ولكن تفكيرها كان مختلفاً. إنها سامية وما أدراك ما سامية. لا تتعجل يا معلم زين. كلما تأخرت كان ذلك أفضل. إنها فرصة أن تحدثها في أول الليل وقد يمتد الحديث إلي آخر الليل. هكذا كان يمضي نفسه ليلة هائلة، ولكنه لم يكن يعلم أنها ستكون ليلة حالكة السواد في عمره. ليته كان يعلم. لو كان يعلم بهذا لما ذهب إليها. واصل خطواته في سعادة تجاه بابها. ومن سيطرق بابها سواه. إنه المعلم زين علي سن ورمح.

الضيوف الجدد

رجع شريف إلى الحجز ثانية وكان وراءه الشاويش عشاوي، كان يدفعه برقة هذه المرة ليظهر فقط طبيعة عمله. نظر إليه شريف في ود. تذكر الدكتور ريم وابتسامتها التي ودعته بها. تذكر أيضا غيرة خطيبها الدكتور صابر ثم ابتسم في نفسه ودعا الله لهما بالتوفيق ولم يكن يعرف أن مشروع ارتباطهما سينتهي بالفشل وأن الخطوبة لن تدوم أكثر من شهر، لقد استشعر الحزن في عيني ريم. يبدو أنها تقريبا كانت تعرف النهاية وليته ما نصحها أن ترد عليه. إن صابر فعلا لا يليق بها كما تبين له فيما بعد. اقترب منه رفاق الحبس ليطمئنوا عليه. تقدم منه أولا منصور أبو دومة وتبعه عوضين الطويل فلقد كانا مربوطين بسلسلة واحدة ثم تبعه بعض زملاء الحبس. شكرهم وانتحي ركننا بعيدا وأخذ يفكر في حاله وفي أحوال البلد. تساءل في نفسه «ألم أكن مهتما بالطبقات الفقيرة في المجتمع؟ كنت مهتما بفئات المهمشين فقط. لم أكن مهتما بفئات غير المهمشين في كتاباتي. كتبت مرة واحدة عن الفقر الحضري. يعني هذا أن أكثر من نسبة ستين بالمئة من المصريين يعيشون في فقر طاحن. هذه الطبقة وخطيبها من الفقراء. مئات الآلاف من المدرسين الشرفاء الذين يتقاضون مرتبات لا تكاد تفي باحتياجاتهم ولا باحتياجات أسرهم. ملايين الموظفين الذين يأخذون رواتب لا تسمن ولا تغني عن جوع ثم يسلط علي رقابهم سيف الضرائب فتقتطع ما يقرب من الخمس من رواتبهم في حين يتهرب رجال الأعمال والفنانون والفنانات ولاعبو الكرة من الضرائب. يبدو أن الضرائب لا يسدها إلا الفقراء في هذا البلد.» لا يدري لماذا تذكر فتوي شيخ الأزهر أن موظفي الحكومة يستحقون الزكاة. فقر مدقع نعيش فيه وأصحاب الملايين يزدادون في البلد. زواج المال بالسلطة يعد كسياط تلهب ظهور الفقراء. رجال الأعمال يسرقون البنوك ويقترضون بلا رقيب وبقيّة المصريين يعيشون تحت خط الفقر. أية أكاذيب ترددها الحكومة وممثلوها الذين يتحدثون ليلا ونهارا

عن ضرورة ألا تمس الإصلاحات الاقتصادية طبقة محدودي الدخل. وماذا عن معدومي الدخل؟ وماذا عن البطالة وماذا عن المتعفين الذين لا يسألون الناس وهم أحق الناس بأموال تقيهم مذلة التسول؟ وماذا عن دخل الدولة من الضرائب والسياحة والبترو؟ كيف نكون دولة فقيرة وأكثر من نصف شعبها يعيشون علي الكفاف إن وجدوه. أين دخل قناة السويس وأين مجهودات الحكومة التي يحدثونها عنها؟ ابتسم لجميع رفاق الحبس. نظر مليا فوجد شابا يبدو عليه أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين. نظر إلي منصور أبو دومة وتظاهر بالغضب. إنه الآن يعد رئيس المحبوسين. لقد تغلب علي منصور. كيف يكون رئيس المحبوسين ولا يعرف شيئا مما تم في غيابه. اتجه إلي منصور وأمسكه من عنقه في حالة تمثيل واضحة وقال له في روح تتسم بالعتاب:

— أنا زعلان منك يا أبو دومة؟

— لماذا؟

— أغيب يومين وأرجع وأجد أشخاصا لم يكونوا موجودين من قبل ولا تخبرني؟ عيب عليك. لقد تركت رجالا خلفي في الحبس. ألم تقل لي إن الحبس للرجال؟

— معذرة يا أستاذ شريف

كانا يتحدثان وشريف يتظاهر بأنه عتي في الإجرام. أمسك أبو دومة من شعر رأسه وشده برفق إلي أعلي وقال له وكأنه يهدده:

— من هذا الأخ يا معلم منصور؟

— إنه. إنه. إنه...

رد يا منصور

— لا مؤاخذه يا أستاذ. لا أعرفه. أنه هنا منذ أمس ولم يتكلم.

— عيب عليك يا أبو دومة. ظننت أنني تركت رجالا في الحبس ورائي. لماذا لم تقترب أنت منه وتعرف عنه كل شيء؟ عيب عليك. أنسيت ما حاولت ان تفعله معي؟

— لا مؤاخذه يا أستاذ شريف. لا مؤاخذه يا ريس

نظر الحبيس الجديد الشاب ذو الخمسة والعشرين عاما إلي شريف في هدوء ولم يتكلم. قال شريف متظاهرا بالغضب موجهها سؤاله إلي منصور:

— لماذا لم تعمل الواجب مع الأخ الجديد؟

- حاضر يا أستاذ
- اتجه منصور أبو دومة إلي الشاب وأمسك بيده وقال له :
- قم كلم الأستاذ منصور. قم كلم الباشا.
- تقدم الشاب في هدوء واتجه نحو الأستاذ شريف الذي تظاهر بأنه زعيم أهل الحبس وقال له :
- أفندم يا باشا
- اسمك وسنك وعنوانك
- قلت كل شيء في المحضر
- أنا الذي أسألك الآن يا مجرم. لا. آسف. أنا الذي أسألك الآن
- يا متهم
- حامد علي ابراهيم. ٢٥ سنة. درب الاحمر. شارع الشهدا بيت رقم ٦
- ماذا فعلت يا متهم؟
- قتلت سيد علي الحوفي
- لا تعترف. قل أنا متهم بقتل سيد علي الحوفي
- لا. أنا قتلته. أنا ليسانس حقوق ٢٠٠٩ بتقدير ممتاز. قتلته. قتلته
- بعشرين طعنة من سكينني
- أنت تعترف؟
- نعم. أنا قاتل
- سكت كل من في الحبس. استبد بهم حب الاستطلاع. تحلق جميع الموجودين حول الأستاذ شريف وحامد. نظر إليه شريف في شفقة وقال :
- لا تخف. هل تقول هذا الكلام حتي تبعد الجريمة عن أحد دفع لك مبلغا من المال أو لصالح أحد من الكبار ممن تعمل عندهم؟
- لا تضيع نفسك يا بني من أجل الآخرين. أرجوك. لازلت شابا.
- أنا قتلته يا أستاذ. ما تقوله هذا لا يحدث إلا في الأفلام. نحن في الواقع يا أستاذ. لم أكن قاتلا قبل يومين ولكن كان يجب أن أقتله.
- ولماذا قتلته؟
- قتلته. أقر أنا حامد علي إبراهيم بقتل سيد علي الحوفي. لقد فعلت ما يجب علي أي أحد أن يفعله
- يا بني ليتك لم تعترف

- أعترف. إنه رجل نصاب. لقد سرق أحلامي وأحلام عشرات من الشباب. أوهمنّا أننا سنسافر إلى السعودية لنعمل هناك بـسـتة آلاف ريال شهرياً، وأخذ من كل واحد منا عشرين ألف جنيه. أحضر لنا تأشيرات مضروبة. تم ترحيلنا. أخذ يتهرب منا. عرفت مكانه وقتلته. انتقمتم لنفسي ولغيري. هذه الأشكال كالسرطان يجب استئصالها من المجتمع.
- لماذا لم تعمل في أي مكان يا حامد؟
- نتحدث وكان الشغل يملأ البلد. أنا كما قلت لحضرتك يا باشا من قبل خريج ٢٠٠٩ بتقدير ممتاز. دخت بحثا عن أي عمل. عملت في طائفة المعمار وعملت كمندوب مبيعات وعملت في محطة بنزين ولا فائدة. يا باشا رأيت زملائي الأقل مني تقديرا يعملون في النيابة وفي مجلس الدولة وفي القضاء. لديهم وساطات أما أنا فلا وساطة ولا شيء. قلت في نفسي أهرب من البلد. قلت أهج وأتركها، ولكن جاءت الحزينة لتفرح فما وجدت لها من مطرح. أخذ حامد يبكي وبشدة والأسى يعلوه ويغطي وجهه لدرجة أن شريف كاد أن يبكي. أليس ما يحدث أمامه حقيقة؟، أكان عليه حقا أن يقتله؟ أحكم علي كل زهور مصر أن تغتال؟ أيحكم علي شبابنا بالموت أو الحبس. إن المعادلة خطأ بالتأكيد. كيف يمكن أن توزن المعادلة؟ سأل شريف الشاب قائلاً:
- لماذا لم تبلغ عنه الشرطة؟
- سلامات يا شرطة. عليه عشرات القضايا ويخرج منها كالشعرة من العجين. عرفنا أن محاميا يعمل معه ويدفع الرشاوي لرجال القضاء. عليه عشرات الأحكام ولم ينفذ منها حكم واحد وسمعنا ان عقيدا بالشرطة يعمل معه ويناصفه الربح.
- ألسـت نادما لقتله؟
- أبدا. لو أتاحت لي الفرصة لأقتله عشرات المرات لقتلته. القتل لأمثاله حلال. لقد أنقذت عشرات غيري ممن كان سينصب عليهم. الحمد لله اني قتلته.
- سكت ثم بكى ثانية. ربت عليه شريف وسأله:
- لماذا تبكي الآن؟

— أبكي لأنني أخذت ذهب أمي وبعته لأحصل العشرين ألف جنيه. كانت ستزوج أختي. أنا في السجن وأمي وأختي بمفرديهما. أنا لست حزينا علي نفسي. أنا حزين من أجلهما. لهما الله. لا حول ولا قوة إلا بالله.

صمت حامد وصمت الجميع. عاد حامد إلي مكانه وسادت نوبة من الشفقة الجميع وعاد شريف إلي صمته وتساؤلاته.

دارت التساؤلات في صدر شريف وود لو صرخ وقال: «لأبد من أن المعادلة الخطأ امتدت لتشمل مصر كلها» ولكن لم تتح له الفرصة فلقد سمع جلبة وضجة عالية. صفعات علي الوجه وعلي القفا وصوت ركلات وسباب لشاويش لا يعرفه. سمع الشاويش يصيح: «ادخلوا يا أولاد اللصوص. ادخلوا يا حثالة المجتمع».

نظر شريف إلي وجوه الضيوف الجدد الكالحة. وجد شابا كثيف اللحية. نظر هذا الشاب الملتحي إلي الشاويش وقال في غضب:

— حسبي الله ونعم الوكيل أيها الظلمة. حسبي الله فيكم. أنتم زبانية جهنم. أين الرحمة. أين العدل؟ اعملوا هذا في اليهود. أشداء علينا رحماء باليهود. أعوذ بالله. أتقتلون رجلا يقول ربي الله. لا إله إلا الله. قال مصر دولة إسلامية قال؟ يغلقون المساجد بعد العشاء ويفتحون الكازينوهات والبارات حتي الفجر. حسبي الله ونعم الوكيل. والله لن تفلحوا. يا رب. يا رب أنت العليم بأحوالنا. البلد خربت. رحمتك يا رب. أتحبسوننا لأننا نقرا القرآن كلام الله في المسجد. والله لن تفلح مصر. والله لن ينصلح حال البلد طالما انكم تهينوننا وتهينوا القرآن. حسبي الله ونعم الوكيل. تتركون العاريات وأشباه العارت يلتوون كالحيات في كل مكان وتقبضون علينا نحن؟ حسبي الله ونعم الوكيل فيكم. الويل لكم من الله. الويل لكم يا أعداء الله.

انتحي جانبا وأخذ يعلو صدره ويهبط من كثرة انفعاله وهو يتحدث. كان يتحدث وكأنه يخطب في المصلين، كان يتحدث وكأنه مصاب بالقرف من كل شيء وشرع يقرأ في مصحفه. قرأ القرآن في براعة. كان يرفع صوته قائلا: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». ود لو بصق علي كل شيء. اقترب منه شريف وقال:

- مرحبا بك يا شيخ في الحجز
- لم يرد عليه وأبدي اشمئزازه منه وقال وهو يشيح بوجهه :
- ابعد عني يا أخي
- أريد أن أعرف عليك
- وأنا لا أريد أن أعرف أمثالكم
- لماذا يا أخي الكريم؟ الله يقول يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
- أكمل الآية يا أخي لتتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير. صدق الله العظيم. أنا لست مثلكم وأنتم لستم مثلي. سأخرج قريبا. لست مجرما مثلكم
- لست مجرما والكثيرون هنا ليسوا مجرمين. ألا تعرف المثل الشهير القائل : «ياما في الحبس مظالم»
- أرجوك لا تعطلني عن القراءة. بسم الله الرحمن الرحيم نظر شريف إلي الشيخ كث اللحية في براءة وتركه ، ولم يكن يدري أنه سيصير أحب صديق إليه ، ولم يكن يعلم هذا الشاب - الذي عرف شريف فيما بعد أن اسمه مختار شلبي - لن يخرج من الحبس قريبا كما قال بل سيلبث فيه بضعة شهور. هذه هي الحياة ما نعلمه فيها أقل بكثير مما لا نعلمه.
- يبدو أنه لن يستطيع أن يفكر أو أن يكتب في هذا الحجز. لحظات وجاءت دفعة جديدة من الضيوف. نفس الطريقة تتكرر. سباب وضجيج وأصوات مرتفعة ثم أصوات ركلات وصفعات وضربات ، ثم موجات متتالية من السباب.
- سمع صوتا يكاد أن يعرف صاحبه. هذا الصوت ليس غريبا عليه. لقد سمع هذا الصوت من قبل ، لقد صاح صاحب الصوت : «إتش تو إس أو فور لو أضفنا عليه كلوريد الصوديوم ووضعنا إتش تو أو..» المعادلة ستتنز.
- انتبه تماما. إنه منصور العالم. إنه صبي المهني. خرج من تفكيره ومن تخيلاته. تفرس جيدا وجه الضيوف الجدد. تأكد منه. وقف بسرعة واتجه نحوه فوجد بعض آثار الدماء علي ملابسه. اقترب منه وسلم عليه قائلا في دهشة :

- مصير الحي يتلاقى. دكتور منصور؟!
- أهلا وسهلاً أستاذ شريف.
- أهلا وسهلاً يا زمل
- أنت هنا؟ طيب أنا ارتكبت جناية ولماذا أنت هنا؟
- لا أعرف. لماذا أحضروك إلي هنا؟ هل ستزن المعادلة هنا؟
- وزنتها في الخارج.
- كيف يا دكتور؟
- بلا دكتور بلا نيلة
- قل بالله عليك ماذا فعلت؟
- تشاجرت مع معلم المقهي. ضربته ورميت عليه الشاي والقهوة وضربته. كل يوم يقول لي: هل علموكم في الجامعة هكذا. لم أتمالك نفسي. تعبت من كثرة التحمل وانفجرت. أعوذ بالله. صاحب المقهي يقول لي إن حذاءه يفهم أكثر مني. عملت له عاهة مستديمة. أخذه شريف وربت علي ظهره. أخيرة أن المعادلة ستتنز يوما ما. صحيح أن الهرم مقلوب في البلد. القمة في الأسفل والقاعدة في الأعلى، ولكن الهرم سيعدل. بان اليأس والغضب في وجه منصور العالم وقال له بأسى وبأس مغلف بالحزن:
- لن ينصلح حال هذا البلد إلا بثورة يا أستاذ شريف
- وضع شريف يده علي فم منصور العالم، ولكن منصور سرعان ما أزال يد شريف بقوة وصاح بقوة:
- آه. ثورة يا أستاذ. إن أحوالنا الآن تحتاج إلي ثورة. أحوالنا الآن أصعب بكثير من أحوالنا قبل ثورة الضباط الأحرار. لقد صرنا عبيدا. نحتاج إلي ثورة. أين نحن من ثورة ١٩٥٢
- أقعد يا منصور.
- لن أقعد. أنا قرفت. قالوا لنا ذاكروا واجتهدوا وستنصلح الأحوال. ذاكرونا واجتهدنا وأضعنا عمرنا في الدراسة ولم يتغير شئ. الراقصات والمغنيات ولاعبو الكرة في قمة الهرم ونحن في قاع المجتمع. لا بد من ثورة.
- يا بني استهدئ بالله.
- الثورة البلشفية. قطعوا رؤوس النبلاء الإقطاعيين ونحن في حاجة إلي ثورة. نحتاج إلي قطع رؤوس الفساد والظلم هنا.

- وضع شريف يده على فم منصور العالم وأسكنه. قال له في هدوء:
- أتعرف ما هي مشكلتك يا منصور؟
- ليس لدي مشكلة. المشكلة مشكلة البلد وليست مشكلتي
- مشكلتك انك ولدت منصور العالم. ولدت عالما يا دكتور. اسم علي مسمي. الدكتور منصور العالم
- بلا عالم بلا زفت. ماذا حصلت بعد الماجستير؟ أصبحت صبي في مقهي يتحكم في رجل جاهل. أخشي إن حصلت علي الدكتوراة أن أعمل زبالا
- مهنة ممتازة. ستحصل علي أموال أكثر
- انخرط في ضحك كالبكاء تنبعث منه روح القهر والغضب. قال منصور العالم في حسرة:
- العلم نور
- رد عليه شريف في حسرة قائلا:
- للأسف صار العلم سبة في هذه الأيام
- هدا شريف قليلا وسكت ولكنه قال فجأة:
- سيتعدل الحال يا منصور
- كان منصور أبو دومة وعوضين الطويل يستمعان إلي هذا الحوار. اقترب منصور أبو دومة من شريف ومنصور العالم وقال:
- أهلا يا زمل. أنا منصور وأنت منصور.
- ابتسم شريف، وعرفهما ببعضهما وقال في سخرية:
- أنتما المنصوران. منصور أبو دومة ومنصور العالم
- سأل منصور العالم عن الرجل المربوط في سلسلة واحدة مع منصور أبو دومة فقال إنه عوضين الطويل، فكاد منصور العالم أن يموت ضحكا، فلقد كان عوضين قصيرا جدا. وقف وهو يضرب كفا بكف قائلا:
- الكذب والغش والتزوير في كل مكان. هذا تزوير في اوراق رسمية.
- قال عوضين الطويل قال. إنه قزعة. عليه العوض في البلد.
- لقد خرب كل شئ. حتي في الأسماء أيضا يوجد غش وخداع؟
- انخرط جميع من كان في الحبس في ضحك عمهم. كاد الشاويش أن يضحك إلا أنه صاح فيهم في حزم ليظهر هيبة الشاويش التي تعدل

عنده هيبة الدولة :

— سكوت يا حوش. سكوت أيها المحبوس أنت وهو. هل قلبناها مقهي ولا كافيتريا؟ صمت يا حثالة المجتمع. صمت يا زبالة البلد. أيها اللصوص المجرمون. صمت يا أولاد المجرمين يا سفلة. ألا يوجد ضابط او رابط؟

ساد الصمت لحظات ، ولكن هذا الصمت لم يطل. أتت دفعة جديدة من المحبوسين. أدخلوا بنفس الطريقة. شتائم وإهانات وصفعات علي القفا وركلات بأرجل أمناء الشرطة. ابتسم منصور العالم في سخرية وقال موجهها حديثه لشريف شكري :

— رأييت يا أستاذنا؟

— بسيطة. أنا تعرضت لمثل هذا الموقف

— كيف تقول بسيطة؟ أين حقوق الإنسان يا أستاذ شريف؟

— في المشمش

— لا. في البطيخ.

ارتفع صوت الشاويش غاضبا :

— الصمت حتي ينتهي الأمين من الكتابة يا مسجون أنت وهو.

الصمت يا حثالة المجتمع

«نحن لسنا حثالة المجتمع» همس بها منصور العالم في أذن شريف شكري. سمعه الشاويش. أخرج منصور العالم. صفعه علي وجهه وقال غاضبا :

— أنت قليل الأدب وأنا سأربيك. سأعلمك الصمت. أنا الشاويش

عثمان القللي. أنا عثمان القللي بجلالة قدرتي عندما أقول أنتم

حثالة المجتمع فأنتم حثالة المجتمع فعلا.

ضحك منصور العالم وقال في سخرية موجهها كلامه للشاويش :

— عثمان القللي أو عثمان الزيري لم يعد هناك أي فروق. أهو عثمان

الفخاري. ها ها ها

ركله وضربه بشدة فأسال الدم من وجهه. أراد شريف أن يخرج

من مكانه فلم يستطع. قال بصوت عال :

— أنا أحذرك يا شاويش. لا تضربه.

غضب الشاويش وأخرج شكري أيضا وقال لهما :

- نهاركما أسود. سأخذكما إلي الضابط منير فخري. ستذهبان وراء الشمس
- ردد منصور العالم وشريف في قول واحد:
- نحن لا نخاف ونريد أن نذهب وراء الشمس. ماذا ستفعلون بنا أكثر من هذا
- صاح الشاويش في عنف وهو يضع السلاسل في يديهما:
- ستعرفان من هو حضرة الضابط منير فخري. أنتم تستأهلون ما سيجري لكما. قولاً علي أرواحكما يا رحمن يا رحيم. يومكم باين من أوله. نهاركما زفت وقطران.

أحمد يظل بمفرده

أصوات الضجة والجلبة تملأ المكان. أحمد يفتح كتبه ثم يغلقها ثانية ثم يفتحها ويغلقها. ما الذي يستطيع أن يفعله في هذا الجو الممتلئ بالضوضاء التي تتصاعد باستمرار من أولاد وبنات خالتيه؟ إنهم يلعبون ويمرحون في حين ينفرد هو بنفسه بعيدا عنهم. لطالما كان يود أن يشاركهم لعبهم ومرحهم ولهوهم البرئ المغلف بشقاوة الصغار. إنه اليوم ومنذ فترة لا يحب أن يشاركهم. يحب أن يعتكف بعيدا عنهم. يريد أن يكون بمفرده دائما في البيت وفي المدرسة وفي الحياة كلها. لن يشارك كوكي ولا نورا في اللعب. لن يشارك عمر في ألعابه ولن يسمح له أن يكون معه أو يشاركه في ألعابه. إنه أكبر منهم جميعا. لن يلعب مع الصغار. أحمد كبير. أحمد هو أكبرهم علي الإطلاق. لن ينزل إليهم.

أحمد كبير. سيكون بمفرده مع نفسه ومع كتبه ومع أحزانه وآلامه. خرج جده ليجلس مع خالتيه وتركه وحده ولم يشترك معه كعادته في عمل واجباته ومراجعة دروسه. إنه يشعر أن جده هو الأقرب إليه. أحيانا يشعر أنه أقرب إليه من أمه. صحيح أنه يحب جدته ولكنها تتمسك بالصرامة وتتوسل في التعامل معه بالعقاب أحيانا وبسبب أبيه أحيانا كثيرة. أينتقمون من أبيه؟ وما ذنبه هو؟ إنه طفل برئ. ولماذا يعاملونه بهذه الطريقة؟ جده هو الوحيد الذي يحبه ويتقرب منه.

كيف يخرج إليهم. نظرات التحسر والحزن قد تغلب علي خالتيه. قد تمصصا شفقتيهما. إنه يرفض أن يري نظرات الحزن هذه في أعينهما. ليس ذنبه أن والديه قد انفصلا. إن نظرات الشفقة والحزن قد تقتله. كان يري مثل هذه النظرات أيضا في عيني الاخصائية الاجتماعية في المدرسة. رأي مثل هذه النظرات أيضا في عيني مس مني، كما كان يراها في عيني جده.

يتساءل في نفسه كثيرا: «وما ذنبي أنا؟ إنني أحب أبي وأحب

أمي، ولكنني أحب أمي أكثر. لا. أحب أبي أكثر بكثير. إن لقاءاتي معه لا تتعدى الساعة أو الساعتين. لا أدري. أمي لا تريدني أن أحبه ولكنني أحبه وسأحبه دائماً. أحبه بفطرتي وبغريزتي. إنه أبي يا أمي. إنني من صلبه. إنني اكني باسمه. أبي مصدر للفخر. إنه ليس خامل الذكر وليس إنساناً هامشياً. إنه لم يكن فظاً معي قط ولم يعاملني إلا بكل حب. أعلم أنها لا تحبه وأعلم أنها قد طلقت منه ولكنني أحبه. أليس أبي؟

أليس هو سر وجودي في هذه الحياة؟ أمي تقول لي: أنا أمك والإسلام قدم الأم علي الأب. أمك ثم أمك ثم أبيك. فهمت يا أمي ولكنه أبي ثم أبي ثم أبي. النبي صلي الله عليه وسلم قال أيضاً كما أخبرني أبي:

أنت ومالك لأبيك. لك حق في وهو أيضاً له حق في. الإسلام أمر ببر الوالدين معاً يا أمي. هكذا قال لي أبي. لقد أصر علي أن يعلمني الدين وعلي أن يحفظني القرآن. إنني أحبه، ولا يمكنني أن أكرهه أبداً، أنت ستتزوجين وستتريكينني. أعلم أنك قد قلت لي مبررة تفكيرك في الزواج وهو لن يتحمل المعيشة بمفرده وسيتزوج هو أيضاً. أنت الأم والأم تتحمل. كثيراً من النساء لا يتزوجن بعد موت الزوج من أجل أطفالهن.

أعرف أنك قد تتزوجين لتغيظينه ولكنه أبي. أتفهمين معني أنه أبي؟ أنت لا يمكن أن تكرهين جدي أبداً وأنا لن أكره أبي»

طرق جده عليه الباب ودعاه إلي أن يلعب مع الأولاد. تعلل من خلف الباب المغلق بأنه لم يفرغ بعد من الواجب. عاد مرة ثانية إلي وحدته وتفكيره. إنه يكره مثل هذه النظرات المغلفة بالشفقة والتي يقطر منها الحزن عندما يراه الآخرون. سمع كثيراً من المحيطين به يقولون: «إن الولد يتكلم كلاماً أكبر من سنه»، وسمع آخرون يقولون: «لقد كبر الولد مبكراً. الله يسامح والديه».

ود لو استطاع أن يبكي. أحكم إغلاق الحجره ثم عاد إلي كتبه وتظاهر بأنه يقرأ. وماذا يقيّد البكاء؟ تذكر والده عندما قال له أكثر من مرة بعد أن طلق أمه: «أحمد ولدي لا يبكي. لقد خلفت رجالاً بجد. أحمد بابا لا يحبك» ثم غمز له بعينه اليسري».

قال له أبوه ذات يوم بعدما لعبا في فناء المدرسة: «ستتزوج أمك يوما ما. أريدك أن تعرف أن أمك تحبك». ظهر الغضب علي وجه أحمد وقال له في تحد وعناد: «لا يمكن أن تتزوج ماما غيرك. لن أسمح لها. لن أسمح لها أن تكون في أحضان رجل غيرك». احتضنه أبوه قائلا: «هذا حقها. من حقها أن تتزوج. أحمد رجل كبير ويفهم». رد عليه أحمد في غضب: «كيف تقول إنها تحبني، ومع ذلك ستتزوج رجلا غيري؟»

رد عليه أبوه في هدوء قائلا: «ثق أن أمك تحبك وستحبك دائما». إنني أتعجب. أبي يخبرني أن أمي تحبني ويريدني أن أحبها، وهي تريدني أن أكرهه. كيف هذا؟ لن أكون بين شقي الرحى. لست لعبة في يدك يا أمي. لن أكون السكين التي تنغرس في صدر أبي. لن أكون ذراعه التي تلوي بسببك. إن أبي يحضني علي حبك في حين تحضيني أنت علي كراهيته.

ستتزوج أمي. وقد يتزوج أبي أيضا. هكذا كان أحمد يفكر ويتساءل. وفي اليوم التالي سأل والده قائلا وهو ينتظر الإجابة السريعة من والده:

«أبي، إن تزوجت أمي فهل ستتزوج أنت أيضا؟» احتضنه أبوه والدعمات تترقق في عينيه وقال: «لا. لن أتزوج أبدا يا أحمد بعد أمك. لن أسمح لك أن تكون لك زوجة أب تقلب حياتك وتضايقك. لن أسمح أن يكون لها أبناء مني غيرك، ولن أسمح لها ألا تعدل بينك وبين أولادها. لن أتزوج و لن أسمح إلا أن تكون ملكا مطاعا وسيدا مالكا في بيت أبيك. ساعيش لك وبك ومن أجلك. أنت عندي أغلي من نفسي ومن حياتي ومن الدنيا كلها. أنت نوري الذي لا أري إلا به. أنت أغلي عندي من عيني ومن الدنيا بنسائها وبما فيها» شعر الولد أن والده ينتحب. أخرج نفسه من بين أحضان أبيه ونظر إلي عينيه فوجدهما ممثلثتين بالدموع. مسح الولد دموع أبيه وقال له في حنان لا يناسب مثل سنه: «أبي. أنت خلفت رجلا بحق. الدموع لا تناسب الرجال. الدموع للنساء».

احتضنه أبوه ثانية ومسح دموعه وقال: «أنا فقط أخشى عليك وأخاف من أن يؤذيك أي أحد. أقسم بالله أنني لا أكل إلا وأنا أفكر

فيك. لا أشرب إلا وأفكر هل شربت أم لا. والله العظيم إنني لا أستطيع أن أنام إلا وأنا أفكر فيك. دوما أتساءل: هل نمت؟ هل تغطيت جيدا؟ هل ذاكرت دروسك. أنت معي دائما. أنت تسير في كياني وفي جسدي مسري الدم في العروق. أحمد، ثق أنني سأكون بجوارك دائما. إن يوم العيد لا أهتم به. يكون أسوأ يوم في حياتي. كل الآباء مع أولادهم يلعبون ويمرحون معهم ويفرحون بهم، وأنا تعيس حزين وحيد. لا أحد يحس بي. ابني وقلدة كبدي ليس معي في هذا اليوم. العيد لا يكون عيدا إلا وأنت بين احضاني. أقضي الليالي الطويلة أبكي لأنني لا أحتضن ابني. أي قوانين هذه تحرم أبا من ابنه ولا تسمح له أن يراه إلا بإذن مسبق وفي أيام محددة؟ الله يسامحك يا سوزان. الله ينتقم منك ويحرمك من ولدك كما تحرميني من ابني وتحرمين الملايين من الآباء من أحضان أبنائهم». وقف أحمد في حجرته وتساءل في نفسه: «إذا كان أبي يقول إن أمي ستتزوج وهذا من حقها، فإن من حق أبي أن يتزوج أيضا. وقد سمعت من والدتي أنه سيتزوج يوما ما. كنت أسمع جدي يتشاجر مع جدتي ويقول لها: أنت السبب. أضعت الولد. منك لله يا نفيسة. طيب. إن تزوجت أمي لن أعيش معها. هل ستتركني أعيش مع جدتي؟ لن أعيش مع زوج أم قد يهينني ويسبني. لاشك أن أبي يحبني أكثر من أمي. أبي. إنني أحبك»

إن جدته دائما ما تسبه بوالده. لماذا تكره والده. إن والده كان وجهه وجه السعد علي الأسرة كلها. لقد وظف أمه في الجريدة وجعلها تكتب، وكثيرا ما كان يكتب لها ثم يوقع باسمها. لقد وظف خالتيه. إن والده لم يخطئ أبدا في حق جدته أبدا. دائما ما كان يناديها بماما. تذكر أحمد كيف كانت جدته تعتمد إذلال والده عندما كان يريد أن يراه. كانت لا ترد علي هاتفه. يرن أكثر من خمس مرات ثم ترد عليه في بطة وتكاسل. كانا لا يتفق معها علي موعد لرؤية أحمد إلا بشق الأنفس. كانت دوما تعتمد أن تتأخر عن الموعد. كانت تسبه طيلة الطريق قائلة: «ستذهب با ابن الكلب إلي أبيك ابن الكلب». كانت تنظر إلي أبي وكأنها تمن عليه أو تتصدق عليه عندما تربه ابنه. كان أبي يبتلع كل هذا في صمت. إنه كالجمل يتحمل ولكنه أبدا لا

ينسي. لا يمكن أن ينسي كل هذه الإساءات. لقد تحملت كثيرا يا أبي.
ذات يوم قال لي أبي والضيقة يتحكم به ويجعل نيران الغضب تنطلق
من عينيه كشرارات تود أن تحرق الدنيا كلها وتشعل الكون كله:

— أحمد حبيبي

— نعم يا بابا

— لن أستطيع أن ألتقيك الأسبوع القادم. سأسافر في مهمة عمل إلى فرنسا

— أنت لا تحبني إذا

— أحبك أكثر من حبي للحياة. أنت كبير وستفهم

— ما الذي تريدني أن أفهمه؟

— لن أكذب عليك ولكني لا أريد أن أراك في وجود جدتك

— لماذا؟

— أريد ان أراك ونكون أنا وأنت مع بعضنا بمفردنا

— لن تسمح لي أمي ولن تسمح لي جدتي بالخروج معك. إنهما

يقولان إن والدك سيخطفك. إن جدتي تجبرني عندما نعود إلى

البيت أن أقص عليها كل شئ دار بيننا وتجعلني أحكي لها

حديثنا بالتفصيل.

— ولهذا يا أحمد لا أريد أن أراك وأحس أن علينا رقيب، وهل يعقل

يا أحمد؟ أنا يا أحمد؟ أنا أخطفك؟

— أمي وجدتي تقولان هذا

— سامحهما الله. لا يا أحمد. اطمئن. سوف آتيك في المدرسة من

الأسبوع القادم. أنا لا أريد أي شئ منهما. أحمد ابني كبير

وسيفهم. أنا لا أطيق نظرات جدتك. تشعرني وكأنها تفعل مالا

يجب أن أفعله. أنت ابني وسأظل أببك. اسمك أحمد شريف

شكري. هي لا تتصدق علي.

— فهمت يا بابا

— بابا لا يحب أحمد

ثم غمز لي بعينه اليسري. لا. أنت تحبني يا بابا وأنا أحبك.

كنت تسألني ما مقدار حبك لأبيك، فكنت أفتح ذراعي عن آخرهما

وأقول: «أحبك أكبر من البحر. أحبك أكثر الدنيا كلها». كنت

تحتضنني وأشعر أنني أمتلك الدنيا كلها. أبي، تري أين أنت الآن؟

إني لم أرك منذ ما يزيد عن أسبوع.
كيف تقول إنك تحبني يا أبي ولم أرك طيلة هذه الفترة؟ لو
كانت بيني وبينك بلادا وتقول إنك تحبني لتخطيتها، تستطيع أن
تتجاوز كل الحدود بين بلاد الدنيا كلها، ولو كانت الأسود بيني
وبينك لوصلت إلي وحاربتها. الأسود ستخاف منك. الأسود عندها
رحمة ولن تمنع أبا من ابنه. أنت أبي. أنت تقدر علي فعل أي
شيء. أنت تقول لي دوما أنك تحبني.

كيف أخرج الآن إلي أولاد خالتي وبأي وجه سألتقيهما. سأري
نفس نظرات الشفقة في عيني زوجي خالتي وفي أعين أولاد خالتي. كأن
كل النظرات تقول: «يا حرام. ليس لك أب. يا عيني أبوه طلق أمه
». أنا لا أطيق مثل هذه النظرات. لا. لي أب. أبي يحبني. أبي أفضل
أب في الدنيا. أبي مدير تحرير. لا يوجد أحد والده مثل أبي. إني
لا أستطيع أن أري هذه النظرات في عيون الناس. إن أبي يحبني. هل
سأعزل الناس كلهم وأبتعد عنهم لأن أبي قد طلق أمي؟

وكان الاختصاصية تفهم هذا كله. كانت تقول لي: «العب مع
زملائك. اختلط بهم. لا تكن بمفردك» سأكون بمفردي. لا أحب نظرات
الناس. حتي الشيخ الذي يحفظني القرآن يحنو علي ويربت علي
ظهري ويقول: «ربنا يبارك فيك يا أحمد يا ابني. ربنا يحفظك.
النبي محمد كان يتيما وهو أفضل إنسان علي وجه الأرض وأوصانا
باليتمى». نظرت إليه وقلت وكأنني أحتج وأعترض: «لست يتيما يا
شيخ. أبي حي. أبي أفضل إنسان وخير أب علي وجه الأرض»

هل أصرخ وأفهم الناس والدنيا جميعها أنني لست يتيما؟ إنني
أكره هذه النظرات. أريد أن أكسر الدنيا كلها وأحطم ما فيها. لست
يتيما وإن كان أبي بعيدا عني فليس هذا ذنبي. لم أخطئ. يا عالم، يا
ناس، لست يتيما. أبي طلق أمي وليس هذا ذنبي. أنتم تحاسبونني
أنأ؟ ليس هذا ذنبي. أنا ضحية. لا. لست ضحية. سأضرب كل من
ينظر إلي بنظرات الشفقة هذه.

لهذا ضربت زملائي. لا. لن أسمح لأحد أن يتدخل في تفاصيل
حياتي وأموري الخاصة. سأظل بمفردي ولن أخرج إلي أولاد خالتي.
سأقرأ. سأذكر. سأدرس وسأتفوق. سأكون أفضل من كل التلاميذ.

سأنجح وأحصل علي درجات أعلي من درجات اولاد خالتي. سأثبت لهم أن أبي يشجعني وأني افضل منهم علي الرغم من أن أبي ليس معي.

عاد إلي كتبه ولكنه لم يستطع أن يقرأ سطورا واحدا. لقد تاهت الحروف من بين عينيه. شعر أن العبرات تخنقه. إنه ينفس عن نفسه بالبكاء. دمعاته مخنوقة. دمعاته كروحه تخفق في صدره، دمعاته تتألأ وتلمع في عينيه فتغطي الكلمات أو تتداخل ببعضها نتيجة تراكم الدموع أو تحجرها في عينيه قبل أن تتساقط. تكاثرت الدمعات في عينيه فأغلقت الدنيا كلها أمام عينيه. ضغط علي عينيه كما كان يضغط علي نفسه ليلتقي زملاءه وأولاد خالته رغماً عن إرادته. انفجرت الدمعات من عينيه فاندلقت علي الصفحات وبللتها. إنه يري وجه أبيه ويرى عينيه تدمعان أيضاً لأنه لا يحتضن ولده. كان يسمع ضحكات أمه وخالتيه، وكان يسمع جيداً صوت أولاد خالتيه وهم يلهون، تراجع كل هذا أمام عيني أبيه اللتين كانتا تشاركانه البكاء. أخذ يبكي بصوت يسمعه، فجاهد نفسه حتي لا يسمع صوت بكائه أحد. أحمد، لقد خلفت رجلاً بحق. ابني رجل لا يبكي. نعم با أبي. الدموع ليست للرجال.

اختلطت الأصوات في ذهنه وتعالى صوت جده من جديد يناديه ليلعب مع أولاد خالتيه، ولكنه أبداً لن يخرج. سيظل بمفرده. سيسترجع نسمات ضحكات أبيه ويسترجع دمعاته المحبه. أبي. أنا لا أحبك وسأغمز لك بعيني اليسري.

عشماوي ينتظر

إنه ظهر يوم الخميس. هذا الخميس الحزين. سيعده خميس الأحزان. دخل الشاويش عشماوي حجرته في تباطؤ علي غير عادته. إنه يسير دوما في خطوات عسكرية منتظمة سريعة ومتتابعة وخفيفة تعلمها منذ زمن طويل مضي. كأنه يقلد خطوات الضباط. كان يسير بخطوات حزينة وكأنه يتهاوي إلي أن وصل إلي سريره. قبلها كان يستند علي الحيطان وهو يطلع درجات السلم. فتح باب شقته وكاد أن يسقط. تجلد يا عشماوي. وضع يده علي حوائط الشقة. تعثرت قدماه أكثر من مرة.

كان يسابق الزمان حتي يري ابنته تكبر.. لقد رجع مبكرا جدا علي غير عادته. هاهي ذي ابنتك مني قد كبرت. وماذا بعد؟ نظر إلي صورته التي تعكسها المرآة. لقد كبرت وعجزت قبل الآوان يا عشماوي. هكذا كان يحدث نفسه. لقد غزا الشعر الأبيض رأسك. غارت عيناك. ليتك مت من قبل أن تستمع إلي ما قاله أخوك زين منذ أسابيع.

إن زين لا يزال يبدو شابا في حين أضعت أنت حياتك في الميري الذي كنت تتمرغ فيه. استمعت إلي كلام الأقدمين: «إن فاتك الميري تمرغ في ترابه». مظهرك يجعلك تبدو أكثر من سنك الحقيقي. أنت لم تتخط الخمسين سنة. لماذا عجزت قبل أوانك؟ ماذا حققت يا عشماوي؟

أخوك حقق ثروة كبيرة في حين ظللت أنت معدما تنتظر ملايم الحكومة آخر كل شهر. الحمد لله. هكذا الدنيا لا تحقق لنا ما نريده كله. لم أمد يدي إلي الحرام ولن أمد يدي أبدا إلي الحرام. أنه يري زملاءه من أمناء الشرطة قد حققوا ثروات هائلة من الحرام واستغلال النفوذ والسلطة. لقد صاروا باشوات بالفعل يبغون علي الناس ويطغون. أما أنا فلقد عاهدت نفسي علي ألا أكل من حرام أنا ومني. علمنا والدي علي الحلال والخوف من الحرام. هكذا كانت

تربيتنا. الحرام لا فائدة منه. سيأخذ الحرام الحلال كله ويضيعه. وأنا علمتك الحلال والحرام يا مني فتري ما الذي حدث لك؟

صحيح أن لسانه كانت الشتائم تجري عليه كضرورة من ضرورات عمله مع المجرمين، ولكنه كان يأبى أن يأكل حراما أو يأخذ رشوة أو يظلم أحدا لأنه يعمل بالشرطة. زميلي الشاويش حسني بني عمارة واشتري سيارات ميكروباس واشتري قطعة أرض جديدة. من أين هذا؟ أكيد من حرام. أنا لا أحب الحرام. أخي زين أيضا لا يحب الحرام. إنه يبيع ويشتري. تسعة أعشار الرزق في التجارة. ليتني عملت معه. لا. أنا أعمل لخير الناس. حتي عندما أسهر في نوبة المساء أحتسب سهري لوجه الله. النبي عليه الصلاة والسلام قال: «عينان لا تمسهما النار. عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله». أريد أن أبكي. كنت دوما أبكي من خشية الله، والآن أريد أن أبكي لأن ابنتي خائنة. لقد خانتني كما خانتني أمها. يا رب لا أريد أن أقتلها. أين المخرج؟ لقد رأيتهما بعيني فعلا. دخلت إحدى الشقق في برج كبير بالمهندسين. زأغت مني بعد أن تتبعتها. هل أطارق علي باب كل شقة لأجد ابنتي وأصفعها مئات المرات. سأنتظرك إلي أن تأتيين يا فاجرة. سأنتظرك. سأقتلك وأتطهر من عاري الذي لوثت به حياتي النظيفة. ماذا فعلت بك حتي تضعينني في الوحل. لقد سقطت وأسقطتني معك يا مني. لقد عاديت الجميع من أجلك. أدخلتك الجامعة وأعلم أن كل أهلي يرفضون دخولك الجامعة. تحديد الجميع وظننت أنني انتصرت فإذا بك تهزمينني. ذبحتني يا مني. لقد أراد الله لي ألا ينفضح أمري أمامهم طيلة الأسابيع الماضية. ثلاثة أسابيع وأنا أتابعك وعمك زين. الحمد لله. ظننت أنها مكيدة. لقد تيقنوا من براءتك وآمنوا أن ما يقوله ممدوح ومبروك ليس إلا وهما أو آثار حقد عليك لأنك أتممت دراستك وتواصلين دراستك في الماجستير. ولكني اكتشفت الحقيقة اليوم. اليوم يا مني. صحيح أنك بريئة أمام أخي زين، ولكنك مجرمة وخاطئة أمامي. لقد رأيت خيانتك اليوم بعيني. أردت أن أتأكد من براءتك بمفردي فإذا بي أتأكد من أنك كأمك.

لعل الله أراد أن يلطف بي أمام أهلي، لكن هذا لا يعني أنك غير

مذنبه. أنت كأمك. أنت بنت من بنات حواء، أكره كل جنس حواء. أكنت أنت الحية التي أربيك وأحسن إليك فإذا ما كبرت ونبتت أنيابك كنت تستعدين لنهش لحمي وغرس سمومك في يا ابنتي. لا. لست ابنتي. أنت عدوتي. أنت خائنة. لقد لدغت قلبي أيتها الحية. مني، لكم كنت أحبك. لقد كنت أنت شعاع النور الوحيد في حياتي والذي يستحق أن أعيش وأكافح من أجله. لا أدري لماذا سحبت هذا الشعاع بخيانتك وتركتني في ظلمات رغبتني في الانتقام وأخذ الثأر منك؟ سآثر منك وسأقتلك.

ابنتي أنا؟ أأكون ابنتي خائنة كأمها. أيعقل أن تقوم بخيانتني كما خانتنني أمها من قبل؟ لم أقتل أمها ولكني سأقتلها. الزوجة لا تشين الرجل. الزوجة يمكن أن أطلقها، أما ابنتي فماذا أفعل بها؟ هل أتبرأ منها؟ أيها الماضي البغيض. لماذا تلح علي حاضري الذي يطعنني بخناجر الخيانة ويذبحني بسكاكين حواء؟ لقد خانتنني أمها من قبل. لقد طلقتها ورميتها من حياتي. لفظتها بعيدا عني. لقد رأيت خيانتها بعيني. أي يوم أسود هذا؟ يا رب البنت وأمها؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ طيب المرأة وطلقتها لأبعد عني العار، وماذا أفعل في ابنتي؟ لن يكفيني أن أقتلها. إنها ابنتي. لقد كبرت في كنفني وتربت علي يدي. أزلت أمها من حياتنا ومن طريقنا. أخبرتها أن أمها قد ماتت وهي تدها. كنت أقول دوما أمك رحمها الله. هل ورثت أمك يا مني يا ابنتي؟ لقد تحملت كثيرا من أجلها. لم أتزوج ولن أتزوج. كيف أتزوج ولقد رأيت آفاق الخيانة تطبق علي صدري وتحيل حياتي إلي كارثة. أمها كانت خائنة أفتكون هي خائنة أيضا؟

أكره المرأة ولا أثق فيها. صحيح مالا يقدر عليه عشرة شياطين تقدر عليه امرأة واحدة. لقد ابتعدت عن طريق النساء منذ أن طلقت أمها. لقد كبرت وربيت يا عشماوي، كبرت وعلمت وأدخلت مني الجامعة، كبرت ودللت حتي فسدت البنت. لم تفسد يا زين. فسدت يا عشماوي. سأقطع لسان كل من يتحدث عن ابنتي بسوء. اقطع لسانها واقطع رقبتها يا عشماوي. البنت تذهب إلي شقة مفروشة في المهندسين كل خميس. كذب. إنها ابنتي وأنا رببتها يا زين وربيتها

علي الخوف من الله. اسمع يا عشناوي أنا أعمل لك ألف خاطر أنت أخي. لا لست أخي لو كنت أخي لما صدقت ما يقال علي ابنتي. هكذا يقول ممدوح ومبروك يا عشناوي. كاذبان يا زين. إنها ابنتي. إنها ابنة عمهما. انتهى الأمر يا عشناوي. انتهى الأمر يا زين. أنطردني من القسم؟ أنطردني من قسم الشرطة يا أخي يا ابن أمي وأبي؟ لا. لا أطرده. كيف تتكلم عن ابنتي هكذا؟ أقول الحقائق يا شاويش عشناوي. اليوم الخميس. تعال نتبعها يا زين وسأريك أن ابنتي أشرف من الشرف نفسه. فلنتبعها يا عشناوي. ها هي قد خرجت من المدرسة. إنها تتجه إلي البيت. ظلمتها يا زين. أنا محرج منك يا أخي. ممدوح ومبروك أكدا أنها تذهب إلي شقة في المهندسين كل خميس. كذب يا زين. إنها ابنتي. أعرف كيف ربيتها. موعدنا الخميس القادم يا عشناوي. أنا أثق في ابنتي يا زين. ليكن موعدنا الخميس القادم يا عشناوي. أنا متأكد من تربيتي لابنتي يا زين. الخميس القادم يا عشناوي. هذا هو الخميس الثالث وابنتي بريئة يا زين. آسف يا شاويش عشناوي حقك علي. أنخوض في عرضي وتتهم ابنتي في شرفها ثم تقول آسف؟ آسف يا عشناوي سأكسر رقبة ممدوح ومبروك. حرام عليك يا زين أهكذا تتهمون الناس بلا دليل؟ آسف يا شاويش عشناوي وسامحني. أنا مغفل كبير. قد يكون مبروك دبر هذا حتي لا يخطب مني. فهمت. والله لأغيظك يا مبروك. ستتزوجها. يا شاويش عشناوي الخميس القادم إن شاء الله تتم الخطبة. خطبة مبروك علي ابنة عمه مني. أتوافق؟ ليس الرأي رأيي ويجب أن أستشير مني ولقد سألتها من قبل وقالت ستتم دراستها يا معلم زين. يا عشناوي يا أخي البنات ليس لها إلا زوجها وبيتها. ربنا يقدم ما فيه الخير يا معلم زين. الخميس القادم سنأتي لخطبتها وسنسمع رأيها يا شاويش عشناوي وسامحني يا أخي. الله يسامح الجميع يا معلم زين وسلم لي علي ممدوح ومبروك وقل لهما: عمكما أبو الأستاذة مني يسلم عليكما. ماذا يمكنه أن يفعل؟ كيف يمكن أن يواجه ابنته مني بما رآه اليوم. لقد أتاه عمها زين في قسم الشرطة وذكره بالموعد الذي حددته لخطبة ابنته لابنه مبروك. تهاوي علي السرير وهو يشعر بالخزي والعار. أيعقل يا

ابنتي ألا أكون قد أحسنت تربيتك. لقد رببتك علي الدين والأخلاق. ماذا حدث لك؟ أيمكن أن تضيعي أبيك؟ ستكتب الجرائد عن هذا الشاويش الذي قتل ابنته. أنت بريئة في عين عمك وولديه الآن، لكنني قد رأيتك. حاولت أن أتصل بتليفونك المحمول ولكنك كنت قد أغلقتة. تليفونك لا يزال مغلقا. لن انام هنا علي سريري. سأنام علي الأرض خلف باب الشقة. لقد وضعت رأسي في الوحل. لوثت شرفي. لماذا تخونين؟ إذا كنت تريدين رجلا لقد تقدم لك مبروك أكثر من مرة وكنت ترفضين. لو كنت تريدين الزواج فلماذا رفضت خطبته. ماذا ينقصك؟ لم أقصر في حقك أبدا. كان كل ما تريدينه يأتيك قبل أن تطلبني. تظاهرت يا قذرة أنك سعيدة عندما أخبرتك بالذهاب إلي العمرة. كيف تذهبين إلي العمرة بنجاستك؟ كيف ستواجهيني بخيانتك؟ قتلك عشرات المرات لن يكفيني.

دخل المطبخ ونظر إلي كل السكاكين. تفحصها واحدة واحدة. أمسك بأكبر سكين. لوح به في يده. أمسك نصل السكين وشر به البرتقالة إلي شطرين بضربة واحدة. قال في نفسه: السكين حام ويقطع. سيقتلها في ضربة واحدة. أغمدته في صدرها. أقطع شفتيها اللتين تمتعتا بالحرام. سأقطع نهديهما. سأقطعها إلي قطع صغيرة. أيتها الخائنة. سأقتلك دونما شفقة ولا رحمة. الغضب يعميني الآن ولا يجعلني أري بعيني. سأفقد عينيك أولا أيتها الخائنة. سأضع هذه الملعقة في عينيك. لكم كنت أتمني أن أري نور الضحكات في عينيك، ولكني سأستمع وأنا أقتلع عينيك أيتها الفاجرة.

مرت بذهنه ابتساماتها وضحكاتها التي كانت أحب الأشياء إلي قلبه. مرت بذهنه مرات فرحها وهي تأتي بشهاداتها عندما كانت تحصل علي درجات عالية. كان يحتضنها في سعادة وكأنه الأب والأم معا. يذكر شهادة الثانوية عندما أعطتها له بيدها فرحة فاحتضنها وقبلها وكان آماله كلها قد تحققت. أخبرته أنها تريد ان تدرس في الجامعة. كلية التربية. صار يلقبها مع الجميع الأستاذة مني. تم تعيينها في مدرسة لأن تقديراتها عالية. صارت من يومها مس مني. أنا كنت أسعد الناس بك يا مني، ولكني سأصير أشقي الناس بك يا مني. كنت مصدر فرحتي، فإذا بك تصرين علي أن تكوني

مصدر غمي وحزني وهمي. يا رب لا أعرف ماذا أفعل؟ هكذا تمر الساعات وسأنتظرها. سأخذ هذا السكين وأنام خلف الباب. ستفتح الباب وسأغلقه وراءها ولن تفعل أي شيء بعده. ستكون آخر حركة تفعلها. لن تفعل بعدها أي شيء. ستموتين يا مني. الخيانة جزاؤها القتل. لم أقتل أمك، ولكنني سأقتلك. لقد قتلت أمك في ذهنك، ولكنني سأقتلك. أنت يا مني لا تستحقين الحياة. قد يكون الموت راحة لك، ولكنه لن يكون راحة لي. سأقتلك وستبدأ المشاكل بالنسبة لي. سين وجيم وتحقيقات وحبس وقد تصل عقوبتي إلي الأشغال الشاقة المؤبدة أو إلي الإعدام. أنا الذي كنت أسب المجرمين واللصوص سأصير قاتلا بسببك يا مني. بسبب ابنتي. أية حياة هذه؟ أنا الذي كبرتك وعلمتك حتي صرت زهرة جميلة رائعة وأنا الذي سأسيل دمك بيدي أيتها الخائنة وسوف أقطع هذه الزهرة السامة من جذور حياتي. فليرحمني الله وليرحمك.

يبدو أن لكل واحد منا من اسمه نصيب. أنا عشماوي يا مني. سأنفذ فيك حكم الإعدام. كنت تحكين لي أن بعض زميلاتك يتشاءمن من اسم عشماوي. أنا عشماوي الذي سأخذ روحك. سأقتلك. أنت التي ستختارين وقت التنفيذ. عندما تأتين وتفتحين الباب سينفذ فيك حكم الإعدام بيد أبيك. قد أكون أنا أكثر رحمة بك من غيري. لقد اتهمك الناس ثم شهدوا بأنك بريئة بناء علي الأدلة التي رأوها، أما أنا فلقد رأيت برهان خيانتك ودليل قذارتك وموضع اتهامك. سألبس جلبابي الأبيض ولن أخفي وجهي وأنا أنفذ فيك حكم الإعدام.

سأظهر لك وجهي لتعرفي مدي الجرم الذي قمت به. سأذبحك بسكيني وأنا أذبح نفسي وأنا أقتطف زهرة عمري التي طالما تعبت في تربيتها بعد أن غرستها بدمي وحيدا وبعد أن رويتها بعمري وبشقائي وحيدا وبتلهفي عليك وعلي نجاحك وسعادتك. سأذبح نفسي بهذا السكين وسأقطع رقبتك يا مني. أنا إذ أقتلك فأنا أظهر نفسي من حبك أيتها الخائنة. أود لو أقتطعت من عمري كل لحظة كانت تهفو فيها للنظر إليك ولمتابعة نموك وأنت تكبرين وأنت تسعين وأنت تمرحين. كما بنيتك سأهدمك. أنا لا أعرف كيف سأطعنك بهذا السكين. سأطعنك في قلبك حتي تموتين أولا ثم أقطع جسدك

إلي قطع صغيرة. سأنفذ كل هذا وأنا أعلم أنني أطعن نفسي في كل مرة تمتد يدي بها إليك لتطعنك. ليتني طعنت أمك وقتلتها. لا أعرف لماذا لم أقتلها، ولكنني سأصر علي أن أقتلك. هل لأنني أظن أنني عندما أقتلك سأنتزع حبك من قلبي؟ لا. سأقتلك لأطهر نفسي من التلوث الذي ملأ عمري بحبك يوماً بعد يوم. سأجتث بذور هذا الحب بقتلك وبالتمثيل بجثتك أيتها الفاجرة. أكنت تخبرين من تنامين معه بأنك مسكينة وأنت اخترت هذا الطريق وأن والدك شاويش يعمل في الشرطة أم كنت تخبرين من يدفع لينام معك أن ظروف الحياة القاسية هي التي دفعتك إلي السقوط في براثن الرذيلة؟ لا أستطيع أن أتخيلك وأنت رخيصة تخلعين ملابسك لمن يدفع، ولا أستطيع أن أتصور أنك تسقطين في بئر الخيانة بدون سبب. لا أستطيع أن أتخيلك وأنت تضاجعين رجلاً بلا زواج. إذا كنت تريدين الزواج فما سبب عدم موافقتك علي مبروك؟ أليس رجلاً؟ لماذا تصر حواء علي الخيانة؟

أغلق عينيه ثم نام علي الأرض خلف الباب والسكين لا يزال في قبضته. يمسكه بقوة إلي أن أضعف النوم قبضته علي السكين فتراجع من قبضة يده، ولكن يده لا تزال مفتوحة والسكين يتزاح قليلاً وبيتعد عن قبضته إلا أنه لا يزال في يده. يبدو أن دمه كان يغلي من الغضب ومن الغيظ حتي وهو نائم. فليسترح قليلاً في نومته إلي أن تأتي ابنته. أليس في النوم راحة للكثير من الآلما؟ فليسترح يا شاويش عشمائي. كان يخاطب نفسه وهو نائم. يبدو أنك لن تستريح ابداً. كان يعبس ويبتسم والنوم يداعبه ويغلق جفونه ولكنه لا يستطيع أن يكتم غضبه. تبدو علي ملامح وجهه الطيبة آثار الابتسامة والحسرة. كان لا يتقلب في نومه ولكن أحزانه كانت تغلبه فتبدو علامات الصرامة والحزن غالبية علي وجهه في انتظار أن تفتح ابنته الباب فيصحو ليقتلها مخلصاً نفسه من الآلما، ومطهراً ابنته من آثار خيانتها كما كان يعتقد.

المعلم زين يتقدم

لا مجال للتقهقر أو للتراجع يا زين. لماذا تغشاك رعدة غريبة عندما تقترب من حجرتها؟ أتخشي من هذه المرأة المفوضة البائسة. أنت رجل يهتز لشاربك عشرات الرجال. أتخشي من أن ترفضك أم أنك تخشي من أن تضعف أمامها كما تضعف دائما أمام كحل عيونها وسطوة رموشها؟ غصن بان يا زين. متي تستطيع أن تضمها في صدرك لتشعر أنك قد ملكت الدنيا بأسرها. ستستريح إذا من محاولاتك كالمراهقين لتقتنص النظرات إلي ساقها من خلف شيش شباكك، وستهدأ نفسك عندما تمر بيدك علي ساعديها وعنقها وعندما تدخل جنات صدرها. أنت لست خائفا. أنت تحبها يا زين. ألسنت تغار من ولدك مبروك؟ إنه تافه. إنه لا يستحقها. أنا أبوه وأنا أحق بها منه. الولد كالبعل. إنها تريد رجلا بحق وأنا هذا الرجل الذي تستحقه. نبضات قلبه تتزايد. إنه يتخيلها نائمة علي كنبتها الوحيدة. سأشتري لك سريرا واسعا ليكفيها. لن أسمح لزوجتي المعلم زين أن تسكن هنا في هذه الغرفة القذرة. سأشتري لك بيتا وأكتبه باسمك. سامية. لو تعلمين كم أحبك؟ أيعقل أنك لم تحسي بخطواتي؟ ألا تشعرين بقلبي الذي ذاب وانحرق رغبة فيك. إن قبلة واحدة من شفتيك تعيدني شابا من جديد. شفاتها حمراوتان بدون أصباغ. إنها حمرة الشباب وفورته. شفاتها يانعان طازجتان لكم أشتهيهما.

وماذا تفعل لو رفضتك يا زين؟ لن أفعل شئا. سأجعل حياتها جحيما. ومن هي حتي ترفضني؟ أنا أحسن منها ومن أهلها جميعا. لم نر لها أهلا ولم يسأل أحد عنها منذ مات زوجها. إن لدي أكثر من طريقة حتي أجعلها تقبل زواجي صاغرة. إن الإيجار لم تدفعه منذ شهور طويلة. إنها استغنت عن الكهرباء وصارت تستعمل لمبة الجاز. سهل أن أقنعها أن تقبل. وإذا لم تقبل سأرفع عليها قضية لأرفع الإيجار عليها. لن أعدم حيلة. سأذهب إلي أخي عشاوي في القسم وأطلب منه ومن بعض أمناء الشرطة أن يضايقوها. قد أرمي

لها كل مالمديها في حجرتها خارج بيتي وأطردها كالكلبة. ومن هي حتي ترفضني. إنها يجب أن تسعد وأن تفرح لأن طلبي الزواج منها يعني أن طاقة القدر قد فتحت لها. يجب أن تشعر أنها محظوظة. محظوظة أنني أطلب منها الزواج علي سنة الله ورسوله. ألم يكن بإمكانني أن أحصل منها علي ما أريد بالقوة وفي الحرام؟ ألسنا في عصر القوة؟ الأقوياء يحصلون علي كل شيء، والضعفاء لا يحصلون علي أي شيء. أستطيع أن أحصل عليها بالقوة. لا أحد يحميها ولن يمنعني أحد منها. أستغفر الله. عد لرشدك يا زين. ليس لك في الحرام. كان يغوص في تفكيره بين الرغبة فيها والرغبة من رفضها، بين أمله في أن يتوج حبه لها بالزواج، وبين خشية أن يتحول حبه إلي رغبة في الانتقام منها أو إيذاؤها في حالة أن ترفضه، وكانت هي تتقلب علي كنبتها. إنها لم تستحم ولن تستحم الليلة خشية أن يتلصص عليها أحد أو يكسر أحد بابها ويدخل إليها وهي في الحمام. لقد وضعت الكنبه خلف الباب خشية أن يقتحم أحد حجرتها. أليست ضعيفة وحيدة وأرملة يطمع فيها الطامعون؟ إنها ضعيفة ولكنها تعلم كيف يمكنها أن تدافع عن نفسها جيدا. سمعت طرقاته وهي بين اليقظة والنوم، من يطرق عليها الآن. لو كان هو فستقوم فزعة وترد عليه من خلف الباب جزعة.

إن نظراته له كطلقات رصاص مليئة بالشهوة ومغطاة بالشهوة تقتحم جسدها كنيران حارقة. إنها لم تحسم أمرها بعد. تعلم أنها واقعة في خيار صعب. الولد يشتهيها وكذلك أبوه. مبروك يكاد أن يجن عندما يراها. ينفلت عقله ويحاول أن يلمسها بأية طريقة. تأسف لها أكثر من مرة وأخبرها أنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه وأن يده تسبقه رغما عنه إلي جسدها اللين الطري الذي يجعله يفقد عقله، هددته أكثر من مرة أن تشنكيه لأبيه، ولكنه بكى فرق له قلبها. إنه يشتهيها ولكن هناك حدود لجرأة نظراته علي العكس من أبيه. كانت حائرة. إنها تري نفسها أرملة وحيدة فقيرة. إنها فقط تريد أن تحيا، ولكن كيف تحيا وهي ضعيفة بلا سند أو قوة؟ لا تستطيع أن تقول إنها لن تتزوج. أليس ظل أي رجل أفضل من ظل حائط لا يسمن ولا يغني؟ الولد شاب غر وقد يفعل أي شيء في سبيلها. سيعتمد علي جرأة الشباب وتهوره،

أما أبوه فحكمة الرجال لا تجعلها تنسي أنه متزوج وأنه أكبر منها بما لا يقل عن عشرين عاما. أيهما أفضل يا سامية؟ لا هذا ولا ذاك. أريد أن أكون قوية والمال يقويني. لن أخضع لأي أحد منهما. إن كسبت أحدهما خسرت الآخر. علي أن أكون متوازنة. مبروك فتي وشاب قوي، أحতاجه فقد يحميني من والده عندما أبكي أمامه ويشعر أنني مظلومة مغلوبة علي أمري، وأحتاج إلي المعلم زين. قد يطردي شر طردة ولكنني لن أخضع له. هكذا يمكنني أن أعيش وسطهما وأنا أتأرجح بينهما. لن أتزوج أيا منهما. سأحاول أن أكون علي حياء بين القوتين. أستفيد من كليهما. لن يلمس أحدهما شعرة مني. يقولان إنهما يغرقان في حبي وكلاهما كاذب. الولد لا يريد أن يتزوج ابنة عمه. يشعر أنها أفضل منه وستتعالى عليه لأنه لم يتعلم مثلها، ويتخذ حبي ذريعة لرفضه الزواج من مني، وأبوه لا يحبني. إنه يتظاهر بالحب. سيأخذ غرضه مني ويشبع ويرميني بعدها. ألم يفعل هذا مع زوجته حسنية. إنه لم يكن له رادع أو ضمير. عرض علي أكثر من مرة أن يطلقها حتي أقبل بزواجه. أنا فقيرة وحيدة لا وقت لدي للحب. الحب رفاهية لا تليق بالفقراء ولا بالضعفاء مثلك يا سامية. إنني أريد أن أعيش في أمان. كلاهما يريدان استغلالي. وماذا لو تزوجت زين وأنجبت له ولدا؟ سأخذ كل شئ. وسأصيره كخاتم في أصبعي. لكن الزواج لا يطرأ علي باله إلا ليشبع شهوته. اعقلي يا سامية. أنت عاقر ولن تنجبي. لقد مكثت مع محمد زوجك ما يزيد علي سبع سنوات وأكدت لك الطيببة أنك عاقر. قد أنجب من زين. لا لن أنجب. أنا كالأرض البور، مهما تسقيها من ماء فلن تنبت. مالي أتذكر أحزاني أيتها الدنيا؟ ماالذي جنيتة؟ بل ما الذي كسبته من دنياي؟ ليس لدي شئ. لا يا سامية لديك جمال يذل أعناق الرجال. لديك جمال يجعل الرجال يتمنون إشارة منك، ولديك أيضا شباب صاف لم يتلوث. تذكرت كيف جري وراءها زوجها محمد العجلاتي سنوات عديدة. كان يحبها عندما كانت في شرخ الصبا. عادي أهله جميعا. كان أبوه من أعيان الصعيد. حرمة من الميراث وطرده شر طردة. مات محمد العجلاتي ولم يمت والده بعد. كانت تعتقد مع زوجها أنها ستنجب وسترث من أبيه الذي طرده رغما عنه.

هذه هي الدنيا. لا عدل فيها ولا شفقة. لقد خسرت كل شيء إلا جمالها. الشيء الوحيد الذي يجب ان تستغله. إنها لن تفرط في نفسها وستحمي شرفها. ستكون الأيام القادمة أفضل من الأيام الفائتة. سأنتظر وأغير خططي حسبما تسمح الظروف. لن أتزوجه. لن أرضخ له ولا لولده. كان الرجل يتقدم والخوف يحدوه والأمل يسوقه، وكانت المرأة تنتظر أن يعيد طرقاته فلعلة يتراجع. لا تظن أنه سيتراجع. إنها واثقة من سطوة جمالها ومن تأثيره علي هذا الرجل الذي يأكلها بعينيه. إنه يحتضنها بنظراته ويكاد أن يكسر أضلعها بشهواته التي تطل من عينيه. طرقات ثانية وثالثة علي الباب. آن لها أن تتكلم. قالت بصوت خشن من وراء الباب الذي تغلقه بالمفتاح وبالكنبة: يا رب يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. من يطرق علي في هذا الصباح؟

- تردد قبل أن يرد ولكنه قال بصوت خافت:
- لا زلنا في المساء يا ست سامية.
- قالت بصوت ينم عن القسوة:
- وماذا تريد في المساء يا معلم زين؟
- أريدك في موضوع مهم جدا
- الصباح رباح
- خيرالبر عاجله. أنا متعجل جدا. افتحي يا ست سامية. لا يعقل أن أظل أتحدث معك من وراء الباب
- يا معلم ألسنة الناس. أنا ست وحيدة
- لن تبقي وحيدة يا قمر حارتنا. افتحي لدي أخبار سارة لك.
- خيرا يا معلم. ألا تنتظر حتي الصباح؟
- لا. لا أستطيع الانتظار. افتحي يا سامية.
- لن أفتح لك الآن. الدنيا ليل
- افتحي يا بنت الناس ولا تدعيني أكسر الباب.
- تكسر الباب ؟
- آه. أكسره ونصف
- البلد ما فيها قانون؟
- أي قانون؟ البيت بيتي. أنسيت أنه بيتي.

- أنا أجرت الحجرة والمحل يا معلم
- أين الإيجار يا ست سامية.
- الناس لبعضها
- افتحي يا سامية.
- لن أفتح
- ستفتحين وإلا كسرت الباب عليك وعلي دماغك
- لن أفتح وارفع صوتك يا معلم زين كما تريد
- سأرفع صوتي كما أريد. هذا بيتي
- ارفع صوتك أكثر يا معلم حتي يسمع بك الناس تريد التهجم
- علي أرملة وحيدة مسكينة
- يا سامية يا حبيبتي افتحي
- حبيبتك؟
- حبيبتي وروح قلبي وعمري. افتحي يا بنت الناس. أنا أطلبك في
- الحلال
- وهل يطلب الرجل المرأة في الحلال سرا وفي أنصاف الليالي؟
- نتفاهم أولا ونتفق يا سامية
- الصباح رباح يا معلم زين
- لا أستطيع أن أنتظر أكثر من هذا. افتحي وإلا كسرت الباب.
- لم يكذ ينتهي من تهديده إلا وفوجئ بمبروك يقترب منه ويقول في هدوء:
- ما الحكاية يا معلم؟
- ونظرت إليه زوجته وقالت في غضب:
- لماذا تقف أمام حجرة سامية يا حاج؟
- ارتبك وقال في غضب:
- لا شئ. كنت أدعوها لتحضر خطبة مبروك علي مني يا حسنية
- نظرت إليه زوجته في غضب وقالت:
- هذه أمور النساء. دعها للنساء يا حاج يا مصلي يا زائرا بيت
- الله
- صعد أمامهما والغضب يكاد يعصف به. رفع صوته وكأنه يكلم
- سامية قائلا:
- الصباح رباح يا سامية. كنت أريد أن أدعوك لخطبة مبروك علي
- بنت عمه.

ألا تفهمين أيتها الغبية. سيتزوج مني ولن تفلتين من يدي. صاح بصوت عال وهو يدفع مبروك أمامه قائلاً له بعد أن صفعه علي قفاه:
— أين كنت يا بغل؟

— كنت مع أمي عند الدكتور.

— سلامتك وسلامة أمك أيها البغل.

— سلامتك يا حاج. سلامتك ألف سلامة.

خطا زين خطواته إلي شقيقته في غضب. لكم كان يتمني أن يخطو مثل هذه الخطوات داخل حجرة سامية. كان يود أن ينعم بنعيم كنوز جسدها وبجنة أحضانها حتي ولو في خياله. كان يتمني أن يحادثها وتحادثه، يضحكها وتضحكه، كان يتمني أن يقنعها بالزواج منه وأن يخطف منها ولو قبله واحدة. ألن تصير زوجته إذا قبلت ولكنها حطمت حلمه ودمرت أمله.

كان يتمني أن تقول له عندما يطرق الباب: «تفضل ادخل يا معلم زين». كان يتمني أن يتنحى ويقول: «يا ساتر» فشجعه سامية قائلة: «ادخل يا سيد المعلمين. ادخل برجلك اليمين. نورت يا معلم نورت وشرفت الدنيا كلها» ثم تتسأل في دلال وتغنج قائلة في تساؤل وهي عليمة بسر زيارته: «ما سر زيارتك وتشريفك يا سيد المعلمين وأكبر جزار في المنطقة كلها» فيرد عليها بنظراته المحبة وكلماته العاشقة: «أنا طالب القرب» كان يتمني أن تتظاهر بالخجل وهي ترتدي ثوباً شفافاً يكشف أكثر مما يستتر. كان يتمني أن يخرج كل ما في جيبه أمامها فتتسأل والفرحة تقتلها: «ما هذا كله يا معلم؟» فيرد عليها وهو يقبل يديها: «عربون محبة يا ست الستات» فتقول في دلال وسعادة متسائلة والخجل يطل من عينيها ممتزجا بالسعادة: «ما هذا الرضا يا معلم؟». كنت سأقبل يديك وذراعيك وأقول في لهفة والسعادة تغمرني: «وكيف لا أرضى وأنت أجمل من في الحي؟ أنا أحبك يا ست سامية، سأكون رهن إشارتك وطوع بنانك. سأكون طيلة عمري تحت قدميك يا أحلى سامية في الدنيا.» ليتك فتحت الباب قبل أن يأتي هذا البغل الآن يا سامية مع أمه هذه البقرة الحلوب. الله يسامحك يا سامية. لم أستطع أن أتقدم اليوم ولكني سأقدم وأقترب منك يوماً ما. بإرادتك أو رغماً عنك يا سامية. أنا قوي والأقوياء ينالون ما يريدون.

العاشق يفهم متأخرا

آذان العشاء يشق عنان السماء. كان صوت المؤذن رخيما جميلا ينساب في السماء في ليلة خريفية معتدلة لم يشبها سوي بعض الرياح التي تنظف الشوارع من التراب فتجعله يطير بعيدا عن الأرض ويختفي في أماكن قد لا يراها الناس. يطير الهواء بعض أوراق الأشجار التي جفت وذبلت، فتسير مجبرة مع الهواء في شكل حلزوني، تذهب هنا وهناك، ترتفع متباطئة عن الأرض بفعل قوة الهواء أحيانا، وأحيانا أخرى تحاول أن تهرب من سيطرته، فتصطدم بالأرصفة أو بجدران البيوت حتي تسكن معلنة مع الرياح الخفيفة صفيرا يؤذن بدخول خريف لطيف مستعدا للحاق بشتاء لا يكون دافئا، وإنما ينذر بموجة برودة قد تكون عاتية. تماما ذكر هذا الجو محب بمحاولاته بعد أسبوعين من الجهود المضنية، وبعد أكثر من لقاء مع ابنة خاله نوال، أفنec محب نوال بأن تجعل والدها يذهب ليقابل عشاوى جمعة والد مس منى التي أطارت عقله وسلبت فؤاده فى قسم الشرطة، طلب منها وقلبه يدمي شعرا وينطق حبا أن تطلب من أبيها ملاقة الشاويش عشاوى في أي وقت يناسبه ليحدد موعدا للزيارة. سيطلب منى لابن أخته وكان الموعد بعد العشاء بساعة. كان قلبه يحدثه بأنه يسرع إلي خاتمة قصته مع منى، ولكنه لا يزال يتمسك بخيوط الأمل، ويتعلق بمساعدات نوال التي لا تمل من تقديم يد العون له. إنها تقدم ما بوسعها أن تقدمه لابن عمته. علمت منه مرارا وتكرارا حبه لمنى، فلماذا لا تبادر بتقديم يد المساعدة له. أليس أقصى درجات الحب في عالم المحبين ودنيا العشاق أن تساعد من نحبه في أهدافه حتي وإن كانت علي حساب هجره لنا؟ لماذا لا تساعد؟ إنها تبغي سعادته حتي ولو كان بعيدا عنها. لقد كان يحدثها عن حبه لمنى وكيف فعل به الأعاجيب. لقد هجر السياسة والدنيا كلها من أجلها. لقد أهمل عمله ونسي نفسه وصار لا هم له في هذه الحياة سوي أن يتبعها. تعجب خاله من أن يتم الاتفاق هكذا سريعا. يعلم أن ابنته قد

تقاسي كثيرا. إنها معجبة بابن أخته، لعلها تكون قد أصيبت باليأس من أن يلتفت إليها، وماذا عساها أن تفعل؟ لقد تخرجت في كلية الطب وصارت طبيبة امتياز تخطو خطواتها الأولى في عالم الطب، ألسنا في مجتمع ظالم يسمح للفتي أن يحب وأن يعلن حبه وأن يتفاخر به في حين أن الفتاة لا تستطيع أن تبوح بمكنون قلبها لأقرب الأقربين إليها. لم تبح قط لأبيها بما تحمله من مشاعر تجاه محب، ولكن الأب كان لماحا يفهم جيدا، ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ لقد اختار محب، ويبدو أن أحدا لن يثنيه عن عزمه. فهم أن نوال تطعن نفسها فقد تستريح من ألمها الذي يتكرر بحديث محب عن حبه وعن فتاته، وعساها تستريح عندما تعرف نتيجة هذا الحب وهذه المشاعر التي يفيض بها قلبه تجاه غريمتها. سترضي بالنتيجة مهما كانت، ولكن أليس هناك احتمال أن تفشل قصته مع مني فيتحول إليها بعد أن كانت ابنة خال وصديقة تستمع إليه؟ فلتعش علي هذا الأمل. أليس الأمل طائرا ينبض بالحياة في ليل العشاق الطويل؟ أليس طاقة نور دوما ما ينظر إليها المحبون؟ أليس الأمل خريرماء عذب في بحار الحب المالحة العامرة بالمعاناة والألم؟ أليس الحب واحة نضرة حلوة خضراء في صحراء قلوب المحبين؟ ذهب خاله إلي القسم واستفسر عن الشاويش عشاوي. إنه يبدو صارما حقا. يقتل شاربه ودائما ما يصيح بمن في الحجز ويأمرهم بالسكوت، ولكن ملامحه تنطق بالطيبة والبراءة. شعر بنظرات حنو وعطف علي بعض من يدخلهم الحجز.

اقترب منه وقال في هدوء:

- حضرتك الشاويش عشاوي جمعة؟
- افندم يا أستاذ.
- أنا سالم المعداوي.
- أهلا وسهلا. الشاي يا ولد
- لا داعي للشاي. لدي طلب عندك.
- أنت تأمر يا افندم. حضرتك شرفتنا. هل لديك بلاغ أو محضر تود أن تقدمه؟
- لا. الأمر لا يتعلق بي وإنما يتعلق بابن أختي.

- أهلا بك وبابن أختك.
- أنا لا أحب اللف ولا الدوران. ابن أختي رأي ابنتك مس مني وأعجب بها يا سيدي ونود أن ندخل البيت من بابيه.
- أهلا وسهلا بالناس الطيبين. هكذا أولاد الأصول. وماذا يعمل بسلامته ابن أختك؟
- مهندس
- أهلا وسهلا. شكلك رجل طيب.
- كل ما أطمع فيه أن نزورك. فهل نشرف بموعد منك يا حضرة الشاويش؟
- أي وقت بعد صلاة العشاء يا أستاذ سالم. ربنا يقدم ما فيه الخير.

نظرت نوال إلى محب في حب وود. رأت سعادته عندما أبلغته بأن والدها قد اتفق مع الشاويش عشاوي علي أن يكون الموعد الخميس القادم. نظر إليها ونظراته تعجز عن شكرها. وجاء الخميس بسرعة علي غير عادته. لقد كانت تأمل في مجيئه عليها تستريح وتضع نهاية لآمالها، ولعلها تضع نهاية لمعانيتها، ولكنها لم تكن تعلم أن آلام الحب لا تهدأ ولا تنتهي، ف دائما ما يظل الألم يقويها ويشعلها، يحاول أن يروضها فلا يستطيع، يغالبها وينتصر تارة ويخفق تارة أخرى. ساعدته ليرتدي رابطة عنقه بشكل أفضل أمام والدها وخالتها. ضبطت له الجاكيت، وماذا تفعل وهي تعلم أن حبها سيضيع منها؟ لعله لا يضيع منها. ألا يمكن أن ينتهي الموضوع بفرض الفتاة؟ ألم يقل لها إن مني باردة المشاعر وأنها لا تحس، إنها لم يتحرك لها ساكنا عندما رأت عمها يضربه مع صبيانه. لقد أكدت عمتها أنها لم تسترح لمس مني ولم تحبها. فليضيع هذا الحب برغبتها. أليس هذا أفضل من أن يضيع رغما عنها. أحيانا تشعر مني بأنه أناني لا يحب إلا نفسه وأحيانا تشعر أنها أمام عاشق يحب لأول مرة فتتذكر كيف نمت براعم حبها تجاه محب منذ أن كانا صغارا. من حقه أن يحب حتى وإن كان يحب غيرها، ولماذا تكون هي أنانية في حبها؟! ألا يكفيها أن يكون حبيبها سعيدا

حتى وإن كان مع غيرها. إن الحب شعور نبيل يفجر أحجار المشاعر
وينير ظلمات النفس فتصفو وتسمو. صحيح أنها تنظر إليه وكأنها
تودع حبه لآخر مرة ولكن لازالت براعم الأمل تنمو لديها، حتي
وإن فقدت الأمل ألن تكون سعيدة بسعادة محب حتي وإن كان مع
غيرها؟ هكذا كان حبها طاهرا ملائكيا يحلق في أسمي نبضات قلبها،
ويعلو كل ما عداه من حُب أو أنانية ورغبة في تملك من نحب.
تمنت له في داخلها حظاً أسعد من حظها في الحب، ثم أمسكت
بيد عمتها وأمسك محب بيد خاله واتجها نحو بيت منى التي
سلبت عقله وتفكيره. كان محب يردد قائلاً:

يقيني أنت وجنتي وهيامي جحيماً أنت وقبلتي وأمانى
طارت إليك مشاعري وجنانى زارت إليك عواطفى وحنانى
أتاك دمعى في المساء وأنينى طال صبرى عليك وانتظرت يقينى
شدت أمه أذنه وقالت له :

— أليس لخالك ولا لابنته من نصيب في شرك يا روميو؟
ربت على ظهر خاله ممتناً ثم رمق نوال بنظرات كلها شكر
وعرفان بالجميل وقال مخاطباً إياها:

صديقة تغنى الورى رقيقة مثل السنا
تهدى النفوس وتقتدى أنيقة كنسمات الهوى
تضئ كنجمات السما تغرى كبسمات الصبا

مصصت أمه شفقتها ونظرت فى تحسر هائل إلى شباب نوال
وجمالها وأخذت تلعن الحب وسنينه وهى تتجه نحو السيارة. كيف
لا يفهم هذا الغبي أن نوال تحبه وان كل ما تفعله ليس إلا بدافع حب
سام، حب لا تمتلكه سوي صاحبات قلوب ذهبية كوردات بيضاء نقية.
كان محب يقود السيارة فى هدوء وهو يتذكر العلفة التى أخذها من
أجل عيون منى، تبعها أسبوعاً انتهت بهذه العلفة. تري أتشفع له هذه
العلفة عند منى؟ تري هل ستتذكرها معه عندما يتزوجان وتكون لهما
أسرة؟ أتوافقين يا منى علي أن أتزوجك وأطفي نيران أشواقي إليك؟
ليتني أستطيع ان أتبعك العمر كله. طرأت لديه بعض المخاوف.
ماذا لو لم تقبل خطبته؟ إن خاله قال إن والدها الشاويش عشاوي قد
رحب به. إنه حائر بين الأمل والخوف. الأمل في أن تقبله خطيباً

وزوجا، والخوف من أن ترفضه. ألا يمكن أن تكون مرتبطة بشاب غيره؟ لا. إنه يريد أن يبعد عن ذهنه شبح هذا الافتراض. ستقبل إن شاء الله. طلبت منه نوال أن يسمعها شيئاً من تسجيل السيارة، كانت أغنية لأم كلثوم وكانت تشدو: يا حبيبى كل شئ بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء. فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء لا تقل شئنا فإن الحق شاء كانت الكلمات مؤثرة جداً. كأن الأغنية تعبر عن خوفك يا نوال. لا تقل شئنا فإن الحق شاء. هي حكمتك وإرادتك يا رب فليكن ما تشاء. فلتكن مشيئتك يا إلهي. أنت الذي تقذف الحب في القلوب. جاهدت حتي لا تدمع ووضعت المنديل علي وجهها حتي لا يراها أحد. لاحظت أن والدها يطرب للأغنية، وبالفعل انفعل خاله وقال في سعادة غامرة: — الله يا ست. هذا هو الغناء وهذه هي الكلمات.

وافقت نوال على ما قاله بهز رأسها وقالت: — آه لو استمع من يسمون أنفسهم بالمطربين في هذه الأيام.. والله لو استمعوا وفهموا ما يقال لانتحروا جميعاً. سكنت نوال واكتفت بالنظر إلى محب من خلال المرأة التي تعلو رأسه. إنه لوسيم حقاً. شارب مهذب يعلو شفتين في غاية الرقة وملامح هادئة مريحة وعينان تلمعان بالحب والذكاء. فلتهنأ مني به إن كان قدرها. الاحتمال الأهم أنها قد تهنأ به، وعلي الرغم من أنه الاحتمال الأضعف، إلا أنها ستتمسك به لآخر لحظة.

قالت نوال مخاطبة محب خشية أن يكون قد عرف ما بداخلها: — إنك تكتب أشعاراً لها باللغة العربية، أما جربت أن تكتب لها باللهجة العامية؟ قال لها وهو يضحك:

— والله لو طلبت مني لبن العصفور لأحضرت له
نظرت إليه في حب غالبت ألا يكون ظاهراً في عينيها وقالت وهى تخفى هيأها:

— لن تطلب لبن العصفور ولكنها قد تطلب منك أغنية شبابية تكتبها لها.
أوقف سيارته فجأة وقال:

— أنا شاب ولقد عملت حسابى وكتبت لها، اسمعوا يا جماعة.

إن من يحب يكتب بأية لغة وبأية لهجة. اسمعوا يا جماعة:

حبيبي عيونه تعبانة	وقلبى عيبنى نعسانة
تقوله حرام كـدده كفاية	يا روى دا انت جوايا
ساكن فكرى وومـعايا	دايمـا وأنت ويايا
وصورتك أهى قـدامى	بابوسها فى صبحى ومسايا
تعالى يا عمري دى بدايـة	حبنا دا بقى حكاية
وقصة شـوق بلا نهاية	خد من دمعى يا هوايا
بحور السـهد يا منايا	دا حبك شـطـدنيايا

ثم واصل قيادته سيارته والكل يضحك. لقد أنطقه حبه لمنى الشعر حتى باللغة العامية. كانت أمه تضع يدها على قلبها وتطلب من الله أن يستر عليهم وتمر هذه الليلة على خير. الكل يدعو الله والكل يرجو، ولكن من يتحقق رجاؤه. الغريب أن محب واصل قيادته للسيارة، في حين أن أمه كانت تتساءل وتتعجب: «متي يفهم هذا العاشق الخائب ابنها أن هناك قلبا يهواه ويتمني أن يمتلكه ولكنه مع ذلك لا يفهم ولا يعرف؟ إنه ليس غيبا. لقد صرحت له أمه أكثر من مرة أن نوال تحبه، ولكنه كان يتجاهل هذا. كان حبه لمنى يعميه عن الحقيقة. أليس كل عاشق أعمى ولا يري بعيني قلبه إلا ما يريد أن يراه؟ متي يفهم هذا الغبي؟ أخشى أن يفهم متأخرا. هكذا العشاق لا يفهمون إلا متأخرا».

نيفين تتذكر

أي صباح كئيب هذا الذي تستهل به نيفين يومها. هذا هو آخر يوم في الأسبوع الثاني منذ أن رحل عنها شريف. صباح مؤلم أن تعتاد علي رؤية أحب الناس إليك ثم لا تلبث أن تجده وقد تركك وفارقك سواء برغبته أو رغما عنه. أرادت أن تبكي لضوء الشمس أو أن ترجو أضواء النهار أن تعيده إليها. مهما نظرت في كل الوجوه فلن تري مثل وجهه، لقد بكت طيلة ليلة أمس وتغننت للقمر أن يعيده إليها، رجت نجومات السماء أن تنظر إليه ولو مرة واحدة. صلت لله أن يعيده إليها وأن يحفظه. إنها لن تستمتع إلا برؤيته. لن يكون لحياتها أى طعم إلا إذا أذاقها هو طعم الحياة وهو بجوارها. أليس الموت أهون عليها من فقدانه؟ ماذا ستعني الحياة بالنسبة لها بدون وجوده؟ أين أنت يا شريف؟ ليست الحياة حياة وأنت لست فيها. أنا أتحمل مصائب الحياة كلها وأنت بجواري، وأنت تشجعني ببسماتك ونظراتك علي احتمالها، أما أن تتركني وحيدة بدونك فهذا مالا أستطيع أن أتحملة. يهون كل شئ في حياتي ألا أن تكون بعيدا عني. لقد أصبحت حياتي حلوة جميلة خضراء يانعة بفضلك، فلماذا تغيب وتتركني في سراي أحاول أن أتلمس خطاك فلا أجدك. لقد ذقت طعم الحياة وملاأت عيني برؤياك فلماذا ذهبت وتركتني وحيدة لا أقدر علي فعل شئ بدونك.

تكتب علي الكمبيوتر متضجرة وزميلتها تنظر إليها وهي في أوج عصبيتها. تعرف أنها ستقول لها أن تتعامل مع لوحة المفاتيح بركة. لشد ما كانت رقيقة مع لوحة المفاتيح عندما كان شريف يطلب منها أن تنجز عملا ما أو مهمة بعينها. إنها لم تره منذ أسبوع ولم تكحل عينها برؤية محياه الرائع وبسمته الحانية. لم تستمع بالسماع إلي صوته ولم تعد قادرة علي التحمل أكثر من هذا. ماذا يمكنك أن تفعل أيتها المسكينة. لقد ذهب وغادرك. لقد مرت لياليك حزينة وأيامك الفاتنة مكتئبة. لقد كنت تبكين طول الليل يا نيفين. لقد ذهبت إلي

مكان حجزه. من الذي يعود إذا دخل هذا المجال؟ مجال الحبس والسجون. طوبي لك يا شريف. أنت بطلي وأنت رجلي. أنت الآن في نظر الناس وفي نظر القانون أكبر مجرم. أشهد الله أنك شريف. شريف اللسان وعفيف القلم. ألم تقل لي أكثر من مرة: «ياما في الحبس من المظلومين؟»

لقد طمأنها المحامي. إن إسكات الآراء المعارضة سمة أساسية الآن. الكل يتحدث وينتقد. لماذا أنت يا شريف. يريدون أن يكبلوك لأنك دخلت عش الدبابير الكبار. تنتقد الوزراء والصفقات المشبوهة. يريدون أن يقضوا عليك لأنك نكأت جراحا تنزف بالفساد الذي كان قد استشري؟ أنا معك ومؤمنة بك. أنا مؤمنة بكل ما تفعل. يوما ما ستعرف الحقائق. يوما ما سينكشف كل شيء. أنا أدرس الإعلام في التعليم المفتوح. هذه هي الصحافة وإلا فلا. أليست وظيفة الصحافة الأساسية كشف الفساد. أنا معك. عليك أن تنبش أعشاش الفاسدين والمفسدين. عليك أن تتناول الميزانيات الفارغة، عليك أن تشعلها حربا ضد الفساد والفاسدين. تحدثت كثيرا عن الرشاوي والمرتشين. قلت أكثر من مرة أنه لا يجب أن يكون الوزراء من رجال الأعمال وإلا سيتحولون إلي أدوات لتحقيق أرباح لهم ولأعمالهم الخاصة وسيموت الفقراء من الجوع. أنا معك يا شريف قلبا وقالبا. لكني لا أستطيع أن أعيش بمفردي وبدونك. ليتك ما كتبت في هذه الأمور. لا. كنت أرجو من الله أن تكتب وأن توضح ولكني لم أكن أعلم أن هذا الطريق وعمر غائر وقد أفقدك. قلت لي أكثر من مرة وأنت تبتسم: «الصحافة مهنة الجري وراء المتاعب والقفز فوق الأشواك» أنا أول من سأتعب وأول من ستخرق الأشواك حياتي وهنائى بابتعادك عني.

تأففت ثم وقفت. جلست ثانية ثم تأففت. لم تعد تتحمل أن تنتظر أكثر من هذا. تريد أن تخرج من المكتب. تشعر أنها مخنوقة بدون شريف. لن يرن لها الجرس لتدخل إليه. ما فائدة عملها إذا لم يكن هو بجوارها؟ وماذا بوسعك أن تفعل أيتها المسكينة. إن نيران الحب تشعل حياتك من جديد. ماذا كنت تنتظرين؟ كان متزوجا وكنت تنتظرين القرب منه وتمنحين نفسك أحلاما كاذبة وأوهاما مضللة بالاستمرار في حبه. كان يشجعك أو هكذا كنت تتخيلين يا نيفين. لماذا

إذا كان يحكي لك عن مشكلاته مع زوجته؟ لماذا إذا أنصفك وكان ينصفك دوماً؟ أفلا يمكن أن تكون هذه شفقة الرئيس لمرؤوسته كما فعل عند أول مرة واجهت فيها زوجته أمنية؟ يبدو أنني قد بنيت قصورا من رمال في الخيال وشيدتها بقطرات حب واهية ولأشك أنها ستنتهار يوما من أقرب ريح تهزها. كنت أعلم هذا ولكنني لم أكن لأستطيع أن أهرب من أفخاخ حبه ومن قيود عشقه ومن مخالب محبته. عجباً لحبك يا نيفين !! ظللت تنتظرين وترفضين كل عريس يتقدم إليك خلف أسوار الأمل وقضبان الحب الذي لا يكثرث به شريف. لقد أشركته أكثر من مرة في مطالبات والدك لك بقبول أول طارق يتقدم إليك طالبا الزواج منك. كان يشجعك أيتها الغيبة علي الزواج. كنت تنظرين إليه وتودين لو أن نظرات عينيك تخبره بمدي حبك. كنت تتمنين أن يفهم أنك في انتظار إشارة واحدة من قلبه لتكوني أمة له أبد الدهر. كنت ترغبين في نظرة حب واحدة لتكوني أمة تركع جاثية تحت أقدام فؤاده، نظرة واحدة من عينيه تلمع ولو ببصيص من حب كانت ستجعلك أسيرة في بحر هواه، ولكن هيهات يا نيفين. يبدو أنك واهمة.

وحتى بعد أن طلق زوجته بعد تصاعد حدة الخلافات. لم تتغير نظراته إليك أبدا. لا أعتقد أنني كنت سببا في طلاق زوجته. هي التي أضاعته من بين يديها. كانت نفس نظراته الميتة الخالية من أي إشارة لحياة الحب فيها. لماذا يا رب يحكم علينا أن نحب أناسا لا يحبوننا ولا يشعرون بما نكنه لهم في قلوبنا من آيات الحب وعلامات التقدير؟ لماذا يحكم علي قلوبنا بالموت وهي علي أهبة الاستعداد للحياة. إن نظرة واحدة من عين الحبيب ستكفيانا لنعيش بها سنوات طويلة علي أمل ولو كان كاذبا في حب ننعم بلمسات الوهم فيه حتي وإن كان ميتا. عشرات التساؤلات تطرق ذهنها بلا سبب وبلا منطق. إنها لطالما أخبرته بحبها بنظراتها وبتلبية أوامره وبمحاولات ظننتها يائسة من أجل الاقتراب منه. يبدو أنه لا يحس بها. يبدو أنها بلا قلب. يبدو أن طبيعته أن يعامل كل الناس بالحسني. إنها لا تريد أن تكون مثل كل الناس. كيف يمكن لمثله أن يحب مثلي؟ ما أنا إلا سكرتيرة تافهة لا وزن لي في حياته. هكذا يراني. لقد شجعني طويلا

علي أن ألتحق بالجامعة وأواصل دراستي. كان سعيدا بي. نظر إلي في سعادة وحنو وكأنه أب أو أخ. لمس يدي من فرط سعادته بي. تمنيت لو احتضنني وقبلني. يبدو أنني كنت واهمة. أفرد لي وقتا للتفرغ للدراسة. لقد قررت أن أدرس من أجلك يا شريف. ماذا سأستفيد وأنا لا أنعم برؤيتك كل يوم؟

أذكر جيدا يوما أتت زوجته المكتب غاضبة كعادتها. شبهتها بأنها رياح عاتية. كانت عيناها تمتلئ بالشروع وبالحدق. دخلت فتجاهلتها كعادتي. وقفت أمامي قائلة في غضب:

— صباح الزفت والنيلة والقطران عليك.

تجنبت تماما الرد عليها وتشاغلته بالكتابة علي لوحة المفاتيح. تصنعت الهدوء. لم أرد عليها ولم أنظر إليها مطلقا. يبدو أن تجاهل مثل هذه الشخصيات العفنة أفضل طريقة للتعامل معها. لقد أسعدني أن شريف زارني بعد معركة شرسة كانت بيننا في أول مرة أتيت فيها إلي هذا المكتب. كان الوقت مبكرا ولما تأتي زميلتي التي تعمل معي بالمكتب. يبدو أن تجاهلي لها زادها جنونا علي جنونها. نظرت إلي وأنا ألمحها بطرف عيني. خبطت بشدة بيدها علي مكتبي وصاحت:

— أنا أحدثك أيتها الحيوانة.

تابعت تشاغلي عنها. أخذت أكتب بهدوء وأبتسم وأنا أكتب وأتابع ما أكتبه علي شاشة الكمبيوتر. سأري نتيجة قلة أدبها. كان شريف بالداخل يعد بعض الأوراق. أنا في أمان لأنه بجواري. كنت أتساءل في نفسي قائلة: «كيف يا ملاكي النبيل الطاهر تتعامل مع هذه المرأة الشرسة؟ سبحان الله. شخصيتان مختلفتان تماما. كيف تنامان علي وسادة واحدة وطبيعتكما مختلفة تماما؟ حكمة الله» أنا لا أعرف سر غضبها. أعذرها بغيبائها وتصرفاتها الحمقاء. يبدو أن جنونها قد وصل لمعدلات لا تستطيع أن تتحكم فيه. صرخت بأعلي صوتها قائلة:

— ردي علي أيتها الغبية. أنا أكلمك أيتها الحمقاء

لم أرد عليها وتماسكت. أمسكت لجام غضبي وأخذت أبتسم بهدوء ووضعت كل غضبي في لبانتني التي كنت أمضغها. كنت أضغط علي أضراسي. تمنيت لو صفعتها بيدي أو بصقت في وجهها، ولكني

واصلت اعتصامي بالصبر والهدوء والابتسامة. لاشك أن زوجها سيسمعها وسيتدخل في اللحظة الحاسمة. سأنتصر عليها بصبري وهدوئي وابتسامتي. ماجت بها عواصف غضبها. صرخت ثانية:

— هل أنا كلبة أتحدث ولا تردين علي؟ أنا أكلمك يا بنت المجنونة. يا بنت...

أخرجت من قاموسها كلمات قبيحة. لا أدري كيف صبرني الله علي عدم الرد عليها. خرج شريف من مكتبه غاضبا. كادت أن تلقي الكمبيوتر الذي أعمل به علي الأرض بعد أن نكشت شعرها واستعدت للفعل بعد أن شمרת أكمائها للاشتباك معي في معركة طاحنة. الحمد لله أن الله سلم. نظر شريف إليها غاضبا وقال:

— مالك يا أمينة؟

كانت تنتفض في غضب وتقول مشيرة إلى:

— لا ترد علي. أكلمها ولا ترد. يجب أن ترميها في الشارع. من تظن نفسها؟ أنا سيدتها.

ثم التفتت إلي قائلة:

— أنا سيدتك وولية نعمتك يا بنت...

لم يدعها شريف تكمل. أغلق فمها بيده. كانت تشير إلي وتريد أن تصوت. جاء رجال الأمن. علم رئيس التحرير وأصر علي أن يفتح تحقيقا في هذا الموضوع. أخذها شريف ودخل مكتبه ليهدهئها. نزلت من عيني قطرات الدموع ولكني مسحتها بسرعة خشية أن تراها زوجته. لمح شريف هذه الدمعات. أدخلها مكتبه وأغلق بابه وعاد إلي مسرعا. مسح دمعاتي. الله !!

آية أنامل هذه؟ آية رقة أودعها الله في أصابعه؟ أي كأس من الحنان والرقّة لمست وجهي؟ !!

لكم أنا محظوظة. تأسف لي بعينيه.

دخل مكتبه ثانية. أما أنا فكانت أغوص في بحر من السعادة. لقد لس عيني. يالسعدي وهنائي. يالفرحتي. أي يوم سعيد هذا أشرقت بالحب ثنأياه. لكم أنا سعيدة.

سمعتها تصيح بالداخل: «اطردها فورا. إما أنا وإما هي. إنها تعمل رأسها برأسي. إذا لم تطردها فطلقني فورا»

- يبدو أنني يجب أن أتدخل.
دخلت مكتبه وقلت له :
— أنا مستقيلة يا أستاذ شريف
صرخت أمينة في وجهي قائلة :
— في ستين داهية.
وقف شريف واتجه نحوي قائلة :
— استقالتك مرفوضة. لست مخطئة وأمينة ستعتذر لك. كنت
بالداخل وسمعت كل شيء.
لطمت زوجته وصرخت قائلة :
— أتنصفها علي يا شريف. هذا آخر كلامك
بدا عليه الغضب وقال في جدية :
— أنت مخطئة وسيحول الأمر إلي التحقيق
خرجت غاضبة وهي تصيح قائلة :
— آه. أكيد عملت لك سحرا.
ثم نظرت إلي بغضب ورفعت يدها لتضربني ولكنه أمسك يدها
بقوة ورمها في الأرض قائلا :
— كفك يا أمينة. أنت مخطئة. حرام عليك. البنيت مسكينة ولم
تعمل فيك أي شيء.
خرجت أمينة وقدور الغضب تلفح وجهها وليس علي لسانها إلا
كلمة واحدة: «طلقني»
قلت له في هدوء :
— أستاذ شريف. دقائق وسأكتب استقالتي
ربت علي كتفي في هدوء ونظر إلي بحنو وشفقة ثم قال :
— لا. سأطلقها. يبدو أنني يجب أن أفعل ما كان يجب علي أن
أفعله منذ فترة طويلة.
وخرج وسعادتي غامرة. لقد لمس بيده وجهي. لقد ربت علي
كتفي. لكم أنا سعيدة محظوظة هذا اليوم. يا رب لك كل الحمد
والشكر. يبدو أن دعواتي بأن ينظر إلي شريف وأن يري حبي قد
تحققت. سيطلقها كما بلغني. ولم تمر سوي أيام وإلا وقد كان الخبر
قد انتشر في الجريدة كلها. لقد تم الطلاق. أيمكن أن تكون لي يا
شريف؟ أنت لا تدرك مدي حبي لك. يبدو أن أشواق قلبي سترتمي

يوما علي شواطئ حبك. يبدو أنك قد تحس بي.
قالت زميلتي لي وأنا أغوص في بحور ذكريات الماضي:

— ستكسرين لوحة المفاتيح يا نيفين

لم أرد عليها. أنا لست طبيعية الآن. إن رصيدي من مخدر حبي
من نظراتي إليه قد انتهى أثره. يبدو أنني يجب أن أزوره. لشد ما
أوحشتني يا شريف. سأذهب إليك ولو كنت في آخر بلاد الدنيا.
خرجت من مكتبي واتجهت إلي مكان حجزه، وليتني ما فعلت. لم
أجده هناك يومها. تري أين أنت أيها الحبيب؟ يبدو أنهم رحلوه
إلي مكان آخر. لقد افتقدتك. أتمني أن أري عينيك ولو للحظة واحدة
حتي أستطيع أن أواجه حياتي بدونك. شريف لشد ما أتمني أن أراك
ولو يضيع نور عيوني بعدها. كيف أستطيع تحمل حياتي بدون
رؤيتك؟ كيف سأعيش بدون أن أستمع إلي صوتك أو أتلقي تعليماتك
في العمل؟ كيف سأعيش وقد فتحت لي طاقات الأمل وأنرت لي
طريق الأمل؟

مني تعود بعد فوات الأوان

لم تكن مني تعلم أن والدها بانتظارها ومعه سكينه خلف الباب. لم تكن تعلم أيضاً أنه تتبعها ولكنها غابت عن أنظاره. تتبعها الخميس الماضي والذي قبله وكانت مصدر فخره أمام أخيه زين، ولكنها لم تذهب إلا إلي الكلية لحضور محاضراتها في مرحلة الماجستير، وتبعها اليوم بمفرده ولكنه رآها تدخل هذه العمارة التي تقع بها تلك الشقة. كان بانتظارها ودماءه تغلي. يود أن يمزق قلبها. لا. يود أن يمزق قلبه الذي أحبها ورباها وجعلها مدرسة. عندما يمزق قلبها سيمزق قلبه الذي رباها وكانت مصدراً لسعادته فإذا بها تتحول إلي مصدر لشقائه. سأل أحد المخبرين بالمنطقة فأخبره أن سمعة الشقق في هذه المنطقة ليست فوق مستوى الشبهات. كان يمسك السكين بيده وغلبه النوم وهو ينتظرها. كان يتقلب فكادت السكين تخترق جسده ولكن الله سلم. كان يود أن يموت قبل أن يواجهها وهي ملوثة بالخيانة. انتهي يومها الدراسي في مدرستها. ودعت المدرسة وقررت أن تذهب لأُمها لتودعها قبل أن تسافر إلي الكويت. كانت لا تريد أن تذهب إليها، ولكنها قررت أن تذهب لتودعها آخر مرة. ستذهب إلي أمها لتبلغها قرارها الأخير. لن تسافر إلي الكويت. عشرات المرات بعثت لها أمها برسائل علي تليفونها المحمول ولم ترد مني علي هذه الرسائل. أغرتها أمها بصورة العقد الذي ستعمل به. أرسلت لها رسائل مصورة عن مدينة الكويت ولكن بلا جدوي. كتبت لها أنها ستستمتع بعيشة العز والرفاهية. يبدو أن أمها تراها عنيدة وتهوي الفقر مثل والدها. إنها ستعود يتيمة الأم ثانية كحياتها قبل أن تظهر أمها. كانت تسير في اتجاه شقة أمها وكأنها تسير علي خطي موسيقي جنازية حزينة بائسة يائسة. كانت تسير وكأنها غاضبة من الدنيا كلها. كانت تسير ولا تنظر إلا أمامها حيث أملها وعملها وعلمها الذي تود أن تحصله في مصر ولم تكن تنظر خلفها قط. إن ما حدث لها اليوم أمر لم تكن تتوقعه. أمها؟ لاشك أنها كانت

تحلم. عندما وصلت إلى مدخل العمارة لم تجد البواب جالسا أمامها كعادته ولم يسألها كما كان يسألها كل مرة إلى أين تذهبين. وضعت يدها علي زر الأسانسير. لقد حفظت جيدا. ستضغط علي زر الطابق التاسع. تشعر بضربات قلبها تتزايد. يبدو أن هذه المرة ليست مثل كل مرة. قد تكون أمها غضبت منها وسافرت بالفعل بدون أن تودعها كعقاب لها علي رغبتها في المعيشة مع أبيها في مصر.

دخلت كعادتها بمفتاحها الذي أعطته لها أمها. شعرت أن قلبها يرتجف. يبدو أن هذه المرة لن تكون مثل ما سبقها من مرات عندما كانت تزور أمها. كانت تدخل علي أمها سعيدة القلب منشرحة فرحة. إنها اليوم ليست كذلك. لماذا تتزايد نبضات قلبك يا مني؟ أنت لم تخبري أحدا بشأن أمك، ولكن كلمات مبروك التي ذبحتك واتهاماته لك أمام والده كان يجب عليك الرد عليها. أمام عمك. كان يجب أن تدافعي عن نفسك. ألا تتذكرين مضايقة ممدوح ابن عمك. لقد قالها لك صراحة: «أنا أولي من الغريب». ماذا يظنون بك يا مني؟ أكان علي أن أخبر أبي أنني وجدت أمي بعد كل هذه السنوات؟ لأشك أن ولدي عمها يكرهونها. لقد أتمت دراستها. نجحت فيما فشلا فيه. هكذا الناجحون دوما عرضة لحسد الناس وتقولهم عليهم. فليموتوا بغیظهم. إنها تعرف ما تفعله جيدا وتعرف كيف تحافظ علي نفسها. تشعر أن قلبها مقبوض. تريد أن تتنفس قلا تستطيع. كنت تشعرين بالسعادة والأمان كل مرة تزورين فيها أمك. برزت صورة والدها أمام عينيها. أكان يجب أن أخبرك يا أبي؟ كنت ستمنعني من زيارتها. لماذا هذه القسوة يا أبي؟ لقد رضخت لأوامر أمها وليتها لم تفعل. استحلقتني بالله ألا أبغلك وطلبت مني ألا نتحدث في الماضي يا أبي. أنا أحبك يا أبي ولكني أحبها فهي أمي، لا أتحمل نتيجة طلاقكما. أنتما اختلفتما ولا ذنب لي بخلافاتكما. لن أخبره يا أمي كما وعدتك، ولكنك يبدو أنك ستتركي نني ثانية. سأعود يتيمة كما كنت من قبل أن تظهرني في حياتي.

وجدت الضابط يقف أمامها فجأة عندما دخلت. أصابها الهلع وامتألت بالخوف. كادت أن تصرخ، ولكن الضابط أضاء أنوار الشقة كلها وخرج من خلفه فورا مجموعة من العساكر. ما هذا الذي

يحدث؟ أرادت أن تتأكد أنها لم تدخل الشقة الخطأ. كيف وقد فتح مفتاحها الباب؟ إنها تتردد علي أمها في هذه الشقة كل خميس منذ خمس سنوات. فقط لم تحضر الخميس الماضي ولا الذي قبله. غضبت من أمها. إنها لن تسافر ولن تترك مصر. ستواصل تعليمها وتواصل عملها. لاشك أنها تحلم. إنه ليس حلما. إنه كابوس بغيض. كان الضابط بنظر إليها في تحسر وازدراء معا. أرادت أن تسأله. أشاح عنها بوجهه وقال لها متسائلا وهو يجلس والأسف يملاً عينيه:

— أتيت بنفسك؟

— طبعاً أحضر هنا من أجل أمي. ما المانع في ذلك؟
أرادت أن تتراجع إلى خارج الشقة. جذبها جنديان وأدخلها لتقف في مواجهة الضابط. توجه إليها الضابط ثم قال لها في هدوء آمراً بغلظة وكأنه يستجوبها:

— اسمك وسنك وعنوانك
— مني عشاوي جمعة. ٢٨ سنة. ٢٣ شارع الأنصار.
ولما رآته ينظر إليها في استغراب قالت له لتعطيه مزيداً من التفاصيل التي لم يسأل عنها:

— وأعمل مدرسة في مدرسة السيدة عائشة.
نظر إليها في تحسر وقال فيما يشبه الضيق بعد أن جلس علي أحد المقاعد ووضع ساقاً علي ساق:

— أنت متأكدة أنك مدرسة؟

— طبعاً يا أفندم
— وماذا تدرسين للطلاب؟
— أدرس لهم اللغة العربية والدين.
نظر إليها في أسف، وقال لها في ازدراء وأسف متهمكها:

— وتعلمينهم الدين؟ عليه العوض ومنه العوض. أنت تعلمين الأولاد الدين؟
نظرت إليه في ثبات وقالت له وكأنه تنفي الاتهامات التي يوجهها لها بنظراته:

— وما العيب في أن أدرس لهم الدين؟ أتراني كافرة؟
قام وهم أن يضربها ولكنه تماسك وأنزل يده دون أن يمدّها عليها، ونظر في عينيها بخبت وقال:

— لا. أنت ملتزمة جداً. شيخة يا أستاذة مني. أنت قديسة عابدة ناسكة.

- ماذا تقصد يا حضرة الضابط؟ أنا ملتزمة وأرتدي حجابي كما تري
- معك حق. حتي الراقصات في هذا الزمان يطعمون الفقراء علي
- موائد الرحمن ويعطونهم أموالا ويرقصون لهم
- وما المانع في هذا؟ أيحرم الله الراقصات من ثواب إطعام الفقراء؟
- لا. الله عنده كل الثواب ولكنهن يأثمن لرقصهن أشباه عاريات
- بدا الغضب علي وجه الضابط، يبدو أنه لم يرد أن يجادلها كثيرا،
- اتجه إليها وصفعها بقوة علي حين غرة منها، وقال لها في غضب
- كاد أن يفقده صوابه :
- عندما سئلت إحدي الراقصات لماذا لا تغنين وأنت ترقصين قالت
- لأن صوت المرأة عورة، تقول هذا وهي تعري جسدها للناس.
- ذهلت مني تماما عندما صفعها الضابط. وقفت وتجلدت وقالت
- في إباء وكأن الصفعة زادتها عزما وتصميما علي مجادلته وتحديه :
- لماذا تضربني يا حضرة الضابط؟ أنا لست متهمة ولا مذنبه.
- لماذا أنت هنا يا روح أمك؟
- أنا هنا لأزور أمي. أنا أزورها هنا كل خميس.
- كل خميس؟
- نعم كل خميس
- أنت كاذبة
- معك حق لم أحضر الخميس الماضي ولا الذي قبله
- هل اختلفت مع أمك؟
- نعم
- ولماذا يا أستاذة يا متعلمة؟ هل اختلفتما علي الأجر؟
- لا. كانت تريدني أن أذهب معها إلي الكويت وأنا أرفض تماما
- هذه الفكرة
- يا أولاد الكلب. تريدون فتح مقر جديد لكم في الكويت؟
- ماذا تقصد يا حضرة الضابط؟ أمي متزوجة من أستاذ جامعي
- في الكويت
- سلامتها وسلامة الأستاذ الجامعي وألف سلامة عليك يا أستاذة
- يا معلمة اللغة العربية والدين
- إنها لا تفهم عن أي شئ يتحدث. نظرت إليه والخوف علي أمها
- يمتلكها. أمسكت بيد الضابط وقالت له في تهديد واضح :

- إياكم أن تكونوا ألحقتم أي ضرر بأمي. والله لأبلغن الصحافة وأخرب الدنيا إن كنتم فعلتم بها أي مكروه. إنها أمي. لدي أصدقاء يعملون في الصحافة وسأخرب ببيتكم. سأقاضيكم أيها الضابط لأنك ضربتني. لماذا صفعتني؟
- تركت الصالة ودخلت لتبحث عن أمها فلم تجد أحدا. كادت أن تصرخ. لقد صرخت بالفعل عندما لم تجد أمها. أمسكت بخناق الضابط قائلة:
- أين أمي؟ ماذا فعلتم بها أيها المجرمون. أنت لست ضابطا. أنت ممثل. أمي أين أنت يا أمي؟ سأخرب بيوتكم جميعا إن كان قد حدث لها أي شيء
- كاد أحد الجنود أن يضحك. اقتربت من الضابط وقالت له :
- أنا أدرس الماجستير وسأخبر أساتذتي بالجامعة بأفعالكم. سأجعل الإعلام كله يتحدث عن الشرطة وعن أفعالكم السيئة. أين أمي؟ صفق الضابط لها قائلاً:
- أنت ممثلة هائلة. لك مستقبل رائع في التمثيل. لقد مثلت دور البطولة والشرف أيتها الساقطة
- نظرت إليه في غضب وقالت:
- لست ساقطة يا أستاذ. أنا أشرف من الشرف
- لماذا أنت هنا؟
- قلت لك أنا هنا أزور أمي منذ خمس سنوات
- وتعرفين أيتها الفاجرة؟
- لم أفعل منكرا. أزور أمي يا حضرة الضابط
- كفأك كذبا أيتها الساقطة.
- هذه بطاقتي إذا كنت لا تصدقني
- فحص بطاقتها وتأسف. نظر إليها في غضب وقال:
- ما الذي دفعك إلي هذه السكة؟
- أية سكة؟
- سكة الندامة يا أستاذة يا مدرسة يا محترمة يا ملتزمة يا طالبة الماجستير.
- ماذا تقصد؟
- أقصد سكة راغبي المتعة والثراء السريع يا هانم
- أنا لا أفهم شيئا

— ستفهمين عندما تشرفيننا في القسم يا هانم

— وماذا عن أمي؟

— أمك تشرفنا في القسم منذ أيام وكنا ننتظر وصولك بفارغ الصبر

— أنا لا أفهم شيئاً

— ستفهمين عندما تقابلينها

— أرني بطاقة حضرتك

فعلاً محمد عجوة. تفحصت البطاقة جيداً. قرأت الاسم وتأكدت من الاسم أكثر من مرة. إنه ضابط شرطة. يبدو أنها تحلم. لاشك أنها تحلم. أخبرها أنها عندما تقابل أمها ستفهم منها كل شيء. توسلت إليه أن يخبرها فرفض. نزلت مع العساكر وهم يجرونها كمجرمة. أكثر ما أوجعها كان البواب وهو ينظر إليها ويممص شفثيه. لست مجرمة أيها البواب. توسلت إلي الضابط أن يفهم البواب أنها ليست مجرمة. توسلت إليه ألا تركب سيارة الشرطة مع العساكر. رجته أن يرحمها، ولكنه نظر إليها مرة في قسوة وغلظة. كررت طلبها فلان قلبه قليلاً. أركبها معه في سيارته. ربت عليها. يبدو أنه بدأ يصدق أنها بريئة. لقد تأكد أنها لا تفهم شيئاً. يبدو أن أحداً غرر بها. إنها لا تبدو كمجرمة محترفة. إنه يعرف هذه النوعية من الفتيات. بكت كثيراً وهي بجواره. أخرج لها منديلاً وقال لها:

— آسف سامحيني. يبدو أنك بريئة. أنت لست مثل هؤلاء الساقطات. آسف. سامحيني. يبدو أن هناك خطأ ما. ليتني ما ضربتك. لا أنا آسف.

كانت دمعاتها تسيل غزيرة علي خديها لدرجة أن الضابط كاد أن يبكي أيضاً. ربت عليها ثانية وطلب منها أن تسامحه. إنه يؤدي عمله. وضعت وجهه بين كفيها وواصلت بكاءها إلي أن وصلت إلي قسم الشرطة. أفاق عشاوي من نومه. لم تأت مني بعد. صوت آذان المغرب يتعالى في السماء. إنه كان ينام ممسكاً السكين بيده. لقد جرح يده. مثل هذا الدم يجب أن يسيل من رقبة مني ابنته. سيذبحها ليغسل عاره. كان ينام خلف الباب. لقد فهم الآن معني كلمة أن يقتل أحداً ويشرب من دمه. ما الذي قصرت فيه يا مني؟ لماذا تسلكين هذا الطريق؟ لم أبخل عليك بشيء. صدق المثل «أكف القدرة علي فمها

تطلع البنت لأمها». لقد طال انتظاري يا مني. سأقتلك لا محالة. لن يمنعني من دمك مانع.

أستغفر الله العظيم. هل أبلغ عنها الشرطة. لن أكون مسيба لفضيحتي. سأقتلك وأنتهي من مصيبتني بنفسي. لماذا لا تعودين حتي أقتلك وأتخلص من عارك؟ سأنتظرك ولن أمل الانتظار. إنني لم أقتل أمها، طلقتها. كان الزواج فقط بيني وبينها. أنا لم أشعر بالعار وقتها. الزوجة لا تصيب الرجل بالعار عندما تكون سيئة، أما ابنتي فتشينني. هذا يعني أنني فشلت في تربيتها. أنا لم أقم بتربية زوجتي وإنما ربيت ابنتي. أنا قاشل إذا. إن فشلي كبير جدا لأنني طردت أمها من حياتي ومن حياتها معا. لماذا سقطت ابنتي إذا؟ هل أخطأت عندما علمتها لأحصنها ضد الزمان. كنت أعتقد أن شهادة البنت في التعليم تعد كسلاح لها، فإذا به يكون السلاح الذي يوجه إلي في صدري ويقضي علي ويقتلني ببشاعة.

سأقوم لأصلي المغرب. ليتها تأتي بعد العشاء حتي أقابل ربي بعد أن أصلي العشاء أيضا ثم أقتلها لأستريح منها. الوقت يمر وساعات انتظار عشناوي تتزايد.

كانت الساعات تمر أيضا بصعوبة بالغة علي مني ابنته أيضا. لقد دخلت لأمها في الحجز. كانت أمها بالحجز وتحيط بها مجموعة من الفتيات اللاتي يمضغن اللبان بطريقة سيئة. كن يطرقعن اللبان بطريقة مثيرة للاشمئزاز. كن ينفخن من اللبان بالونات كبيرة ثم يجعلون هذه البالونات تنفجر. كن يلبسن ثيابا تظهر الكثير من صدورهن. تظهر سيقانهن وأفخاذهن. كان بعض الفتيات يضعن الماكياج أو يقمن بنتف بضة شعيرات من حواجبهن. ضحكت فتاة منهن بطريقة مثيرة، فتوجه أحد الجنود وقال في غضب:

— تحشمي يا مرة أنت وهي

أمها لم تكن مثلهن. يبدو أن هناك شيئا ما لا تفهمه. لماذا جاءت أمها إلي هنا؟ إن أمها ترتدي ملابس محتشمة. ملابس أمها سوداء تشي بحالة الحزن التي تحس بها مني. إنها تجلس مطرقة وعيناها علي الأرض. ما أن فتح باب الحجز إلا وانطلقت مني تقبل أمها وتحتضنها. التصقت مني بأمها. ظلت في حضنها فترة طويلة. بكّت أمها وقالت لها:

- أنا آسفة يا مني.
- لا عليك يا أمي. من المؤكد أن هناك خطأ ما قد وقع.
- حاولت أن تنتظر إلي عيني أمها. لم تجرؤ الأم علي أن تثبت عينيها في عيني مني. صرخت أمها وهي تنادي الضابط. أقبل الضابط إليها فقالت له :
- بنتي مني ليس لها علاقة بهذه القضية صدقني يا باشا. نظر إليها الضابط وقال :
- التحريات أثبتت أنها كانت تزورك كل خميس تزورني كابنتي
- ألا تعمل معك؟ أليست من فتياتك؟
- لا والله العظيم. صدقني يا باشا
- أصدقك. لم يثبت عليها أي شئ.
- أرجوك دعها تذهب. إنها بريئة
- أعلم أنها بريئة. وأنت؟
- لا داعي للإنكار. دعها تذهب يا باشا. أقبل رجلك فهمت
- اتجه الضابط نحو مني وقال لها :
- آسف جدا يا أستاذة مني. سامحيني. أتمني أن تكوني قد فهمت شيئا
- فهمت يا حضرة الضابط. ليتني ما فهمت.
- نظرت إلي أمها وتدرجت الدمعات من عينيها. ليتك لم تظهرني في حياتي. ليتك كنت مت بالفعل. لقد كان أبي علي صواب عندما قال لي لقد ماتت أمك وهي تلدك. ليتني لم أعرف أنك علي قيد الحياة. أنت بالفعل ميتة يا أمي. لقد كنت تريدين أن تأخذيني إليك وإلي قاذوراتك. نادتها أمها ولم ترد. صاحت أمها قائلة والبكاء يخنقها :
- صدقيني يا مني كنا سنبدأ حياة جديدة نظيفة في الكويت خرجت مني من قسم الشرطة وهي لا تكاد تصدق. أية حياة نظيفة تقصدينها يا أمي؟ أبي هذا الرجل الطيب الذي يخاف الله ويؤدي فروضه لم يكن مناسباً لك؟ لقد تركك وطردك من حياتنا ولكنك كنت كالحية تطلين برأسك علينا. هل أنت أم حقا أم أنك شيطانة ظهرت في أفق حياتي لتهدمها؟ أنا آسفة يا أبي أنني لم أخبرك. لقد أطعتك يا أمي. ليتني ما أطعتك. ليتني مت قبل أن أراك يا أمي.

ليتك ظللت في طي الأموات بالنسبة لي. أي يوم قمى قذف بك إلي.

كانت تسير بلا هدف. لا تعرف كم مر من الساعات قبل أن تصل إلي البيت. كيف سأواجه نظرات أبي الطيبة؟ كيف سأواجه اتهامات مبروك وممدوح ولدي عمي بعد هذا؟ ماذا سيكون رد فعله لو قلت له إنني كنت أقابل أمي منذ خمس سنوات؟ أبوها ينتظر خلف باب الشقة. فليكن ما يريد. عليه أن يقتلها ليثأر لنفسه، وعليها أن تعتذر وأن تغتسل بكل دموعها لتكفر عن ذنبها تجاه أبيها. ليتها أخبرته. لو أخبرته لحكي لها كل شئ. فات الأوان يا مني. يبدو أنه لن يسامحك. تلاشت كل الصور من أمام عينيها ووقعت بلا حراك. صرخت سامية وقد كانت تكنس أمام دكانها. جرت إليها وهي تصوت قائلة إن البنية سقطت من طولها. لقد كادت أن تسقط ولكن الله أنقذها. هرعت إليها سامية. كان مبروك ينظر إليها بعد أن خرج والده من باب الشقة. أذن لصلاة العشاء قبل أن تصل مني إلي باب البيت. اتجه زين للمسجد وهو يختلس النظرات لسامية مغمسة بنيران الشهوة التي خمدت عندما رأي بنت أخيه علي الأرض بلا حراك. صرخ بأعلي صوته مناديا الشاويش عشاوي. أتت سامية بكوب ماء وألقته في وجه مني التي لم تكن تدري بما يدور من حولها. نظر عشاوي لابنته والسكين كان لا يزال في يده التي كانت مغطاة بالدماء. أتنك يا عشاوي ولكنها أتنك وهي شبه منتهية. نظر إليها بقرف وبقسوة. أخفي السكين في جيبه بسرعة. رد عشاوي الآذان وعيناه مبللتان بدموع لا يدري من أين أتنه، ولكنها كانت دموع الحزن التي تختلط بدموع الخوف. لم تكن هذه الدموع دموع الشفقة فلقد اجتث غضبه كل شفقة من قلبه تجاهها، فلينتظر إلي أن يصلي العشاء ثم يقتلها بعد أن يعود إلي شقته لينفرد بها. لن يقتل قتيلة. لن يقتل ميتة. يريد أن يقتلها وهي حية بعد أن تقر بجرمها. سيقتلها عندما تفيق إذ أنه لا فائدة من قتلها وهي لا تحس. يجب أن تتعذب كما تعذب هو طوال الساعات الماضية. اتجه للمسجد وهو يستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم علي الرغم من أنه كان يدبر لذنوب هو من أكبر الكبائر. إنه يخطط لقتل فتاة بريئة وهو لا يعلم.

في حضرة الضابط منير فخري

الشاويش عثمان القللي يسير في خطوات عسكرية منتظمة وكأنه يسير صوب مواجهة عسكرية مخطط لها مسبقاً، أو كأنه في استعراض عسكري مهيب. كان يسير منتفخ الصدر وهو يجبر منصور العالم وشريف شكري وكأنه يذهب بهما إلي غرفة الإعدام. لقد قرر أن يأخذهما إلي الضابط الشديد ذائع الصيت منير باشا فخري. يبدو عليه الغضب، ويتصنع الجدية لأقصى درجة وهو يقول في هدوء محذراً وكأن كرامته قد ذبحت: «نهاركم أسود. أنا تسخر مني يا محبوس منك له؟ والله لأرينكما من هو عثمان القللي. أنا ذات نفسي عثمان القللي تتهم علي وتسخر مني وتقول علي عثمان الزيري؟ أنا؟ هزلت. ماذا حدث في الدنيا؟ أين هيبة الشرطة والداخلية؟ يا للمصيبة !! هزلت» لم يستطع شريف أن يكتم ضحكة خرجت منه رغماً عنه. هزلت؟ لقد هزلت كل أوضاع البلد. ضاعت البلد. خسرت ابني وخسرت عملي، وها أنا ذا يقودني شاويش لم يحصل علي قدر مثلي من التعليم، وكذلك منصور العالم. أنا لم أعد أعلم ماذا سيحدث لي غداً أو بعد ساعات. فعلاً هزلت يا شاويش. إن الشاويش يقودنا كمجرمين. فعلاً هزلت. لقد تحول المجرمون إلي أبطال وتحول الوطنيون إلي خونة ومجرمين. من يستحق الحبس يظل حراً طليقاً ومن يستحق الحرية يقيد خلف أسوار السجون والمعتقلات.

قال له في استظراف وهو يتجرع مرارة الماضي التي تزيدها أحزان الحاضر مرارة: «حقك علي يا شاويش. أرجوك ألا تغضب منه. إنه يهزر. إنه مثل ولدك. لقد تخرج منذ سنوات ولم يحصل علي أي عمل. معه ماجستير ولا يعمل إلا كصبي في مقهى. ثم إنه لم يغلط في البخاري يا باشا. كل ما قاله قللي أو زيري كله فحار. اضحك يا شاويش. لا أحد يأخذ شيئاً من الدنيا. اضحك يا رجل. ساعة الحظ لا تعوض. والنبي اضحك يا شاويش. إلهي يا رب تبقي لواء» أراد الشاويش أن يضحك ولكنه كتم ضحكته. نفخ صدره أكثر ونظر

إلي شريف وقال مستنكرا بتساؤله: «وأنت بسلامتك تقول حقوق الإنسان؟ أتقصد أننا نعاملكم كالحيوانات؟ ما حكاية حموم الإنسان؟ أقصد حقوق الإنسان» ما الذي يمكن أن ترد به يا شريف؟ أليس السكوت خيرا في مثل هذه الحالة؟ هل أخبره؟ وهل سيفهم؟ أليس من الأجدر أن ينتشر التعليم في هذا البلد؟ أكثر من أربعين في المئة من الشعب أمي. أليس هذا مقصودا؟ أمة اقرا لا تقرأ؟ أين حقوق الإنسان؟ الهانم تقول القراءة للجميع بدلا من أن تقول اللبن للجميع. ملايين الأطفال يموتون من سوء التغذية وكل يوم المشاجرات علي طوابير الخبز. حقوق الإنسان؟ أين حقوق الإنسان؟ من يدخل مثلنا للسجون أو المعتقلات لا يرون النور ولا يعرف لهم الجن الأزرق طريقا. يا رب ارحمنا. كيف أفهمه ما معني حقوق الإنسان؟ لقد سحقوا آدميتنا تماما. لقد صرنا كحيوانات. لقد صرنا عبيدا وهم ساداتنا. كيف يمنحون عبيدهم حقوقا؟ قالها عبدالناصر من قبل: ارفع رأسك يا أخي فلقد مضي عهد الاستعباد. قالها أحمد عرابي من قبله: فوالله الذي لا إله إلا هو لن نستعيد بعد اليوم. لقد صرنا الآن عبيدا. عليه العوض. من ذا الذي يستطيع أن يرفع راية العصيان؟ لقد خضع الجميع من أجل لقمة العيش. الله يخرب بيوتكم. شغلتم الناس بلقمة العيش. حصرتم الناس في احتياجاتهم الأساسية. حسبي الله ونعم الوكيل. لاشك أنك لن تفهم يا شاويش. الصمت أفضل. ابتسم منصور العالم وقال له: «أنا آسف. لا مؤاخذه يا شاويش. سماح هذه المرة. اعتبرني مثل ولدك. عيل وغلط. السماح يا شاويش. اتش تو إس أو فور..»

رفع الشاويش صوته عاليا وقال في غضب: «وتشتمني بالانجليزي؟ نهارك أسود. يومك لن يمر»

اقترب منه شكري وقال في رجاء: «إنه لا يشتمك والله. إنه يزن المعادلة الخطأ. المعادلة غير الموزونة في بلدنا. ضاع العلم وبقتلون العلماء. حرام عليك يا مصر. أليس هذا عالما من علمائك؟ أليس هذا أولي بأن تتصدر صوره ولقاءاته كل الجرائد والمجلات ولقاءات التلفزيون بدلا من المغنين والراقصات؟»

نظر الشاويش إلي شكري وقال له: «ماذا تقول يا أستاذ؟ أرجوك

ألا تتكلم في السياسة. هل منصور هذا متعلم؟ طيب أنا ابني متعلم. أخذ الدبلوم منذ تسعة سنوات ولا يعمل. أكل نايم شارب في البيت ولا يعمل. أنا الذي أصرف عليه وعلي أخوته. الحمل ثقل علي جدا «نظر إليه منصور في شفقة وقال له: «والله أنا لم أسخر منك. حال البلد أصابنا بالجنون. لا أحد مستريح. أقولك نكتة؟ طيب. أنا معي خمسة جنيهات. سأطلب شايا لنا نحن الثلاثة علي حسابي. اسمع النكتة أولا» نظر إليه الشاويش بعد أن قال له: «موافق. سأسمع النكتة ولكني سأخذكما إلي حضرة الطابط منير فخري» رد عليه منصور قائلاً: «موافق يا سيدي اسمع النكتة. المهم ألا تغضب مني. أنا اسمي منصور العالم وممكن تسخر مني وتسميني منصور الجاهل ولن أغضب. أنا كنت أهذر معك. اسمع النكتة. مرة كان الرئيس ينام في هدوء. مر عليه مينا فسأله: من أنت فقال أنا الرئيس وأنا أعرفك أنت جدي مينا، فقال له مينا أنا موحد القطرين ونجحت أن أطرد الهكسوس من مصر. وبعد قليل مر به عبدالناصر فقال له أنا أعرفك أنت ناصر، قال له أنا ناصر بنيت مصر ونجحت في طرد الانجليز من مصر، وبعد قليل مر به السادات فقال له الرئيس أنا أعرفك فقال له السادات أنا بطل الحرب والسلام ونجحت في طرد اليهود من مصر. وقف الثلاثة وأشاروا إليه وقالوا في صوت واحد: ومن أنت؟ نحن نعرفك. أنت الرئيس الحالي. فقال لهم. فعلا. عملت المترو والكباري ونجحت في أن أطرد المصريين من مصر»

كاد الشاويش أن يموت ضحكا وقال: «والله لي ثلاث بنات. كل بنت ذهب خطيبها إلي خارج مصر للعمل ولم يعودوا. هاهها» وكأنه انتبه لنفسه فجأة فتظاهر بالجدية قائلاً: «اخرس يا محبوس أنت وهو. أتسخر من الرئيس. مصيبتكما سوداء. ألم أقل لكما ألا تتحدثا في السياسة؟ لا أريد أية مشاكل. مفهوم؟»

لم يبد أن الشاويش قد تأثر أورد قلبه. قال له شريف: «طيب خذ هذه النكتة طالما أنك تتهمنا بأننا نسخر من الرئيس. فلتكن مصيبة بمصيبة. مر مينا بالرئيس في الحلم فقال له: من أنت؟ فرد مينا أنا موحد القطرين، وسأل الرئيس بسرعة ومن أنت فقال أنا الرئيس موحد الأديان، فقال له يسأله: هل أنت إخناتون؟ فقال له لا. قال له مينا:

عرفتك يا حفيدي أنت كفرت الشعب المصري كله فوحدت الأديان»
ضحك منصور وضحك الشاويش من كل قلبه ، ولكنه سرعان
ما عاد إلي رشده وقال : «كفاكما ضحكا. ستبكيان الآن. أنتما لا
تعرفا من هو منير باشا فخري» ود منصور العالم أن يسخر من اسم
الضابط. اقترب من شريف بعد أن ابتعد عن الشاويش وهمس في
أذن شريف قائلا : «سنري من هو منير فقري. ربنا يستر» رد عليه
شريف بنفس الهمس وهو يبتعد عن الشاويش حتي لا يسمعه : «كفانا
هذرا وسخرية يا منصور. نرجو أن تمر أيامنا القادمة علي خير»
قادهما إلي صالة مفروشة بسجاد ذي وبر كثيف. ساروا إلي
آخر الصالة. دخلوا أحد المكاتب. كان الباب مفتوحا. قرأ منصور
اللافتة. قال في خوف : «عقيد شرطة منير فخري». دخلوا الحجره.
كان الضابط يضحك ويقهقه ويعطي ظهره للباب. لم ير أحدا ولم
يشعر بدخول أحد. كان الضابط يتحدث في هاتفه المحمول وكان
منهمكا. قال : «سوسو حبيبتي. يا روح مونمن. منير نور بوجودك.
يا روح قلب مونمن. الليلة يا حبيبتي. جهزي القعدة يا حبيبتي»
لم يجرؤ الشاويش علي الكلام. لم يقطع علي الضابط مكالمته. واصل
الضابط كلامه قائلا : «ولا يهملك يا سوسو يا روح قلب مونمن. منير
تحت أمرك. أموت فيك يا روحي. سكر. غسل يا سوسو. يا حياتي.
طيب انتظري إلي أن أكون معك. طيب. ألف قبلة يا روحي. أنا في
القسم يا حبيبتي. أخدم الوطن كما تخدمين الفن. لن أستطيع أن أكون
في الكباريه الليلة. حبيبتي. تعالي لي في شقة الهرم. أهرب من زوجتي
ومن الأولاد وأكون تحت أمرك يا روحي. ليس معقولا يا حبيبتي؟
أنت صاحبة الكباريه. ولا يهملك. اعتبري القصة منتهية يا روحي.
منير فخري إذا قال صدق وإذا وعد نفذ. اطمئني يا روحي. ماذا
تلبسين يا حبيبة قلبي؟ الله القميص الأبيض؟ الله. ليلتنا بيضا يا قمر.
أحبك يا أبيض يا روحي يا أبيض. طيب ولون ما تحت القميص..»
لم يجد الشاويش بدا من التدخل. كان ينظر للمحبوسين وكأنه يود
أن يصم أذنيهما حتي لا تصل كلمات منير باشا فخري إليهما. كان
منصور وشكري ينظران في هدوء إلي الضابط وهو غائب عن الدنيا في
مكالمته مع سوسو. تغامزا ونظرا للشاويش وكأنهما يقولان له : «أهذا

هو منير فخري؟! ضابط قليل الأدب بصحيح !!»
ضرب الشاويش الأرض بقدمه وقال بصوت مرتفع: «تمام يا افندم»
كان صوته مرتفعا، فانتفض الضابط وألقى بالهاتف من يده. كأنه
أصيب بصوت الشاويش علي حين غرة. اقترب من الشاويش وقال
له في هلع: «ألم أقل لك مرة أيها الحمار ألا تدخل علي بدون
استئذان؟ ألا تراني أعمل. أنا أخدم الوطن يا لوح. اخرج قورا يا
حمار» نظر الشاويش إلي الأرض في خجل وخرج وهو يجبر منصور
وشريف. جري الضابط إلي الهاتف وواصل كلامه: «أسف يا سوسو
يا حبيبة قلبي. سيادة اللواء كان معي حالا. صفي لي ما تلبسين الآن
يا روحي. قلت إن القميص لونه أبيض..»

خرج الشاويش والفرحة تكاد أن تتراقص علي عيني شريف ومنصور
العالم. قال له في صوت واحد وكانهما يشمتان فيه بنظراتهما: «يومنا
لن يمر. مصيبتنا سودا. مضبوط. دعه يخدم الوطن يا سيادة الشاويش.
يا رب نراك أكبر لواء في مصر. إنه يخدم الوطن بطريقته يا شاويش.
هل أنت لوح؟ هل أنت حمار؟»

اتجه له منصور وربت علي كتفه قائلا: «لقد سبك. أنا كنت أهذر
معك وأقول عثمان القللي أو الزيري. لم أسبك. امسحها في يا شاويش»
نظر الشاويش إلي الأرض. إن الضابط في مثل سن ولده، ولقد شتمه
وقال له «يا لوح يا حمار» لطالما جعله يوصل الطلبات إلي بيت
زوجته. كان كالخادم. أراد أن يحكي لشكري. ربت شكري علي ظهره
وقال له: «احك لنا بصراحة يا حضرة الشاويش. نعرف ماذا يفعلون
بكم. يجعلونكم تعملون كالعبيد لهم. مراسلة. ومن فوقهم يستغلونهم
كعبيد وهكذا. من في منصب يستغل من تحته وهكذا. هزلت يا
شاويش. مضبوط. لو كنت منك لأبلغت زوجته بفضائحه. علي وعلي
أعدائي. أنت ليس لوحا ولا حمارا. أنت الشاويش عثمان القللي علي
سن ورمح. هيا عدنا أن تسود عيشة هذا الذي يدعي انه يخدم
الوطن. ما رأيك يا شاويش؟»

أخذ الشاويش يفكر في صمت. اتجه منصور العالم نحوه وقال:
«سامحني يا رجل يا طيب. سامحني يا حضرة الشاويش. أنا مثل
ولدت»

يبدو أن يومهما سيمر. رَأف بهما الشاويش وأعادهما مرة ثانية إلى الحجز. عادا وكأنهما منتصرين. استقبلهما جميع من كان بالحجز بالصفير والتصفيق وغني منصور أبو دومة: «سلمي يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة» وأخذ عوضين الطويل يصفق ويرقص عجيزته والفرح مرتسم علي وجهه الجميع إلا الشيخ مختار شلبي كثيف اللحية والذي حضر للحبس اليوم فقط، نظر إلي الجميع في غضب وتعجب. ورسم العبوس علي وجهه وكأنه يستنكر ما يفعلون ثم واصل قراءة القرآن إلي أن وصل إلي قوله تعالى: «ألا إن نصر الله قريب» وما أن اختتم تلاوته إلا وكان صوت الشاويش عثمان القللي يصيح بهم في هدوء: «الهدوء يا محبوس أنت وهو» لقد كان بالفعل يفكر في خطة. سينفذ ما قاله شريف له بالضبط. سيسود عيشة منير فخري الذي يخدم الوطن بطريقته. قال في سره: «ليلتك سوداء يا منير باشا فخري. ليلتك سودا يا باشا. أنا سأخرب بيتك يا بعيد. هل أنا لوح؟ هل أنا حمار؟ سأريك ماذا سيفعل هذا اللوح وهذا الحمار» وبينما كان يفكر كان صفير المحبوسين وغناؤهم يتعالى في سعادة وفرحة، كانت مكالمة منير باشا فخري تتواصل مع الراقصة الشهيرة والضيفة التلفزيونية اللامعة سوسو عبده.

محاولة لفرض الزواج

وقفت أمينة صبري تحزم أمتعتها. وقف بجوارها ابنها أحمد الذي دخل وراءها ولم تحس به. ابتعد عنها. كانت قافلة أحزانها تسير أمام عينيها. كانت تود لو كان شريف بجوارها الآن. لقد كان لها الغطاء وكان لها السند. ماذا تفعل الآن؟ لقد أضاعته منها. حتي وإن خرج من محبسه، فلن يعود لها أبدا. كيف يعود وهي تفكر حقيقة في إيذائه؟ لمح أحمد دمة حائرة تسقط علي خدها. كانت تجمع ملابسها في عنف وترميها بشدة في الحقيبة. اعتقد أحمد أنها تذكرت زوجها السابق والده شريف شكري، ويبدو أن ذكره لن تغيب عن مخيلتها أبدا. كيف تغيب وهو يذكر أن والده كان يحتضنه ويقبله تارة ثم يحتضن أمه ويقبلها تارة أخرا ويقول لهما بسعادة بالغة: «أنتما كنزي في هذه الحياة ولولا القرية أمك لكننا أسعد أسرة في العالم». تغضب أمه وتقول: «تذكر أنها أمي»، فيقول لها أبي: «أم قويق. أم أربعة وأربعين. لقد أقسمت علي أن تطلقك مني. أتذكرين يا أمينة؟ أيعقل أن تنتهي قصة حبنا بهذه السهولة؟ لقد أقسمت لي أكثر من ألف مرة أيام فترة الخطوبة أنك تحبينني أكثر منها. أتذكرين؟ أرجوك لا تجعلها تدمر أسرتنا وتهدم بيتنا. أنا لا أدري لماذا لا تحبيني؟ ما قدمت لها ولأختيك وزوجيهما إلا كل خير». تذكر أحمد كيف غضبت أمه وقالت له وهي تغلي من الغضب: «لا تنس أنها أمي». رد أبي عليها قائلا: «هي أمك وأنا زوجك. لو انهار بيتنا فتذكرني دوما أنها السبب في هذا. يا أمينة أنا أحبك وأحب أحمد. لنحافظ علي بيتنا من الضياع. أنت تذهبين لها كل يوم. لقد سمحت لك منذ بداية الزواج أن تكوني معها يوما واحدا في الأسبوع. أنا لا أكاد أجدك. أنت دوما مع أمك. أنسيت أن لك بيتا وزوجا وابنا؟ أمينة عودي إلي رشدك. أنا أحذرك» تدفق سيل الذكريات في ذهن أحمد ووالدته. سرح أحمد بخياله وقال في نفسه: «يبدو أن ما كنت تخشاه يا أبي قد حدث ولقد كنت

علي صواب دائما» وسرحت أمينة بخيالها معه وذابت في خيالاتها، فلم تعد تحس واقعا ولا تشعر بحاضر جذبت منه إلي أحضان الماضي. كان الولد بجوار أمه ولكن كان كلاهما يغوص في خيالاته الخاصة. أخذت أمينة تحدث نفسها قائلة: إن عادل أقل من شريف بكثير ولكنها لن تدع لشريف الفرصة. لن تدعه يقول ها هي قد طلبت الطلاق ولم تجد ولن تجد رجلا مثلي. سأتزوجه يا شريف وأنا أعلم أنه أقل منك بكثير. سأفوت عليك تماما هذه الفرصة. لن أدعك تقول ها أنا ذا قد طلقتهَا وها هي مرمية كالكلبة لا يقترب منها أحد. لن أدعك تقول ها هي ذي لم تجد رجلا مثلي.

سأتزوجه. ستظل في السجن يا شريف. أنت الذي ستظل مرميا في السجن كالكلب الأجرب ولن يقترب منك أحد. إن علاقات عادل متشعبة وواسعة. ستلحق لك تهمة ولن تخرج. لا أحد يستطيع أن يغلب امرأة. حواء قد تبدو ضعيفة ولكنها قوية وكيدها عظيم. الله يقول إن كيد الشيطان كان ضعيفا والله يقول أيضا إن كيدكن عظيم. حواء ليست ضعيفة. أنا لست ضعيفة يا شريف. سأريك كيدي. المرأة لا تضعف أبدا حتي وهي في حالة حب. فما بالك لو تحول الحب إلي كراهية؟ سأجعلك تندم. لقد طلقتنني بمجرد أن طلبت الطلاق منك وكأنك كنت تنتظر أن أطلب الطلاق. ظننت أنك تحبني فعلا وستتمسك بي لآخر لحظة، ولكنك خذلتني. بمجرد أن قلت لك أنا لا أستطيع المعيشة معك ولو ثانية واحدة. كان صمتك لدقيقة ثم قلت لي وقتها: وماذا أيضا، قلت لك: طلقني. نظرت إلي عينيك وأنا أرجو ألا تطلقني. ران الصمت عليك ولكن الشيطان دفعني إلي أن أقول لك: لو كنت رجلا طلقني. ليتك ما نطقتهَا يا شريف وليت لساني كان قد خرس أو قطع وقتها. لقد طلقتنني في هدوء وببساطة وتركت لي البيت. هل ستظنني سأركع تحت قدميك لتعيدني؟ هل تظن أنك صنعتني صحفية. دوما ما تظن أنك أفضل مني. يا أخي حتي وإن كنت أفضل مني فهذا هو المفروض وإلا فلماذا تزوجتك؟ عدت لي في اليوم التالي، وأعطيتني عقد الشقة بعد أن تنازلت عنها. لكم كنت كريما معي !! لم أكن أريد الشقة ولم أكن أريد الدنيا وقتها. فقط كنت أريدك أنت. كنت أريد أن تحتضنني وأن تعتذر وأن

تربت علي يدي وأن تحتضني. لم تفعل هذا، وإنما ألقيت إلي بشيك فيه ما تعتقد أنه حقوقي من مؤخر ونفقة وغير هذا من مستحقاتي الزوجية. قلت لي في صرامتك عندما تكون غاضبا: أعتقد أن هذا يكفيك. لا أريد مشاكل ولا محاكم ولا قضاء. خرجت وتركتني أنزف بدل الدموع دماء. وددت لو صرخت. أنت لم تقف بجواري في أزمتي القتالة، ولقد أدركت بعد فوات الأوان أن كل هذا كان من تحت رأس أمي ومن تخطيطها. لم تكن لتدللني يا شريف. لم يكن لديك وقت من أجلي. كل وقتك كان من أجل عملك ونصرة الضعفاء والفقراء والمساكين. كنت تهاجم الفاسدين والمفسدين.

ليتك هاجمت الشيطان الذي بداخلي. ليتك هاجمت سطوة أمي ونفوذها الذي يتزايد علي ليعبدك مني. ليتك قتلت شيطان العناد والغرور بداخلي. أنا لا أعرف لماذا تعاملت مع سكرتيرتك نيفين بهذه الطريقة. أنا أحبك. أنا أكره أية امرأة في الدنيا غيري تنظر إليك. أغار عليك من أية أنثى. أنت لي وحدي وحببي أنا. لن أسمح لعيون أية امرأة أن تسرقك مني أو أن تقتنص لمحبة من عينيك. أنت لي كلك. قالت أمي مرارا وتكرارا سيعود إليك راکعا ورجله جنب أذنه. سيعود من أجل ابنه، ولكنه لم يعد يا أمي. ليس كل الرجال يرضون ما كنت أفعله به وما كنت تخططين من أجله. كان كريما معي يا أمي ومع ذلك أدخلته المحاكم وأخذت حضانة أحمد. لقد كنت أتعمد إذلاله وأمنعه من رؤية ابنه. كنت أعتقد أن هذا كفيلا بإعادته إلي، ولكن ما كان هذا ليزيده إلا نفورا مني وابتعادا عني. ليتني ما تتبعت كلامك وخططك يا أمي.

ها أنا ذا وحيدة بدونه. ها أنا ذا لا أجد رجلا مثله. إن عادل متزوج وسيتزوجني بدون علم زوجته. سأكون زوجة ثانية بعد أن كنت زوجة أولى. سأكون وصيفة بعد أن كنت ملكة متوجة علي عرش بيتها. سأكون زوجة سرية بدلا من أن كنت أسير مع زوجي جهارا نهارا وأخبر به أمام أعين الناس كلهم. ما هذا الذي فعلته بنفسي يا أمي؟ ما الذي فعلته بي؟ إنه سيتزوجني في شقة اشتراها شريف وتركها لي بعد الطلاق. كيف يقبل علي نفسه هذا؟ لقد كان صديقا لشريف. لقد باع صديقه وخانه من أجلي. تري لمن سيبيعي

غدا ومن أجل من ومن أجل ماذا؟ أعلم أنه خسيس ولكنه الرجل الوحيد الذي أمامي. قلت لي يا أمي إن أفضل شيء أن يتم الزواج في شقة شريف وعلي فراشه الذي اشتراه إمعانا في إذلاله. أنا أذل نفسي يا أمي. سيتزوجني عادل هذا بلا مقابل. سيتزوجني بالمجان. سيظن أنني رخيصة لا أساوي شيئا. المقابل الوحيد لزواجي منه أن يظل مسجوناً ومجرماً في نظر المجتمع وفي نظر الناس أجمعين. العقاب الأكبر أن يظل مجرماً في نظر ابنه. سيكرهه ابنه عندما يعلم أنه مجرم ومسجون. سيظل في نظر ابنه خائناً للوطن.

أراد أحمد أيضاً أن يبكي عندما رآها تجمع ملابسها، ولكنه تذكر كلمات والده: «الرجال لا يبكون. أحمد رجل». أريد أن أبكي يا أبي. إنها سترحل عني. ستتركني وتذهب لترتقي في حضن رجل آخر. ستتزوج هذا الرجل الذي لا أطيعه. ستتزوج من هذا الرجل البغيض. سمعتهما يتحدثان عنك وقد رتبا علي أن يغدرا بك. ما الذي أستطيع أن أفعله يا أبي لأمنع عنك هذه المؤامرة؟ يبدو أنني يجب أن أتصرف. سأذهب إلي مقر جريدة أبي. أكيد أنني سألتقي بنيفين. أعتقد أنه أبي هو الذي أرسلها. سأخبرها بكل شيء. سأطلب منها أن أقابل والدي وأن أحدثه. لن أتركك فريسة لأحد يا أبي حتي ولو كانت أمي. إن أمه لازالت غائصة في بحار التفكير واسترجاع الماضي وتقليب صفحاته والتحسر علي أجمل ما فيه وإن كان انتظار ما هو أسوأ في المستقبل من أيام لا تعرف ماذا ستصنع فيها لا يغلب علي تفكيرها أكثر مما يغلب عليها حنينها للماضي والرغبة في العودة إلي أحضان شريف، في حين كان أحمد يفكر في أفق المستقبل. كيف سيعيش بدون أمه، وكيف سيعيش بدون أبيه، لاشك أن هناك شراً يحيق بوالده. إن هناك خططا مأكرة للقضاء عليه أو لإبعاده من حياته. كانت أمه تفكر في الماضي بتحسر ودعة، في حين كان يفكر في المستقبل بأناة وصبر واستعداد للتحمل. أحست أمه بوجوده فمسحت آثار بركان دموعها. نظرت إليه وقالت له في هدوء:

- ستعيش مع جدتك هنا.
- ألا تريدين أن أعيش معك؟

- لقد قررت أن أتزوج.
- وهل قررت أيضا أن تتركيني؟
- لا. سأزورك من وقت إلي آخر.
- وأنا سأزورك كلما سنحت لي الفرصة.
- احتضنته وسحت دموعها مرة ثانية فقال لها في خبثه وشقاوته :
- ماما هل ستحبين زوجك أكثر مني؟
- لا. أبدا. لا يمكن. أنا أحبك أكثر شئ في هذه الدنيا
- ولكنك ستتركيني
- يجب أن أتزوج
- قال أبي إنه لن يتزوج من أجلي
- هو رجل وأنا امرأة
- المرأة تعكف علي أولادها ولا تتزوج من أجلهم يا ماما
- أنت صغير ولا تفهم شيئا يا أحمد
- أنا كبير وأفهم كل شئ يا ماما
- رمت أمه الحقيبة ونكتت ما كانت تفعله. قالت له في عصبية :
- أنا أملك ومن حقي أن أتزوج بعد أن طلقني ابوك
- ولكنني لا أحب عادل
- ستحبه وسيصبح مثل أبيك. أريدك أن تقول له بابا عادل
- لا. لا يمكن أن أناديه بابا عادل. أنا لا أحبه. إنه سيأخذك مني.
- ستحبه مع الأيام
- لا يمكن أن أحبه مثل أبي. ماما هل اتخذت قرارا بالفعل بالزواج منه؟
- نعم. سأتزوجه يا أحمد
- هذا قرارك الأخير
- نعم. هذا قراري الأخير ولن أراجع فيه
- لن ترجعي فيه يا أمي مهما سيكون؟
- لن أراجع أبدا
- وودت لو انشقت الأرض وابتلعته. إن ابنها يتحدث معها
- كرجل لا كطفل. لقد كبر الطفل وصار رجلا يحادثها برزانة عقل
- وإعمال منطق. خرج أحمد من حجرته ومسح دموعا لم ترها أمه.
- خرج بسرعة خشية أن تناديه فيرجع إليها فتري عينيه مليئة
- بالدموع. إنه رجل والرجال لا يبكون. عليك أنت بالبكاء يا أمي.

طرقات علي الباب. مسح أحمد دموعه بسرعة. اتجه نحو الباب. لم يفتح. دخل حجرته. لقد رأي الطارق من العين السحرية بالباب. لن يفتح له. إنه غريمه في حب أمه. فلماذا يفتح له الباب. فلتفتح أمه أو جدته. لن يفتح لهذا الرجل بابا ولا قلبا. من الأفضل له أن يختبئ في مكان ما عساه أن يسمع ما يدور بين أمه وبين هذا الرجل البغيض. ليختبئ خلف الكرسي ولينصت جيدا.

دخل عادل مطاطي الرأس. يبدو عليه القلق والخوف. نظر لحماته المستقبلية وقال لها:

- أرجوك أريد أمينة
- سأناديها لك. خيرا؟ مالي أراك مضطربا؟
- لا شيء. مصيبة جديدة
- أخبرني يا عادل يا بني
- ستعرفين. أرجوك أريد أمينة

قبع أحمد في مكانه. أخفض رأسه فلم يعد ظاهرا. اختبأ خلف كرسي الصالون الكبير. دخلت أمينة وقالت له:

- خيرا يا عادل؟
- حدثت حركة تغيرات كبيرة في أمن الدولة بالأمس
- ومالنا نحن بهذا الموضوع؟
- ومالنا كيف؟ بالأمس أقيّل اللواء حسنين منصور من أمن الدولة
- ومالنا نحن بهذا الموضوع
- ومالنا كيف يا أمينة ركزي معي. حسنين هذا والد زوجتي وكنا نعمل عليه كثيرا في موضوع حبس شريف شكري
- أمن الدولة لا تعدم حيلها. سيجدون ألف طريقة لاتهامه
- أخاف أن تعلم زوجتي بخبر زواجنا فتحول معيشتي إلي جحيم
- ماذا تقصد؟
- لا أقصد شيئا، ولكنهم يعلمون حتي دبة النملة في أمن الدولة
- أتعني أننا لن نتزوج يا عادل؟
- لا أقصد، ولكن...
- ولكن ماذا يا بني آدم.
- أقصد...
- رد يا بني آدم. ماذا تقصد؟

- أقصد أننا سنتزوج ، ولكن...
- ولكن ماذا يا عادل
- أتمني أن يكون زواجنا سرا
- نظرت إليه في غضب وبصقت عليه وقالت :
- اخرج من بيتي يا وقح. اخرج من بيتي يا حيوان
- أمينة أنا أحبك
- أحبك برص يا وقح. اخرج من بيتي. أتريد أن تتزوجني سرا يا
- بقية رجل. أنا أمينة صبري أتزوج سرا كالسارقة. إياك أن تريني
- وجهك هنا ثانية
- ضربته ببديها ورجليها وأخرجته. حاول أن يدافع عن نفسه. أنت
- أمها لما سمعت بالضجة وقالت :
- لماذا تتعاركان؟ بالهدوء مع عريسك يا أمينة
- توجهت لأمها في غضب وقالت :
- يريدنا أن نتزوج في السر وكأنا لسان.
- بهتت أمها. كان أحمد سعيدا بما يحدث. إنه يستمع إلي كل
- شئ. تمنيت أمينة لو كانت أمها قد هدأت خلافاتها مع شريف
- بهذه الطريقة ، لكنها كانت دائما تهاجم شريف إن كان علي حق
- أو كان علي باطل. أنت التي قوضت دعائم بيتي يا أمي وكنت
- أنساق وراءك كالمجنونة. أمسك عادل بيد حماته وقال لها :
- أخشي من أمن الدولة يا ماما وسنعلن زواجنا بعد هذا
- يا بني كلامك غير معقول
- أخشي من زوجتي. والدها لواء كبير في أمن الدولة
- لا يا بني. بنات الناس ليست لعبة
- ماذا أفعل؟
- دخلت أمها. بدا علي عادل أنه يستعد للتحويل من الدفاع إلي
- الهجوم. وقف في عزة مصطنعة وقال لها :
- سجلت كل ما دار بيني وبينك. أنت التي كنت تريدين أن يحبس
- زوجك. اسمعي يا أمينة. سنتزوج سرا ورغما عنك.
- أنت إنسان وقح شرير
- وأنت يا أمينة لست ملاكا طاهرا. لطالما كنت تريدين الانتقام من
- شريف. أعدك أن أساعدك ، ولكنني لا أستطيع أن أغامر بنفسي. إن

- علمت زوجتي فقد تذهب بي وراء الشمس
- أنت أسوأ إنسان رأيته في الكون
- وأنت أرق أمينة في حياتي
- أنا أكرهك
- وأنا أحبك
- اخرج من أمامي حالا وإلا قتلتك
- سنتزوج يا أمينة. التسجيلات ستكون لدي أمن الدولة إذا لم يتم الزواج
- لن يتم الزواج يا حقير
- سيتم رغما عنك وسرا
- ابتعد من أمامها واتجه نحو الباب وهو يرتجف منها خوفا. قال لها في هدوء مصطنع:
- سأنتظر منك تليفونا غدا. سيتم الزواج وفي السر
- اتجهت أمينة نحو الباب وأغلقتة بشدة وانصرف عادل مرعوبا بينما كان يفكر أحمد فيما يمكن أن يفعله بعدما عرف كل شيء. لم يخرج من مكانه الذي اختبأ فيه إلا بعد أن رأى أمه تغرق في دموعها من جديد، ولكنه قرر ألا يذهب إلي المدرسة في الغد. سيكون عند الرسول الذي أرسله له أبوه. سيكون عند نيفين. عليها مساعدته. سيخبرها بكل شيء.

العاشق يصل في التوقيت الخطأ

ما أن فرغ المصلون من صلاة العشاء إلا وانتحي الشاويش عشاوي ركنًا من المسجد وانزوي فيه وكأنه يختفي من أخيه ومن الدنيا كلها. يريد أن يهرب من الدنيا ومن مواجهة ابنته. لا يريد أن يكون قاتلا. هرع لجوار ربه. أخذ يناجيه ويدعوه خوفا وطمعا. ما الذي يمكنه أن يفعله؟ لقد صليت العشاء يا عشاوي كما كنت تتمني. لقد أرف وقتك وحان أجلك أيتها الفاجرة. لن تأخذني بك شفقة أو رحمة. ليتني ما تزوجت أمك. ليتني قتلتها قبل أن أعرف أنها مجرمة خاطئة. لقد اكتفيت بطلاقها ورميتها في الشوارع وزعمت لك أنها ماتت وهي تلدك. أياكون قد حان أجل ابنته؟ يجب عليه أن يخرج علي الأقل ليتظاهر بأنه يطمئن عليها. كيف يمكن له أن يتظاهر أنه يحب ابنته أو أنه مشفق عليها مما هي فيه؟ إنها أبغض أهل الأرض إلي قلبه جميعا. أياكون أن تكون هي قد خدعته طيلة الفترة الماضية؟ كيف تظاهرت أنها ابنة محبة وهي تضع رأسه في الطين وتمرغ كرامته؟ أهنت عليك تماما إلي هذه الدرجة يا بنتي؟ من أودي بك إلي هذه النهاية؟ ومن أدراك أنها ابنتك؟ لا تدع الظنون تلعب بك. تشابكت ظلال الماضي الحزينة في تفكيره مع ظلال الحاضر المؤلم الذي يعيشه الآن.

إن أمها لم تسلك هذا الطريق إلا بعد أن طلقته. قالت لك يا عشاوي وهي تمضغ لبانتها وتنتف حواجبها بعد أن لطخت شفقتها بأصبع الروح فاقع اللون: «ستظل فقيرا. ستعيش فقيرا وتموت فقيرا يا عشاوي. أنا أريد أن أحيأ. أريد أن أخرج وأري الدنيا. أنت لا تنظر إلي زملائك في الشرطة والذين بنوا البيوت والعمارات وامتلكوا أفخم السيارات والمحلات وعاشوا في نعيم أرباح التجارة، لا تقل لي هذا من حرام. هكذا الدنيا. صار الحرام فيها هو السائد. الحلال لا يطعمك إلا الجوع والهم والغم والنكد. أنا أحب الحرام يا سيدي. سأتركك وأترك لك الحلال. ولا أريد ابنتك. خذها وطلقني يا أخي. لا أستطيع

العيش معك. الطلاق حلال. أعلم أنك ستقول إنه أبغض الحلال إلي الله. إن حالتك ميؤوس منها تماما. أنت ليس لك طموح. عشناوي. أنا جميلة وشابة ومرغوبة. لن أدفن نفسي في مقابر الفقر معك. أنت يا حبيبي فلقت رأسي بالحلال. لم يعد الحلال يطعم سوي العيش الحاف. طلقني يا أخي. أقبل يديك حتي تطلقني. لن ينصلح حالك. أنت تجري وراء الفقر. لن أنتظر الملاليم التي تحصل عليها آخر كل شهر. عشناوي. أنت من طريق وأنا من طريق آخر. هذا آخر ما لدي. دعني أعيش بطريقتي. دعني أنام علي الجنب الذي يريحني. سادعك في الحلال يا سيدي ودعني أفعل ما أريد. أنت لا تعجبك طريقة تفكيري، ولكن هناك الكثير من الرجال تعجبهم طريقة تفكيري». كانت في الأشهر الأخيرة من حملها. كان الاتفاق علي أن يتم الطلاق بعد أن تلد مباشرة. أكرمتها يا عشناوي وانتظرت عليها واقتضت لتعطيها، ولكنها كانت تصر علي أنك لا تصلح لها رجلا. لم تتغير ولم يكن لها أن تتغير. يبدو أن رجلا غيرك ملا رأسها، ويبدو أنها لا تصلح لك أبدا ولن تصلح لك.

أذكرك أنك أتيت بها من أقصى الريف حتي تضمن ألا تكون لها تطلعات بنات المدينة؟ لقد صارت أسوأ حالا من بنات المدينة؟ أتيت بها قطعة مغمضة العينين فإذا بها تتحول إلي نمرة شرسة جشعة للمال. طلقتهها وظننت أنك نجوت من برائث تفكيرها. كان أقصى أمل لها أن تتزوجك وتذهب إلي القاهرة لتعيش فيها بعيدا عن جحيم زوجة أبيها. كانت تتفاخر بين صاحباتها أنها تزوجت من عشناوي الذي يعمل في الحكومة ويتقاضى راتبا آخر كل شهر. كانت تتفاخر بالذهب الذي أحضره له في خطبتها وبالمالبس التي كان يحضرها لها كلما جاء لزيارتها في فترة الخطوبة وما بعدها. كنت أملا لها، ولكنها كانت تطمع فيما هو أكثر.

أكانت تحبك في أول أيام علاقتها بك يا عشناوي؟ لا. لم تحبني قط، كانت تعتقد أنك القشة التي يمكن أن تتعلق بك لتنجو من زوجة أبيها وتهرب من الناموس والبعوض وحمل الماء من الحنفية إلي الدار، كانت تود أن تهرب من خدمة أولاد زوجة أبيها ومن غسيل المواعين في التربة. كنت أنت سبيلها الوحيد للتخلص من خدمة البهائم في

الزريبة التي يمتلكها أبوها ويربي فيها المواشي مع أهل زوجته الجديدة بعد وفاة أمها. كنت سلماً لها للهروب من القرية، فما أن امتطكت وحققت جميع مآربها إلا وأرادت التخلص منك. فليكن لها ما تريد. أنت الآن في موقف مشابه مع ابنتك. أنت تعلم أنها ابنتك. لقد رببتها علي أن تخاف الله وأن تحذر الحرام. ومن أدراك يا عشماوي. الله أعلم ابنة من هي. من ستر الله علينا يوم القيامة أننا ننادي بأسماء أمهاتنا. يا فلان يا ابن فلانة ويا فلانة يا بنت فلانة. يا رب. أنت أعلم بحالي. ماذا يمكن أن أفعل. التفكير سيشلني ويهد عقلي وجسدي. أود لو أستطيع أن أصرخ، ولكن ماذا يجدي الصراخ وبماذا ينفع البكاء؟ إنها ابنتي ولكن هذا فعل أمها. ليتني قتلت أمها. ليتني لا. لقد فعلت ما كان يجب أن أفعله. أليس من حق أية امرأة أن تطلب الطلاق؟ ولكن أليس من حق أي رجل ألا يطلق زوجته؟ لقد سمع إمام المسجد أكثر من مرة. كان يتحدث عن عقاب الزانية والزاني. يطبق هو بنفسه الحد؟ وما أدراك أنها زنت؟ أين اليهود؟ أتحكم بما لم تشاهده عيناك يا عشماوي؟ طيب ولماذا كانت في المهندسين؟

اقترب من إمام المسجد. سلم عليه. أراد أن ينفرد به ولكن هيهات. أتاه أخوه زين. أمسك بيده وود أن يأخذه خارج المسجد. عليهما أن يخرجاً للاطمئنان علي ابنته مني. قال له عشماوي بصوت آمر: اذهب أنت واطمئن علي مني.

كاد زين أن يتعجب ولكن عشماوي قال له بحسم:

— اسمع كلامي. أنا أخوك الأكبر.

بدا أن زين كاد أن ينصاع لرغبة أخيه، ولكنه قال بما يشبه الرجاء:

— كل شيء يمكن أن يؤجل. ابنتك تحتاجك.

كاد عشماوي أن ينفجر فصاح بصوت عال تعجب له جميع المصلين ونظروا إليه وكأنهم يعاتبونه علي رفع صوته في المسجد. لم يكن أحد يعرف بالنيران التي تشتعل داخله. إنه يود أن يزيح الدنيا كلها من أمام عينيه. لتحترق الحياة كلها والدنيا بأسرها. إن نيران الغضب تكاد أن تعميه. لم يعد يسمع سوي نداء غضبه ولم يعد يود الاستجابة سوي لأنين انتقامه. إنه أمام لحظة مصيره. إما أن تقتلها وتستريح

وإما أن تسكت وتكتم في نفسك فتموت غضبا وقهرا. صاح وقال في لهجة حاسمة: «لو سمحت يا شيخنا. أريدك علي انفراد».

كأنه يريد أن يحصل علي فتوي من الإمام ليقتل ابنته. يريد أن يأذن له بقتل ابنته. أليس من حقه أن يسأل الشيخ في أمر شخصي. إن من حق أي إنسان أن يستفتي الإمام. اقترب منه أحد المصلين وقال له: «اتق الله يا شاويش عشاوي. لا ترفع صوتك بالمسجد. النبي عليه الصلاة والسلام يقول إياكم وهيشات الأسواق. كان ينهي عن رفع الأصوات في المساجد»

حاول أن يكظم غيظه فلم يستطع. نظر إلي الرجل بعينيه وكأنه يود أن يقتله. أمسك عشاوي بيد أخيه وأشار إليه أن يخرج من المسجد وأن يذهب ليطمئن علي ابنته مني. وهمس في أذنه: «أرجوك دعني. أريد الشيخ في أمر مهم. أريده في مسألة حياة أو موت». تبا لهذا الرجل الذي ينهاه عن رفع صوته. لا يحس بالنار إلا من يمسك بها، ولا يشعر بتبعات المصائب إلا من يكابدها. إنها ابنته يا قوم. إن حياتها مرهونة بحديثه مع الإمام. ماذا لو صرخ وأخرج كل النيران التي بداخله. ستحرق هذه النيران أكباد الجميع. لم يعد فيه ذرة واحدة من ذرات العقل. يبدو أنه كاد أن يفقد هدوءه تماما.

خرج أخوه من المسجد مضطرا واتجه نحو ابنة أخيه. سكت الرجل الذي كان ينهاه عن رفع صوته. أخذ بيد الشيخ وقال له وجسده يرتعش من الغضب وكلماته تضطرب في صدره فيظهر اضطرابه في اتساع حدقتي عينيه:

— أرجوك يا فضيلة الشيخ.

— اتفضل يا عم عشاوي

— ما حكم الزانية في الإسلام؟

— الحكم معروف في سورة النور يا حاج.

— أرجوك ما هو؟

— لو الزانية متزوجة ترجم حتي الموت وتسمي محصنة، أما إذا كانت غير متزوجة فتجلد مئة جلدة، ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله. ولا ينفذ الحد إلا بعد أن يتم التأكد من وقوع الجريمة وذلك بشهادة أربعة رجال وبعدها يتم تنفيذ الحد وينفذه الحاكم.

- أربعة شهداء؟ معقول؟ شئ صعب جدا.
- قل مستحيل
- لماذا؟
- لأن الأربعة شهود يجب أن يشهدوا أنهم رأوا الجريمة. ورأوا الرجل والمرأة وهما ملتصقان وهو فوقها. أنا أسف ولكن لا حياء في الدين. متداخلة أعضاؤهما كالمكحل في المبردة.
- هذا مستحيل
- طبعاً مستحيل. لو مرت بين الرجل والمرأة شعرة وفصلت بينهما لن يقام عليهما الحد. الأصل هنا التشديد علي تنفيذ الحد.
- هذا شرع الله. يعني الإسلام يخوف من هذه الجريمة. ويقول الله تعالى: تلك حدود الله فلا تعتدوها.
- يا الله !!
- طبعاً يا حاج ع شماوي.
- ألا توجد وسيلة أخرى لتطبيق الحد غير إثبات الجريمة عن طريق الشهود؟
- الاعتراف بالجريمة يا حاج ع شماوي سبب لتنفيذ الحد كما ورد عن النبي صلي الله عليه وسلم
- وهل تطبيق الحد يمكن أن يقوم به الأب أو الزوج؟
- لا. الحاكم يقوم به.
- وهل الحاكم متفرغ لهذه الأمور؟
- شاويش ع شماوي. أنا لا أتكلم في السياسة. سألتني وأجبتك. أنت الحكومة يا باشا. نحن أناس بسطاء نمشي بجوار الحائط.
- رن هاتف الشيخ. رد مسرعاً. اعتذر للشاويش ع شماوي بأنه يجب أن يذهب فوراً لأن زوجته مريضة. رجع ع شماوي لنفسه. توجه إلي الله ودعاه. هذا يعني أنه يجب أن يكون هناك أربعة شهداء. طيب ومن أين يأتي بالشهداء. مخبر واحد قال له إن المنطقة بها بعض الشقق الموبوءة. يمكنه أن يضغط عليها حتي تعترف. حتي وإن اعترفت لن يمكنه أن يقيم الحد عليها بنفسه. لقد تعقدت الأمور أكثر يا ع شماوي. علي كل مني مريضة. سأنتظر إلي أن أتحدث معها. سأضغط عليها وستعترف.
- ولماذا تظلمها يا ع شماوي؟ ألا يمكن أن تكون قد ذهبت لزيارة زميلة أو للمذاكرة معها. إن مني عاقلة ولا يمكنها أن تكون بهذه الصورة

البشعة التي أتخيلها. أخشي أن تكون كأمها. قد تكون ورثتها. مرة كلمتني عن الجينات الوراثية التي تنتقل بالوراثة من الآباء إلي الأبناء. مرة كلمتني وهي تذاكر عن أبناء يصيرون مجرمين بالوراثة حتي وإن كان آبؤهم بعيدين عنهم.

لا. إن ابنتي متعلمة ومثقفة. لا يمكن أن تكون هكذا. لقد شطح خيالي. تساءل في نفسه قائلاً: ولكن لا يمكن أن يوجد دخان بدون نار. لقد سرت وراءها خميسين فلم تكن تذهب إلي المهندسين، ولكن لماذا ذهبت اليوم؟ سأصلي وأطلب منك يا رب المعونة. رباه. أعني. تحسس السكين بيده. لا زالت آثار الجرح بيده تؤلمه. يا رب أعني علي ما أهمني. البنية الوحيدة التي خرجت بها من الدنيا. أشهدك يا رب أنني أخافك وأتقيك. اللهم إني أنذر إليك ولوجهك الكريم أن أترك عملي في الشرطة إن كانت بنتي بريئة مما أظن. لم أكل حراماً ولم أطعمها حراماً فكيف تنجرف إلي الحرام؟

بللت الدموع عينيه. هدأت نفسه قليلاً. قرأ التشهد الأخير. سلم عن يمينه وعن شماله فوجد مبروك ينتظره. خفض مبروك رأسه وكاد أن يبكي. تري ما الذي حدث لك يا مني؟ ابنتي حبيبتي. قد أكون وأنا في غمرة غضبي ظلمتك. انحدرت دمعتان من عيني مبروك. لم ينتظر إلي أن يتحدث. نهض بسرعة وخرج من المسجد حافياً. لم يرد أن يضيع ولو دقيقة واحدة. أنا قادم إليك يا مني. سامحيني يا حبيبتي. أنا متأكد أنني ظلمتك. أمسك مبروك حذاء عمه بيده، سيلبسه الحذاء في أي مكان. ماذا حدث لك يا عمي؟ أزمة واستمر. ستتحسن حالة مني. إن شاء الله ستمر الأمور كلها علي خير.

سامية تبكي وتضحك، ملاً صواتها ونواحها المكان. أتت سيارة الإسعاف تنوح بصفارتها البغيضة المزعجة، سارت السيارة تشق طريقها وسط زحام الناس الذين تجمعوا. أصرت سامية علي ركوب السيارة معها والذهاب معها إلي المستشفى للاطمئنان عليها. بدا الحزن علي وجه زين ومبروك وجميع الحاضرين.

لم يستطع ع شماوي الوقوف. لم تحمله قدماه. سقط علي الأرض. كان يسقط واتهاماته الباطلة لابنته تنهوي معه وهو يقع. لقد أسأت الظن بها. أكننت تحكم عليها بلا أدلة؟ أكننت ستحاكمها بلا دفاع؟ خيبة الله عليك يا ع شماوي. أكننت تريد أن تكون القاضي والجلاد

معا؟ لم يعد يشعر بنفسه، ولم يعد يحس بجسده إلا وهو ينتفض. كاد أن يصرخ ولكنه كتم صرخاته داخله. يقول في ذاته: سامحيني يا مني. أرجوك أن تسامحي والدك الذي خرف عقله وضعف تفكيره. لم يعد حتي يشعر بيد مبروك التي تدلك يديه. لقد غاب عن الوعي تماما. رحماك يا رب. أنت اللطيف الخبير. اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكنني أسألك اللطف فيه.

كان الجو بالشارع كله يوحي بالحزن. كاد الصمت أن يطبق علي المكان تماما. خلت المحلات من الأصوات اللهم إلا من أصوات مقرئي القرآن الكريم من المسجلات أو من محطة إذاعه القرآن الكريم. ومن للناس سوي الله في أوقات الأزمات؟ من يجيرهم ويصبرهم؟ ولحسن الحظ تصادف في هذا الوقت رجوع ممدوح ابن الحاج زين من عمله. سأل مبروك عما حدث. كان يمني نفسه بوقت الراحة. لا راحة. أخذ منصور عمه ومبروك وانطلقوا إلي المستشفى في زهول. إن مبروك يصف لأخيه حالة مني قائلا: «إنها وقعت بلا حراك، ولم تعد ترد علي أحد». وبعد أقل من نصف الساعة جاءت سيارة تنطلق منها نغمات الموسيقى. وقفت السيارة أمام محل المعلم زين الجزار. خرج له أحد صبية المعلم من المحل واستغفر الله العظيم. نظر إليه فعرفه. يبدو أن العلة الفاتنة ستتكرر. هرع محب إلي السيارة وأغلقها فورا. نظرت إليه نوال ابنة خالته وتعجبت. أيعقل أن تفقد أملها في حب عمرها؟ ستفقد بلا شك. إنه متيم بمنني وهي متيمة به، ولكنها ليست رجلا لتتخذ القرار. نظرت إليه وكأنها تراه لآخر مرة قبل أن ينسحب من حياتها تدريجيا إلي حبيبته التي قد تخطب له اليوم. أسكت صوت أم كلثوم. نزل خاله وسلم علي صبي المعلم زين وأخبره بما حدث. دخل خاله السيارة ثانية. يجب أن تتغير وجهتهم جميعا. إن العروس التي أتوا لطلب يدها في المستشفى. فليذهبوا جميعا إلي المستشفى. نظرت الأم إلي ابنها محب وهي تشكو في سرها من سوء حظ ابنها الوحيد. هكذا أنتم يا مواليد برج العذراء. لكم أنتم قليلي الحظ. قاد محب السيارة ونظرات نوال تكاد أن تفضحها بحب كان له أن يحتضر لولا ذهاب مني إلي المستشفى. لا زال لك بعض الأمل في أيام تسعدين فيها بمحب بلا خطيبة. رmqتتهما الأم بتعجب وبتفكير عميق. هكذا الدنيا. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

موعد نيفين مع السعادة يقترب

لم تكن نيفين تعلم أن لها في الغد موعداً مع السعادة. لو كانت تدري لمآلات الدنيا صياحا وصخباً وفرحاً ورقصاً وسعادة. لقد أصبحت السعادة حلماً بعيد المنال بالنسبة لها بعد أن ربطت كل أحلامها وآمالها بشريف.

كان أملها في شريف يتضاءل يوماً ويكبر يوماً. كان كموج البحر في حياتها. تارة تشعر أنه قريب منها ويكاد أن يكون معها وفي متناول يديها وأقرب إليها من نفسها، وتارة تشعر أنه بعيد عنها بعد المشرق عن المغرب وأنه لا أمل لها في أن تكون معه إلى الأبد إلا إذا تنفس السمك هواءنا الذي نتنفسه أو عاش معنا علي وجه الأرض لا في الماء. كانت تراه نجماً أضاء حياتها وأشرق بقلبها، كانت تظن أنه أمل غير حياتها. عاشت حياتها بين أملها في قربها وأملها في بعده. لقد تغيرت حياتها كلها بسببه. صارت تدرس من أجله بعد أن كانت قد أقسمت ألا تفتح كتاباً بعد أن حصلت علي الدبلوم. صارت تعيش به وله، أصبحت تأكل من أجله وتلبس من أجله وتعمل من أجله. لقد صار حاضرها ومستقبلها. صار يومها وغدها. تكون في حضرته ما يزيد علي سبع ساعات يومياً وتعيش بقية ساعات اليوم بعيدة عنه علي أمل أن تقترب منه في الغد في ساعاتها التي تقضيها بجواره وتعدّها أسعد ساعات عمرها.

كان صوت أم كلثوم يملأ حجرتها. كانت تهيم في كلماتها التي تتغني بها. شعرت أن هذه الكلمات تعبر عنها. كانت تتمني أن تقولها له ولكن كيف؟ إنه يحب أم كلثوم مثلها تماماً. يبدو أنه سمع هذه الكلمات. إن هذه الكلمات قد تعبر عن جزء يسير مما تحس به تجاه شريف. أين أنت يا شريف؟ هكذا كانت تتساءل وتجلس بالساعات بمفردها وتخطبه علي الرغم من أنها تعرف أنه لن يسمعها ولن يرد عليها. فلتتخيل. ما أجمل أن نتخيل أننا مع من نحب. نكلمه ولا يكلمنا ولكننا نتخيل ما الذي يمكن أن يقوله. أليست نار الخيال والأحلام المليئة بالآمال أفضل بكثير من جنة الواقع البائسة

اليائسة التي تحفل بالآلام والمرارة؟ سأتخيلك بجواري. أنظر إليك وأكلمك. أري طيفك وأناجيك.

طالما دخل عليها أبوها ووجدوها ساكنة ساهية تسرح في آفاق الخيال وتحلق في عوالم الحب التي نهفو جميعا إليها. كانت لا تراه. وإذا رآته تشاغلته بأنها تفكر في أمور العمل، وكانت أحيانا تتظاهر بأنها تطالع أحد كتب الأستاذ شريف علي الرغم من أنها حفظتها كلها حرفا حرفا وجملة جملة.

رددت مع ام كلثوم: «ازاي ازاى ازاى أوصفك يا حبيبي ازاى. قبل ما احبك كنت ازاى يا حبيبي. كنت ولا امبارح فاكراه ولا عندي بكرة استناه ولا حتي يومي عايشاه يا حبيبي. خدتنى بالحب فى لمحة عين. ورتنى حلاوة الأيام فىن حلاوة الأيام فىن يا حبيبي» تاهت روحها في كلمات الأغنية. أخذت تتذوق حلاوة الكلمات وتحس بطعمها الحلو في قلبها الذي ينبض حبا ويهيم شوقا إلى شريف. لقد امتزجت بكلمات الأغنية وضاعت فيها. أه لو تشعر بما أعانيه في قربك وفي بعدك يا شريف؟ ليتني اموت واستطيع أن أقول لك كلمتين فقط واموت بعدها: «إنني أحبك». لا يكفي أن أقول له كلمة واحدة: «أحبك». كيف تتاح لي الفرصة والأزمات حولك والمصاعب تفترسك من هنا ومن هناك.

آه يا أم كلثوم. فعلا العمر الذي كان صحراء قبل أن أعرفك يا أستاذ شريف أصبح كالبيستان والليل الذي كنت أشعر أنني في غربة فيه ملأه حبك فأصبحت في أمان. حبيبي أنت يا شريف. إنني أحبك أكثر من الحياة كلها. ومن لي في الدنيا بحبيب سواه؟ رجل يملأ العين والقلب. إنه يتربع علي عرش قلبي منذ أن عرفته. متواضعا كان ويسير في ركاب الحق والخير والعدل دوما. لقد أنصفها منذ أول يوم اشتبكت فيه زوجته معها. أول يوم تعمل فيه.

كانت تتعجب كيف لرجل رقيق أن يعيش مع هذه الإنسانية المتوحشة؟ كيف يمكن لإنسان بهذا التواضع أن يعيش مع امرأة متسلطة مغرورة مثل أمينة زوجته؟ لقد أنصفها قبل أن تحبه، فهل ينصفها بعد ان صارت تذوب في حبه وتضيع في هواه؟

كانت تستمتع لشكواه منها. حكى لها أن زوجته أمينة تؤمن بالسحر علي الرغم من أنها متعلمة. لقد كانت تغار علي زوجها من

كل النساء. يبدو أن تعاملها معها بهذه الطريقة أظهر أنها تغار علي زوجها. لقد قالت له أمينة أمامها إن السكرتيرة عملت لك سحراً. إنك تنصفها علي. لو كنت منك يا شريف لطردها من العمل. أنصفها علي زوجتك. ماذا فعلت لك. أهي أجمل مني؟ ماذا حدث لك يا شريف؟ أنا زوجتك وأم ولدك.

كان يشتكي لي منها. كنت أود أن أحتضنه لأكون له ملجأ وملاذاً، لا من زوجته ومشاكلها فحسب، بل من الدنيا كلها. إن هذا الكاتب العبقرى الرائع له قلب طفل صغير. له قلب يحس بالناس ويتألم لآلامهم. كان يعطيها الكثير من أمواله ويطلب منها أن توزعها علي الفقراء والمساكين في حيها. كان يعطي الكثير من النقود للسعاة والفقراء في الجريدة. آه لو كان في كل مؤسسة في مصر مثلك لتغير حال الناس. كان يفعل هذا في الخفاء خشية من زوجته التي تري أن هذا تبذير وأن ابنه وزوجته أولي بهذا المال.

حكى لي أن زوجته بنت أمها وتحكي لها كل شئ. ليس بينها وبين أمها من سر. كثيراً ما حذرها من هذا وطلب منها أن تدع مساحة من الخصوصية لها ولزوجها لا يعلم أحد عنها أي شئ، ولكنها كانت تصر علي أن أمها تحبها وأنها أقرب إليها من زوجها. كانت تؤرخ لحياة حبها له بمرحلتين: المرحلة الأولى مرحلة اليأس والمرحلة الثانية مرحلة الأمل.

في البداية كانت تراه أبعد إليها من نجوم السماء. كيف له أن ينظر إليها أو إلي مثلها وهو الكاتب والصحفي الرائع. متزوج وله ولد من زوجته الصحفية التي يعلم الجميع أنها هو الذي صنعها ودفع بها إلي أن تخوض عالم صاحبة الجلالة. ومن هي حتي ينظر إليها. إنها مجرد سكرتيرة. هكذا كانت تراه. علي الرغم من طبيئته وهدوئه، كان ينظر إليها في ود وعطف. كانت لا تفهم معني نظراته. أليس رئيسها؟ كانت نظراته له تمتلئ بالرفق وبالمودة، أما نظراتها له فكانت لا تستطيع في البداية أن تحددها. أوهمت نفسها أنها تحب العمل معه وتستريح إليه. خدعت نفسها بأن هذا مكان عملها، وأنها يجب أن تتفاني في عملها، ولكن مع الأيام أدركت أن هناك أموراً أخرى بدأت تطرأ في علاقتها به. في هذه المرحلة لم تكن لتسمح لمشاعرها أن تطغي علي سطح علاقتها به. تود أن تكون جادة صارمة.

منجزة لعملها علي الوجه الأكمل. فلتخضع نفسها ولتختبئ خلف الأفتنة التي يمكن أن ترتديها من أجل أن تخفي حبها المستحيل. فلتكتم في صدرها هذه المشاعر ولتتد نار الحب التي بدأت تتحرك في قلبها، ولكنها لم تستطع أن تطفئ هذه النيران التي ولدت رغما عنها.

إنها يمكنها أن تخضع كل الناس ولكنها لا يمكنها أن تخضع نفسها. بدأ يتحدث معها عن مشكلات زوجته. بدأ يستشيرها في بعض أمور الحياة. بدأت تحاول أن تقترب منه. عرفت تاريخ ميلاده وأعطته هدية فرح بها جدا. ديوان شعر لنزار قباني. شكرها. إنها هديته المتميزة، ولقد وضعها في مكان بارز بمكتبته. سألتها: «كيف عرفت أنني من عشاق نزار قباني؟»

نظرت إليه وسكتت. سألتها ثانية فقالت له: «أنت كاتب رقيق الشاعر وأديب بارع هادئ الطباع، ولقد خمنت أنك تحبه» ابتسم لها وقال: «لقد صدق تخمينك يا نيفين. أنا أعشقه وأهيم بأشعاره. أحب له رسالة من تحت الماء وقراءة الفنجان. غني عبدالحليم له. شكرا لك يا نيفين. هذه أرق وأجمل هدية أتلها».

علمت أنه يعشق أم كلثوم فعشقتها وبدأت تحفظ كل أغانيها وتعيش في معانيها. بدأت تشعر أنها يمكن أن تحبه وتعلن هذا لنفسها، فانتقلت من مرحلة اليأس إلي مرحلة الأمل.

كانت تعاني في كلتا المرحلتين، ولكن الأمل يبعث في الحياة المتعة ويمنح السعادة. أحيانا تشعر أن مرحلة اليأس في حبها كانت أفضل. كان بإمكانها أن تتحرر من أسر حبها وقيود عشقها وأغلال مشاعرها. كان بإمكانها أن تعلن أن هذا الحب ميت ولد من طرف واحد ومصيره إلي مقبرة اليأس التي بنتها لحبها في أول مرحلة من مراحل حبها، وعلى الرغم من ذلك نمت مرحلة اليأس وترعرعت داخلها فأنجبت أجمل مرحلة في حياتها، مرحلة الأمل في الحبيب. صحيح أن هذا الأمل سيجعلها أمة تسير في جنازة اليأس التي قررت دفنها غير آسفة عليها. ستبني من أمها في هذا الحب صروحا شاهقة وأبنية عالية تغذيها مشاعر الحب وترويه الأحلام التي ستبنيها في رحاب بستان شريف.

ذات مرة دخلت عليه مكتئبة وقالت:

- أستاذ شريف معذرة
- تفضلي يا نيفين
- هل تسمح لي أن أتحدث معك في أمر مهم؟
- تفضلي يا أستاذة نيفين
- الأمر لا يتعلق بالعمل
- لا يهكم. لدي وقت. تفضلي. تحت أمرك. هل العمل فقط هو الذي بيننا؟ أهلا بك في أي وقت.
- بداية مبشرة يا أستاذ شريف. لكم أتمني أن أعترف لك بحبي لأستريح وليستريح قلبي. إن الاعتراف بالحب يحررنا من أسر خوفنا وقلقنا. إن اعترافنا بالحب قد يضيع الحب. سأنتظر. سأحاول أن أقرب منك يا أستاذ شريف. أتمني أن تفهم أنني أحبك. ألا تلاحظ علي علامات الحب؟ يبدو أن عيناى لا تجيدان الإفصاح عن مكنونات قلبي. سأخرسك أيها القلب. سأحادثه عن أنني قد أضيع منه، ولكن هل سيكثر لما أقول؟ هل سيهتم بقضيتي؟ سأجرب. قلت له في صراحة:
- والذي يلح علي كالعادة في موضوع الزواج
- مرة ثانية. لقد تحدثت معه وحاولت أن أقنعه ألا يجبرك علي الزواج
- إنه مصمم في هذه المرة
- ومن سعيد الحظ
- ابن جارنا ويعمل في الإمارات ولا يعلم عني أي شئ ورشحنى أبوه له
- خلع نظارته. ابتسم لها وقال:
- كل شئ في حياتنا صار يتم بسرعة وبعجلة. كل شئ أصبح تيك أواي وقف وسار من مكتبه واتجه إليها وقال لها:
- وما رأيك أنت يا نيفين؟
- لا رأي لي
- عليك بمقابله
- وأتزوج بعدها؟
- وما المانع؟
- أتزوج شخصا لا أعرفه

- نحن الرجال لا نعرف زوجاتنا إلا بعد أن نتزوجهم
- ما قصدك يا أستاذ شريف؟ أتعني أن الزواج كالبطيخة؟
- بالضبط يا نيفين
- لن أتزوج رجلا لا أحبه
- الحب قد يأتي بعد الزواج
- وقد لا يأتي.
- ليس من الضروري أن يأتي. ما علي الحب تبني البيوت
- ويطلقني بعدها وأصبح مطلقة؟
- تفاءلي خيرا
- لم يكمل كلماته. فتح الباب بسرعة. لم يضطرب ولم يهتم. صرت أشعر وكأنني سقطت في بحيرة ولا أستطيع العوم. سأغرق. إنها زوجته. دخلت علينا زوجته أمينة وبدأت أعاصير غضبها. استبد بها الغضب عندما رأتني جالسة وزوجها واقف أمامي. نهرتني بنظراتها في غضب وصاحت:
- الله الله. أنت جالسة ورئيسك واقف.
- لم أرد لم أتحرك من مكاني. أمسكت بيدي بعنف وشدتني بكل قوة فوقفت رغما عني. أمسك شريف بيد زوجته وأبعدها عني وأومأ إلي برأسه أن أظل جالسة في مكاني، اتجه لزوجته وقال لها:
- أهلا وسهلا أمينة.
- لوت أمينة بوزها، ولكنه قال لها في هدوء متسائلا:
- ألم يكن من الأحسن أن تطرقي الباب أولاً؟
- نظرت إليه في طريقة سوقية وقالت له:
- اللبة الحمراء لم تكن مضاءة يا معالي مدير التحرير
- لا تتحدثي معي بهذه الطريقة
- كيف أتحدث معك إذا؟
- أمينة الزمي حدودك ولا تتجاوزيها
- اطردي أمام هذه السكرتيرة. اطردي. أنا عارفة أنها عملت لك
- سحرا
- كفاك يا أمينة
- لن أكتفي. طلقني يا شريف
- خرج من المكتب وتركنا. نظرت إلي زوجته في غضب وقالت

متسائلة:

- هل أنت سعيدة الآن؟
- لم أفعل شيئا يا أستاذة أمينة
- ولن أنتظرك حتي تفعلي يا شاطرة.
- خرجت وهي تنفخ.

لا تدري نيفين لماذا تستنشق عبير الذكريات. أخذت تفكر. متي سأقابلك يا شريف ثانية؟ لم تكن تعرف أن الغد يحمل لها يوما سعيدا. إنها لن تلتقي شريف فحسب، ستلتقي أيضا ولده أحمد. سيعبر لها شريف عن كامل ثقته فيه وستري في عينيه نظرات مختلفة عن نظراته من ذي قبل. قد تتحقق آمالك يا نيفين. انتظري قليلا. سيأتيك الغد بعد ساعات.

لو كانت نيفين تعلم هذا لنامت هادئة النفس قريرة العين، غير عابئة بالذكريات التي تنتابها وتقض مضجعها. ظلت متيقظة تغوص في أعماق الذكريات والآمال. لم تدر بنفسها وهي تغوص في أحضان النوم الذي يأتيها بتكاسل وبطء. لم تشعر سوي بيد والدها وهي تغطيها وتطفئ النور الذي تركته مضاء. ليتها كانت تعلم أن غدا يحمل لها سعادة لم تكن تتوقعها.

أيها الغد لماذا لا تأت سريعا؟ سننتظرك. لقد تأخرت كثيرا علينا. لا طاقة لنا علي انتظارك أكثر من هذا، فمتي تأتي أيها الغد في يومنا ولماذا لا تستطيع أن تأتينا في يوم أمسنا؟ علي أية حال، سوف ننتظرك أيها الغد المتكاسل. ستأتينا رغما عنك.

في الحبس يتشابه الجميع

تيار الذكريات يعبر أذهان الجميع في الحبس علي عجل فيأسرهم جميعا في ضفافه ويأخذهم في دواماته التي لا تنتهي، كما يأخذهم في جريانه الحثيث نحو الماضي هروبا من الحاضر، عساه أن يسحبهم للحظات سعادة ولو في الخيال. يمرق بهدوء أولا، ثم لا يلبث أن يخرج الجميع مسرعا من واقع كئيب مهيب الجناح ليحلق بهم في أيام كانت بعيدة سعيدة هائلة. أليس الهروب إلى الخيال خيرا من التوقع في لحظات واقع مؤلم؟ قد يكون للخيال أرجل تسعى بهم إلى خارج قضبان هذا الحبس الكسيح. ألا يرون أن الغوص في تيار ذكريات الماضي وخيالاته خيرا لهم وأفضل بكثير ليخرجوا من ضيق هذا المكان الذي لا يتسع لهم إلا بالكاد إلى آفاق الذكريات الأوسع، حيث كانت الحرية سعة يتيهون فيها وينعمون بعبيرها ويجنون من ثمار أدركوا غصة الحرمان منها؟

تبا لهذه الأغلال التي تقيد أيديهم وتربط بعضهم ببعض. سحقا لنيران الصمت التي تحيق بهم وتمتزج مع نظرات العساكر التي تصفهم بأنهم عتاة في الإجرام. إن نيران الجو الحار تسلخهم وتحيط بهم فلا أمل لنسمة هواء شاردة، ولا أمل حتي لبعضهم في أن يزيل قطرات عرقه بسهولة. وقف منهم من استطاع وجلس من لم تقو رجلاه علي حمله، فأجلس من كان واقفا رغما عنه لأنه مكبل معه في سلسلة واحدة.

لقد اشتاقوا جميعا إلي نسمات هواء متجددة كما اشتاقوا إلي آفاق الحرية. كانوا علي قربهم من بعضهم البعض، يعيش كل واحد منهم في عالمه الخاص به. في أسرته وفي حياته التي قد تختلف تماما عن حياة الآخرين.

ساد الصمت، وتلاشت كل الأصوات التي كانوا يسمعونها، خفتت أصوات العساكر، كما قل صوت وقع أقدامهم. لم يعد هناك سوي صوت مختار شلبي، الرجل السمين ذي اللحية الكثيفة والجلابيب

الأبيض. بدأ صوته يخفت شيئا فشيئا في هجمة الليل وسطوته. كان يرتل القرآن بصوت واهن متعب. تعالي صوته المنهك والذي أنهكه كثرة الدعاء علي الشرطة وعلي كل من يقف في طريق تنفيذ شرع الله، مؤذنا بنهاية تلاوته الطويلة التي لا تكاد تنقطع : «قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدي».

هدأ المكان تماما. أخذ عوضين الطويل يفكر في حياته قبل أن يتعرف علي منصور أبو دومة. لقد كان يعيش في هدوء وأمان. كانت الحياة ترض عليه بالمال، ولكنه كان سعيدا هانئا مع زوجته وابنته. كان مثل ملايين الموظفين. يعيش معيشة الضنك إلي أن قاده حظه إلي التعرف علي منصور. يذكر أول مرة التقاه علي المقهي. كادت أن تنشب بينهم معركة حامية. سبحان الله. تدخل الرجال وانقلبت العداوة إلي مودة وصار صديق عمره. بعدها اكتشف أن قصره هذا نعمة في عملهما في السرقة. إن قصره يمكنه من الدخول من النوافذ الضيقة. إن منصور يلبس بطريقة رائعة ويدخن السجائر الأجنبية. تقرب منه وأغراه بأرائه. المجتمع ظالم فاسد. يحكمه اللصوص الكبار، فلماذا لا نكون نحن اللصوص الصغار ونعيش في كنفهم؟

أغواه بالسرقة. أكثر من مرة تم القبض عليهما. إنه يشعر أنه مدين لمنصور لأنه أدخله عالما جديدا. لقد خبر تجارب عديدة. السرقة. مغامرات لم تكن تخطر له علي بال. إنه متفق مع منصور علي مبدأ واحد. لا نسرق إلا الأغنياء. نحن نسرق لنعيش. نحن لا نسرق لنكون أغنياء. كان يستدل بما فعله سيدنا عمر بن الخطاب عندما قرر تعطيل حد السرقة في عام الرمادة. تذكر ابنته مريم. إنها الآن في الإعدادية. أول مرة سرق فيها كانت من أجلها. مريضة كانت والمستشفيات الحكومية لا يدخلها صحيح إلا وخرج مريضا تتخطفه الأمراض. تذكر كيف صرخ الطبيب في وجهه قائلا إن ابنته تحتاج إلي عملية فورا وإلا ستفقد حياتها. أين النقود؟ من أين له أن يأتي بنقود؟ اتصل به فأتاه علي الفور. هكذا معرفة الرجال. إنه مدين له بحياة ابنته. إنه مدين له أيضا باحترام زوجته. كانت تسود معيشته وتشتكي ذل الفقر والحاجة. تبدلت حياته. كثر الخير في بيته وفي يديه. زغردت زوجته عندما أخبرها انه استقال من وظيفته

وسيتفرغ للأعمال الحرة. إن دخل يوم واحد في عمله الجديد يجعله يعيش مستريحاً طوال الشهر. صار يقف في محل استأجره منصور أبو دومة. سيكون المحل طريقة رائعة لتصريف المسروقات، كما سيكون ستارا يداري عملهما.

عشرات الشقق المغلقة ولا أحد يعلم عنها أي شيء. السرقة في هذه الأماكن مضمونة ولا أحد يسأل أو يبلغ. نعم العمل هذا. منصور أبو دومة يفكر ويشترك معه عوضين في التنفيذ والله يسترها وتسير الأمور.

نظر إليه منصور وسأله في همس لا يكاد أحد أن يسمعه :

- لماذا تسرح؟ بسيطة وسنخرج منها إن شاء الله. اطمئن. المحامي أخبرني أن القضية بسيطة، وسيعطي للشاهد مبلغاً من المال وستسير الأمور بخير
- أخشي علي ابنتي
- لماذا يا عوضين يا طويل؟
- أخشي أن تعرف صديقاتها وأنكشف أمامها ويعيرونها بأبيها
- يا عوضين توكل علي الله.
- سيقولون لها يا بنت الحرامي
- يا عوضين الحرامية امتلات بهم البلاد. لقد صار شرفاً لأي أحد أن يكون لصاً أو مجرماً. نحن لصوص علي قدر حالنا. البلد مليئة باللصوص الكبار.
- يا معلم منصور لو انكشفت فستندم البنت في وقد يضيع مستقبلها.
- من الذي يرضي أن يتزوج ابنة لص؟
- يا أخي استهدئ بالله. لا تقدر البلوي قبل أن تقع.
- لا إله إلا الله

بدا أن الشيخ مختار استرق السمع إلي بعض ما دار من حوارهما فقال بصوته الجهوري :

- لا حول ولا قوة إلا بالله. الكثيرون يتحدثون عن الله وسبحانه وتعالى منهم براء

بان الغضب في وجه منصور أبو دومة، وقف وكان في طريقه إلي الشيخ مختار. لقد قرر بالفعل أن يضربه. أمسك عوضين بيده وكأنه يطلب منه أن يهدأ. لم يتوقف الشيخ مختار، ولكنه صاح مواصلاً كلامه :

- حتي اللص عندما يستعد لسرقة الخزينة يقول بسم الله. توكلنا علي الله. اللهم استرنا يا رب ووفقنا لهذه السرقة.
- جر منصور عوضين واتجها في طريقهما لضرب الشيخ مختار الذي صرخ بأعلي صوته وصاح مناديا:
- يا شأوبش. أدركني. يريدان أن يضرباني. يا حضرة الضابط. يا عالم يا هوه.
- سأؤدبك يا شيخ. سأجعلك تضع لسانك في فمك ولا تخرجه ثانية أيها الكلب
- كلب؟ أنا الشيخ مختار شلبي
- بلا شيخ بلا قرف
- احفظ أدبك يا كافر
- لست كافرا يا شيخ. أنا مسلم. اسمي منصور محمد أبو دومة
- أنتم عار علي المسلمين. أيها اللصوص أيها المجرمون. تسرقون الناس... لم يدعه منصور يكمل كلماته. انقض عليه وضربه. كانت اللكمة قوية فوقع علي الأرض. تيقظ شريف شكري من غفلته علي صوت الضجة التي حدثت. نظر إلي عوضين الطويل وقال له أمرا متظاهرا بأنه عتي في الإجرام وكأنه يذكره بأنه ضربه من قبل:
- ما الأمر يا منصور يا أبو دومة؟
- هذا الشيخ قليل الأدب وكان علي أن أؤدبه
- أنسييت أنني هنا الكبير؟ كيف تضربه؟
- خفض منصور رأسه خجلا وقال:
- آسف يا سيد المعلمين.
- عليك الاعتذار للشيخ
- هو الذي استفزني وسخر مني
- قلت لك اعتذر له
- اقترب من الشيخ واعتذر له وقبل رأسه. أمر شريف الشيخ أن يعتذر لمنصور فاعتذر له، وهكذا حلت المشكلة. اقترب الشيخ مختار من شريف وقال له:
- ولا مؤاخذه حضرتك هنا في جريمة سرقة أم قتل؟
- وماذا لو قلت لك إنني لست مجرما؟
- معقول؟ أأست مجرما؟

- لست مجرماً. هل تستطيع أن تخبرني لماذا أنت هنا؟
- لست مجرماً. علي المنبر كنت أسب كل من لا يعملون بشرع الله وانفعلت أثناء الخطبة وقمت بسب الرئيس
- بالمصيبة!!
- ذلة لسان. سأقول بعدها وفي كل خطبة: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» أنا آسف يا سيادة الرئيس. والله لست مجرماً.
- وأنا مثلك لست مجرماً.
- استيقظ منصور العالم من غفلته. نظر إلي الأستاذ شريف وسأله عما حدث فأخبره. نظر الشيخ مختار لمنصور العالم وقال له:
- وأنت لست مجرماً. صرتم جميعاً شرفاء
- والله لست مجرماً.
- معك حق. صارت الأقسام والسجون كالمساجد يدخل فيها من خلق الله كل من هب ومن دب.
- صدقني لست مجرماً
- أصدقك. أنا المجرم
- يا شيخ لا تحكم علي الناس من الظاهر
- لنا ظواهر الأمور ولله بواطنها
- أي واحد منا معرض لدخول السجن
- نظر شريف إلي الشيخ وقال له في هدوء:
- أحسنت يا شيخ. لنا ظواهر الأمور ولله بواطن الأمور. أتعلم كم من المظلومين في السجون يا شيخ؟ أنا واحد منهم.
- أنت لست مجرماً ولا هذا الأخ. لماذا نحن هنا

— هذه قصة طويلة يا شيخ

بدأ شريف يحكي للشيخ قصة منصور العالم، ثم قص له بعدها قصة حامد علي إبراهيم الذي قتل سيد علي الحوفي لأنه نصب عليه ونصب علي كثير من الشباب بدعوي تسفيرهم إلي السعودية.

بدا التأثر علي وجه الشيخ. تغير لونه وقال: «حسبي الله ونعم الوكيل».

ساد الصمت والهدوء ثانية. عاد كل من كان في الحبس مرة ثانية إلي عوالمهم الخاصة بكل واحد منهم. أخذ منصور يتحدث مع ذاته ليصلح المعادلة الخطأ، لاشك أنه غير مخطئ. كان عليه أن يضرب المعلم صاحب المقهي. لقد أهانه وتحمل كثيرا، أما أن يهين العلم ويزعم أن حذائه يفهم أكثر منه ومن أساتذته فهذا الذي لم يستطع أن يتحمله. إن أساتذته القدوة بالنسبة له. إنهم السراج المنير في طريق العلم، لا في مصر وحدها وإنما في العالم العربي كله. كان يطلب من الله أن يصبر أمه وأن يتحمل والده كل ما سيحدث له.

يتساءل في نفسه قائلا: «وما ذنبي؟ هذا قدرتي وقدر آلاف بل ملايين الشباب مثلي في بلد لا تقدر العلم. بلد لا تقدر إلا الرقصات والمغنيين ولاعبي الكرة. هذا ما قاله الناس أول مرة سافرت إلي ليبيا لأعمل هناك في أي عمل أجده. جربت حزينا مرارة الغربة وقسوة الحاجة وذل الفقر. إن بلادنا تفرط فينا بسهولة، أما نحن فنحبها ولا نستطيع أن نفرط فيها. نحبك يا مصر مهما فعلت بنا، وسنظل نحبك حتي نموت. نحبك حتي إذا كانت كراهية أهلك وقادتك لنا واضحة ولكننا نحبك. ألسنت أنت أمنا؟ ومهما كانت الأم فلا نستطيع أن ننزع حبها من قلوبنا. كان علي أن أرجع ثانية. أرجع لأمي ولأبي ولأهلي. أعمل هناك في بلد غير بلدي. تركت المدرسة التي كنت أعمل بها. أردت ان أعود إلي بلدي لأدرس فيها ولأبني عقول أولاد بلدي. ما وجدت عملا في مدرسة حكومية، وما قبلتني مدرسة خاصة. سأعمل في المقهي. العمل شرف. لا يهم نوع العمل ولا مكانته. سأعمل ما أجد حتي أجد عملا ملائما. سأسجل للدكتوراة وأعمل في بلدي. سأواصل دراساتي ولن أفقد الأمل حتي وإن بعد عني الحلم في العمل فسأحلم لبلدي. سأحلم لك. سنصل بك إلي

عنان السماء. أكنت مخطئاً عندما عدت؟ لا. أحبك يا مصر وسينبض قلبي بحبك طول العمر. ما كان علي أن أشتبك مع صاحب المقهى. إن الكبار هم الذين يمنعوننا. يريدون الجهل. يبدو أن المعادلة ستظل خطأ ولن تحسم إلا بثورة تقلب كل شيء. ثورة عارمة لا تبقي ولا تذر، ولكن كيف؟ كيف والناس منهمكون في تلبية احتياجاتهم الأولية. حصرونا في محاربة جوعنا وشغلونا في الطعام والشراب والعلاج»

أما حامد فكان يفكر فيما سيحدث لأمه ولأخته بعد أن تركهما، لقد صرت قاتلاً ومجرماً. ماذا أفعل لقد اجتث أحلامي فكان علي أن أقضي علي ما تبقي من عمره. لقد جعلت أمي تبيع ذهبها من أجلي. كانت ستزوج به أختي. لهما الله. من سينفق عليهما؟ من لهما بعدي إلا الله؟ اللهم لا حول ولا قوة إلا بك. أعماضي الشيطان. لي حق أن أياس. إن الكثير من الضباط يحيطون به وسيدافعون عنه. إن الجميع يسرق أحلامنا. لقد ضعنا وضاعت البلد. ماذا فعلته بتفوقي في الكلية. كنت سأذهب للعمل في السعودية كعامل لا كقاض أو كمحام يشار إليه بالبنان. أبناء الأغنياء فقط هم الذين يحصلون علي المناصب في بلدنا. أما نحن الفقراء فلنذهب إلي الجحيم غير مأسوف علينا. لك الله يا أمي. لك الله يا أختي. وضع وجهه بين كفيه وأخذ يبكي. اقترب منه شريف وربت علي ظهره وقال: «الرجال لا يكون يا حامد. لنا الله».

ينظر شريف إلي الشيخ مختار وهو يرتل القرآن ويحرك شفتيه فقط بلا صوت. أخذ شريف يتساءل في نفسه قائلاً: «ولدي أحمد. تري أين انت. إياك أن تغضب من بابا. بابا يحبك. هيا اغمز لي بعينك وقل لي بابا أنا لا أحبك. لماذا قدر لي ان أبتعد عنك يا ولدي؟» وانهمك أيضاً في بكاء مريّر لم يره أحد، فلقد كان يخفي وجهه أيضاً بين يديه وينتحب بلا صوت.

وأحمد أيضا يعاني

وفي نفس الوقت الذي كان فيه شريف يبكي ، كان ولده أحمد يبكي وينتحب أيضا.

كان قد نام بعد مشاجرة حامية بين جده وجدته. ليته كان قد نام وتركهما. ليته لم يكن موجودا وقت حدوث هذه المشاجرة. ليته انسحب وتركهما معا. ليته ما عاد إلي البيت يومها. لقد أعادته المشاجرة إلي أجواء ما قبل طلاق والديه. ذكرته هذه المشاجرة بأسوأ يوم في حياته. ذكرته بموقف صعب قد حفر في ذاكرته وترسخ في ذهنه، فكان يبكي كلما تذكره. كان أسود يوم مر عليه. كان يوم الثلاثاء، واليوم أيضا يوم الثلاثاء. لشد ما يكره هذا اليوم.

إن أحداث هذا اليوم الدامي الذي انتهى بطلاق والديه يمر أمام عينيه كفيلم يصعب عليه أن ينساه، واليوم تكرر مثل هذا الفيلم أمام عينيه مرة ثانية. يبدو أنه قد حصل علي جرعة مزدوجة من المشاهد التي مرت به ويكرهها. كانت الجرعات تتزايد عليه عندما كان يري مشاهد الطلاق أو المشكلات الزوجية في الأفلام أو المسلسلات. كان يتمني أن تمر المشكلة بسلام وبدون طلاق، إلا أن كل آماله كانت تخيب، كما خاب أمله في أن تستمر العلاقة بين والده ووالدته. ويومها بكى كثيرا، واليوم أيضا بكى، اليوم تكرر المشهد ثانية أمام عينيه حرفيا. أصرت الجدة علي مشاهدة حلقة من حلقات مسلسلها المفضل، في حين أصر الجد علي متابعة نشرة الأخبار في التاسعة كعادته. لو كان الجد يعلم نتيجة هذا العناد لتوقف، ولكنه كان متشوقا لمعرفة نتائج الانتخابات الخاصة بمجلس الشعب. كان أحمد في صف جدته. تمنى أن يتركهما الجد ليتابعا حلقة المسلسل. نظرت نفيسة جدته إلي جده في غضب وصاحت:

- أخبار أخبار. مللنا من الأخبار. دعنا نشاهد الحلقة يا صبري
- كاد الغضب أن يفتك بالزوج. قال لها:
- الأخبار أهم شئ.
- المسلسل أهم

- الأخبار لا تعاد ولا تتكرر كالمسلسلات
- المسلسل أكثر تشويقاً
- الأخبار تجعلنا نعرف ما يحدث من حولنا
- هكذا أنت منذ أن تقاعدت ولا شئ يهكم غير مشاهدة الأخبار.
- ولا ندري ماذا تفعل لك الأخبار. استهدئ بالله وتابع الحلقة معنا
- أنت جاهلة ولا تفهمين شيئاً. مخك غبي. الأخبار أهم حاجة في التلفزيون أيتها الجاهلة
- أنا الجاهلة يا حاج؟
- طبعاً جاهلة وغبية
- احفظ لسانك يا صبري
- أيعقل أن نتشاجر كالأطفال علي مشاهدة المسلسل أو مشاهدة الأخبار
- بسم الله ما شاء الله. ما كل هذا العقل يا حاج؟
- قللي هذا الكلام لنفسك يا عاقلة
- الأخبار تبليغ الناس بما يود رجال الحكومة أن يعرفه الناس
- يا سلام !! محللة سياسية يا ناس !!
- تتابع الأخبار باستمرار. هل تغير شئ؟ ما تريده الحكومة يحدث
- لم أكن أعرف أنك سياسية محنكة
- غير الأخبار يا حاج أو تابع الأخبار من الجريدة
- أريد أخباراً جديدة. لن أغير القناة.
- ادخل علي الإنترنت واحصل علي ما تريده من أخبار. ستنتهي الحلقة في مشاجرتنا
- جاهلة. المسلسلات غسلت دماغك
- أتعلم منها ما يحدث في الحياة.
- وتعلمت؟ طلقت ابنتك من زوجها؟ الله يسامحك يا بعيدة
- أنا البعيدة؟ الله يسامحك يا بعيد. حسبي الله ونعم الوكيل فيك.
- انتهت المعركة بينهما بمزيد من عناد الجد. لو كان يعلم نتيجة هذه المشادة لترك البيت أو اتجه إلي الفيسبوك أو استمع لهيئة الإذاعة البريطانية البي بي سي. إنه لا يحب الكمبيوتر. إنه يفضل الوسائل التقليدية وخصوصاً التلفزيون. إن متابعة الأخبار في التلفزيون أسهل له. اقترب أحمد من جده بعد أن ذهبت زوجته. نظر إليه وقال له:

- لقد غضبت جدتي. عليك أن تصالحها
- فلتغضب ولتذهب في ستين داهية
- يا جدي هذا سينقلب علي. ستسبني وتسخر من أبي. أنت لا تعرف جدتي عندما تغضب
- أعرفها. أبارك الله. رياح عاصفة لا تبقي ولا تذر جدي. أرجوك صالحها
- ولا يهملك. دعنا نتابع الأخبار.
- وليت الجد لم يتابع الأخبار. ليته تركهما تشاهد المسلسل. تحدثت الأخبار عن غضب عام من حصد الحزب الوطني لنصيب الأسد من مقاعد البرلمان في الانتخابات الأخيرة. كارثة. معقول؟ كل هذا الفشل، وكل هذه المشكلات ويفوز مرشحو الحزب الوطني؟ أكيد التزوير هو السبب. إنه والعشرات من أصحابه لم يصوت أحد منهم للحزب الوطني. آه أيها المزورون. تبا لكم. يا ثلة الفساد والإفساد. لقد كان شريف شكري علي حق. عصابة فاسدة تحكم الوطن وتلعب بمصيره وبمقدراته. دخل أحمد لجدته عليه يواسيها أو يسترضيها. وجدها في أوج غضبها، كانت تفكر بعمق وكأنها اتخذت قرارا نهائيا. كانت تنتفض من الغضب ويعصف بها الغيظ، في حين أغلق الجد التلفزيون في غضب. اتصل به زميل متقاعد مثله. رد عليه غاضبا:
- أرأيت ما يحدث في البلاد؟ عليه العوض ومنه العوض اسمع هذه النكتة
- قل يا سيدي. حالنا يبكي وستحكي لي نكتة؟
- يا سيدي هذه النكتة تعبر عن واقعنا تماما. أنا مستاء مثلك. هذه النتيجة بالتزوير. اسمع النكتة لأنها طازجة
- قل يا سيدي
- في الانتخابات الرئاسية الأمريكية السابقة أرادت الإدارة الأمريكية خبرتنا في تزوير الانتخابات. اتصل أوباما بالرئيس وقال له: نعرف أنكم دولة عريقة وذات تاريخ رائد في تزوير الانتخابات وأريد منك خدمة. قال له الرئيس: أعرف. تريد منا مساعدتك في تزوير الانتخابات لتكسب، وهذا يتطلب مزيدا من البلطجية وفتوات الحزب الوطني. قال له أوباما: تحت أمرك. سنساعدك. أمريكا كلها تحت أمرك.

- يا سيدي التليفونات قد تكون مراقبة؟ هل تريدنا أن نذهب في داهية؟
- يا أخي اسمع بقية النكتة
- تفضل يا سيدي
- اتصل بالرئيس المرشح المنافس جون ماكين وطلب مساعدته كما فعل أوباما. ووعد الرئيس بالمساعدة. وبعد أن تمت الانتخابات وبعد الفرز، اتصل أوباما بالرئيس غاضبا، وبعدها اتصل منافسه ماكين بالرئيس وكان غاضبا أيضا والرئيس محتار. وبعد دقائق اتصل رجال الحزب الوطني وبلطجيته بالرئيس وقالوا له: مبروك يا ريس. أنت أول رئيس مصري للولايات المتحدة الأمريكية.
- ها ها ها. معقول؟ أل هذه الدرجة؟ نكتة حلوة. عندك حق. اغلق الهاتف وربنا يستر ولا تكون مكالمتنا مراقبة
- ولا يهمك. كل الناس تقول النكت والكل يعرف. نحن نعيش مهزلة يا صبري وربنا يستر علي البلد.
- مهزلة وأية مهزلة. كان الجد يقلب قنوات التلفزيون، في حين كان أحمد يجلس مع جدته ويهدئها. سمعت جدته جده يضحك. أرادت أن تخرج له لتؤكد عليه وكأنها لم تتحمل أن تتركه يضحك. أمسك أحمد بيد جدته وطلب منها أن تجلس معه وألا تخرج حتي لا يتشاجرا. كاد أن يبكي. لقد تذكر والده ووالدته عندما كانا يتشاجران. كان يشعر بأن الدنيا ستنتهار. كان والده أكثر رقيا، لم يكن صوتك يا أبي ليرتفع. أمي دوما كانت عالية الصوت. وهكذا جدته. جرت جدته يدها من يده وخرجت غاضبة وقالت لزوجها في استنكار ممتزج بالغضب، وأحمد يحاول أن يسحبها إلي حجرته:
- أنا الجاهلة يا صبري؟
- تحاشي الجد النظر إليها ولكنها انقضت عليه كما ينقض نسر علي فريسته بعد طول انتظار وصبر. لم يرد عليها الجد. واصلت كلامها قائلة:
- أصدقني؟ ما تريده الحكومة يكون. كسب الحزب الوطني الانتخابات بالتزوير
- بأية طريقة. المهم أن تحقق الحكومة أهدافها هذه هي السياسة الأمريكية. الغاية تبرر الوسيلة
- من الغد سأنضم للحزب الوطني يا صبري. سأنضم لأمانة المرأة في الحزب
- ربنا يوفقك

تحاشي النظر إليها تماما ، ولكنها كانت غاضبة جدا. أمسكتة من رقبته في غيظ وقالت :

— طلقني يا صبري

واصل الجد صمته فانفجرت فيه المرأة قائلة :

— طلقني يا صبري. لا أطيقك ولا أطيق المعيشة معك. لن أعيش معك بعد الآن ولو ساعة واحدة. طلقني. أكرهك يا صبري طلقني.

بهت صبري كما بهت أحمد. فكر الجد قائلا في نفسه : أيمكن لك يا نفيسة أن تطلبي الطلاق بعد هذا العمر؟ وفكر أحمد وعلته رعشة رجت كيانه وهزت نفسه. إن نفس هذا الموقف قد حدث بين والديه. إنه يشعر بالتعب. لا يستطيع أن يقف علي رجلية. يذكر أن والده كان يحذر أمه ويزعق في وجهها قائلا لها أنهما لا يجب أن يتشاجرا في وجود الطفل لأن هذا يؤثر علي نفسيته. إن الموقف يتكرر بين جديه كما حدث بالضبط بين والديه لدرجة أنه لم يستطع ان يفصل بين صورة جدته وصورة أمه. اقترب من جدته وأمسك بيدها وقال لها :

— أمي. ابتعدي الآن عن أبي. أرجوك.

لم تهتم المرأة بما يقوله الطفل. لم تفهم مدي الضرر النفسي والألم الذي يحس به أحمد. حاول أن يجرها من يدها إلي حجرة أمه ، ولكن المرأة شدت يدها منه. وقف جده في هدوء وأراد أن ينسحب من الموقف تماما كما كان يفعل والده. اقترب جده من جدته وقال لها وهو يبتسم :

— أيعقل أن تطلبي الطلاق لأنني شاهدت الأخبار؟

— لا يا صبري. لم أعد أحتمل

— أكيد أنك تهذرين

— أتكلم بجد يا صبري. طلقني. أرجوك طلقني

— يا مرة عيب عليك. أبعد كل هذا العمر تطلبين الطلاق؟

— قلت لك وسأقولها لآخر مرة طلقني يا صبري. لقد تحملت منك الكثير. سب وإهانة وأنا أسكت. لم أعد أحتمل. أنا جاهلة وغبية؟ لن أتحمل ثانية. طلقني يا صبري. ما عشت معك يوما حلوا أبدا. ما رأيت منك خيرا أبدا. دائما تشعرني أنك أفضل مني وكأنك تصدقت علي وتزوجتني. طلقني يا أخي. لا أريدك أن تتصدق علي بعد اليوم. طلقني.

أحمد يشعر أنه يتمزق. يحس أنه لا يستطيع أن يتنفس. أين ذهبت يا أمي؟ أكيد أنك خرجت مع عادل. ستتزوجينه. سأظل بمفردي. سيطلق جدي جدتي كما طلقك أبي يا أمي. سأظل بعيدا عن أبي وعن جدي. ارحموني. حرام عليكم. طلاق. خراب للبيوت. أنتم لا تحسون بي. اسكتي يا جدتي. لا أحتمل أكثر من هذا.

كان الولد يتحمل ولا يئن. يشعر أن ذرات نفسه تتكسر. كان يتمایل ويكاد أن يقع ولا أحد يحس به. أمسك بالكرسي حتي لا يقع. تحرك جده من مكانه، اتجه لجدته وقال لها وهو يبتسم عليه يصلحها ولعلها تهدأ:

— لن أطلقك يا نفيسة

— قلت لك طلقني أرجوك

— لن أطلقك

كانت الدنيا تدور بأحمد، وجده وجدته لا يشعران به. اقترب الجد من جدته وقال لها متعمدا أن يغيظها:

— لن أطلقك يا نفيسة.

— ستطلقني ورجلك فوق رقبتي.

— قلت لن أطلقك

— طلقني وسأتنازل لك عن كل شئ. طلقني واعتقني لوجه الله. لا أريد منك أي شئ

— لن اطلقك يا نفيسة

— ستطلقني يا صبري. سأنضم لأمانة المرأة بالحزب الوطني. سأذهب لسوزان مبارك. سأطلب الخلع. سأخلعك يا صبري

— لن ينفعك أحد لأنني لن أطلقك أبدا يا نفيسة. هل جننت؟
تطلبين الطلاق لخلاق بسيط بيننا؟ الحمد لله أن الشارع جعل الطلاق بيد الزوج لا الزوجة.

صرخ أحمد وهو يقع علي الأرض. قال كلمتان لم ينخلع لهما قلب الجد أو الجدة. قال آخر كلماته وهو يسقط: «حرام عليكم».

لم يعد يشعر بأي شئ حوله. اقترب منه الجد وهو خائف. إن أحمد لا يتحرك. كان يبكي ويتشنج. ألجمت المفاجأة نفيسة تماما، فلم تعد تعرف كيف تتصرف. لقد تخشبّت في مكانها ولم تتحرك. مسح الجد دموع أحمد. اتجه إلي التليفون وهو ينظر في غضب إلي

نفيسة. أدار قرص التليفون وطلب الطبيب، ولكنه لن ينتظر إلي أن يأتي الطبيب. لقد حمل الولد وتوجه به إلي أقرب مستشفى وهو يرتعش. تبا لك يا نفيسة. سيضيع الولد منّا بسببك. كل المصائب لا تأتي إلا من النساء. يبدو أنه كان يجب علينا ألا نتعارك أمام الطفل، ولكن هذه طبيعة النساء. يقمن باستفزأك إلي أن تقع في الخطأ. صدقت يا رسول الله. أتقولين إنك ما رأيت مني خيرا قط؟ تزعمين أنك ما عشت معي يوما حلوا قط؟ أتكفرين العشير يا نفيسة؟ صدقت يا رسول الله عندما أمرت النساء أن يتصدقن بعد أن أخبرهن أنه اطلع علي أهل النار فوجد أكثر أهلها من النساء، فلما سأله قال لهن: لأنكن تكفرن العشير. لقد كفرت بعشرتي يا نفيسة. ستحرم عليك معيشتي. كان كل هذا يدور بذهنه وهو يحمل حفيده بين يديه متوجها به إلي المستشفى، في حين أن دموع احمد كانت تحرقه وكأنها تصب في فؤاده. فليرحمك الله يا ولدي وليرحمني وليرحمنا جميعا. لنا الله. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخائن يلتقيان

في نفس الوقت الذي كان صبري عبدالدايم يحمل حفيده إلي المستشفى، كان شريف شكري يتقلب في نومه. العرق يتساقط من علي وجهه. يشعر بأشياء قاهرة تدفعه من عالم النعاس إلي عالم الواقع وكأنها تريد أن توقظه وتنبيهه. يري وجوها غاضبة مشوهة. يري وجه طليقته الغاضب ويراهما تتحول كأفعي قادمة خلفه لتفترسه فيعدو ليهرب منها، ولكنها تصر علي أن تلاحقه. يجري ويتلفت حوله ولا تلحق به أبدا. وكأنه في غابة وتحيط به عشرات الأشجار الكثيفة. يرتطم بأحد الأشجار، وينظر خلفه فلا يجدها، وسرعان ما تتحول إلي كتلة من نار تعلو وتعلو ثم تخفت. تغيب صورتها ثم ما تلبث صورة عادل فوزي صديقه أن تبهر أمامه وهو يقهقه في شماته مدخنا سيجاره، وبعد أن ينتهي من سيجارته يلقيها في رماد حية زوجته فتشتعل من جديد ويبلغ لظاها عنان السماء. يحاول أن يهرب من كل هذا ويمد يده لولده الصغير أحمد، بيتعد عنه ابنه قليلا، يراه يتألم. أسوار تمنع وصوله إلي يد ابنه. يلمس أطراف أصابعه. يريد أن يقبل يدي أحمد. يبكي الولد بشدة. الأسوار العالية تمنعه من احتضان ابنه. يمد أحمد يده إليه ثانية ويلامس أطراف أبيه. يغمز له بعينه قائلا: «بابا أنا لا أحبك». تنفتح الأبواب وتهب رياح عاصفة ثم ما تلبث الدنيا كلها أن تتحول إلي برق ورعد وأعاصير. لا يكاد يري ولده إلا عندما يظهر ضوء البرق الخاطف. الولد يبكي ويستصرخه. إنه يتأوه. شريف أيضا يتأوه ويصرخ. تسقط الأمطار غزيرة. يخشي علي ولده. يغطيه الماء ويغوص في الطين. يشتد الظلام ولا يكاد يسمع صوت ابنه. لحظات ويتزايد أنين صغيره. يصرخ بصوت مكتوم، يتزايد صراخه. يد تربت علي كتفه. صرخ صرخة مدوية أفزعت كل من كان في الحبس. تحسس يد منصور العالم. سمع صوته يقول له: «خيرا يا أستاذ شريف» تنبه إلي أنه كان يحلم. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال: «أعوذ بالله. هذا كابوس. ليس هذا بحلم. يبدو أن ابني في خطر ويبدو أنني في خطر».

صحا الشيخ مختار شلبي وقال له : «لا تقلق يا أستاذ شريف. أضغات أحلام. عد للنوم ثانية واستعد بالله».

لم يستطع أن ينام ليلته ، كما لم يستطع أن ينام صبري عبدالدايم. كان بجوار حفيده يتألم له ويتمني أن يكون مكانه.

وكما كان والده يحلم ويتألم ، كانت هناك بعض الهلوثات تنطلق من لسان أحمد من أثر ارتفاع درجة حرارته. كأنه يري الشيطان. الشيطان في ليلة عرس. إنه يري صورة أمه تتأبط ذراع هذا الشيطان المسمي بعادل فوزي. حفل لا يحضره إلا الشياطين. جدته تمسك بيد أمه. تكاد جدته أن تحترق عندما لمست يد أمه. أمه تشير إليه أن يقترب منها ، ولكنه لا يستطيع. إن النيران تندلع من كل جزء في جسدها. يريد أن يصرخ وأن يبتعد ، ولكن جدته تسبه بأبيه وتأمره أن يقترب من أمه. يخشي من النيران أن تلسعه. يبعده جده. تجيره جدته علي الاقتراب من أمه. يبكي وتحرقه دموعه. يبعده الشيطان الذي تمثل في صورة عادل بيده فتلسعه نيرانه. يقترب جده منه ويقبل جبينه. يشعر بقبلة جده. يهدأ قليلا ثم يعود إلي عالم النوم وينطق بكلمات غير مفهومة.

تدخل جدته غرفته في المستشفى. ينظر إليها صبري شذرا. لا يتكلم. يلوذ بصمته عساها أن تخرج. تدخل وتجلس بجوار سريرها. تدخل أصابعها في شعر الصغير. يخرج صبري تاركا لها المكان. إنها لا تقوي علي أن تواجهه ولو بنظراتها.

ذهب الجد إلي غرفة الطبيب وطلب منها أن تخبره بحالة الطفل. طمأنته ، ولكن قلبه أبدا لا يصدق. أية تجربة أجبر هذا الطفل علي خوضها؟ ما ذنبه؟ طفل في عمر الزهور. الله يخرب بيتك يا نفيسة. أنت السبب. سينخرب بيتك كما خربت بيت ابنتك. أكانت حقا تريد الطلاق أم أنها تهدده؟ هذه أول مرة تطلب فيها الطلاق. لم تكن حياتهما سوي سلسلة من المشاجرات المتصلة. لم تنقطع يوما. أليست هذه هي الحياة الزوجية؟ أما أن تطلب الطلاق وتصر عليه؟ هذا هو الجديد في حياتنا يا نفيسة.

انتظر في الردهة خارج حجرة أحمد في المستشفى عليها تخرج. ود لو استطاع أن يضربها. أتمني أن أشفي لهيبي. لكم أود أن أصفعك

علي وجهك عشرات المرات. ليتني أستطيع أن أقتلع لسانك. ماذا لو فقت عينيك أيتها الغبية. كيف أستطيع أن أعيش معك بعد هذه المشاجرة الأخيرة؟ أنت تطلبين الطلاق وتهديني بالخلع يا نفيسة؟ ماذا حدث في الدنيا؟

الساعة تقترب من الحادية عشرة قبل منتصف الليل. أراد أن يخرج من غضبه ومن رغباته في ضرب زوجته. إنه لم ير ابنته اليوم. إنها حتي لم تتصل به. تري أين أنت يا أمينة؟ أين أنت أيتها المسكينة؟ أين أنت يا من خربت أمك بيتك بجهلها وغبائها؟ طالما حذرنا من أن تتبع خطوات الشيطان. أمك هي الشيطانة التي دكت أركان بيتك فهدمته حجرا حجرا. أنت بعيدة عنا وعن ابنك. أين أنت يا أمينة أيتها الخائبة التي استدرجتك أمك لخراب بيتك؟ ألا تأتين لتعرفي ما حدث لابنك؟ ستتركينه وتكونين في أحضان رجل غير أبيه. إن ابنك في المستشفى أيتها الخائبة. إنه مريض وأنت لست بجواره. ماذا سيحدث عندما تتزوجين وتنجبين أطفالا غيره. ستلقي به في سلة الإهمال. عليك أن تذوقي من ثمار غرستها أمك. كنت تصرخين وتقولين: «لا أحمل أن أعيش معه» شريف؟ هذا الرجل الطيب. إنه كالبلسم. فلتجربي رجلا غيره. يريد أن يتزوجك سرا؟ أنا أفهم كل شيء ولكنني أتجاهل وأتظاهر بأنني لا أعرف. أيتها الغبية. إنه لا خير له في صديق عمره، أف يكون له خيرا فيك؟ لشد ما أشفق عليك أيتها الخائبة. ليتك سمعت كلامي. أشعرتك أمك أنك مظلومة وأن الطلاق سيكون الحل. لقد كان الطلاق بداية لكل مشاكلك. لا أعرف ماذا أفعل.

أخرج هاتفه المحمول وحاول أن يتصل بابنته أكثر من مرة. ردي يا أمينة. ردي يا ابنتي. الهاتف مغلق. أين أنت يا أيتها الغبية؟ أين أنت يا نفيسة؟ كانت في عصمة زوج محترم يحبها ويخاف عليها. كنا لا نخشي عليها وهي معه. أنستطيعين أن تخبريني أين ابنتك يا نفيسة. كانت تفهم كلامه وتصرخ في وجهه: «أفهم ما تريد أن تقول يا صبري يا عبدالدايم. بنتي أشرف من الشرف». بنتك أشرف ممن الشرف. كانت في ظل رجل يحميها ويحبها. ستتزوج من شبه رجل يخشى أن تعلم زوجته أنه تزوج. طالما قلت لك حرام عليك يا نفيسة. البنات الأبقار لا يتزوجن أفعقل أن تتزوج المطلقات؟

كان زوجها مثاليا ومحترما. أشعلت فيها نار الإحساس بالظلم وحاشا لله ان يكون شريف ظالما. لقد طلقها وأعطاهها حقوقها وأكثر، ومع ذلك أدخلتموه المحاكم. دعي ابنتك في جوارك. لا يمكن أن تكون زيجتها الثانية أفضل من الأولى. الله يسامحك يا بعيدة. أخذت ابنتك إلي آفاق التمرد وأشعلت نيران الكراهية بداخلها تجاه زوجها. تبا لك أيتها الجاهلة. كنت أقول لابنتي لا تجعلني أمك الجاهلة تسحبك إلي حدود الطلاق، ولكنك تتبعين خطوات هذه الشيطانة. يا ربي ماذا أفعل الآن. الناس تقول مطلقة. تظن أن المطلقة صيد سهل. يمكن لأي رجل أن يضعها في شبابه بكل سهولة. زواج المطلقة أسهل من زواج البكر. لا تكلف شيئا. الله يخرب بيتك يا نفيسة. هل أدخل وأطلقها حالا فتبرد النيران التي تشتعل بداخلي؟

هدئ من روعك. قد تكون أمينة قد وصلت إلي البيت. لأجرب أن أتصل بها في البيت. جرس ولا أحد يرد. ليست في البيت، ولا ترد علي تليفونها المحمول. تعالي يا نفيسة وأخبريني أين ابنتك التي هي أشرف من الشرف. الساعة تقترب من الثانية عشرة يا نفيسة. ابنتك خارج البيت، وطالما حذرتك. كنت تقولين: «أكيد مع واحدة من صاحباتها. استهدئ بالله يا حاج»

الله يخرب بيتك يا نفيسة ويخرب بيت الحاج صبري. سأطلقك يا نفيسة. إن كلمة الطلاق علي لساني. أشعر أنها قنبلة تقف علي أعتاب فمي. لو طلقتك سأستريح. كلمتان فقط أنهى بهما غضبي: «أنت طالق».

أخرجه صراخ زوجته من تفكيره. خرجت تصرخ علي الباب بفزع مما أحضر الممرضة التي استدعت الطبيب بشدة. كانت نفيسة تصرخ وتلطم قاذلة ودموعها تسبقها: «إن الولد لا يتحرك وتكلمه فلا يرد».

أصاب الذهول صبري فجلس في مكانه ولم يستطع أن يتحرك. سمع الطبيب يأمر فوراً بنقل الطفل إلي غرفة العناية المركزة. نظر إلي زوجته وقال لها: «اتصلي بابنتك وأخبريها بأن ابنها في غرفة الإنعاش».

حاولت نفيسة أكثر من مرة أن تتصل بابنتها ولكن هاتفها لا يرد. حاولت مرات ومرات ولكن دون جدوي.

كانت أمينة لا ترد لأنها أغلقت هاتفها ونسيت نفسها وولدها والدنيا كلها في غمار رغبتها الشديدة في تدمير زوجها السابق. كانت تشعر أنها تساق وهي غائبة عن الوعي في أحضان الشيطان وفي شقيقته. دخلت معه لأول مرة وهي خائفة ترتجف. إنها لا تحبه ولا تريده ولا تحترمه، ولكنها تريد أن تتأثر لنفسها.

كان معها يدخل شقيقته ويلمس ذراعيها متعمدا إثارتهما بعد سنوات من الحرمان، داعيا إياها للدخول وهو يحلم بأن يمر الوقت سريعا وأن تهدها رياح غضبها حتي يوصلها إلي سرير الخيانة. قبلها مرة وثانية. إنها شقيقته السرية التي لا يفعل فيها شيئا.

لقد التقى الخائن. التقت رغبة شيطانين في تدمير إنسان برئ، التقت شهوتها في إيذاء زوجها ووالد ابنها الوحيد مع شهوته في القضاء علي زميل ناجح. احتكت آثار الحقد بداخل كل شيطان منهما فانطلقت شرارات الانتقام داخلهما. احتضنها في البداية فتمنعت. ابتعد عنها وتظاهر بالغضب. اشتعلت الرغبة المكبوتة في داخلها بعد طلاقها. لم يقربها أحد، ضعفت الليلة مقاومتها. سقطت في أحضانه للحظات. تنبهت وكأنها أفاقت فابتعدت عن أحضانه التي أحست بقذارتها. أين أنا من أحضانك النقية الدافئة يا شريف. ليتك ما طلقنتني. أنت السبب فيما أنا فيه الآن مع هذا الوقح. كنت أعلم أنه يكرهك. لقد صار الآن ملاذي الوحيد. اليس عدو عدوي صديقي؟ أنت الذي أشعلت نيران هذه العداوة. كان بإمكانك أن تضربني. أن تمنعني عن الطلاق. كان بإمكانك أن تتنازل عن عنادك. أنت السبب. أرادت أن تبكي ولكن دموعها لم تطاوعها. إنها علي بعد خطوات من السقوط. إنها تري السرير من مكانها في الصالة. لا أريد أن أكون ساقطة. لن أسقط. قال لها في بجاحة وهو يحاول احتضانها ثانية ليقتنص قبلة من شفيتها الشهيتين:

— سنتزوج يا أمينة

— لا أحب الحرام

ضحك في سره. وهو أيضا ليس له في الحرام، ليس لأنه لا يريد، ولكن لأنه لا يستطيع. وعدها أن يتزوجها فقالت له:

- أنا لا أثق فيك
- مصلحتنا واحدة.
- أنت تخاف من زوجتك
- من خاف سلم
- سأذهب حالا
- لا. هل دخول الحمام كالخروج منه؟
- ماذا تقصد؟
- لقد أتيت هنا إلي برغبتك، وليس لك حق الخروج إلا برغبتني
- ماذا تقصد؟
- قلت سنتزوج
- قلت سنتزوج زواجا عرفيا
- هذا كرم مني
- لماذا؟
- سأدمر لك شريف، ومع ذلك سأتزوجك
- اقترب ليقبلها، أبعدته عنها. مزق ستائر حياءها. أمسك بصدرها بيديه ليقربها إلي صدره فأبعدته. قال لها في وقاحة:
- لماذا أنت هنا إذا؟ أنت تحتاجين إلي ما أحتاج إليه. أنت محرومة منذ زمن
- أنا هنا لتتفق أظنني عاهرة؟
- لا. معاذ الله. أنت أشرف من الشرف يا أمينة. أعدك ألا أمس شرفك
- بعد أن نتزوج سأصير ملكك
- سنتكلم إذا في الشرف والأمانة والكلام الذي لا يؤتي بشمته
- أراد أن يصفعها كما صفته من قبل، ولكنه اصطبر. لقد كان شريف يعتقد أنه أفضل مني. ها أنا ذا سأخذ زوجتك. لا طليقتك. لا.

لا تزعجني حتي وأنت في الحبس. أنت رميتها وأنا سألتقطها لأصوغ منها سلاحا يقضي عليك. لست أفضل مني يا شريف. الأشرار أيضا يكسبون. الأخيار والطيبون ينتصرون في الأقلام وفي النهاية فقط، أما أنا فسأنتصر الآن ودوما وحتى النهاية.

جلست في الصالة الفسيحة. طلب منها أن تدخل إلي غرفة النوم. رفضت بشدة. صب لنفسه كأسا ومني نفسي بليلة في أحضانه، ولكن يبدو أنه كان واهما. قدم لها كاسا ولكنها رفضت. قامت لتخرج من الشقة بعد أن احتضنها من الخلف. لم يستطع أن يتمالك نفسه. عضته بكل ما أوتيت من قوة. قالت له عبارتها الأخيرة: «لن تلمس مني شعرة واحدة إلا بعد الزواج».

كسر الكأس بعد أن ملأه الغضب. أزاحته بيديها. جلس علي الكرسي. خرجت وبشق الأنفس وكأنها خرجت من سجن الخطيئة. هرعت إلي الشارع. كانت تتلفت وراءها، في حين كان عادل يكاد أن يموت غيظا. الصبر. الصبريا عادل يا فوزي. الصابرون يكسبون أخيرا.

وصلت بيتها. لم تجد والدها ولا أمها. لم تجد أحمد أيضا. فتحت تليفونها. يا إلهي. كل هذه المحاولات من أبي وأمي للاتصال بي؟ تري ماذا حدث؟

رن هاتف البيت. مثلت أنها تتشاءب. نعم يا أبي. كنت نائمة بعد أن عدت ولم أجد أحدا. شم أبوها رائحة الكذب في صوتها. صدمها قائلا: «تعالى حالا إلي المستشفى. ابنك أحمد في الإنعاش يا أمينة».

ألقت بسماعة التليفون وسابقت قدميها هرولة إلي المستشفى. اعتلاها الخوف واستبد بها القلق. يبدو أن المصائب لا تأتي فرادي. كانت تجري ولا تشعر بمن حولها، وكانت تسير بعد أن أعياها التعب من الجري، وصورة ابنها يتألم لا تفارق عينيها. تري ماذا حدث لك يا أحمد؟ ماذا حدث لك يا ابني الحبيب؟ كانت تجري ودموعها تسبقها سعيا إلي ولدها الوحيد.

الهروب

أليس الهروب من واقع مؤلم أفضل بكثير من العودة إليه؟ أنا لا أريد هذا الواقع الذي يمتلئ بكل معاني السوء. لأبتعد عنه. لأبتعد عن عالم ممتلئ بالقذارة من حولي. ما الذي يجبرني إلي عالم قبيح لا أحبه؟ ما الذي يدفعني حثيثاً إليه؟ أنا هنا أفضل بكثير حيث لا يعرفني أحد ولا أعرف أحداً. إنني بالكاد أعرف نفسي. لا. لست أريد أن أعرف نفسي. ما الذي أفادني عندما حاولت أن أعرف مالا يجب أن أعرفه.

كانت مني لا تريد أن تفتح عينيها. ولماذا تعود إلي دنيا كرهتها. إن بشاعة المنظر الذي تعرضت له أمام أمها جعلها تكره أن تعود إلي الحياة ثانية. صحيح أنها ليست آثمة ولا مذنب، ولكنها أمها. علي أية حالة هي أمها ولا تستطيع أن تتنصل منها. تذكرت نظرات الضابط إليها مغمسة بكل معاني الاتهام. لاشك أنه اعتقد أنني مجرمة ساقطة. كيف لا أكون مثل أمي.

أمي أنا وحولها مجموعة من الساقطات. إنها حتي لم تدافع عن نفسها. كل ما فعلته أنها حاولت أن تدافع عني. حاولت أن تنقذني فإذا بها تلف حبل المشنقة حول عنقي. لقد أعدمتني بالفعل. كانت ستنقذني إذا أنقذت نفسها وبادرت بدفع التهمة عن نفسها. لقد استسلمت تماماً لتهمتها وكأنها تقرر وتعترف بأنها...

أمي أنا؟؟!

لا يعقل. لاشك أنني كنت أحلم. لا. لم يكن حلماً. إنه كابوس. إنه أسوأ كابوس يمكن لأحد أن يتعرض له. أكانت تريد مني أن أسافر إلي الكويت لأعمل معها هناك؟ أي عمل كانت تريدني أن أعمل فيه؟ أكانت تريد حقاً أن تبدأ حياة نظيفة كما زعمت. إن من يلقي نفسه بالطين ويتلطخ بالعار لا يمكن أن يتمني أن يعود إلي حياة النظافة ثانية. أية نظافة؟ نظرات الضابط كادت أن تقتلني. كانت نظراته لي كسهام طائشة تودي بشرفي. كانت نظرات الجنود تعرييني وتتهمني بأنني ساقطة. هذه ابنتها ولاشك أن ابنتها مثلها. لا. لست

مثل أمي. أنا مثل أبي. أبي رمز العفة والشرف والكرامة. أبي يعرف الله جيداً ويحافظ علي وعلي نفسه. أبي رمز الإيمان والخير. أبي ليس كأمي.

لن يصدق أحد. أيعقل أن يصدقونني وأنا مدرسة اللغة العربية والدين وأذهب برجلي إلي هذه الشقة كل خميس. هكذا تذكر تحرياتهم. أصدقون أن أبي رمز للاحترام والخوف من الله؟ كيف هذا؟ القرآن يقول الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات. أمي خبيثة إذا أبي خبيث. لا. سيدنا لوط وسيدنا نوح رزقهما الله بامراتين جعلهما الله مثلاً للذين كفروا، وفرعون الطاغية كانت امرأته مثلاً ضربه الله للذين آمنوا.

نظرات الضابط لم تتغير إلي إلا بعد أن تيقن أنني بريئة. لقد اطلعت علي بطاقته. الضابط محمد عوجة. لكم كان كريماً معي. لقد أنقذني الله من العار ومن الذل يومها. لقد وافق علي أن أركب معه سيارته بعيداً عن سيارة عساكر الشرطة بعد أن بكيت له وأقسمت أنني بريئة ولا أعرف شيئاً عن التهم التي يتحدثون بها. ظننت أنني سأنجو أو نجوت بالفعل. قد أكون نجوت من أجل أبي الطيب. رحمة الله أدركته وأدركتني، ولكنني سأظل ملطخة بعار أمي. ماذا لو عرف عمي وولديه؟!!

الخطأ لا يقع علي أنا وحدي. لماذا لم يخبرني أبي؟ أكنت سأصدق؟ كنت سأتهمه بأنه يحاول أن يشوه صورة أمي في عيني. أنا المخطئة. كان يجب علي أن أبلغه منذ أول يوم ظهرت فيه أمي في حياتي من جديد. لو كنت أخبرته لمعني منها. الخطأ كله علي أن أتحملة. لقد كنت مقتنعة أنها ماتت. كنت أحبها وأدعو لها. لماذا ظهرت في حياتي يا أمي من جديد؟ لماذا ظهرت؟ أكان ظهورك من جديد حباً لي أم رغبة في الانتقام مني ومن أبي. لقد طلبت مني أكثر من مرة ألا أخبر أبي وألا أخبر أحداً أنني قد علمت بأنها حية. كان يجب علي أن أفهم أنها تخفي أشياء كثيرة.

لا أريد أن أعيش. أريد أن أرجع ثانية إلي عالم اللاوعي. أريد أن أهرب إلي عالم الموت. أليس الموت خيراً لي؟ لا. لا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة. ألسن الآن في تهلكة وفي موت؟ وأمي هي التي ألقنني بي إلي التهلكة. لست مجرمة ولكن أحداً لن يرحمني. أمها ساقطة

وبالتأكيد هي أيضا ساقطة. اكف القدرة علي فهمها تطلع البنت لأمرها. مثل الأم مثل البنت. أليس هذا هو المثل الإنجليزي؟

أنا أرفض الحياة. أنا لا أريد الدنيا. نظرات الضابط محمد عوجة كادت أن ترحمني. لقد رحمتني بالفعل. أ يكون الندم قد أصابه عندما تأكد من براءتي. إن نظراته لي كانت مختلفة. إن نظراته كانت أقرب من نظرات محب التي تطاردني بالحب. ماذا لو عرف محب بأن هذه حقيقة أمي؟ أترأه سيظل متمسكا بي؟ لكم كنت سيئة معه. إنه قد ضرب بسببي، ومع ذلك لم أتحرك لنجدته، ومع ذلك جاءني مع ابنة خاله المدرسة وطلب يدي. لقد أرسل أمه لي لتخطبني له. تري من سيتقدم إلي الزواج بي إن علم بحقيقة أمي؟

بدأت الدنيا تسود في عينيها شيئا فشيئا. كانت تغيب عن الوعي وتعتقد أنها في كابوس، ولكنها كانت تعود إلي الواقع وتنتظر للممرضات والأطباء من حولها، تغيب عن الوعي وتعود، تفكر ثم يعيها التفكير فتغيب عن الوعي من جديد وهكذا.

سمعت ممرضة تقول لزميلتها إن الطبيب يقول يبدو أنها تعرضت لأزمة عصبية ونفسية حادة. مصصت الممرضة شفيتها وقالت ساخرة: «يبدو انها تعرضت لأزمة عاطفية حادة. ولا يهملك يا بنتي. لا يوجد رجل علي وجه الأرض يستحق أن نحزن عليه. لا يوجد رجل يستحق حزن امرأة ولا دمعة واحدة من أجله». تظنني عاشقة. أنا لم أعشق أحدا ولن أعشق أحدا. لقد كرهت الحياة بما فيها وبمن فيها.

أنا لن أفتح عيني هاتين. ليتني أصاب بالعمي. ليتني أموت. لا. النبي يقول لا يتمنين أحدكم الموت، فإن كان لا محالة قليقل اللهم أحييني ما دامت الحياة خيرا لي وتوفني ما دامت الوفاة خيرا لي. غابت عن الوعي ثم عادت من جديد. عادت هذه المرة وهي تري والدها بجوارها. كان متجههم الوجه. لاشك أنه غاضب. لا. أنت لست أبي. أنا أعرف أبي بلامحه الطيبة. أعرف أبي الحبيب بوجهه اللامع المتألئ المتبسّم المحب. أعرف أبي بحنانه المتدفق.

تبدو ضعيفة خائفة من نظرات والدها. إنها لا تعلم أنه كان يتبعها عندما ذهبت إلي الشقة المشؤومة. ماذا لو علمت أنه كان يخطط لقتلها عندما تعود. لقد أيقنت بغريزتها أن والدها قد تغير تماما من ناحيتها. إنها ضعيفة الآن لدرجة أنها لا تكاد تقوي علي مجرد الحديث معه.

ماذا لو علمت أن السكينة لاتزال بجيبه. ودت لو أنها تستطيع أن تعتذر له. اعتذرت له بالفعل بعينيها. نظرت إليه وحاولت أن تمسك بيديه. سحب يديه بسرعة. لمحت آثار جرح حديث بيديه. ودت لو لعقت يديه وقبلتهما من مكان الجرح. لقد سببت لي أمني جراحا لا مثيل لها، لم تكن تعلم أنها سبب هذا الجرح. نظرت إليه في حب وحاولت أن تنطق. الكلمات تخرج من فمها بصعوبة. قالت في وهن:

— أسفة يا بابا

رمقها بغضب. تحسس سكينه. أغلق الباب برفق. نظر فلم يجد أحدا من الممرضات. ها أنا ذا أنفرد بك وحيدا يا مني. يمكنني أن أقتلك الآن. لقد كنت أنتظر خلف الباب أيتها الفاجرة. قتلك الآن أسهل بكثير علي. لن أقتلها بالسكين. سأخنقها. عندما أخنقها لن تظهر أية آثار للدماء أو الجروح بجسدها. أيتها الفاجرة، كيف هان عليك والدك إلي هذه الدرجة.

اقترب منها. نظرت له في ابتسام وهي لا تدري سر تجهمه وغضبه. قالت له بصعوبة وبشبه استسلام وهي تجاهد ضعفها:

— سامحني يا بابا

لن أسامحك. لقد مرغت شرفي في الوحل. وضعت رأسي في الطين. عاوده الهدوء. تذكر كلمات الشيخ. علينا أن نتأكد بأربعة شهود. يمكننا أن نكتفي باعترافها. ها أنت الآن يا مني في طريقك للاعتراف. يبدو أنه قد اقترب أجلك. الشيخ قال لي الحاكم هو الذي يطبق الحدود، ولكن هل الحاكم يتفرغ لمثل هذه الأشياء؟

وضع يده علي رأسها في تظاهر بالحنان ونظرات عينيه تفضحه. قال لها وهو يداري غيظه:

— أسامحك؟ هل أخطأت؟

أومأت برأسها. ها هي ذي تعترف. انتظري يا عشماوي. إنها تتحدث معك. ألا يمكن أن تكون غير مدركة لما تقوله؟ سأنتظر. تحدثي يا ابنتي. لا. لست ابنتي. ابنتي شريفة عفيفة. جاهدت نفسها ثانية وقالت:

— أعلم أنني أخطأت يا أبي. أرجوك سامحني هذا يكفيني. هذا اعتراف مني. أمسكت يده التي بها الجرح وحاولت

أن تقبلها. سحب يده بسرعة وقال: «أستغفر الله العظيم»، سحب يده وكأنه يزيلها من النجاسة التي يزعج أنها لحقت به عندما مس فم ابنته يده. كان يريد اعترافا صريحا منها. ربت علي يديها وقال:

— اعترفي لي بكل شيء

— بابا...

— نعم يا مني

— أنا أسفة

— لماذا تتأسفين؟

— قابلت أمي ولم أقل لك

— ماذا؟

— قابلتها ولم أخبرك

لقد ضعت إذا يا مني بسبب أمك. هي التي أغوتك. حاولت أن تتكلم ثانية، ولكنها لم تستطع. قبل أن تغيب عن الوعي قالت له:

— لم أفعل أي شيء يغضب الله يا أبي

لماذا تحيريني يا مني؟ أنت بريئة إذا؟! نيران شكي تحرقني.

يا رب رحمتك. غابت عن الوعي من جديد. تساقطت دموعه. لم

تفعل شيئا يغضب الله؟ هي بريئة إذا. لا أستطيع أن أقتلها. إنها

ابنتي التي كنت أنتظر أن تمر اللحظات حتي تكبر. كيف أجتث

روحها وأنا أراها تقول لي: «لم أفعل شيئا يغضب الله». وكيف

ستعترف لي إذا بخطيئتها؟ قالت لي إنها قابلت أمها ولم تخبرني.

يا رب أسألك رحمتك.

دخلت ممرضة يصحبها طبيب. قال الطبيب محذرا:

— لا تجعلها تتكلم كثيرا. الكلام خطر عليها جدا. لقد تعرضت

لصدمة هائلة. يبدو أنها لا ترغب في الحياة

— حالتها خطيرة يا دكتور؟

— الله أعلم. تفضل اخرج. الكلام معها خطر علي حياتها. ماذا

حدث لها؟

— والله لا أعرف يا دكتور. عادت إلي البيت ثم سقطت مغشيا

عليها

— ربنا يلف بها وبنا. النوم في حالتها أفضل

— يعني هي بخير؟

- إن شاء الله ستكون بخير
- بدأت الممرضة في تعليق بعض المحاليل لها. كان الطبيب ينظر للأب وكأنه يستحثه علي الخروج من الحجرة.
- خرج إلي حيث وجد المعلم زين قلقا. وجد مبروك بجواره يسير ذهابا وإيابا في ردهة المستشفى ، بينما انتحلت سامية بعيدا علي أحد الكراسي وغلبها النعاس. كان مبروك يسير وعيناه عليها وكأنه يحرسها. نظرات الحب لسامية تختلط بنظرات قلقه علي مني ابنة عمه. انحسرت وانكسرت نظرات الشهوة في عين زين تجاه سامية علي الرغم من أنه لايزال يرغب فيها.
- أتجه لأخيه وطلب منه أن يرجع إلي بيته. طلب من مبروك أن يأخذ الست سامية ويرجعها إلي البيت. أفاقت سامية. رفضت أن ترجع إلا بعد أن تطمئن علي ابنته مني.
- نظر زين أمامه فوجد محب يهرع إليه ويسأله :
- هل الأنسة مني بخير؟
- لم يرد أن يجيب علي تساؤله. ابتعد عنه. ولما سأله مرة ثانية، قال في غيظ:
- أنت هنا مرة ثانية أيها الافندي؟ ألم تكفك العلقة الماضية؟
- أنا هنا لأطمئن علي الأستاذة مني
- تدخلت ابنة خاله نوال لإنقاذ الموقف وقالت :
- نحن هنا لنطمئن علي الأستاذة مني
- لم تكذ نوال تنتهي من عبارتها، إلا وكان سالم العداوي خال محب يقترب من الشاويش ع شماوي. حياه واحتضنه. قال سالم:
- ألف سلامة علي الأستاذة مني
- شكرا لك حضورك
- حضرت حسب موعدنا لنخطب مني ابنتك لابن أختي الباشمهندس محب بعد العشاء ولكنهم أخبرونا أنها في المستشفى
- الحمد لله
- إن شاء الله تكون بخير
- إن شاء الله
- ألف سلامة عليها
- ربنا يحفظك. كلك ذوق وأصول

أسعدت كلمات الرجل مبروك. إذا ستخطب مني لهذا الشاب.
يمكنه أن يسعد ويهنأ الآن. سيخطب سامية. نظر إليها في فرح. وقف
الحاج زين والده وقال في غضب:

— لأمواخذة يا أستاذ. ابني المعلم مبروك سبق وطلب يد الأستاذة.
ابن عمها أولى بها

نظر عشناوي لأخيه وكأنه يعاتبه علي فظاظته في التعامل مع
الضيف. اقترب من أخيه وقال له:

— ليس هذا الوقت مناسباً الآن

ثم انهمك في الترحيب بضيفه وبأخته وابنته ومد يده ليصافح
المهندس محب، في حين كان المعلم زين يكاد يموت غيظاً وهو ينظر
إلي سامية التي كانت تغط وقتها في نوم عميق. سبحان الله كانت
تنام في هدوء ووداعة، في حين كانت مني في الحجرة المجاورة تغيب
عن الوعي وعن الدنيا ثم تعود ثانية في غيبوبة تتمني ألا تفيق منها
أبداً، ولكنها كانت تفيق رغماً عنها فتتمسك بالهروب من واقعها
إلي غيبوبة قد تكون أفضل حالاً بالنسبة لها كما تعتقد.

صباح أمل وغموض

صباح جديد يشرق بنور الحب والأمل والبهجة والفرحة.
صباح يطل مبتسما ويهب الفرحة والبسمة لقلب تفتط من شدة
الحب والام التجاهل لفترات طويلة. صباح يتنفس عشقا ويقطر فرحا.
سأراها اليوم وستكون متيقظة. سأحاصرها بنظرات حبي بعد أن
أتعبتني بنيران عدم اهتمامها بي. سأكون أمامك يا مني. لحظات
وأكون بجوارك لأتملي من نور عينيك. أتمني أن أري في عينيك فرحا
وسعادة لا تجهما ولا حزنا ولا كآبة.

هكذا رأي محب بدايات هذا الصباح وهو يشتري الزهور والورود
قبل أن يذهب إلي مني لزيارتها في المستشفى. قد تخرج اليوم وتعود
للمنزل وقد يرافقها إلي بيتها ويتحدث مع والدها الحاج عشاوي
جمعة. اشترت نوال أيضا بعض زهور الفل والنجس وعقدا من
الياسمين، وزينت السيارة بها.

كانت نسמת الصباح تزرع داخله نور الأمل إذ تهل صورة مني
في خياله. سيتحقق الأمل أخيرا ويرتبط بها بعد شهور طويلة من
تتبعها والتبتل في محراب حبه. سينالها بعد أن أنشد أشعارا فيها.
لقد أطارت عقله. أكثر ما كان يزعجه نظرات أمه إليها. إنها تري
نوال أفضل منها وأجمل منها. إنها تري نوال جديرة به. يبدو أنها
تريد أن ترضعه من جديد الحب لنوال. نوال ابنة خالي. إنني أراها
كأختي. صحيح أنني كنت معجبا بها في البداية لنبوغها وتفوقها
في الدراسة. كنت أتنافس معها. دخلت الطب ودخلت أنا كلية
الهندسة. كنا نختلف وننشاجر كأطفال. إنني قد كبرت ونضجت يا
أمي. إنني أحب مني ولا أري غيرها وسأتزوجها. سأزوجها بغض
النظر عن أصلها وعن فصلها يا أمي.

حمل الزهور والورود برفق، وضعها داخل السيارة بهواده في حين
كانت عيون نوال علي شفا السقوط في بحار الدموع والحزن. الأمل
صار ضعيفا يا نوال. يبدو أن نظرات والدها كانت علي صواب. إنه
كان يحس بما سأصاب به، ولكنه خاله. لقد أقنع خاله بالذهاب

إلي عشاوي والد مني ليطلب يدها لابن أخته. أما كان الأجدر أن تخطب ابنة خالتك؟! لقد كبرنا سويا وكنت أري حلمي في الاقتران بك يتزايد، ولكنك اغتلت حلمي وقتلت أمني. إني أراك تصر علي أن تقبر مشاعري، إنك تصر علي قتلي كل مرة تحدثني فيها عن حبك لمني. فلتشبع بها ولتشبع بك. أليس هذا قدرتي؟ ومن يملك شيئا في الأقدار وفي المصائر؟

تري ماذا لو كانت هذه الزهور من أجلها؟ إنها تطمع بحبه ولازال الأمل يراودها في أن يكون لها. كيف وهي تعلم أنه صار علي بعد خطوات من الخطوبة من غريمتها مني. إنها تشفق عليه، وتنظر له في حسرة. من غيري ستحبك كل هذا الحب يا محب؟ أنت لا تشعر أنني أعلم أنني في الطريق إلي الضياع من بعدك. لقد غرس حبك في قلبي منذ أن كنا طفلين نلهو أمام أهلنا، لقد كنت نور الطفولة وآمال الصبا. لقد نما حبك وترعرع داخلي في فترة المراهقة، ونما وبلغ أشده عندما دخلنا الجامعة سويا. كيف لي أن أقتل هذا الحب بعد أن بلغ تمامه؟ مسكينة أنا، ولكن ماذا بيدي أن أعمل؟ أليس هذا اختياره؟! صدقت عمتي. أمك صادقة يا محب. أنا أجمل منها بكثير، ولكنك لا تري غيرها. كانت عمتي دوما ما تقول: «تعسا للجميلات. لا حظ لهن. أما القبيحات فهن أكثر حظا». لا. أنت الذي لا حظ لك يا محب. أنت برج العذراء. مساكين أصحاب هذا البرج. لا حظ لهم. ستخسرنني. ستخسر قلبا كان علي أتم الاستعداد أن يتمزق من أجلك. يعمل أي شيء ليرضيك. يتحمل أثقال الجبال حتي تكون سعيدا. يبدو أنك لا تستحق هذا الحب. أنتم الرجال تريدون من تجرون وراءها. أنتم لا تريدون من تجري وراءكم. أياكون هذا أكبر خطأ ارتكبته؟ ستري قدرك وتسير في طريق مصيرك.

أزعم أن كل نظراته كانت تنطق بحبي. أزعم أن كل فترات صمته كانت تشي بحبي. ما الذي حدث لك فتغيرت؟ ما الذي أصابك فجعلك عني قد تحولت؟ أما كنت ترغب في البقاء معي لأطول فترة؟ أما كنت تحدثني بالهاتف ساعات قبل أن تعرف مني؟ إني لا أدري كيف ضعت مني؟

كان يقود السيارة وعقله وقلبه يبعثان له بكل رسائل السعادة لأنه سيري مني. سيكون قريبا منها وهي نائمة علي سريرها. لقد صارت

مني في حكم خطيبته. في المرة الماضية ذاق علقة شديدة بسبب حبه، واليوم سيرها ومعها أبوها ومعها. لقد ذهب خاله والد نوال وقابل والدها وطلب يدها. لقد سلم علي الحاج عشاوي واعتبره كوالده. إن والد زوجتي سيصبح كوالدي تماما. سأراها وأغوص في بحري عينيها. سأقتلع كل ظلمات الحزن التي كنت أراها في عينيها. سأكون لك يا مني كما تريد.

سأكون لك أملا يملأ حياتك وحلما ينير ثنانيا عمرك. سأظل لك وبجوارك. سأكون أمسك السعيد الذي رحل وتتمنين عودته، ويومك السعيد الذي تعيشينه وتتمنين أن يدوم، وغدك السعيد الذي ستتمنين أن يهل عليك وأنا معك وأنت في جوار أحضاني وهمس مشاعري وجنة أشواقي ونعيم حبي. سأجعلك ترفلين في يم تتلاطم أمواجه من فرط السعادة، وتتشابك الريح حولك لتنهل من عبق فرحة الحب التي سنوزعها علي العالم كله فلا يوجد مكان للكراهية أو الحزن بعد. أما نوال فكانت تتظاهر بالبرود وعدم الاهتمام. سيضيع حب عمرها. لقد ضاع بالفعل إذ كان يحدثها عن مدي عشقه وهيامه بمني. لقد أنكر كل مشاعره ومسح ماضيا كان يسعدها. إنه لم يقل لها صراحة أنه يحبها، ولكن أمه كانت دائما ما تصفه بأنه لاجئ علي بيت خاله. كانت تعرف أن السبب نوال. ما أقسى الرجال. إن المرأة مظلومة في عالمنا العربي. حق الرجل أن يبدأ الغزوة العاطفية. يجيش جيوش مشاعره، ويعد عدة لسانه وكلماته وأشعاره ليوقع بالفتاة التي تخر صريعة في أتون معركة الحب، فإذا ما سقطت بدا ينسحب انسحابا تكتيكيا. لم أعدك بشئ. أنت التي سقطت صريعة حبي. أنا برئ لم أفعل شيئا. أنت التي انجذبت إلي نيران مشاعرك. ينسحب ويتركها غائصة في بحار الألم ودموع الندم، ثم يجري في غزوة جديدة، ومعركة قادمة يجهز لها كل أسلحته. نفس الذئب ونفس الأنياب. نفس الآلام ونفس الضحية ولكن في صورة فتاة اخري كغزالة ضلت طريقها، فينتظر ذئبها اللحظات الملائمة للانقضاض علي فريسته. يبدو أنه انسحب من ساحة حبي بعدما كنت علي وشك أن أعترف له بحبي؟ الحمد لله أني لم أعترف. أما أنت يا ذئبي يا محب فلقد اعترفت. أنت خائب مسكين. لقد تركت قلبي يحبك. لهوت به كعصفور اعتاد علي ملاطفك إلي ان صار أسيرا لك، ثم

ها أنت ذا ترميه في الطين بل تدفنه في تراب عدم الاهتمام والتجاهل.
أنا أحبك، ولكنني لن أموت بدونك.

كادت أن تبكي ولكنها تظاهرت بالقوة. قالت له :

— لكم ستكون مني سعيدة معك يا محب !!

— أنا أحبها منذ أول مرة رأيته فيها

— تقصد منذ أول علة نلتها بسببها

— الحب يعني الألم والمعاناة

— المفترض ان يكون الحب سببا في السعادة لا الألم والمعاناة

— الرجل يحب المرأة الصعبة. المرأة التي تربه الويل ونجوم الليل

— وهذا ما فعلته مني بك؟

— طبعاً. لم تظهر رقة ولا شوقاً ولا حبا

— لذا جريت إليها وكنت في موكب حبها

— الرجل يريد قصة حب يعيش بها ولها وعلي ذكرها طول العمر

— يا سلام !!

— يريد أن يتذكر ما فعلت به الحبيبة

— تقصد أنه يريد أن يعذب في الحب؟

— طبعاً. وماذا في الحب من لذة غير العذاب؟

كنت صغيرة لا أفهم وأنت من علمتني. لقد كنت أول حب في

حياتي وكنت أول أمل لي في الحب. كنت أول حلم لي. هل أنا

مخطئة لأنني لم أجعلك تتذوق طعم الألم والمعاناة والعذاب في الحب؟

لم أكن أعلم طبيعة الشباب. أحبيبتك في صمت.

فتحت هاتفها. قرأت رسالته التي كانت محتفظة بها. غضبت

منه عندما قررت أن تبعد رغماً منها عنه عندما بدأ يصرح بإعجابه

وحبه بمنى التي سلبت ليه. لم تعد ترد عليه. صارت تتحدث مع

زميلات طويلاً عساه يلتفت إليها ويهتم بها. أه أيها القلب العاجز.

كانت تحاول الاتصال به فلا يرد. لا يهتم. صارت تبادله تجاهلاً

بتجاهل وبعداً ببعد. ألا تعرف أن العشرات لديهم أمل أو أمنية أن

أرد عليهم فقط التحية. عشرات يتمنون أن أنظر إليهم. لا أدري لماذا

أنا معلقة بك هكذا؟ لا أدري سر انجذابى لك بعد أن كشفت عن

حبك لمنى. أهو سر الحب الذي يأسرنا في قلبك من نحب حتى ولو

كان سيرحل عنا إلي غيرنا؟ أهو سر النفس البشرية التي تهرع إلي

من لا يحبها في حين أنها تنفر من الذي يحبها؟ من تظن نفسك؟
أه. أنت حبيبي. أنت من كنت حبيبي. لا. ستظل حبيبي رغمًا
عني. كيف يا نوال؟ إنه تقريبًا قد خطب غيرك. لازل لدي أمل.
تبًا لك أيتها المتخلفة. لقد ضاع بالفعل منك. لا. لم يضع. لازالت
أمامه فرصة ليعود إليك. لا تكوني ضعيفة هكذا. إنه يظل بالساعات
يشرح لك حبه. أنسيت أيتها الغبية عندما أخذك وذهب بك إلي
المدرسة التي تعمل فيها لمقابلتها. كنت تريدين أن تظهر لي أنه
لا تهتممين.

فليتزوجها أو فليتزوج غيرها. أريد ان أكون معه إلي آخر خطوة.
يا محب إنني أضيع بعيدا عنك. إنني أضيع منك. فلتفهم أيها
الرجل. أرجوك لا تضيعني منك. كل هذه التحذيرات ولا يفهم. إنه
يفهم، ويفهم جيدا، ولكنه لا يريدك. أنت لم تكن لديك القدرة علي
الاحتفاظ به في شباكك. أخذته مني منك بعدم الاهتمام وبالتجاهل
حتي سقط في شباكها فريسة لا حول ولا قوة له. إنه يريد فتاة صعبة.
أنت لست مثلها. إن قلبك يا نوال ضعيف لا يتحمل البعد عنه. تعود
ذليلة خائفة وتعاود الاتصال به. أيها القلب الخائب. إنه يحب
غيرك. سيخطب مني. أعيش علي حبل الأمل. لا. الحب قوة وليس
ضعفا. ماذا جري لك يا نوال؟ إنه الحب. تعسا للحب ولسنينه إن
كان سيذلني وبشل إرادة عقلي ويخدع تفكيري.

كان يقود وهو يغني. سيرى مني. قد يكلمها. تأملت رسالته التي
كانت تحفظها عن ظهر قلب عندما بدأت رحلتها في طريق تجاهله
قبل أن تفقد الأمل فيه كلية، وعندما بدا أملها فيه يخفت شيئا
فشيئا إلي أن يقترب من التلاشي. قرأت الرسالة:

«مشغول هاتفك وسعيد محادثك ومتالم من ينتظرك للرد عليه.
سعيد من سبقني وتكلمينه. إنه لذو حظ عظيم بك يا أميرتي المتوجة
ويا نوال المليكة السعيدة. مولاتي، انتظرت طويلا حتي تردى. مستعد
أن أنتظر طويلا حتي مطلع الصباح وسأنتظر حتي تغرد الطيور في
الصباح، ومستعد أن أواصل انتظاري حتي يشيب الأطفال، وحتى
ينتهي ربيعي مع أحلام الأمل في التحدث معك فيصير ربيعا أخاله
دائما لا ينقطع ولا يتحول. مليكتي، سأظل بباب مملكتك واقفا
منتظرا، فعساي أن تأخذك بي شفقة أو أصيب منك رحمة أو نظرة.»

كبتت نوال كل ما بداخلها. ابتسمت ثم قالت لمحـب :

— ماذا ستفعل لو رفضت مني الخطبة؟

— فأل الله ولا فألك

— مجرد سؤال

— إن شاء الله ستقبل الخطبة

— هل أنت متأكد؟

— طبعاً. لقد عملت الكثير من أجلها

— أتمني لك كل سعادة

— ما رأيك في مني؟

— ليس المهم رأيي. المهم رأيك أنت

— أنا لا أري في الوجود سواها

— وهي؟ أقصد هل تعتقد أنها تحبك؟

— سؤال لم أسأله قط لنفسـي

— ربنا يسعدك يا محـب

— أأتمنين السعادة لي؟

— طبعاً. أنت ابن عمـتي

— شكراً لك يا نوال

— ما آخر أشعارك فيها يا محـب

— اسمعي يا نوال

بأي عين في الوجود أراها؟ أكان حلماً في الوجود سواها؟

قدر سعيد قادني لخطاها أراه نوراً في لظي نجواها

رباه حمداً سرني لقيها رباه يسر أن أعيش هواها

وهبت لي عمراً أرتجي رؤياها أنا لا أري في السـوري إلـاها

ما لي بديل في الحياة عداها شمس الزمان وأصله ذكراها

واصل محـب قيادته للسيارة، في حين واصلت نوال ذكرياتها.

سقطت الدموع غزيرة من عيني نوال، ولكن محـب لم ير هذه الدموع

إذ سارعت نوال بوضع النظارة الشمسية علي عينيها حتي لا يراها

محـب الذي كان غائصاً في أشعاره التي كتبها في محبوبـة لا يكاد

يعرف عنها أي شئ. كان يمني نفسه برؤيتها والتحدث إليها، ولكنه

كان يبدو واهماً. لقد كانت هناك مفاجأة في انتظاره. وعلي الرغم من

تفاؤله وسعادته بهذا اليوم، لم يكن يعرف أن هذا اليوم سيكون من

أكثر الأيام التي كانت تخبئ له المزيد من الحزن والألم. سيرها. سيري مني للحظات. سيسعد بلقائها ويظن أن الدنيا قد ابتسمت له، ولكنه لا يدري ماذا سيحدث له بعد ذلك. يبدو أن أهل برج العذراء أقل الناس حظا. قد يكون قدرك هكذا يا محب؟ لقد رضيت بأن تقتل حب نوال، كنت تعلم انها تحبك، وهكذا أخبرتك أمك. إنها الأقدار والمصائر. ألسنا نسير في طريقها وفي طريق أقدارنا المحتومة؟ لنا الله. هكذا قالت نوال بعد أن كففت دموعها وخلعت نظارتها فبدت عيناها الجميلتان في أبهى صورة، ولكن محب لم ينظر إليهما إذ كان لا يزال في هيامه بعيني فأتنته مني عشاوي.

الماضي يطل برأسه

سيارة دفع رباعية سوداء تتبع سيارة محب. لم يلحظها في البداية، ولكنه مع مرور الوقت بدأ يتذكر سائقها الذي كان يتبعه في مهارة فائقة. سرت رعشة من الخوف علي وجهه. قال والخوف يعتريه: «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم». تساءل في نفسه: أين رأيت هذا الضابط من قبل؟ أه. تذكرته. الرائد علي. يالأيام السوداء!! لماذا تظهر الآن أيها الماضي ولماذا تطل برأسك مخوفا لي واليوم بالذات؟ لماذا تظهر لي في هذا الصباح الذي ظننته سيكون صباحا سعيدا. يا ربي. يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. ربنا يستر.

كان وجهه متجهما. لقد تذكرته. كانت أيام ومضت. لم أعتد مهتما بالسياسة الآن. فلتحترق البلد. لقد طلقت أيام السياسة والاهتمام بها. أنا متفرغ الآن لحبي. سأعيش حياتي. بلا سياسة بلا وجع دماغ. البلد ضائعة ضائعة وما يريدونه يفعلونه. لا فائدة. هكذا قالها من قبل سعد زغلول. شعب أمي جاهل. شعب مقهور ذليل منذ أيام الفراعين. لا يجدي أن تفعل أي شئ معه.

نظرت نوال إليه وقالت:

— ماذا بك يا محب؟

— لاشئ

— كيف تقول لاشئ. وجهك متغير.

كانت تحس به قبل أن ينطق. تشعر به قبل أن يتكلم. خشيت أن يكون حديثها معه ضايقه. لقد قالت له ماذا تفعل إن رفضت مني الخطبة. يبدو أنها يجب أن تكون أكثر قبولا ورضا بالأمر الواقع. سيخطب فتاة غيرها. بدت هادئة للحظات ثم قالت له وهي تتصنع السعادة وترسم البسمة الكاذبة علي وجهها:

— إياك أن تكون قد غضبت من كلامي. يجب أن تكون سعيدا اليوم. سيتحقق حلمك وأملك وستخطب مني. ستخطب فتاتك التي جعلت منك شاعرا.

— لا يمكن أن أغضب منك أبدا. أنت بنت خالي ومثل أختي تماما

- وأنت ابن عمتي وأتمني لك السعادة
- وأنا أتمني لك كل السعادة والحب
- حب؟ أي حب؟ وهل يوجد في الدنيا أي شيء يطلق عليه
- الحب؟ إنه وهم وخيال من اختراعنا يا محب.
- معقول؟ ماذا حدث لك؟
- الحب في الأفلام وفي القصص والروايات فقط
- أنت التي تقولين هذا الكلام يا نوال؟
- أتمني أن تسعد بحبك يا محب
- إن شاء الله. لا أدري ما الذي غيرك
- أنا لم أغير. أسأل روحك.
- أدار محب أغنية أم كلثوم بعد أن بحث عنها. كانت تشدو: «أنا
- غيرني هوي في حبك بعد ما كان حبي مصبرني. غدرك بي أشر في
- واتغيرت شوية وشوية واتغيرت ومش بإيديا.»
- يسرع محب قليلا في القيادة ويهيم في معاني الأغنية. لبست نوال
- نظارتها وسقطت دموعها من جديد وهي تتذكر حبها الضائع وأيامها
- التي ضاعت من عمرها في حب قد يكون حكم عليه بالإعدام أو في
- طريقه إلي النهاية المحتومة. يسرع محب قليلا فتسرع السيارة السوداء
- وهي تمرق من خلفه. يبطن فتبطن، ولكنه يتابعها في المرآة الجانبية
- ومرة المنتصف. حذرت نوال قائلة:
- أشعر أن هذه السيارة السوداء التي خلفنا تطاردنا. إنها تتبعنا
- منذ فترة. هل تعرف سائقها؟
- أعرفه تمام المعرفة
- من هو؟
- سيادة الرائد علي الصفتي
- محب، لقد وعدت ماما أن تباعد عن السياسة
- والله ابتعدت عنها منذ آخر مرة بت فيها في الحبس
- لماذا يتبعك إذا؟
- والله لا أعرف
- ربنا يستر
- ودت لو صرخت نوال من السعادة وقالت: «بركاتك يا مني. وجه
- النحس»

تابع محب القيادة في هدوء. لقد تذكر كيف عامله هذا الرائد بمنتهى القسوة. لقد صفعه علي قفاه. قال له وقتها:

— أنت شاب محترم وابن ناس. يا بني ابتعد عن سكة السياسة وقرفها. يا بني نحن نعرف كل شئ في هذه البلد. حرام عليك. أمك سيدة كبيرة. لا نراك وجهها للبهدة. ارحم نفسك. لا تجعل أي أحد يستقطبك. كن مصرياً شريفاً، وعش بجوار الحيط. ليته ما سار في هذه المظاهرة. أراد أن يعلمه بشكل عملي. أتى بشاب كان بجواره في المظاهرة، وانقض عليه ضرباً وركلاً. قال له في تخويف ظاهر: — بلدك مصر تحبك. لا نرضي لك الذل والإهانة. ستخرج اليوم من هنا وأمل ألا أري وجهك ثانية. دع السياسة لأصحابها. أنت شاب محترم. مهندس. عليك بعملك وابتعد يا بني عن السجون والمعتقلات وقرفها. ابتعد الرائد عن الشاب وأمر أحد العساكر أن يكمل ما بدأه من ضرب. أسال الدماء من كل مكان بجسده. يبدو أن العسكري قد أعياه الضرب. صاح الشاب الذي كان بجواره في المظاهرة في إعياء واضح: — أنا مصري وأحب مصر أكثر منكم. دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلي قيام الساعة. حسبي الله ونعم الوكيل فيكم.

اغتاظ الرائد وضرب الشاب بكل قوة بلكمة في فمه، فصرخ الشاب من الألم. تبع لكتمه بلكمة أخرى في أنفه فانفجر الدم من وجهه وسقط الشاب مغشياً عليه.

بدا الخوف علي وجهه. نظر محب إلي جثة الشاب الملقاة علي الأرض، وهو في ذهول. أتكون مناظر التعذيب والقسوة التي نراها في الأفلام تحدث حقيقة؟ أيمن أن يحضروا والدته إلي قسم الشرطة؟ أيمن أن يعتدوا عليها أمامه؟

نظر إليه الرائد وابتسم وقال وكأنه يكشف له كل شئ عن حياته وأنه مراقب:

ونعرف أنك تحب وتكتب شعرا. نعرف أقاربك كلهم واحدا واحدا. نعرف خالك وابنة خالك. يا بني كل واحد في البلد له سجل عندنا منذ أن ولد وحتى أن يموت. أسف يا محب. لدينا ملفه من قبل أن يولد. افهم جيدا. اعقل يا بني وعد لصوابك. بلا أحزاب بلا وجع راس. أنا أعلم أنك عاقل ومتعلم وشاب مثل الورد. أنا أنصحك لوجه الله. هذه اول مرة تشرفنا هنا،

وأنت ضيف. أتمني أن تكون هذه آخر مرة أراك فيها هنا.
أقشعر بدن محب. تراءت له صورة أمه وهي تصرخ. تراءت له
صورة أمه وأحد العساكر ينزع عنها ملابسها ويحتضنها ويريد أن
يغتصبها أمامه. صرخ وقال:

— لا

نظر إليه الرائد علي الصفتي في غضب وقال له:

— لا؟ أتقول لا؟

— آسف يا سعادة الباشا. أقول لا بمعني أنني لن أكون هنا ثانية أبدا

— تعجبني يا محب

— يا باشا الدولة والحكومة وكلكم فوق رأسي. أنتم علي صواب.

ماذا يريد المخربون إلا ضياع البلد

— لذا يا بني نضربهم بيد من حديد. تكفينا المخاطر الخارجية.

نريد أن نحافظ علي مصر بلدنا.

— معك حق يا باشا

بدت ابتسامة عريضة علي وجه الرائد. سيتراجع هذا الشاب.

ستتراجع يا محب إذا. صدق المثل القائل: «أضرب المربوط يخاف

السايب». فعلا شعب يخاف ولا يخاف إلا بالعين الحمراء.

عاودت الشاب الملقبي علي الأرض بعض آثار العافية. حاول أن

يقف علي رجليه. نظر في عيني محب وقال له:

— لا تصدقهم يا محب. نحن نحب مصر أكثر منهم. نحن نحب

الوطن وسنعارضهم حتي الموت. لن تخيفونا بالضرب وبالتعذيب.

الله أكبر وتحيا مصر.

استبد الغضب بالرائد. ظل يصفع الشاب إلي أن وقع ثانية. أشفق

عليه محب، وأمره أن يسكت. قال الشاب في إعياء. لن نسكت.

الحرية. الحرية أيها الظالمون.

نادي الرائد علي أحد المخبرين. أخذ منه عصاه وانهاه بها ضربا

علي جسد الشاب وعلي رأسه. سالت الدماء من الشاب أكثر، ولكنه

لم يسكت. صاح الشاب في عناد وتحد، وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

— الحرية. الحرية

نظر الرائد إلي الشاب وقال له:

— هل أنت رجل؟

- آه
- من الآن لن تصير رجلا
- أنا رجل وسأموت رجلا
- ستموت ولكنك لن تصير رجلا
- أمر أحد العساكر أن يخلعه ملابسه. جرده عاريا تماما. اقترب الرائد منه وقال:
- سأجعل أحدهم يركب عليك كما تركب النساء
- اقشعر بدن محب. راعه كم الدماء المتدفق من الشاب. تظاهر بأنه يتراجع إلي الوراء. سجل كل ما يحدث علي تليفونه المحمول. قبل يد الرائد. أقسم الرائد أن يجعله عبدة. ابتسم وقال في عنف ظاهر:
- سأجعل هذه العصا كلها في داخل مؤخرتك أيها الوقح.
- بلغ الذهول بمحب مداه. الشاب لا يكاد يشعر. قال الرائد للشاب:
- قل أنا مرة
- لم يبد أن الشاب قد سمع. كاد الرائد أن يقف بقدميه علي رأس الشاب. اقترب منه محب ورجاه أن يتركه. اقترب محب من الشاب وربت عليه والدماء تنزف بغزارة منه. قال له في رجاء:
- اعتذر لسيادة الرائد
- لا. أنا رجل.
- أرجوك
- ظالمون. كفره
- يا بني أنقذ نفسك
- لا
- أشعل الرائد سيجارة وقال في أسف وسخرية:
- لا. أنت لا زلت تقول لا؟ يا بقر تعلموا. الكل يجب أن يقول نعم. أم كلثوم قالت: نعم أنا مشتاق وعندي لوعة. عبدالحليم حافظ غني وقال: نعم يا حبيبي نعم. حتي في التراث الشعبي: أما نعيمة نعيمين. أغبياء من يقولون لا. يا جماعة نعم. من يقول لا سنسحقه. بدا الاستسلام علي وجه الشاب وقال بضعف:
- لا. الحرية. لا
- أدخل الرائد العصا في مؤخرة الشاب. شهق الشاب شهقة لم يتحرك جسده بعدها. نظر الرائد إلي احد الجنود وقال:

- استدعوا أحد الأطباء ليكتب تقريراً بأنه مات ميتة طبيعية.
- كاد محب أن يتقيأ كل ما في بطنه. لدي تسجيل بكل ما تم. إما أنا وإما أنت أيها الضابط. نظر محب إلي صورة الرئيس المعلقة علي الحائط. ود أن ينقض علي الرائد وعلي العساكر فيضربهم، ولكن ماذا يجدي وهو بمفرده وكل هؤلاء حوله. قتلتم الشاب أيها المجرمون. حسبي الله ونعم الوكيل فيكم.
- كانت تنتابه كوابيس كثيرة أثناء النوم. دم هذا الشاب في رقبتك. وماذا أفعل. سأسير علي الطريق المستقيم. لن أظاھر. سأقول نعم دوماً. أنا مع الحكومة.
- طرأت كل هذه الذكريات في ذهن محب. أشار بيده للرائد علي الصفتي. قال في خوف وهلع:
- سعادة الباشا علي بك الصفتي. نعم يا باشا نعمين. أنت تأمر يا باشا.
- جميل أن تقول نعم
- تأمرني يا باشا
- أعرف أنك ستذهب للمستشفى لتلقي حبيبة القلب
- مضبوط يا باشا. الحكومة تعرف كل حاجة يا باشا
- نلتقي هناك. سنتكلم معك قليلاً يا محب باشا
- أنت الباشا يا باشا
- لا يدري لماذا شعر بقلبه ينقبض. أكثر من سنة قد مرت علي يوم ذهابه للحبس. صدر التقرير بأن وفاة الشاب طبيعية. ربنا يستر. مرقت سيارة الرائد أمامه، إلا أن الضابط أمعن النظر في وجه نوال ابنة خاله والتي كانت تجلس بجواره في السيارة. قال له الرائد مودعاً وهو يوجه عينيه إلي نوال:
- مع السلامة يا جميل
- مع السلامة. ومن أين تأتي السلامة أيها القتلة. أيها السفاحون.
- ظهرت صورة الشاب القليل أمام عينيه. أسكت الأغنية وغاب في صمته وتفكيره في الماضي، في حين غابت نوال عن الحاضر لتتجرع آلام حب حكم عليه بالنهاية وهو لا يزال حياً يترنح بين آفاق الأمل والأمل. ترددت عدة أسئلة في ذهن محب وظل يرددها في نفسه عشرات المرات وهو يقود السيارة والخوف يكاد أن يقتله. تري ماذا

تريد من يا علي يا صفتي؟ أنا لم أقل لأي أحد علي موضوع تسجيل ما حدث ليلة أن كنت في الحبس إلا لشريف شكري. أعطيته ما سجلته. تري أكون قد فضحتني وذكر اسمي؟ يبدو أن المتاعب ستفرض علي من جديد. لماذا تصر السياسة علي إقحام نفسها في حياتي بعد أن طلقته منذ زمن؟ لماذا ينظر إلي ابنة خالي بهذه الطريقة؟ لقد كاد أن يأكلها بعينه. تري ماذا تخبئين لنا أيتها الأيام القادمة؟ مر رجل عجوز أمام السيارة ولم ينتبه محب. كادت السيارة أن تصدمه لولا أن توقف محب فجأة. توقفت السيارة فجأة وكادت نوال أن ترتطم بزجاج السيارة أمامها، ولا زالت نظرات الحب التي تحتضر في عينيها تنظر إلي محب ابن عمتها الذي تحاصره عشرات التساؤلات التي لا تجد جوابا في ذهنه، بل تثير المخاوف أكثر وتقذف به في دوامات الخوف والقلق.

الشیطان يتصل

كانت الساعة تقترب قليلا من الخامسة صباحا. أنوار النهار وتباشيره تكافح خيوط الظلام وتطاردها لينبثق ضوء الصباح. فتح أحمد عينيه ليجد جدته مستغرقة في النوم وتصدر صوت شخير مرتفع مزعج. إنه في المستشفى. جال بعينيه في الحجرة. وجد أمه تنام مستسلمة علي أحد الكراسي بجوار جدته. لقد تذكر مشاجرة جده مع جدته ولم يتذكر شيئا بعدها. عليه أن يقوم ليذهب إلي مدرسته. سيكذب عليهم جميعا. إنه يود الذهاب إلي جريدة والدته. عليه أن يقابل نيفين صديقتها الجديدة والتي أرسلها والده إليه. جده يختم صلاة الصبح ويسبح ويهلل. يشعر أنه بخير.

يرن تليفون والدته. تقوم منزعة. ينظر إليها والدها. تنظر إلي التليفون. تغلقه تماما. إنها لا تريد أن ترد. إنه عادل فوزي. يبدو أن ابنها كان محقا. إنه عادل فوزي. كان يحذف النقطة من فوزي. يسخر بعدها ويقول فوزي أو بالتقسيط فليس هناك أي فارق. لم تكن تعرف أن ابنها يشبهه بالشیطان ويراه دوما في صورة الشيطان. تساءلت في نفسها عن سبب محاولة اتصاله.

نظر إليها والدها وتساءل: «من يتصل بك مبكرا في الصباح هكذا يا أمينة؟». ترددت قليلا ثم قالت له وهي تداري وجهها وكذبها: «إحدي زميلاتي في الجريدة يا بابا». تسرب الشك إلي نفسه فقال لها: «ولماذا لا تردين عليها يا بنتي؟». لم ترد عليه وإنما اتجهت إلي أحمد الذي أحست بأنه استيقظ. قبلته ومسحت بيدها علي شعره. قال لها: «ماما أريد أن أذهب إلي المدرسة» احتضنته في محبة ظاهرة بعد أن رأت فيه روح والده شريف وتصميمه وعناده. أخبرته أنه مريض ويجب أن يستريح. رفض تماما وقال لها: «لدي امتحان اليوم ويجب أن أكون الأول. لقد وعدت أبي أن أكون الأول دائما، ولن أخلف وعدي مع أبي».

وفي نفس الوقت كانت نيفين تستيقظ من نومها علي صوت والدها وهو يتلو بعض آيات القرآن. لا تدري لماذا تحس بالسعادة وبالأمل

اليوم. تساءلت في نفسها: «أيعرف الإنسان أنه سيكون سعيداً أم لا؟» إنها تشتم رائحة السعادة والبهجة. تشعر بأن اليوم سيكون مميزاً. صحت نشطة. صلت وأعدت طعام الإفطار. تصفحت الجرائد. شد انتباهها خبر في أحد جرائد المعارضة بعنوان: «فضيحة جديدة وفتح ملفات التعذيب».

كان شريف قد حدثها عن بعض هذه القضايا. أكد لها أن لديه صور وفيديوهات تم تصويرها للمعتقلين وهم يعذبون في السجون. لقد أحضرت له مصادره بعض اللقطات المصورة. قالت في نفسها: كنت أظنه يوم سعادة. اللهم اجعل هذا اليوم كله سعادة.

أصرت أمينة علي أن توصل أحمد إلى مدرسته. إنه لا يريد أن يذهب إلى المدرسة. لا يدري كيف يمكنه أن يتخلص من هذا المازق. لا يهم. توصلني إلى المدرسة وأتظاهر أمامها أنني دخلت المدرسة ثم أخرج وأذهب إلى جريدة أبي. يجب أن أقابل نيفين وأتحدث معها وأخبرها بما سمعته من حديث أمي مع عادل فوري. هذا الرجل الشيطان. رن هاتف أمه من جديد. خمن الولد وقال لها: «ردي علي تليفون الأستاذ عادل ياماما» تري كيف عرفت أيها الولد؟ إنه هو الذي يحاول الاتصال بها. لقد حاول أن يتصل بها في الخامسة صباحاً. ماذا تريد يا عادل؟ أغلقت هاتفها ثانية ولم ترد.

لوحث لابنها مودعة والولد ينتظر أن تدير وجهها حتي يخرج من المدرسة ويذهب إلى جريدة والده. هناك مشكلة يا أحمد. قد تذهب أمك إلى الجريدة. قد تراك هناك وتعرف أنك قد كذبت عليها. خرج أحمد من المدرسة واتجه لأمه وسألها في أدب: «هل ستذهبن إلي الجريدة يا أمي اليوم؟» ردت عليه وربتت علي ظهره قائلة: «انا مرهقة جدا اليوم ولم أتم ليلة أمس. سأظل اليوم بالبيت» لوح لها بيده وهو يشعر أنها تكذب عليه، ثم اتجه إلي المدرسة ولكنه سألها قبل أن يبتعد: «متي الزواج يا أمي؟» نظرت إليه في محاولة واضحة لتصنع الغضب وقالت: «لا تتحدث في أمور الكبار» أوماً لها برأسه. ود لو قال لها ليفهمها: أنا كبير وأفهم كل شيء. اتجه إلي مدرسته مطأطي الرأس عاقد العزم علي الخروج من المدرسة بمجرد أن تختفي أمه من أمام عينيه.

كانت نيفين يسري تعقد عزمها علي أن تذهب مبكرة اليوم إلي

عملها. يجب أن تفرغ كل ما في مكتب شريف شكري. قد يكون بالمكتب أو علي جهاز الكمبيوتر الخاص به ما قد يؤذيه في التحقيقات. لم يدخل أحد مكتبه منذ أن غادره، ولذا عليها أن تصل مبكرة قبل أي أحد. فرغت كل شيء وأخذت الملفات التي كانت تعتقد أنها قد تضر شريف. نقلت كل الملفات التي علي جهاز الكمبيوتر الخاصة به علي فلاشتها. صورت كل وثائق شريف نسختين. رأت الفيديو الخاص بالتعذيب. مسحت كل الملفات من علي الجهاز ثم خرجت مباشرة. اصطدمت برجلين بالغبي الضخامة. حمدت الله أنها أتمت ما كانت تريد عمله أولا قبل وصول هذين الرجلين. دخل الرجلان مكتب شريف وعبثا بكل ما فيه وأخذوا الملفات وكل شيء. حملا أيضا جهاز الكمبيوتر. سألتهما نيفين في خوف مصطنع:

- من أنتما؟
- لا أحد يسألنا يا نيفين
- هل تعرفان اسمي؟
- نعرف كل شيء
- لماذا أخذتم الأوراق والكمبيوتر؟
- هذا عملنا ولا أحد يسألنا
- ماذا لو طلب الأستاذ شريف أوراقه وجهاز الكمبيوتر الخاص به؟
- لن يطلب أي شيء. كفك كلاما. نحن ننفذ عملنا.
- خرجا من أمامها وهي سعيدة أنها أنجزت مهمتها قبل أن يصلا بدقائق. الحمد لله. شعرت أنها سعيدة. ازدادت سعادتها أكثر عندما شمت رائحة شريف شكري. هذا الرجل الذي قلب حياتها وكيانها. غير حياتها ونظرتها للحياة. لا تدري من أين جاءت هذه الرائحة. يبدو أنها تحلم بالسعادة. لا بد أنها تحلم بنور الحب. إن شريف لا يزال في الحجز. لقد حاولت أن تزوره المرة الماضية، ولكنها لم تجده. لقد كان في المستشفى. عليها أن تتصل بالمحامي لتقابل شريف. تود أن تحصل علي بصيص من الأمل من خلال نظرات عينيه. أين أنت يا شريف؟ أين انت يا حياة الروح ونور الأيام؟ تري متي أراك؟ أشتاق حقا إلي مجرد رؤيتك.
- يبدو أن قلبها لم يكذبها. إن رائحة شريف أمام عينيها. إنها تراه حقا. لقد ذهلت تماما عندما رأيته أمامها.

إنه أحمد شريف شكري. إنه هو بلحمه ودمه. اقتربت منه واحتضنته فشعر بالخجل. ابتعد عنها في حياء وقال لها بنفس طريقة أبيه:

- صباح الخير يا أستاذة نيفين
- صباح الخير يا أستاذ أحمد
- أنت صديقتي ورسول أبي إلي.
- صديقتك نعم ورسول أبيك إليك
- لم تسألني عني فقلت أسأل أنا عنك
- أهلا وسهلا بك يا صديقي
- أهلا بك صديقتي. ما أخبار أبي؟
- كنت أفكر أن أذهب لأزوره
- وأنا أيضا، ولكني لا أعرف مكانه.
- سنزوره سويا إن شاء الله
- أتمني أن أزوره. لدي الكثير لأقوله لأبي
- ألا يمكن أن تخبرني به يا صديقي؟
- لا. يجب أن أخبره بنفسي.

إذا سيخبرني. لم تكذ تمر دقائق حتي اختبأ الولد من الخوف. لقد سمع صوتها فدخل الحمام مسرعا واختبأ به وأومأ لنيفين برأسه ألا تخبر أحدا انه غير موجود. صوت امرأة تصيح وتزعق. إنها والدته. لقد أتت إلي مكتب نيفين وهي متحفزة لمعركة هائلة. لقد كذبت علي يا أمي. الحمد لله أنها لم تلحق بي. اختبأ الولد وأغلق خلفه باب الحمام وهو يحاول أن يستمع إلي كل شئ. دخلت أمينة في عنجهيتها وقالت:

- ألا زلت موجودة هنا؟
- هذا مكان عملي
- إن شاء الله مدير التحرير الجديد سوف يطردك
- لن يطردني أحد
- سيطردك شر طردة. إنه ليس مثل شريف
- قصدك الأستاذ شريف؟ الأستاذ شريف ليس له مثيل في الدنيا
- قلت سيطردك مدير التحرير الجديد
- لن يكون هناك مدير للتحرير غير الأستاذ شريف شكري
- شريف لن يعود. سيظل في السجن

— هذا لن يحدث يا مدام
 — سيحدث وسيطردك مدير التحرير الجديد كما قلت لك
 — ومن بسلامته مدير التحرير الجديد؟
 — الأستاذ عادل فوزي
 — زهل أحمد وهو يستمع لهذه المحادثة بين أمه وبين نيفين. لقد
 بدأت خيوط المؤامرة تتضح أمام عين الصغير. ارتفع صوت أمه تقول:
 — سيطردك عادل فوزي كالكلبة
 — لن يطردني
 — سيطردك لأنه سيتزوجني
 — آه. زوج الهانم
 — اخرسي. أنا سيدتك
 — سيدتي ماتت يا أمينة
 — اسمي الأستاذة أمينة
 — تفضلي من غير مطرود يا هانم
 — لن أخرج. سأدخل وأخذ كل ما في مكتب شريف
 — بأي حق. إنه ليس زوجك. ليس لك الحق في الدخول
 — سأتزوج عادل فوزي ولن أستريح إلا بعد أن يطردك
 — عشم إبليس في الجنة. لن يتزوجك. كلنا نعلم أنه يخاف من
 زوجته ولن يتزوجك
 — سيتزوجني عرفيا يا كلبة
 — حافظي علي لسانك. اخرجي من هنا فوراً وإلا طلبت لك الأمن
 — سأدخل وأخذ مستندات شريف وأوراقه
 — قلت لن تدخل
 — سأخرج ولكن يا ويلك عندما أعود ثانية وعادل فوزي زوجي.
 — خرجت أمينة غاضبة وشدت الباب وراءها وكأنها ستكسره.
 — خرج الولد من مخبأه. تأسف لنيفين بعينيه. قال لها: «آسف لما
 فعلته أُمي». ربتت نيفين علي ظهره وقالت: «لا حاجة بك إلي الأسف.
 أمك تتشاجر معي منذ أول يوم استلمت فيه العمل هنا منذ سنوات».
 — اتصلت نيفين بالمحامي الذي أكد لها أنه سيكون عند شريف
 في الساعة العاشرة ومن الأفضل أن تكون نيفين معه. قالت للمحامي
 بصوت منخفض: «ابنه معي ويريد أن يزوره. أفضل أن تستأذن مأمور

القسام أن يزوره وأن يكون اللقاء في مكتب المأمور لا في الحجز» رد عليها قائلاً: «سيكون كما تريدان حرصاً علي الطفل»

وفي نفس وقت المكالمة، كانت أمينة تغلي. ستعلم نيفين الأدب. ما أن فتحت تليفونها إلا وكان عادل يتصل بها. ردت عليه في غضب:

— ماذا بك تتصل منذ الصباح؟

— عندي خبر سعيد لك

— يا رب يكون خبراً يستحق

— خبر رائع

— ماذا حدث؟

— صرت مدير تحرير الجريدة

— ألف مبروك يا حبيبي

— صدر القرار أمس

— مبروك

— لا أريد مبروك هكذا

— ماذا تقصد؟

— أريد أن نحتفل بهذا الخبر وأنت في أحضاني

— علي الصبح يا عادل؟

— أنت حبيبتي. فهمت. أنت لا تريدان إلا الحلال

— جميل أنك فهمت

— ليتم الزواج اليوم

— ليتم

— زواج عرفي يا أمينة. أرجوك لا تخربي بيتي

— عرفي يا عادل

— أنا أسعد رجل في الدنيا. أحبك يا أمونتي

— ستتعهد لي بتنفيذ ما أريد

— لو طلبت لبن العصفور فسأحضره لك

— سنري هل تصدق في وعودك أم لا

كانت تتحدث بصوت مرتفع. تحسب أنها بمفردها. لم تكن تعلم أن نيفين وابنها أحمد يسيران وراءها ويستمعان إلي كل شيء. نظر أحمد إلي الأرض وغض بصره. إنها أمه علي أية حال. ساعات الصباح تمر كئيبه في الحبس. قلب شريف يحدثه بأن شيئاً

سعيدا سيقع له. يشعر بحنين إلي ولده. أكيد أنه في المدرسة الآن. أين أنت من عيني يا أحمد؟ متى أراك؟ لقد اشتقت إلي مكتبي. سأكتب الآن. بدأ يكتب أول سطر، ولكنه توقف. جاءه الشاويش عثمان القللي. نادي عليه وعلي منصور العالم. اتجها إليه. أراد أن يحتضنها. احتضنها وكأنه يودعهما، وجداه يبكي. نظر شريف إلي منصور وسألا الشاويش عثمان:

— لماذا تبكي يا عمنا الشاويش عثمان؟

— لقد قدمت استقالتي

— لماذا؟

— أجبرني منير باشا فخري علي تقديم استقالتي

— لماذا؟

— أخبرت زوجته بعلاقته بسوسو عبده

— الراقصة؟

— طبعاً. أول مرة أشعر أنني عملت خيراً

— وطبعاً عرف منير فخري بهذا؟

— عرف وأجبرني علي تقديم الاستقالة وإلا سيسود معيشتي

— ولا يهلك. الله هو الرزاق

— أنا سعيد لأنني عملت خيراً والفضل لكما. أعوذ بالله. البلد كلها

فساد. سمعت أنه يتنافس مع نائب المأمور في حب الراقصة

سوسو. يقولون إنها وصلت إلي أعلى مستوى وترقص للوزراء

ولزوار مصر.

— الفضل لله. دعها ترقص ودعهم يرقصون في السياسة ويضحكون

علينا. ويقولون إنهم يخدمون الوطن.

احتضنها وكأنه صديق حميم. انصرف عن عينيها. هذه هي

الدنيا. ما تجمعنا إلا وتفرقنا من جديد.

وفجأة نادي شاويش آخر علي الحبيس شريف شكري. وقف ولم

يكن يدري أنه علي موعد مع السعادة والحب معاً. إنه علي موعد

مع السعادة التي غمرته عندما التقى ولده يبته كل مشاعر أبوته

وحنانه. احتضنه في ود وسعادة بالغة. كان كل أحلامه قد تحققت. لقد

شعر بالأمان عندما ألصق صدره بصدر ابنه نور عمره وسعادة أحلامه

وأيامه. اغرورقت عيناه بالدموع وهو يبكي، في حين كان أحمد هادئ

النفس رابط الجأش في البداية، ولكنه لما رأي والده بكى بشدة وأبكي

المحامي ونيفين ومأمور القسم.

قبل شريف وجنتي ولده وقبل رأسه ويديه. قال له بعد أن مسح دموعه: «أحمد ابني رجل كبير. الرجال لا يبكون» احتضن والده ثانية وقال: «لدي الكثير لأخبرك به». يبدو أن شريف كان يود أن يسمع صوت ابنه، فإذا به يراه رؤيا العين، وإذا به يستمع إلي كل المؤامرات التي تحاك له.

كان شريف أيضا علي موعد مع الحب. لقد قرأ نظرات الحب جيدا في عيني نيفين، آه يا نيفين. أيعقل أنني كنت أري هذه النظرات من قبل وأتجاهلها؟ لشد ما تلهينا الحياة عن قلوبنا. إن حبنا مختلف تماما عن أي حب في هذه الحياة. لقد ولد في ظروف حالكة. أنني له أن يعيش وأن يستمر؟

يبدو أنه ليس هناك وقت لحبنا يا شريف. هكذا قالت نظراتها. أخرجت نيفين كل أوراقها. أخبرته أنها فرغت جهاز الكمبيوتر الخاص به. أبلغته بأن هناك من جاء وأخذ كل أوراقه، ولكنها أخذت نسخة من كل أوراقه قبل أن يصل. شكرها بعينيه وبقلبه. نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة. لكم أنت جميلة يا نيفين !!

آه لكم أود أن أعترف بأنني كنت أحبك منذ أول يوم رأيتك فيه. ما كان حضوري إلي بيتك في أول مرة أغضبتك فيه أمينة إلا رغبة في الاعتراف بأنك أثرت في بشدة بهدوئك وبنبل أخلاقك وذوقك الراقي وأضأت لي طريقي كله بمصابيح الحب التي كانت أمينة تجاهد وبكل قوة لتطفئ كل هذه المصابيح، فإذا بك أنت تأتين وتعيدين لي الأمل في الحب من جديد. أشكرك يا نيفين فلقد بعثت روح الشاعر والعواطف من جديد في قلبي بعد أن ظننت أنها قد ماتت للأبد ولا أمل في أن تعود للحياة من جديد في ظل جحيم علاقتي المتوترة بأمينة وأمها.

وعلي الصفتي يتصل أيضا

توقفت سيارة محب في منتصف الطريق. أصابها عطل مفاجئ ولا يدري محب ماذا حدث لسيارته. نزل ليستطلع الأمر وأبواق السيارات خلفه تكاد أن تصم أذنيه. عليه أن يغير إطار العجلة الخلفية. انتحي جانبا من الطريق وأخذ يستعد لتغيير إطار سيارته. غاص في التفكير وفي حديثه مع ذاته، في حين أخذت نوال تفكر في حل لقصة حبها التي تشارف علي الاحتضار. سيخطب مني إن أجلا أو عاجلا. إنها تفكر في الذي يمكنها أن تفعل. إنه قد ضاع بالفعل منها.

تساءل محب في نفسه: أي حظ هذا يا محب؟ يبدو أن أمي علي صواب. ماذا يحدث لك قتي حياتك؟ تركت السياسة وابتعدت عنها تماما من أجل الحب، ولكن يبدو أنك منحوس. النحس يطاردك. اعتزلت السياسة واعتزلت الحديث عن الوطن ومقدراته وأحلامه، فإذا بالسياسة تجري وراءك من جديد. إن ظهور علي الصفتي ليس مصادفة. يبدو ان هناك مصيبة جديدة تدبر لك.

أنا برئ من أي اتهام سيوجه إلي. لقد خاضت كل الأحزاب وقاطعت حتي الانتخابات الأخيرة التي فاز بها الحزب الوطني. يجب أن يشكروني. كنت أعلم أن الحزب سينجح وسيشكل كل الوزارات. وماذا سيفيد صوتي؟ إن الحكومة تعرف الخير لنا وللبلد. بارك الله فيهم. يصوتون لمن لا يذهب. لقد قطعت بطاقتي الانتخابية. أكيد أنهم يعلمون كل هذا. إن الدولة ترصد خطواتنا كما عرفت من علي باشا الصفتي. لكل إنسان مصري سجل عندهم. فليبحثوا في سجلي. ياللكارثة!! أيمكن ان يكونوا قد علموا كل شئ عن لقائي بشريف شكري!!

ليتنى ما قابلته. كان يوم شؤم. اعتقدت أنهم عندما أخلوا سبيلي أن الأمور قد انتهت. ها هو ذا الماضي يطل برأسه من جديد. يا رب ارحمنا. لعن الله ساس ويسوس. أشهد الله أنني لم أتكلم ولن أتكلم عن الحكومة ولا عن الرئيس ولا عن الخراب الذي في البلد أبدا. أريد أن أعيش مثل بقية خلق الله في أمن وأمان. أريد أن أتزوج وأحب

وأريد أن تكون لي أسرة. لا دخل لي بالسياسة ومشاكلها. هذا ما قلته لشريف شكري. نظر إلي وقتها غاضبا وقال لي: «ومن لمصر إذا إن تركناها نحن. نحن أمل البلد وخيرها. أتركها في يد عصابة من اللصوص وثلة من الفاسدين؟ أنت يا محب تتكلم بهذه الطريقة؟ أنا لا أصدق»

ومن أنا سوي شاب مكافح؟ مات أبي فتركت أمي الحياة كلها وتفرغت لي. علمتني. زرعت في كل معاني الحب والأمل. كانت لي الأم والأب معا. حفيت قدما أمي لتجد لي واسطة لأعمل بإحدى الشركات الخاصة بعد أن أنهيت تعليمي. لم يقف أحد بجواري. تعلمت وكان يمكن أن ينتهي الحال بي إلي رصيف البطالة. قدمت في كافة الوظائف الشاغرة. قدمت في القوي العاملة التي امتنعت عن التعيين منذ أكثر من خمس عشرة سنة. كانت أمي ستنفق علي بعد أن علمتني. القطاع العام غرق يا أستاذ شريف. لو عملت فيه كنت سأعمل بملايم. نصب أحد أعضاء مجالس الشعب علي أمي وأخبرها انه سيعينني في شركة حكومية وأخذ منها عشرة آلاف جنيه. ترك البلد وهرب بعشرات القروض من البنوك. لم نره ثانية. ألم تكن الدولة تعلم بما يفعل؟ أيها الناس افيقوا. أنتم لا تعرفون معني الدولة ولا سطوتها.

وكان شريف قد قرأ كل ما أقوله لنفسه. اتجه إلي وربت علي ظهري وقال: «إنها مصر يا محب. إنها بلدنا. لها فضل عظيم عليك. إنك تحبها كأملك»

اغتظت وقتها وقلت له في قلة ذوق وجحود: «وما فضلها علي يا أستاذ شريف؟ أذلتني. تعلمت فيها نعم، ولكن وماذا بعد التعليم؟ عندما أذهب إلي أية مصلحة حكومية يتم التعامل معي بطريقة غير آدمية. أما دخلت أي قسم يا أستاذ؟ أما دخلت أية مستشفى؟ أما رأيت الضباط والجنود كيف ينظرون إليك؟ إنني أجبر علي تقديم الرشاوي من أجل إنجاز أية مصلحة. لقد جعلونا كلنا لصوصا نسرق من بعضنا البعض. كل واحد منا يمد يده في جيب أخيه. ألم تسمع المثل القائل: ادفع تنجز. كأن الوطن صار للأغنياء الذين يدفعون. أما وقفت علي طوابير العيش؟»

نظر إلي بحب ونطقت عيناه بكل معاني الحب لي ولمصر وكأنني أري فيهما شموخ الأهرامات وجريان النيل. قال لي: «مهما حدث فهي بلدنا. مهما فعلوا فينا لن يفلحوا في إزالة حبها من صدورنا. مصر هي أمي نيلها هو دمي..» لم أدعه يكمل. اقشعر بدني لسماع كلمات الأغنية وأحسست أنني أريد أن أبكي. آه. يا حبيبتي يا مصر. يا بلادي يا أغلي البلاد يا بلادي. فداك أنا والولاد يا بلادي. آه. بلدي وإن جارت علي عزيزة. أهلي وإن ضنوا علي كرام.

قلت له في غضب: «أتعلم أن صاحب الشركة التي أعمل فيها من أصحاب المليارات. أخذوا الأراضي من الدولة بأبخس الأسعار. يحققون أرباحا فلكية ومكاسب خرافية. إنهم لا يسددون الضرائب. لهم طرقهم الخاصة مع وزارات الدولة. يخصمون الضرائب من الموظفين الذين يكدحون طيلة الشهر ثم يحصلون علي الملايم آخر الشهر وتخضم الضرائب من المنبع، وهؤلاء الذين أكلوا خير الوطن وسرقوا فقراءه يتهربون من دفع الضرائب. أنت صحفي وتعرف أفضل مني. قرأت عن أحد المغنيين يتهرب عن سداد ستة ملايين جنيه من الضرائب المستحقة عليه. إذا كانت الضرائب بهذا المبلغ فما مكسبه؟ يضحكون علي الشعب ويعملون له الإعلانات: الضرائب مصلحتك أولا. الواجب القومي. الفقراء يدفعون والأغنياء يسرقون. أي سياسة هذه؟ أستاذ شريف قد اعتزلت السياسة تماما. أنا أخاف علي أمي. أنا أريد أن أتزوج وأريد أن يكون لي أولاد وبيت مستقر»

نظر إلي شريف وقتها وقدم لي شيكولاته وقال لي: «الحيوانات أيضا تتكاثر وتتزوج» قلت له: «أتعلم أنني أحب فتاة وأريد أن أتزوجها؟ أمي تراها غير جميلة، ولكني أراها أجمل نساء الأرض. أحببت فيها مصريتها الأصيلة. أحببت فيها شموخها. أحببتها علي الرغم من علمي أن ابنة خالتي تهيم بي وتعشقني. إنها حبي. إنها قدري. أمي تقول لي: «خذ من تحبك ولا تأخذ من تحبها. من تحبك ستحاول أن ترضيك طيلة عمرك وسترضي، أما من تحبها فليسوف تحاول أن ترضيها طول العمر ولن ترضي».

قلت له لأنهي المقابلة: «ماذا تريد بالضبط؟» ابتسم وقال: «أنت تحب البلد جدا ولذا لم تسافر وتهرب منها. عرفت أنك قد أتت عروض كثيرة لتعمل بالدولار خارج مصر. لم تفكر حتي في مجرد

السفر. أيمكن أن تخبرني لماذا؟ باشمهندس محب. مصر أعطتك الكثير. لقد تعلمت الهندسة بالمجان. أتعرف أن طالب الهندسة في أية جامعة خاصة ليحصل علي البكالوريوس يدفع مالا يقل عن نصف مليون جنيه. مصر أعطتنا الكثير. حتي إذا لم تعطنا فحبها في قلبنا. حبها من الإيمان يا محب»

لن أتجادل معه أكثر من ذلك. سألني سؤالاً واحداً. قال لي: «هل تحب مصر يا محب؟ بعد كل هذه السلبيات وبعد كل ما ذكرته، ألا زلت تحب مصر؟»

أردت أن أتكلم. استبد بي الصمت. ردت دعاتي. مسح دموعي بمنديله وقال لي: «تحبها. أعلم أنك تحبها»

قلت له وأنا أوصل دعاتي: «ومن منا لا يحبها؟ نحن نعشق ترابها ونذوب في عشقها وهي تؤلنا. أقصد أن حكماها يؤلونا لأنهم يعرفون أننا نحبها، وأنها سنضحى من أجلها. يستعبدوننا ويضيقون علينا ومع ذلك نحبها. ليتنا نستطيع أن نفرق بين البلد وحكامها. نحن نحب مصر ونكره من يذلوننا ويتحكمون فينا. القائمون علي أمر الوطن لا يحبونه. إنهم يتاجرون فينا. يبيعون كل شئ من أجل المال. الخصخصة وبيع أصول الدولة. شئ مهين. ماذا يتبقى للأجيال القادمة؟ يريدون أن يتركوا البلد علي الحديدة. يريدون أن يسلموا خزاننها خاوية. أحب مصر ولن أخرج منها. لم أسافر لأنني لن أترك أمي ولن أترك مصر في هذه الفترة الكالحة السوداء الحزينة من تاريخها المظلم. إنني أتمني لو أستطيع أن أضحي بعمرى من أجلها، ولكن بشرط أن تكون هناك فائدة.»

كان اللقاء أثر في كثيرا وجعلني أتكلم بحرقة وأبكي كما كنت. حنثت بعهدي مع أمي. كنت قد وعدتها ألا أتكلم في السياسة أبدا وحلفت لها علي المصحف. جعلني أتحمس تماما مثلما كنت أتحمس عندما كنت طالبا في كلية الهندسة. نظر إلي الأستاذ شريف وقال: «عرفت من مصادري أنك كنت في الحبس مع مصري المحلاوي» ما أن نطق اسمه إلا وعلتني رعشات الغضب والألم.

لقد قتلوه أمام عيني. أدخلوا العصا في مؤخرته. أوسعوه ضربا وجعلوا الدماء تتساقط من كل مكان في جسده. الكلاب. تبا لهم. أين سيذهبون من الله؟ الإنسان بطبعه لا يجب الدم. لقد قتلوه وكأنه لا

دية له. كأنه أحد الكلاب الضالة. إنه حتي لم يقاوم. كان بمفرده. تذكرت كلماته. الحرية. أنا رجل. رفض أن يقول: أنا مرة.

هممت بالانصراف. ربت علي كتفي وقال: «أتحكي لي ماذا حدث؟ التقارير تؤكد أن موته كان طبيعيا. هل مات ميتة ربنا؟ ألم يعذب» لقد استدرجني إلي الغضب ثانية. قلت له والدموع تتساقط من عيني: «قتلوه يا أستاذ شريف»

قال في أسي: «هذا ما كنت أود أن أسمعه منك»

قلت والحماسة تملؤني: «ولدي الدليل»

أخرجت هاتفي المحمول وعرضت له الفيديو الذي سجلته عند تعذيبه وعند قتله. نقله علي تليفونه المحمول عبر البلوتوث. احتضنني وقال لي: «كنت أعلم أنك تحب مصر. أعلم أن أفرق بين الرجال. أنت أبو الرجال حقا»

خرجت من مكتبه وأنا أرجوه ألا يخبر أحدا عني. قلت له: «لي أم أحبها، أنا وحيدها. تذكر هذا. أحبها ولا أريد أن تموت بحسرتها علي» ابتسم إلي وقال: «سيندم الظالمون ويتحسرون. لا تقلق. حياتي أقدمها فداء لك. ثق بي»

أنهي عملية تغيير الكاوتش، وصعد ثانية إلي سيارته. كانت نوال غارقة في تفكيرها. قالت له في محاولة أخيرة:

— قلبي يحدثني أن خطبتك لمني لن تتم

— يا شيخه تفاءلي

— كفرت بالتفأول

— إن شاء الله ستقبل

— أتمني أن تقبل، ولكن قلبي يحدثني أن هذه الخطبة لن تتم

لم تكذب تنتهي من كلماتها إلا وكان تليفون محب يرن. لا يوجد رقم علي الهاتف. مكتوب علي الشاشة «بدون رقم». ظن أن أحدا يعاكسه. قرر ألا يرد. نظرت إليه نوال من خلال مرآة المنتصف في السيارة. أتكون هذه نظرة الوداع لك يا ابن عمتي؟ أهكذا وبكل بساطة تنتهي قصة حبي؟

أخرجها رنين تليفون محب من تفكيرها. أمسكت الهاتف. طلبت من محب أن يرد، ولكنه رفض. استأذنته في أن ترد هي. قالت في صرامة وكانها ستتخذها سبيلا في تعاملها من الآن فمستقبلا مع محب

الذي يصبر علي تجاهل حبها وذبح مشاعرها كقرايين لرضا مني بعد
أن شغلت الميكروفون ليسمع محب المكالمة:

- ألو. من معي؟
- أهلا وسهلا بالدكتورة الحلوة الجميلة
- أهلا وسهلا بك. هل تعرفني؟
- طبعاً. عز المعرفة. أنا أراقبك من بعيد يا حلوتي
- حلوتك؟
- طبعاً وجميلة الجميلات.
- أعتبر هذه معاكسة أم غزلاً؟
- ملأ الرضا نفسها قليلاً. فلتسمع يا محب. أنت لا تراني. أنت لا
تري إلا مني عشناوي. قالت نوال في دلال واضح:
- ومن حضرتك يا أستاذ؟
- أنا الرائد علي الصفتي. كنت علي موعد في المستشفى مع محب.
- تعطلت السيارة وغير محب إطار العجلة الخلفية
- هذا من حسن حظي
- لماذا؟
- لأستمع لأرق وأجمل صوت لأرق دكتورة في الدنيا
- نظرت إلي محب والسعادة تملؤها. لم يستطع محب أن يستمع
لأكثر من هذا. أخذ التليفون من يدها وقال بصرامة والميكروفون
الخاص بالتليفون لا زال يعمل فكانت نوال تستمع إلي المكالمة بوضوح:
- أهلا وسهلا علي باشا الصفتي
- تأخرت علي
- آسف يا باشا
- اسمعني جيداً. أريدك في موضوعين. سنتكلم في الأول في المستشفى
- والثاني يا باشا
- الثاني أمر شخصي
- خيراً يا باشا
- أنا طالب القرب منك
- تأمرني يا باشا
- سأطلب منك يد الدكتورة نوال

أصابه الذهول تماما كما أصاب نوال. تغيرت ملامح وجهها. سأوافق يا محب. سأدع لك مني عشناوي. فلتشبع بها. سأقبله وإن كان أسوأ إنسان علي وجه هذه الأرض. سأقبله من أجل العناد فيك يا محب. من تظن نفسك. العشرات من الأطباء من زملائي يتمنون نظرة رضا واحدة مني. أنت لا تستحقني. سأقبل الزواج منك يا علي الصفتي. سأجعلك تندم علي تفريطك في. لطالما رجوتك بنظراتي أن تفهم أنني أحبك. أحبك، ومع هذا جاريتك في غبائك وأنايتك وطاوعتك وذهبت معك إلي مني وأنت لا تفهم. سأضيع منك وساعتها ستندم أشد الندم وقت لا ينفع الندم.

هكذا كانت تفكر نوال، أما محب فكان الرعب يقتله. لاشك أن علي الصفتي سيفتح معه موضوع مصري المحلاوي. فلينتظر إلي أن يقابله في المستشفى بعد دقائق. نظر إلي نوال التي تغير وجهها وصارت تبتسم إلي أن وصلا إلي المستشفى. نفسه تحدثه أن يحكي لها كل شيء. أيحكي لها؟ إنه يتمني أن يكون ما قاله علي الصفتي بشأن نوال نوعا من أنواع العبث أو الهذر. الحقيقة أن سيادة الرائد كان يتحدث صدقا وينطق حقا. تساءل محب في نفسه: «أيمكن أن تقبل نوال بهذه الخطبة». لم يكن يعلم أن مني قد أخذت قرارا بالفعل. ستوافق علي هذه الخطبة.

زيارة جديدة

نظرت نيفين إلي شريف نظرة كادت بعدها أن تغيب عن الوعي. حادثت نفسها وكل أشلائها تتألم وتتصارع. اثبتي يا نيفين. لا يجب أن يلاحظ عليك أي اضطراب. يجب أن تكوني مبتسمة أمامه. ابتسامتك قد تعطيه أملاً. إن شاء الله سيخرج من هذه الأزمة ويتابع حياته. كم من العباقره سجنوا وغيروا معني الحياة. السجن شرف في مثل هذه الأيام. عندما يخرج من محبسه سيحس بك وسيلتفت إليك. وحتى إذا لم يحس بي فسأظل أحبه.

ما هذه الأنانية التي تنتاب المحبين؟ ليس من الضروري أن يحبنا من نحبه. يكفيننا أننا نحبه. ليس من الضروري أن يبادلنا حبا بحب، وليس من الضروري أن يبادلنا أشواقا بأشواق. الحب ليس أنانية. سأحبك يا شريف، وكيفيني أن أحبك. إنني أحفظ الأغنية الرائعة التي يقول فيها عبدالوهاب: «والحب من غير أمل أسمى معاني الوجود»

إنها تقف أمامه بشحمة وبلحمة. إنه هو. حلم السنوات الماضية. حلم العمر. إنه لم يتغير قط. كل ما تغير فيه أنه قد صارت عيناه أكثر عمقا وتفكيراً. لقد أصابه الشحوب. نحف قليلاً. ليس هذا لون وجهه. أين ذهب التورد الذي كان يملأ وجهه؟ أين الدمية التي كانت تشع من خدوده ووجنتيه كضوء الشمس الساطعة في وسط النهار؟ لقد صار أكثر حزناً وصمتاً. لم يكن العبوس يعلو وجهه هكذا. شعر لحيته النابت يخبرها أن بداخله أشياء كثيرة يود أن يقولها. أيعقل ألا تراه ثانية؟ إنها محظوظة اليوم برؤيته. ألا يكون ممكناً ألا تراه بعد ذلك أبداً. ماذا لو تم نقله إلي مكان آخر؟ كيف ستعرف مكانه؟

اقتربت منه وسألته عن سبب عدم وجوده في المرة التي جاءت فيها من قبل ولم تجده. قال لها: «كنت مريضاً في المستشفى»، اضطربت وقالت بلا تفكير: «ألف سلامة علي حضرتك يا أستاذ شريف. ليتني أنا التي مرضت. طمئني عليك. هل أنت بخير؟».

أمسك بيديها في حب ظاهر وقال وهو يغوص في عينيها الواسعتين: «ألف سلامة عليك يا أستاذة نيفين. أتمني أن أمرض أنا وأن أتالم ولا تصابين أنت بأي ألم. لازلت شابة أمامك طريق الحياة الطويل. تواصلين دراستك وستكوني صحفية متميزة. أتمني أن تكوني امتدادا لقلمي. ساعتها فقط سأعلم أن العمر لم يضع هدرا».

وما فائدة الحياة بدونك؟ ظننتها أزمة وستمر. أخبرني أحمد أن أمه وعادل فوزي يخططان ضدك. ستتزوج من كانت زوجتك بغيرك يوما ما. كنت أحسب أن هذا لا يحدث إلا عندما يموت الرجل. أنت حي وستتزوج بغيرك. لم تكن تحبك يا شريف. أية امرأة هذه؟ حتي وإن كانت لا تحبك، كيف تتزوج وتأتي لابنها بزواج أم؟ الولد أخبرني أنه يري عادل كالشيطان. إن أمينة امرأة بلا قلب وبلا أحاسيس. كيف تزوجتها؟ لاشك أنه قدرك. إنه قدرني أن أقذف في طريقك فأذوب في هواك وأضيع في نسيمات حبك وتتقاذفني دوامات مشاعري فأجد نفسي أسيرة في قلبي. لقد وهبتك الحاضر وسأهبك مستقبلي. ستكون فيه معي. سأعيش لك ومعك ولن أرضي بك بديلا. لا أعلم إن كنت تحس بي أم لا، ولكن يكفيني أن أحبك. سأعيش بحبك ومن أجل حبك.

الوقت يمر بسرعة الرياح العاتية. دقائق وستنتهي الزيارة. ضربات قلبها المتزايدة ونبضات حبها تود أن تخبره أنها تحبه حبها للحياة. شريف. لشد ما أحبك. أنت ألمي في هذه الحياة. كنت أعطي الآمال لنفسني وها هي ذي تنسحب من أمامي. كنت أراك كل يوم وها أنا ذا لا أدري متي يمكن لي أن أراك ثانية. أقسم أن قلبي لن يتعلق إلا بسواك. ماذا يمكنني أن أفعل بدونك؟ لن تكون لي حياة بدونك.

أما شريف فأخذ ينظر إليها. أمسك بيد ابنه ثم شبك يده مع يد ابنه بيد نيفين. ود لو استطاع أن يحتضنها. ود أيضا لو استطاع أن يخبرها بأنه يحبها وبأنه يثق فيها. ماذا يفيد القول؟ قد يمكن في الحبس شهورا أو أعواما. نيفين لازالت شابة صغيرة مرغوبة يأتيها كل يوم من يطلب يدها. حرام عليك أن تضيع مستقبلها مع كهل مثلك لا يعرف للغد عنوانا، ولا للمستقبل طريقا، ولا يدرك ما الذي قد يحدث له الآن أو بعد سويغات قليلة. ما فائدة أن أعترف بحب ولد في ظروف لا تهين له الحياة؟ حب ولد في ظروف الموات. حب ولد

بين أسوار السجن ومخاوف الغد وأحزان اليوم. أعلم أنني قد أرى نظرات الحب في عينيها، أسمع تغاريدته في صوتها، أستمتع بأحانه عندما تقترب مني. لا. إنها لا تحبني. إنها تحب صورتي التي رسمتها لي في خيالها. إنها تحب ذلك الصحفي. القدوة. المثال الذي خلقتة من نبع خيالها وسقته بأوهامها فصنعت مني حبيباً ليس له شبيهه وليس له ند أو نظير. تحب المنصب والمكان الذي كنت فيه. لا. إنني أرى نفس نظرات الحب تنبثق من عيونها حتي بعد أن صرت هنا في محبسي.

لا. حرام أن أظلمها. إن شاباً في مثل سنها أو أكبر قليلاً سيناسبها أكثر. حتي وإن خرجت من الحبس، ماذا سيقول الناس؟ سيقولون أوقعها في حبالة وهو يكبرها بما يقترب من العشرين عاماً. لن يرحمني الناس وسيرجمني المجتمع بأحجار الكراهية. سينظرون إلي بقسوة علي أساس أنني غررت بشابة صغيرة جميلة، وليس لها ذنب إلا أنها كانت سكرتيرتي. تبا لك أيها الحب. أنت أنبل ما في هذه الحياة. أنت أعظم ما في هذه الحياة، ولكنك غالباً ما تأتي في الوقت الخطأ أو مع الأشخاص غير المناسبين.

اقترب من المحامي وقال له :

- أريد أن أستشيرك في أمر هام
- تفضل يا أستاذ شريف
- هل يمكن لي أن أعمل توكيلاً عاماً لأحد وأنا هنا؟
- طبعاً
- أريد أن أعمل توكيلاً عاماً للأستاذة نيفين
- ولكن يا أستاذ شريف...
- لا أريد ولكن أو غيرها. أنا أثق فيها وأريد أن أكلفها ببعض الأمور
- من حقل يا أستاذ شريف
- أريد أن أعمل لها توكيلاً عاماً بالتصرف في كل ما أمتلك
- يا أستاذ شريف...
- ولا أستاذ ولا يحزنون. حرام أن أكون هنا وهناك أناس لهم حقوق في مالي ولا يأخذونها.
- لك ما تراه يا أستاذ شريف
- بدأ المحامي في كتابة صيغة التوكيل. اقتربت نيفين من شريف

وقالت له :

- هذا كثير جدا علي
- أنا أثق فيك يا نيفين
- لهذه الدرجة؟ أتعمل لي توكيلا عاما
- أود لو أعمل لك توكيلا عاما تديرين به حياتي
- نظر أحمد إليه وقال :
- الله الله. ما هذه الثقة. يا لحظك بثقة الأستاذ شريف شكري !!
- احتضنه أبوه وقال له :

— وأثق فيها أيضا انها ستدير أمورك.

— واتجه لنيفين وقال لها :

— أحمد أمانة في يدك.

— أحمد سيكون كابني أو أكثر

— لازلت صغيرة ولا تعرفين معني الأبوة أو الأمومة

— المرأة أم بطبيعتها يا أستاذ شريف

— غلبتني يا نيفين

— حاشا لله. أنت أستاذي ومعلمي

وقع شريف علي بعض الأوراق. اقترب شريف من نيفين وقال لها: «عليك بحقوق الفقراء والمساكين في مالي. بالإضافة إلي زكاة مالي التي فرضها الله علي هناك أموال صدقات لليتامي والمساكين. في الأوراق التي قمت بنسخها ستجدين كشفا بأسماء من أعطاهم مالا كل شهر. أدفع بعض أموالني للطلاب غير القادرين في مدرسة أحمد. في الجريدة أعطي للعمال والمحتاجين. نيفين. أطلب منك أن تنفذي ما سأحاسبك عليه وسيحاسبك الله عليه. أوصيك بهم كل خير». نزلت بعض الدمعات من عيني نيفين. قال لها :

— لك مني مساعدة في نفقات زواجك

— لن أتزوج

— ستتزوجي يا ابنتي

— لن أخذ منك مالا لزواجي

— المال كله معك. سيصير تحت تصرفك

— أرجوك لا تعذبني

هل تصرخ وتخبره بأنها تحبه؟ أتصرخ وتطلب منه الرحمة وتفهمه

أنها تحبه ولن ترضي بزواج غيره؟ قالت له وهي تمسح دموعها:

— ألا تخشى أن آخذ أئمال كله لنفسى؟

— أنت أمانة يا نيفين. أنا أعرفك وأثق فيك ثقة بلا حدود

— زوجتك كانت أمانة

— سامحها الله. أعطها من المال إن أرادت. تابعي حالتها. مهما كان

فهى أم أحمد وزوجتي السابقة

— لكم أنت طيب يا أستاذ شريف !!

— لماذا؟

— ستتزوج غيرك

— حقها

— إنك لا تعرف من ذا الذي ستتزوجه

— من؟

— زميل عمرك وصديقك

— من؟

— عادل فوزي

— ربنا يسعدهما

لم تكذب تنطق اسم عادل فوزي إلا ووجدته أمامها. سبحان الله.

قالت في نفسها: جننا بسيرة القط فجاءنا ينط. انتفض أحمد عندما

راه. لاشك أن أمه ستعلم أنه رأي والده. لقد تعقدت الأمور. لن تدعه

أمه بعد هذا. قد تعاقبه جدته وتضربه.

أخذ عادل زميل عمره بالأحضان. بادره شريف بقوله من تحت

أضراسه في حقد وغضب:

— ألف مبروك

— أنا هنا لأزورك وأطمئن عليك

— زيارتك فوق رأسي

— إن شاء الله تمر أمورك علي خير

لقد أتى ليتحدث مع المأمور في شأن اعتقاله. لقد تكلم مع كبار

رجال أمن الدولة. ما أصعب الذي شعر به أحمد. بدا أن نيفين أحست

أن الرجل يضمن شرا. قال شريف وهو يوجه حديثه لصديق عمره:

— مبروك عليك الزواج.

— يبدو أن أحمد قد أبلغك. الصغار لا تبتل في فهم فولة

- أمينة امرأة طيبة
- هذه إشاعات يا شريف. هل يعقل أن أتزوج بمن كانت زوجة صديق عمري؟
- يعقل يا عادل يا فوزي
- لا تصدق أحمد. هو طفل صغير لا يفهم ، أنا رجل متزوج وأحب زوجتي ، ولا أستطيع أن أتزوج عليها
- يا سيدي الزواج قسمة ونصيب
- المهم أن تكون أنت بخير هنا. سندافع عنك ونرسل لك وفدا من نقابة الصحفيين للاطمئنان عليك
- شكرا لك يا صديقي اللدود
- رن هاتف عادل فوزي. تهلل وجهه. احتضن شريف وقال له :
- وجهك وجه الخير يا أستاذ شريف. أنا سعيد جدا بهذه المكالة. جئت لأفعل الخير فرزقني الله خيرا منه
- نظرت إليه نيفين في احتقار وقالت له :
- ألف مبروك عليك منصب مدير التحرير
- كيف عرفت؟
- لا شئ يختبئ في هذا البلد
- بالله عليك كيف عرفت؟
- أخبرتني الأستاذة أمينة في الصباح. يبدو أن وجهها عليك سيكون وجه السعادة.
- أخذ شريف بيد عادل وقال له :
- أوصيك خيرا بالأستاذة نيفين
- هي في عيني الاثنين
- وأوصيك خيرا بأحمد. اعتبره ولدك
- في الحفظ والصون يا أستاذ شريف. لقد أكلنا عيشا وملحنا. بيننا عيش وملح
- صدقت يا عادل ولا يخون العيش والملح إلا أولاد الحرام
- اطمئن يا صديقي. إن شاء الله ستخرج قريبا. سلام.
- خرج عادل ونظرات شريف وأحمد ونيفين تلفظه. أراد أحمد أن يبصق في وجهه. لقد انتهى موعد الزيارة فعلا. أتى شاويش ليأخذ شريف. أخذت بيده نيفين إلي الخارج وقالت له في رجاء: «أرجوك

انتظر حتي أخرج انا وابنه. لقد أستاذنا الضابط حتي لا يعرف ابنه أين هو»

وقبل أن يخرج أحمد مع نيفين قال لها شريف:

كدت أنسي. احفظي هذا العنوان. شارع الشهدا. الدرب الأحمر.

بيت رقم ٦. شقة حامد علي إبراهيم

— حفظته. ماذا تريد بالضبط

— اذهبي إلي هناك وادفعي لأم هذا الشاب وأخته مبلغ عشرين

ألف جنيه

— لماذا؟

— نفذي ما أمرك به

— لك ما تريد. مع السلامة يا أستاذ شريف

— في حفظ الله. مع السلامة يا أحمد. بابا لا يحبك

غمز له أبوه بعينه، وغمز أحمد له.

غابا عن عينيه. سيذهب ثانية إلي رفاق الحبس. إنهم رفاقه وكل

دنياه الآن. لكم أحبكم !! أنتم أصدقائي بحق. لا مجال للحقد أو

الكراهية أو المنافسة. لا مجال للنفاق أو الكراهية. لكم أحبكم يا رفاقي.

أنتم أحسن من أصدقاء العمر حقاً. لقد عرفت معكم حقاً معني

الحب. ستسترد أمك وأختك ما ضاع بسببك يا حامد. ستتزوج أختك

إن شاء الله. ضرب رأسه بيده. لقد نسي أن يأخذ عنوان منصور العالم

ليُرسل معونة لأسرته. لا يهم. سيرسل لأسرته في المرة القادمة عندما

تأتيه نيفين يسري. النسمة الرقيقة والزهرة الجميلة النضرة في حياته.

سأنتظرك يا أرق نيفين في هذه الحياة. متي تأتيين ثانية أيتها البسمة

المضيئة في ظلمات الحبس الكئيبة؟ ستأتين. أنا واثق من أنك ستأتين.

إن بعض الظن إثم

خطوات عسكرية منتظمة تسير بطريقة متتدة تجاه آخر الردهة الطويلة. شاب طويل يرتدي ملابس مدنية علي غير ما توحى به صرامته التي تشي بأنه ضابط شرطة تربى علي الانتظام والجدية. شارب أسود رائع يزين شفته العليا. وسامة معهودة تتفق مع خطاه الجادة. يسيري في طريق مستقيم تجاه الباب. تنظر إليه إحدي الممرضات في إعجاب واضح. لا يعبأ بها. تسير وراءه في انبهار. تقول في أدب وتفضحها عينيها المعجبتين:

- حضرتك تسأل عن أحد بعينه؟ أنا سماح. ممرضة هنا يا باشا.
- باشا؟ ومن أين عرفت أنني باشا؟
- عليك قيمة وسيما يا باشا. الله أكبر.
- أسأل عن الأستاذة مني عشاوي
- حضرتك خطيبها؟
- كفاك أسئلة. أنت كثيرة الكلام.
- هي بخير. ستخرج اليوم. حضرتك ضابط يا باشا؟
- نعم
- كنت متاكدة. ربنا يحفظك يا باشا
- ويحفظك يا أنسة سماح
- علي كل نحن في الخدمة يا باشا. حجرتها الثانية علي شمال حضرتك
- كيف عرفت أنني ضابط يا سماح
- مشيتك وصرامتك ووسامتك. الله أكبر عليك يا باشا. كنت أتمني أن أتزوج ضابطا
- هل تزوجت يا سماح؟
- لا يا باشا.
- حضرتك تزوجت يا باشا؟
- لا يا سماح. إن شاء الله قريباً.
- تحت أمرك يا باشا

مر من أمامها والمرأة تكاد أن تجن من فرط إعجابها به. شمت رائحته الذكية وأعجبتها مشيته العسكرية الصارمة. نظرت إلى السماء وغمغت قائلة في سرها: «إلهي يا سماح يا بنت عنايات ربنا يرزقك بعريس مثله. ضابط. رأسه أعلي من النجوم». سمع الضابط دعاءها. تبسم في داخله وواصل طريقه.

لقد قرر أن يتزوج بالفعل. يبدو أن سماح هذه طيبة. إنه يأتي اليوم من أجلها فقط، ولكنه لا يدري ما الذي جعله يأتي. لاشك أنه يلبي نداء قلبه. نداء الغريزة الطيبة والفطرة الذكية. جذبته براءتها، وجذبه أيضا هدوءها. دعت له أمه دوماً أن يرزقه الله بزوجة طيبة. قد تكون هذه هي الزوجة يا أمي. جذبته أيضا بعينيها المتوسلتين. لا يدري لماذا أحس بكل هذه الثقة تجاهها. لقد أركبها بجواره في سيارته الخاصة، ورفض أن تركب سيارة الشرطة. لقد صفعها، ولكنه أحس بالندم بعدها. تمنى أن يراها ثانية. بعث أحد العساكر وراءها. أخبره بأنها في المستشفى. جمع عنها ما يلزمه من معلومات. طرق الباب بهدوء وبأدب جم. يتمني أن يري عينيها ثانية. سيعتذر لها. يتمني أن يتحدث معها طويلاً. لقد شغلته طيلة الليالي الماضية. إنه لا يدري ما الذي جذبه إليها.

وقف أمام الباب ولم يفتح أحد.

أنته الممرضة المتيمة به وبهيئته. نظرت إليه وكأنها تأكله بعينيها وتراوده بهما عن نفسه. تقول في نفسها: «الله علي حلاوتك يا باشا». دارت حوله وتشممت رائحته الذكية. نظر إليها في أدب وقال:

- جئت في وقتك يا سماح
- سماح يا باشا. يا باشا ألا زال يوجد رجال بهذه الوسامة؟
- تأدبي يا سماح. أنا ضابط في بوليس الآداب
- يقطعني يا باشا. هذا إعجاب برئ. لماذا يا رب لا يسمح لنا نحن البنات بخطبة الرجال؟ قال حقوق المرأة قال؟
- ستتزوجين يا سماح. فيك عيب واحد
- ما هو يا باشا؟
- كثيرة الكلام
- أقطع لساني يا باشا
- وعيب آخر يا سماح

- ما هو يا أحلي باشا؟
- عيناك.
- لا تري إلا الجمال يا باشا
- اللهم طولك يا روح. عيناك تضرب فيهما ألف رصاصة. اركزي يا سماح. الرجال يعجبون بالمرأة المتحفظة الهادئة المحتشمة المؤدبة
- والله يا باشا متحفظة وهادئة ولا أحد يعبرني أو ينظر إلي. يبذو أنني سأصير أكبر عانس في تاريخ مصر. لن أتزوج إلا ضابطا
- تنازلي قليلا
- موافقة يا باشا. أمين شرطة. أنا مثل أختك يا باشا
- لن أترك عملي وأشتغل خاطبة
- يقطعني يا باشا. كدت أنسي موعد حقنة الأستاذة مني
- طمنيني عليها
- الدكتور قال صدمة عصبية
- طيب هل يمكن أن أدخل إليها الآن؟
- طبعاً يا باشا. أنتم الحكومة. لا يستطيع أي أحد أن يقول للحكومة لا ودت لو غنت له. غنت له في نفسها: «أنا هنا يا ابن الحلال. لا طالبة جاه ولا كتر مال. أحلم بعش أملاه أنا سعد وهنا سعد وهنا. انا هنا يا ابن الحلال». نظرت إليه وإعجابها به كاد أن يطير عقلها. قالت ل: «هل أطمع في كارت من سيادتك. اسمح لي أن ازورك يا باشا» أعطاه الكارت الخاص به وفيه أرقام تليفوناته. شكرته وقالت: «ليس بالضرورة أن يكون ضابطاً من سأتزوجه. شاويش ممكن. أمين شرطة جائز. المهم أن تناسب الحكومة يا باشا»
- رد عليها بهدوء قائلاً: «لسانك طويل يا سماح». نظرت إليه في شبه اعتذار وقالت: «نقصه يا باشا. أخشي أن اموت قبل أن أتزوج، وأخشي أن تمر بي الأربعين قبل أن أتزوج. البلد فيها ظلم كبير جداً يا باشا. لو طبقنا شرع ربنا الواحد يتزوج مثني وثلاث ورباع. ماذا نقول للنساء الأنانيات يا باشا؟ المرأة تتزوج الرجل من هؤلاء ولا ترضي لأية واحدة منا أن تشاركها فيه. أعوذ بالله. يا باشا عندنا أكثر من ستة ملايين عانس»
- لا يدري ما الذي جعله يتحمل كل كلامها هذا. لاشك إنها طيبة. أراد أن يستمع إليها لطيبتها وتلقائيتها التي تتحدث بها. تذكر لماذا أتى فقال لها:

— أ جاء والدها معها؟

— طبعاً يا باشا. الشاويش عشاوي وعمها وولدا عمها والست سامية. هذا هو والدها قد وصل.

اتجه الضابط إلى الحاج عشاوي ليسلم عليه. قرأت سماح الكارت قبل أن تدخل إلي مني لتعطيها الحقنة. قرأت: «محمد عوجة. ضابط شرطة». قالت في نفسها: «آه. محمد باشا أحلي ضابط في الدنيا. سوف أدللّه حمادة. أطيب حمادة. سأزوره. قد يرزقني الله بعريس من ريحته. موافقة لو أمين شرطة. أريد أن أتزوج يا عالم» سلم محمد عوجة علي الشاويش عشاوي. إنه لا يعرفه نظر إليه في توجس. أخبره أنه ضابط شرطة، فرحب به عشاوي. الأمر عادي. إلي الآن لا توجد مشكلة يا عشاوي. تغير وجه عشاوي عندما قال له الضابط: «أعمل في شرطة الآداب».

لقد اعترفت له بأنها أخطأت. ليته قتلها. الآن سنتكشف كل الأمور. لاشك أن الضابط سيخبره بأن ابنته مطلوبة وسيقبض عليها. وضع عشاوي عينيه في الأرض. انتظر ليسمع كلمات الضابط التي ستعتبر بالنسبة له طلاقات سيلقيها علي أذنيه. بوليس الآداب يعرف كل شيء. ود لو خنقها بيديه في الأمس.

ود لو قتلها ألف مرة. كان السكين في جيبه. ليته لم يلتمس لها أية أعذار. ليتها قتل أمها من قبل. ليته وأدها وهي طفلة. كانت أمه تقول دوماً: «قاتل الله البنات. كلهن شر. إذا لم يأتين لك بالعار يأتين لك بالعدو إلي حد باب الدار». كان ينهاها عن ذلك. كان يقول الإسلام جاء وحرم وأد البنات. لقد جعل الإسلام تربية البنات والإحسان إليهن سبباً من أسباب دخول الجنة. هاهي ابنتك ستكون سبباً في فضيحتك يا عشاوي. لقد لطختك بالعار.

قاتلك الله يا مني. سامحك الله يا ابنتي. خال الباشمهندس محب أتي وخطبك مني لابن أخته. ماذا أفعل يا ربي؟

توجه عشاوي إلي ربه وطلب منه أن ينقذه. قرأ كلمات كثيرة في عيني الضابط. أخبره الآن أن ابنته مطلوب القبض عليها؟ أطلب منه أن يراعي ظروفه الإنسانية وأن يؤجل القبض عليها إلي أن تخرج من المستشفى؟ قال له في رجاء:

— مني مريضة، وستخرج اليوم.

- أَلِف سلامَة عليها يا حاج ع شماوي
- ماذا بعد هذه الكلمات؟ إنه يعرف اسمه. قد تكون الممرضة أخبرت الضابط باسمه. لا. إنه يعرف كل شئ عنها. أكيد كل شئ مكتوب في ملفها الأسود في بوليس الآداب. ليتني مت ولم أشهد مثل هذا الموقف بعيني. كيف يهرب من الضابط؟ وقف فجأة واستأذن الضابط قائلاً:
- أتسمح لي بأن أدخل لمني؟
- تفضل يا عم شماوي.
- أسرع ليبتعد عن وجهه. قال له الضابط بعد أن التفت عنه:
- سأنتظرك يا عم شماوي. أريد أن أتحدث معك كثيراً بشأن الأستاذة مني
- أعرف ما ستود أن تقوله لي. أعرف كل شئ يا باشا. أنا الشاويش الذي أقبض علي المجرمين سيأتي علي الوقت الذي أري فيه ابنتي وهي يقبض عليها. ياللمصيبة!! ويقبض عليها في قضية دعارة. سترك يا رب. لا. سأدخل وأقتلها فوراً. سأقتلها ثم أقتل نفسي. لا يمكن أن أتحمل إلي أن يحدث هذا الموقف أمام عيني. يا رب رحمتك بي. دخل والشرر يملأ عينيه. تيقظت مني. قالت له وهي تراه يقترب. وضع يده علي سكينه في جيبه. اقترب منها والشرر يتطأير من عينيه فيصيبها بالفرع. قالت له:
- أبي. سامحني أرجوك
- فات الأوان يا مني
- لم يفت الأوان بعد يا أبي
- أنا آسفة
- علي أي شئ تأسفين؟ أتأسفين علي شرفي وعلي سمعتي التي أصبحت في الطين؟ أتأسفين وقد عرفت كل شئ؟
- أتأسف لأنني لم أقل لك إنني قابلت أمي؟ كان يجب أن أخبرك يا أبي. خفت أن أخبرك فتغضب. ليتني ما قابلتها.
- ليتك ما قابلتها لأنها جرتك إلي طريق الغواية؟
- لا يا أبي. أنا ابنتك وتربيتك
- الضابط موجود بالخارج ليقبض عليك يا فاجرة.
- أخرج سكينه من جيبه. نظر إليها في كراهية لم ترها بعينه إلا الآن. أين نظرات الرحمة والشفقة والحب التي كنت تحيطني بها؟

أين نظرات الأبوة والمحبة يا أبي. لمع نصل السكين أمام عينيها.
اقترب منها قائلاً:

— أود أن أقتلك ألف مرة. لن يشفي غليلي أن تموتي ألف مرة. أنت
مثل أمك تماماً

— رفعت يدها بعد أن أمسكت معصم يده الذي يمسك السكين به وقالت:
لا يا أبي. لست مثل أمي

— سأقتلك وأغسل عاري يا فاجرة

— لست فاجرة. أنا بنت عشاوي. أبي أدبني وعلمي

— الضابط بالخارج يا فاجرة

— الضابط محمد عجوة؟

— نعم

— إنه أكثر واحد يؤمن ببراءتي

— سأقتلك قبل أن يقبض عليك

— أقتل بريئة؟

طرقات علي الباب. أخذت مني السكين من أبيها وهو في ذهول.
قالت له:

— أتصدق أن ابنتك ضلت الطريق الذي وضعتها عليه. سأقتل نفسي يا أبي

— اقتلي نفسك. أحسن عقاب لكان تقتلي نفسك. حرام أن أضيع

بسبب فتاة حقيرة مثلك

— أبي أتصدق أنني سلكت طريق أمي

— أنا لا أري إلا الظاهر فقط. الله أعلم بدقائق الأمور

— أنا بنت عشاوي جمعة؟ اتصدق هذا في ابنتك؟

— ماذا تقصدين يا مني؟

— كنت أزور أمي فقط. أبي. خذ هذا السكين واقتلني، ولكنني

بريئة. أنا تربيتك. تربية عشاوي جمعة. الرجل الذي يخاف

من الله، ولا يقبل الحرام.

طرق الباب مرات عديدة. سألت دموع عشاوي. ارتمي علي

صدرها. بكيت كثيراً بين يديه واحتضنته. أكنت سأقتلك ظالماً يا

ابنتي؟ لو كنت قتلتك وأنت بريئة كيف كنت سألقي الله؟ الحمد لله.

— أنا أصدقك يا مني. نظرت إليه ابنته وشعرت بالآلم الندم تحرقها.

— كان يجب أن أبلغك بكل شيء يا أبي. سامحني. سامحتك يا مني

عمري ونور حياتي. أحبك يا أبي. كان يجب أن أثق فيك. أحبك يا مني. سامحيني. لن أظن فيك أبداً إلا كل خير. لن أشك فيك أبداً يا ابنتي. سأشك في نفسي ولن أشك فيك أبداً. أتت المريضة بعد أن ذهب إليها محمد عجوة. قالت له: «ألم أقل لك أنك ستحتاجني يا باشا؟»

دخلت فوجدت الرجل يحتضن ابنته ويمطرها بقبلاته، ووجدت البنت تحتتمي في حضن أبيها من نيران غضبه وشكوكه التي كانت ستتسبب في قتلها ظلماً. اقترب الضابط محمد عجوة من الحاج عشاوي وقال له في خجل:

— عم عشاوي. يشرفني أن أطلب يد ابنتك مني. سأكون أسعد إنسان في الدنيا لو وافقت علي خطوبتنا. لم يكده يكمل كلماته، إلا وكانت سماح المريضة تملأ المستشفى بزغاريدها، أضاعت أنوار الفرحة وجهها وتهلل وجهها بالسعادة واتجهت نحو الضابط قائلة:

— ألف مبروك يا باشا

ألجمت المفاجأة لسان عشاوي. يا رب لك الحمد. لقد حلت المشكلة بعد أن ضاقت. يا رب لك الحمد ولك الشكر.

مفاجأة أخرى كانت في انتظار مني. طرق الباب مرة أخرى ودخل محب والدكتورة نوال. يممسك بيده الزهور وينظر إلي مني في حب ظاهر. ردت له نظراته بشكر. قال لها بنظراته ما كان يقوله دائماً لها من أرق نظرات الحب. سلمت عليها نوال وتمنت لها الصحة.

تساءل عشاوي في نفسه: «عريساً في نفس الوقت؟ ماذا أفعل؟ الاختيار لك يا مني. لك الحمد يا رب العالمين. فعلاً. إن بعض الظن إثم» ابتعد محب ونوال قليلاً. خرج محمد عجوة من الحجرة بعد أن استأذن الشاويش عشاوي في أن يزوره في الغد بعد العشاء.

سار في طرقات المستشفى بخطواته العسكرية السريعة المنتظمة. تنظر إليه سماح في إعجاب وسعادة وكأنه يخطف روحها. لقد ضاع هذا الضابط من يديك يا سماح. ربنا يعوضك.

ظهر علي الصفتي فجأة أمام محب. أخذه في حضنه. ابتسمت الدكتورة نوال. صافحها علي الصفتي قائلاً:

— أهلاً بآرق وأجمل دكتورة في الدنيا. أنا علي الصفتي

- أهلاً وسهلاً بأحسن ضابط في الدنيا
نظرت إلي محب في غضب وضيق وقالت:
- أنا موافقة علي طلب خطوبتك يا علي باشا
- أصاب الغضب محب. ود لو لطمها علي وجهها. إنها لا تعرف عنه أي شيء. أيتها الغبية. أقبلي خطوبته عندما في؟ إنه أسوأ إنسان في الدنيا. ابتسم علي الصفتي في وجهها. كانت سماح تسمع الحوار كاملاً. أطلقت زغاريدها من جديد. باركت للدكتورة نوال. قالت سماح في نفسها: «سيتزوج كل الناس. عقبي لك يا سماح. يا رب ارزق. عريس يا رب».
- انطلقت زغاريدها في كل مكان بالمستشفى. شعر محب بأن أشياء كثيرة كسرت بداخله. ترك نوال مع علي الصفتي واتجه ثانية نحو مني التي كانت لا تزال في حزن والدها. لم يتكلم. ودعها بنظراته ثم انصرف ولم يقل لها أية كلمة. ظن أن نظراته كافية. لم يكن يعلم أن محمد عجوة قد خطبها. يبدو أنه لا يعلم أي شيء. اقترب من ابنة خاله وشدها من يدها. أخذها إلي سيارته. قال له علي الصفتي:
- كلمني اليوم يا أستاذ محب ضروري. يبدو أننا سنلتقي من جديد. سنلتقي كثيراً. سيكون بيننا أقوى نسب.
- وتوجه علي الصفتي إلي الدكتورة نوال بنظرات حاول أن تكون عامة برسائل المحبة وكلمات الإعجاب غير المنطوقة، ولكنها فشلت في تلقي هذه الرسائل. ومع ذلك كانت نوال تحس بالسعادة لأنها بدأت تري الغضب في وجه محب. كانت تظن أنه غاضب لأنها قبلت خطوبة الضابط، ولكنها لم تكن تعلم يقينا سبب غضبه. ليس من حقه أن يغضب. عليه أن يفرح لها. إنها ساعدته في إكمال طريقه لخطبة مني فلماذا لا يفرح لها؟ كانت صامتة أيضاً طيلة الطريق في حين كان الغضب يستبد بابن عمته الذي قاد السيارة بسرعة وبغضب معاً وسار في طريقه ولم يتلفظ بكلمة واحدة وكأنها ليست بجواره.

الأم الحب تحرق أكثر

يكاد أن يبكي. يريد أن يصرخ. يريد أن يتصرف كصبي محب، أو كمرهق عاشق ليقترب منها. إنها لا تحس به ولا تشعر بالنيران التي تشتعل في قلبه عندما يراها. هل أكتب لها خطابا أقول لها فيه إنني أحبها؟ ألا تفضحني نظرات عيني ومحاولاتي الحثيثة لأقترب منها وأكون بجوارها؟ إنه يتمني لو وقع علي يديها ليقبلهما. ماذا لو وقع تحت قدميها لتدوس خده ورأسه؟ أتمني لو استطعت أن أضع يدي علي خدها. إن شعرها ناعم فاحم السواد. إنها دائما صارمة متجهمّة. ماذا يمكنه أن يفعل لتحس به؟ إنه علي استعداد أن يجرب جميع الأسلحة التي لديه لينتصر لقلبه. جرب كل شئ معها ولا فائدة.

إنها ليست كزوجته. يا إلهي. لماذا لا نحب زوجاتنا؟ لماذا نري أي امرأة غير الزوجة رائعة الحسن؟ لا. إن زوجتي كبرت ولم تعد تصلح لي. لن أظل حبيسا لها مسجوناً في سمنتها المفرطة وقبحها الذي يصد نفس أي رجل. طيلة العمر. ولذاها كبرا. أريد أن أعيش لنفسي. هل سأعيش لهما البقية الباقية من عمري؟ أريد أن أستمتع بالأيام الباقية في العمر. لن يبقى في العمر مثلما مضي.

إن نيران حبه تكويه ويتألم كثيرا لأنه يحبها ولا يستطيع الاقتراب منها إلا بالطريقة التي تريدها. لماذا تضعين كل هذه الحدود بيني وبينك؟ تبا لنيران الحب التي تشتعل في قلبه كلما يراها. يمكنها أن تطفئ هذه النيران بكلمة واحدة. بنظرة واحدة. بإشارة منها سيكون سيدها. لا سيكون عبدا خاضعا لها. لم يكن يعلم أن نيران الحب حارقة. لم يكن يعلم أن أشواق القلوب جارفة. لقد شغلت عليه تفكيره، وملاّت عليه حياته. إنه مستعد لأن يجزم أنها أهم ما في حياته. عيناها في قمة الحسن. لا تضع سوي الكحل الذي يحدد هاتين العينين الرائعتين الواسعتين النضرتين. أي عينين؟ إنهما أنوار حياته. الكحل يوسع أكثر من عينيها فيغرق فعلا فيهما. إنها لا تضع أية زينة في وجهها. إنها لا تحتاج إلي زينة. إن جمالها تشهد له

كل عين. يا لسطوة جمالها علي عينيهِ !! شفتاها تضرمان الشهوة داخله. أية حمرة هذه التي تتقد فتشع نورا ونارا من حدودها؟ أية حمرة هذه التي تطل من شفتيها؟ إنه علي استعداد لأن يدفع حياته كلها في سبيل أن يقترب من كنوزها العامرة وجناتها الفاتنة. جسدها اللدن الطري يخلب عقله ويعمي بصيرته ويدمي رغبته. أليس له حظ من جمالها وفتنتها؟ كيف يمكنك أن تكون بجوار النهر ويقتلك العطش ولا ترتوي؟ كيف أسير في صحراء حياتي ثم أري واحة مليئة بظل ظليل ولا أتمني أن أستريح في واحة حبها وأستمتع بنعيم جنتها وفتنتها؟ يصعب عليه حاله في ليال كثيرة. لا تفصله سوي خطوات قليلة عنها. كان يتمني أن يخترق السقف ليكون في نعيم أحضانها وليتمتع بجنيات جسدها. لا تفصله عنها سوي هذه الخطوات المحدودة. لا. إن هناك أسوارا عديدة وقضبان كثيرة تضعها دوما حول نفسها فتغلق دونه أبواب الأمل وتحاصره بعيدا عنها. إنه لن يستسلم أبدا لمحاولاتها التي تريد أن تقهره بها. سيعلم عن حبه ورغبته فيها أكثر. لن يصيبه اليأس، ولن يمنعها عنه أي شئ.

دارت كل هذه الأفكار في ذهنه وهو واقف قبالتها في المستشفى. حاولت أن تهرب من عينيهِ الحارقتين الممتلئتين بالرغبة فيها والرغبة من صدها. نظراته يصوبها نحو كل موضع فتنة فيها. إنه يوجهها إلي كل مكان في جسدها دونما تمييز. لكنها لاحظت أن شفتيها تحظيان بكل اهتمامه. لم تعد تضع حتي الكحل الذي كانت تضعه من قبل. لمحتة دائما ينظر إلي صدرها وكأن عينيهِ تخترقانها وتعريانها تماما. لم تعد تلبس سوي جلبابها الواسع وتغطي كل جسدها من رأسها إلي قدميها. علمت أنه قد يراقبها من شبأكه ومن خلف الشيش، فصارت تتجنب أن يراها. ماذا يمكنك أن تفعل يا زين؟ هل ستستسلم لها؟ لقد صار يشعر بالحزن الذي يحرقه، صار يشعر بألم وغصة في صدره. هل يبكي لها؟ أيقرب منها ويبكي لها حتي ترحمه من جحيم حبها. إن عدم اهتمامها به يؤرقه، يصيبه بالجنون. حتي لو بكى بين يديها ماذا سيكون ردها؟

لقد صارت تتجنب أن يحتك بها تماما. لم تعد حتي تمنحه يدها ليسلم عليها. تبتعد عن أي مكان يكون فيه خشية أن ترتطم يده بجسدها عمدا أو بدون عمد. في البداية كانت تكذب نفسها، كانت

تعتبر أن ملامساته لها تحدث عفواً، ولكنها تأكدت. إنه يعتمد أن يلمسها بصدرة. يعتمد أن يقترب بأصابعه من صدرها وظهرها. لقد تأكدت من هذا أكثر من مرة. إنه عندما كانت تسمح لها بمصافحتها، كان يعتمد أن يلمس بأصابعه كل يدها. كان يتلمس طريقه بأصابعه إلي أصابعها ومعصم يدها ثم باطن يدها فظاھرھا. كانت تشعر به وكأنه يضاجع أصابعها بأصابعه ويتمني لو باتت يده في يدها ساعات طويلة. اقترب منها وقال لها في حب تفضحه كل كلماته :

- شكرا لك يا ست سامية.
- لا شكر علي واجب. الأستاذة مني مثل بنتي
- لا تكبرين نفسك. لازلت شابة جميلة. أنت ست البنات وزينة الفتيات
- العمر يمر يا معلم زين. لقد اقتربت من الثلاثين
- لازلت أجمل في نظري من بنات العشرين
- هذه هي الحقيقة
- الحقيقة أنك في عيني أجمل بنت في الدنيا
- شكرا يا معلم زين.
- هيا لأوصلك إلي البيت
- لا. شكرا لك سأركب الأوتوبيس
- عيب يا ست سامية. السيارة موجودة. السيارة وصاحب السيارة
- تحت أمرك يا ست الكل.
- ألن توصل مني إلي البيت؟
- أوصلها ممدوح ابني بالتاكسي يا ست هانم. أرجوك ألا ترفض.
- تعالي لأوصلك

لم تجد بدا من القبول. سار بجوارها. شعر بأنه يود أن يلمس ظهرها. لا. إنه يود أن يلمس كل جزء في جسدها. يود لو يستطيع أن ينقض عليها. ماذا لو خلت الدنيا إلا منه ومنها. الممرضات والمرضي والزائرون من حوله. يتمني لو مات الجميع حتي يكون معها بمفرده. أصرخ لها ويقسم بأغلظ الأيمان بأنه يحبها حبا لا مثيل له؟ وماذا يجدي صراخك يا زين.

شعر أن عقربا لدغته عندما سمع صوت مبروك يناديه. يا أيها الوقح. لماذا جنئت الآن؟ لماذا لم تذهب إلي البيت أو في أي مكان آخر بعيدا عن وجهي؟ إنها الفرصة الوحيدة لي لأكون معها وأوصلها إلي البيت.

أخذ يصرخ فيه بطريق هستيرية. ملأه الغضب. إنه يشعر بأن مبروك ينافسه في حبه لسامية. اغرب عن وجهي أيها الأحق وألا حطمت وجهك. ملأ الرعب قلب مبروك فأنصرف من وجه أبيه. قبل أن ينصرف رفق سامية بنظرات مثل نظرات والده. نظرات تصرخ من نيران الحب. إنه غاضب جداً لأن والده يزعم في وجهه كما لو كان طفلاً. انسحب بهدوء ونظرات الشفقة تنطلق من عيني سامية وراءه. إن زين لا يعترف إلا بنفسه ومشاعره. لماذا لا يعرف أن ابنه له نفس الحق في الحب. إن مبروك قد يكون الأجدر بها، ولكنها لا تعرف ما الذي يمكنها أن تفعله في أنانية زين. أينجح في امتلاكها ويتزوجها ثم يتركها ويرميها بعد ذلك. لشد ما تخشي أن يكون حبها نزوة في حياته. ألا يكون حبه لها رغبة في امتلاكها وليؤكد لنفسه أنه أخذها من مبروك ابنه واختطفها منه. أتركها بعد ذلك؟

ابتسمت سامية. إنه يريد أن يكون أمامها رجلاً. ليست الرجولة بالصراخ وليست الرجولة بالصوت العالي. يريد مبروك أن يظهر أمامها بمظهر الرجل أيضاً. قالت سامية للمعلم زين في محاولة لاستعطافه:

— لماذا لا نأخذ في طريقنا؟

— لا. ليذهب بمفرده

كادت أن تضحك. حتي ولو كنت بمفردي معك يا زين، أعرف كيف يمكنني أن أحافظ علي نفسي منك. أنا لا أخشاك.

أما زين فملأته السعادة وجمحت به الخيالات. سيسرق من الزمن بعض اللحظات الجميلة التي ينفرد فيها بقمر حياته ونور أماله. سيقتنص من الزمان هذه اللحظات الحلوة التي يهنأ فيها بجوار الحبيب. أه. الليل يقترب. ماذا لو أخذها وصعد المقطم؟ ماذا لو جمعهما الليل وأحاطها بأحضانها وغطاها بشهواته وأشبع نفسه من حلم طالما حلم به. إنه يود أن يظل معها بقية أيامه. أه. فلتبتعد أيها الطريق. لتبتعد أيها البيت عن هذه المستشفى. لشد ما أريدك أن تكوني بجواري يا سامية.

اتجهت سامية لتنزل السلم. أمسك بيدها. لقد تحقق حلمه الأول. لامس يدها. سحبت يدها بسرعة من بين يديه. قال لها في شبه اعتذار:

— سننزل بالأسانسير

غشيتها الرهبة. أيعقل أن تكون بمفردها معه في المصعد؟ كيف سيغلق عليهما باب واحد. أخذ يماني نفسه بحلم جديد. أيمكنه أن يحتضنها في الأسانسير. سيكون بمفرده معها. عمت الفرحة نفسه وامتلكته. يمكنه أن يحتضنها. أغمض عينيهِ وعاش في خيالاته لحظة. سيلصق صدره بصدرها. سيرتاد أماكن جديدة في جسدها. قد يقترب بفخذه من فخذيه. لا. هذا كثير جدا وأكثر مما يحلم به. أستغفر الله العظيم. إنني ألح عليها في أن تكون لي زوجة بالحلال، ولكنها تصدني. فتح عينيهِ فوجد الممرضة سماح أمامه. إنها تستعد لتتركب معها الأسانسير. لمحت نظرات الحب في عينيهِ. قالت سماح لسامية:

— والدك شكله طيب جدا. إنه يحبك

ود زين لو لطم هذه الممرضة علي وجهها. قال لها في غضب بالغ:

— سامية خطيبتني

ود لو زغردت هذه الممرضة. بدت الكآبة علي وجهها. لم تزغرد كما زغردت من قبل. تساءلت في نفسها وهي تلوي بوزها: «أيمكن لهذه الغزالة ان تكون خطيبة لك؟»

نزلت معهما في الأسانسير، وما أن خرجت من المصعد وابتعدت عنهما ببضع خطوات إلا وغنت بصوت مسموع وكأنها تريد أن تغيظ زين: «الغراب يا وقعة سودا هيجوزوه أحلي يمامة. بطلوا دا واسمعوا دا». ولا يهملك يا زين. حتي وإن ضاع حلمك في أن تكون معها بمفردك في المصعد، فلا زال لديك حلم في أن تكون معها بمفردك في السيارة. ضاع حلمي بسببك يا سماح. أيتها الممرضة الغبية. أنا أبوها أيتها الغبية؟ أنت لا تفهمين كم أحبها. سأحكي لها عن أشواقي وعن حبي. سأكلّمها وأعترف لها. سأخبرها بكل ما في صدري. عساها أن تلين. عساها أن تنظر إلي بنظرة رضا من عينيها الجميلتين. هكذا أخذ يماني نفسه ويحلم. ستكون بجواره في السيارة. يمكنه أن يضع يده علي فخذها وهو يتظاهر بأنه يمسك عصا غيار السيارة. لكم أحبكم يا سامية.

جلست بجواره في السيارة. ضبط المرأة لا ليري الطريق وإنما ليراها. حتي وإن وقع حادث ومِت فيكفيني أن تكون عيناها آخر ما تراه من هذه الدنيا. قال لها وهو يبتسم:

- سامية. سامية. سامية
- نعم يا معلم زين
- أنا قلت سامية ثلاث مرات
- حاضر يا معلم زين. حاضر يا معلم زين. حاضر يا معلم زين
- نفسي أقول كلما كثيرا يا سامية
- تفضل يا معلم
- أتعرفين ان بقلبي الكثير لأقوله لك؟
- قل يا معلم
- الحقيقة أنا... أنا... أنا قلت للمرصة إنك خطيبتني. أتمني أن تقبلي أن توافقي
- تكلم يا معلم أنا أسمعك
- أنا أحبك يا سامية. أتمني أن تكوني لي طول العمر
- يا معلم. لقد تكلمنا في هذا الموضوع من قبل
- يا سامية أنا أولي بك من كل الناس. أنا أحبك. هل تفهمين؟
- أفهم يا معلم
- والله سأطلق لك أم مبروك. سأكتب كل ما أملك لك. انا لا أريد إلا رضاك. سامية أنا أريد الحلال. أنا لا أريد أي شئ في الدنيا إلا أنت. أنت حلمي الوحيد وألمي الكبير
- وأنت تعلم أنني لا أحب الحرام
- وافقي. زيتنا في دقيقنا ونكتب الكتاب ونعلي الجواب
- زيت ودقيق؟ هل سنخبز يا معلم؟
- يا سامية. يا حبيبتي. يا سامية. الله. اسمك جميل. أحلي اسم يمكن أن ينطق به لساني. سامية. اسم ليس له مثيل
- أنت تجيد الغناء يا معلم زين. تأخذ غرضك مني وتزوجني ثم ترميني بعد شهور. لا يمكنني أن آخذ منك حقا ولا باطلا. طيب وماذا أفعل مع مبروك. الولد يحبني وأبوه يحبني. يجب أن أضع نهاية لكل هذا.
- يا معلم. يا معلم زين. انا لا أرضي لك الخراب. لا أرضي الخراب لزوجتك ولا لأولادك
- أحبك يا سامية
- يا معلم زين. البنت الممرضة كانت تحسبك والدي
- حمارة ولا تفهم. الرجل منا لا يعيبه إلا جيبه.

- اسمعني. أنا لن أتزوج بعد موت محمد فضة. لم أنجب له.
- تحملني. أنا عاقر
- وأنا لا أريد أن تنجبي. سامية أنا أحبك. لدي مبروك وممدوح والحمد لله
- صدقني لا أريد الزواج
- وماذا أفعل في حبي؟ هل تقبلين مبروك لو تقدم لك؟
- هل يريد أن يوقعها في الكلام. سيسود أبوه معيشتة. شعرت بالشفقة علي مبروك. إنها لا تميل إليه. تشعر بالشفقة علي مبروك. إنها تشعر بالشفقة أيضا علي المعلم زين وعلي زوجته.
- مبروك؟ لقد تقدم لي بالفعل. قال إنه يحبني ويتمني أن أقبله زوجا
- الغبي ابن الغبي
- يا معلم زين. افهمني.
- لن أفهمك. أنا..

أخبرها أنه تعب من الكلام معها. إن عليه أن ينتقل إلي مرحلة الفعل. سيخبرها بأنه سوف يطردها من الدكان. سيستغل سلطه أخيه الشاويش عشاوي. سيطردها لا من الدكان فقط وإنما من الحياة كلها. غشيه الغضب. إنه يتمني أن يطردها من قلبه أيضا، ولكن أتراه يستطيع؟ تبا لك أيها المحب!! فليجرب محاولة أخيرة، فلعلها تعود إلي قلبه. فليحاول مرة أخرى. عسي محاولته أن تنجح. لقد ماتت أحلامك يا زين. حاول أن يضع يده علي فخذها، ولكنه تراجع. أنا غضبان جدا يا سامية. سنري آخر عنادك يا سامية. نزلت من السيارة والتفتت إليه. ضبطته متلبسا بالنظر إلي مؤخرتها. ابتعدت عن السيارة. ود لو نزل وبكي بين يديها. ماذا أفعل يا سامية؟ أأشتكي منك إليك؟ أأشتكي إليك وأنت جحيمي وجنتي؟ لشد ما أحبك كحبي لحياتي وأكثر يا سامية. ليتك تفهمين. أحبك. قلبي يتفطر بسببك. ابتعدت سامية ودخلت حجرتها. شعر أنها مشت وسلبت روحه معها. لقد أخذت قلبه. إنه يود أن يصرخ وأن يبكي، ولكن ماذا يفيد الصراخ؟ ويا تري هل سينفعه البكاء؟

خيبة أمل

لم تكن خيبة أمل زين في حبه وحدها لتقصم ظهره وتؤرق عليه حياته ، فلقد تبعت خيبته هذه خيبات كثيرة. لقد أصر مبروك علي ترك العمل معه في محل الجزارة الآخر الذي يمتلكه ، كما أصر علي ترك المعيشة معه تحت سقف واحد وانتقل ليعيش مع أخيه ممدوح في الشقة التي أجراها بعيدا عن سوء معاملة والده. زوجته أيضا غضبت وتركت له البيت ، وذهبت إلي بيت أخيها الأكبر إذ لم تعد قادرة علي المعيشة معه في أمان وهناء.

لقد تبعت من سوء عشرته ، ومن ألفاظه القاسية التي يلقيها علي أذنيها ليل نهار. لقد تبعت من لسانه الذي كان يلسعها بعباراته اليومية التي تشي بعدم رضاه عنها. فلتغضب ولتذهب. أعيش بمفردي أحسن من المعيشة مع هذه البقرة السمينة التي لا تعطي لبنا ولا لحما. أفضل شئ تفعله أن تغضب. لن أعيش مع هذه العجوز الشمطاء. من تظن نفسها؟ أتظن أنها مارلين مونرو؟ كلها شحم ودهن. أعوذ بالله. فلنتقارن نفسها بسامية. آه منك يا ساميتي. سامية سيدة نساء أهل المنطقة. سامية ملكة قلبي وعقلي وروحي. هل زوجتي هذه امرأة؟ إنها لا تساوي قرشا في سوق النساء. فلتذهب بعيدا عني وليذهب معها مبروك إلي الجحيم. ملعون أبو الدنيا.

خيبة أخرى ذاقها في مجال العمل. لقد توقف الحال تماما. الناس في فقر مدقع. من ذا الذي يشتري كيلو اللحم وقد بلغ أرقاما فلكية في حين أن ما يحصلون عليه يكاد يسد رمقهم؟ ارتفعت أسعار العلف، وقلل المكسب الذي كان يحصل عليه. ماذا حدث فيك يا مصر؟ الناس لا يأكلون اللحم؟ أصار المصريون نباتيين؟ لاشك أن الجوع والفقر قد ضربهم بسياطه القوية. شعب فقري. يتحلقون حول عربات الفول. أخذ يتابع نظرات الزبائن للحوم التي يعلقها وكأنهم يتحسرون علي هذه الأيام التي كانوا يأكلون اللحوم كل أسبوع، أو مرتين في الأسبوع. إنه لا يمكن أن يخفض السعر. اضطر إلي إغلاق الدكان الذي كان مبروك يقف فيه توفيراً للنفقات واكتفي بالعمل في

محله فقط ليكون قريباً من حبه الذي لم يفقد الأمل فيه بعد. نظر إلى صورة الرئيس المعلقة في المحل وقال: «. خربت بيوتنا ووقفت حالتنا. أين أيام العز والفخفة؟ انتهت؟ نشفت ريقنا؟». تذكر نكتة قالها أحد زملائه من الجزائريين. قالها زميله فمات كل الحاضرين من الضحك. حكى أن امرأة كان ابنها مريضاً ويسيل لعابه دائماً. ذهبت إلى طبيب وشكت له حال ابنها. لم ينفع العلاج مع ابنها. ذهبت إلى أحد الدجالين، فعمل لها حجاباً. شفي الطفل. أخذ المرأة الفضول، وفتحت الحجاب، فوجدت فيه صورة صغيرة لرئيس الوزراء. ذهبت للدجال وسألته. قال لها: لقد نشف ريق ثمانين مليوناً، أفيعجز عن أن ينشف ريق طفل صغير؟! أخذ يضحك في نفسه لطرافة النكتة.

ذات مرة أخذ يفكر في الذئب الذي أصابه وأصاب زملاءه في المهنة. طيب وإن ترك مهنته فما الذي يستطيع أن يفعله؟ الحمد لله. لدي هذا البيت ولدي بيت آخر، ولدي آلاف الجنيهات في البنك. تذكر أنه عندما كان صبياً كان كيلو اللحم بنصف جنيه. لقد صارت المئة جنيه لا تأتي بكيلو وربع. الناس تنظر إلي اللحوم التي يعلقها بتحسر وألم. أين أيام العز؟

الموظفون لم تعد لديهم حتي مجرد القدرة علي طلب الشراء علي النوتة. تذكر عندما أتاه طفل يقول له إن أمه تريد بعض العظام لعمل شوربة. نهرة وزجره. جاءته أم الطفل ومعها عشرة جنيهات. نظرت إليه في غضب وقالت في عشم ورجاء:

- جاءك الولد ولم تعطه بعض العظام التي تلقيها
- صرنا نبيع العظم يا حاجة
- طيب. أريد منك مئة جرام من اللحم
- مئة جرام؟ سبحان الله. أنا أبيع لحماً لا ذهباً
- والله يا معلم زين العين بصيرة واليد قصيرة. أريد مئة جرام وأعطني ببقية العشرة جنيهات عظاماً تكفيني بقية الشهر
- ما هذا الطمع؟ بين البايع والشاري يفتح الله. لن أبيع لحماً اليوم. وأثناء حديث زين مع المرأة، كان طفلها يلف ويدور حول قطعة اللحم المعلقة. طلب من أخيه أن يلتقط له بعض الصور بجوار قطعة اللحم وهو يلمسها. أخذ المعلم زين العشرة جنيهات ووزن لها مئة

- جرام من اللحم، وهو يتعجب. نظر للمرأة وقال:
- كילו العدس الآن بأكثر من خمسة عشر جنيها. يا ناس اتقوا الله. يا حاجة كيلو الفول الآن صار بعشرة جنيها. فاهمة؟ أنا أبيع لحما لا فولاً.
- ماذا نفعل يا معلم زين؟ هل نسرق؟
- لا. نسرق نحن
- أين العظام يا حاج؟
- خذي هذه العظمة تكفيك
- عظمة واحدة
- كفاك كلاماً لقد صدعتني
- طيب هات عظمة أخرى
- لا. أنا أبيع العظم في هذه الأيام
- أنت سترمية
- لن أرميه. سأعمل عليه شورية تكفي لتوزيعها علي الفقراء. ماذا جري للناس؟ علي الطلاق بالثلاثة لن أبيع لحماً بعد اليوم.
- صار يعيش وحده. جرب أن يعيش بين فكي العزلة. في البداية كان سعيداً في وحدته. ستتيح له هذه الوحدة في أن يفكر في سامية أكثر. شطح به خياله الجامح، فقد يدعوها إلي شقيقته. قد يغريها بأن تتزوجه في هذه الشقة. إنه يستطيع أن ينظر إليها من خلف الشباك في أي وقت. حبيبتي يا سامية. أيا قرة عيني. لقد غضبت زوجتي. سأطلقها وأتزوجك. وعلي نفسها جنت براقش. لقد صرت بمفردي من أجلك. بدأ يزداد قلقاً عندما مرت به الأيام ووجد نفسه لا يجرؤ من الاقتراب من سامية إلا بالقدر الذي تحدده هي. صار يتقرب منها ويأمل أن تساعد في غسل ملابسه. طلب منها أن تسمح له الشقة أكثر من مرة ولكنها رفضت بحزم. قال إنه سيسقط عنها إيجار شهر مقابل كل مرة تنظف فيها شقيقته وتمسحها وتغسل له ملابسه. وافقت ثم أتت بأحد صبية المحل المجاور لها حتي تحمي نفسها من ظنون الناس.
- صدق المعلم زين في يمينه. قرر أن يحول محله إلي محل لبيع الفول والطعمية. سيستأجر مجموعة من العمال. سيغير نشاطه إذا.
- غير نشاطه ولكنه لم يستطع أن يغير حبه. سيعطيه تغيير النشاط

فرصة أكبر للتمتع بالنظر إلي فانتته سامية ، كما سيعطيه فرصة أكبر في التفكير ليحصل عليها بأية طريقة ، حالاً كانت أم حراماً . نظر إليها وهو يشتهيها . كانت تصلح إحدي العجلات وتتحاشي النظر إلي عينيهِ اللتين تجردانها من كل ملابسها . صاح بأعلي صوته لتنظر إليه : «الصبر حلو يا جميل» .

لم يكن المعلم زين وحده هو الذي خاب أمله في الحب . كان هناك عاشق آخر قد تحطم أمله في الحب تماماً . أخذ يتذكر ما حدث له . بالأمس بعد صلاة العشاء ، دكت مني كل آماله . ذهب ليزورها مع خاله . ظل يرجوه ليذهب معه ليزور قلبه الذي أخذته مني . ملأت السعادة قلبه لما وافق خاله ، وشرع يردد في طريقه لخاله بعض الأبيات التي كتبها لها وهو يقود السيارة .

عينك أجمل ما رأيت وما قرأت

يداك أذكي ما عرفت وما شيعت
أهواك ألما في الفؤاد وما تعبت

تذوق خاله طعم كلماته . إنه لشاعر حقاً . لقد أنطق حبه لسانه . حاول خاله ألا يظهر غضبه من ابن أخته . لقد خطبت ابنته بالفعل للضابط علي الصفتي . إنه متأكد من أن السبب في قبولها هذه الخطبة أن تغيظ محب . أرادت أن تريه أنها لن تموت بعيداً عنه . يعلم أنها تسرعت . ماذا تفعل وقد غشيتها خيبة أمل في حب فشلت فيه ؟ كان يحس أن ابنته تميل إلي محب .

تناقش معها طويلاً ، ولكنها كانت قد اتخذت قراراً . إن محب لا يري إلا مني يا بابا . أيعقل أن تفقدنا خيبة الأمل إلي الطريق في إيذاء أنفسنا حتي يشعر بنا من نحب ؟ أنؤذي أنفسنا من أجل أن يشعر بنا الآخرون ؟ أنت مخطئة يا نوال يا ابنتي ؟ وماذا يمكنني أن أفعل ؟ هل أظل طيلة عمري أتعبد في محراب حبه دون أن يشعر بي ؟ لم تقل ابنته هذه الكلمات ، ولكنه أحس بها واستشفها من خلال حديثه معها . لاشك أنها مجروحة مذبوحة . إنه يحس بالآلها ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً . هكذا الشباب . أليس الشباب مجبولا علي الجنون ؟ أليس الشباب جوادا جامحا يركبه العناد والأمل ؟ قال لها محب أمامه إنها قد تسرعت في قبول الخطبة . كانت قد

اتخذت قرارها بالفعل علي الرغم من معارضة محب لهذه الخطبة. قال لهم إن علي الصفتي أسوأ شخص قابله في حياته ، ولكنهم لم يصدقوا كلامه. رفض أن يبوح لهم بكل شيء. إنه قاتل. لقد قتل مصري المحلاوي أمام عينيه. إنه مجرم. هكذا كانت تقول نظراته دون ان يتكلم. قرر أن يترك نوال لعنادها. إنها تنتقم من نفسها لا منه. حاول أن يوضح لها ولكنها قالت له في صرامة: «إن كنت تشعر بالغيرة فلن أوافق علي الخطبة». نظر إليها في غيظ وقال: «أنت الخاسرة. ستندمين علي قرارك. أنا أغار من علي الصفتي؟». نظرت إليه في تحد وقد كانت تأمل أن يعترف بغيرته لقبولها خطبة الضابط، ولكنه تجاهل الحديث معها فقالت: «أنا لا أندم علي قرار اتخذته. أنت لن تندم علي قرارك بخطبة مني؟ دعني وشأني يا أخي. ألا تريد أن ترحم ولا تريد لرحمة ربنا أن تنزل بي؟». ابتعدت عنه. أولته ظهرها، وأخذت تبكي. دخلت حجرتها وواصلت بكاءها وحيدة والحزن يمزق شغاف قلبها.

كان يقود السيارة ويسمع خاله بعضا مما كتب لمني. كان يقول شعره بقلبه لا بلسانه.

أشهد الأشجار والأزهار أني يوما في غرام ما بكيت
غير أني قد وقعت اليوم سهوا في هواك وما دريت
حاولت أن أسقي فؤادي منك ومن شذاك وما رويت
ظننت أني في رضاك قد حفيت وقد حفيت وقد تعبت
وزرعت الكون زهرا في يديك ويح قلبي ما جنيت
وجريت خلف عمر في لظاك ليت أني ما جريت

ابتسم خاله وهو يفكر في حال ابنته. إنه يري أن محب مسئول عن قبول ابنته للخطبة. عليه أن يفرق بين كونه أبا لنوال وبين كونه خالا لمحب. إنه يراه كابن له أيضا. ابتعدت نيران غضبه لابنته من تفكيره، واقترب حبه لمحب كوالد. قال له في تفكير: «كلماتك مليئة بالحب، ولكني لا أدري لماذا يملؤها الشجن والحزن؟». نظر إليه محب في سرعة خاطفة ثم التفت للطريق حتي لا تصدمه السيارة التي عن يمينه: «المحب يا خالي حاله غريب. يعيش بين الألم والألم. قد يكون هذا سر الشجن والحزن في أبياتي أو قل إن شئت محاولاتي للتعبير عن مشاعري»

أسمعه محب أبياتا أخرى. قال وقلبه يؤلمه :

والله لو كان النعيم يعمنني والكون حولي والسماء تضميني
والله لو جاء الربيع يسرني والنهر يشدو والرياح تودني
ألست حبي ومن في رضاك أحتمي؟
من لي سواك يا من بنوره أرتوي؟
أنت الحياة ونورك يسري في دمي
من لي سواك وحبك يجري في دمي؟
ألست لي ومن لي سواك ومن لغيرك أشتكى؟
قال له خاله :

- ألم أقل لك؟ كلماتك مليئة بالحب، ولكنها في الوقت ذاته مليئة بالأحزان والأشجان.
- معك حق يا خالي. قلبي غير مستريح الليلة. قلبي أشعر فيه برجفة.
- ماذا بك يا محب؟
- أشعر أن شرا سيقع لي اليوم. أشعر أن هناك هموما كثيرة علي قلبي. أنا خائف جدا علي مني.
- اطمئن. إن شاء الله الأمور ستمر بخير
- لا أعتقد هذا يا خالي
- لكن يبدو أن المحب يري بعيون قلبه. لقد حدث ما كان يحس به محب للأسف. وفي طريق العودة كانت تسبقه دموعه وهو ينشد شعرا أدمي قلبه قبل عينييه. أسمع خاله هذه الأبيات وهو يكاد لا يري الطريق جيدا. ساجئ أقدم أشواقي في ذكرى نحر أشواقي
- وأقدم دوما أشواقي عساها تسمع الحاني
- وأقدم للقلب عزائي عساها يذيب أحزاني
- ويؤكد للكون هيامي يا وهمي وبريق فؤادي
- يكفيني أنك سجاني في قبر بالعشق كساني
- يكفيني أنك تلقاني وتقر بأنك جلادي
- يوما ستقر بأبياتي وتقول الشعر لفقداني
- وتطيل السهد لتلقاني بخيال ودموع وأمان
- فمثلك يجرع أشجاني ويشيد بأحلي أبياتي

يا فجرا حل بأوطاني ودك جذور شرياني

ففاضت بالحب سمائي وتفرق شملي وكياني
خذ مني العفو وغفراني وتأكد أنك عمراني
ستظل دوماً بخيالي وتأكد أنك تهواني
ستريق الدمع لفقداني وتحن دوماً للقائي

رمقه خاله بشفقة وقال له :

- هون عليك فقد جري ما جري
- لا يا خالي. أحبها ولا أستحق ما جري لي
- يا بني ركز في طريقك
- لا أستطيع
- سأقود أنا السيارة بدلا منك

واصل خاله القيادة وهو يتألم لألم ابن اخته. كان من الممكن أن يشمت فيه ، ولكن كيف يمكن أن يشمت فيه ولقد رباه بعد موت أبيه. إنه يشعر أنه في نفس مكانة ابنته. يبدو أن الآلام والأحزان لا تأتي فرادي. كان الله في عونك يا محب. كان الله في عونك يا نوال. لقد خاب أملك في حبك يا محب. لك الله.

انتبه لمحبه وهو يردد أبياته والحزن يقتله لما حدث له الليلة. أسند رأسه إلي الخلف علي ظهر الكرسي. ليته لم يذهب إلي مني ليزورها. ليته لم يعرف هذه الفتاة قط وليته لم يحبها. هذه هي الحياة وماذا يمكننا ان نفعل فيها؟ لنا الله جميعا يا محب. استمع إليه والحزن يقطر من كلماته :

فيك قلبي يا سمائي فاسمعي

إنني رضيت بنار هجرك فاقنعي
لن أبيعك نبض شعر والفؤاد يكتوي
ماجت بحور العشق حولك فارجعي
إنني زهدت الكـون بعدك فاشهدي
لا لن أذل لعرش قهرك يا نعيمي فاذكري
إنني رجوت الموت عشقا في مقابر جنتي
فأنت نار في فؤادي ولهيبيك جنتي
عودي إلي إنني رجوتك أن تعودي فارجعي.

كل شئ بالقوة

أضواء الصباح تنسكب في الحبس، تتأهب شريف بعد أن استيقظ وفتش بين عيون رفاقه عن بادرة أمل فلم يجد. الكل إما نائم أو متظاهر بالنوم هرباً من التفكير أو طمعا في راحة البال أو مشغول بالتفكير فيما وراء هذا الحبس ومتي ستنتهي ساعاته. فرح بأضواء الصباح التي تحمل له المجهول ذبيحا بين يدي يوم لا يدرك ماذا يمكن أن يصيبه فيه بعد أن تراءت له في ذهنه ضحكات عادل الصفراء التي أصابته بالخوف من تدبير عدو خائن مع زوجة أشد خيانة. تجاهل مخاوفه واستبشر خيرا بضياء الصبح الوليد منذ دقائق من رحم ليل طويل جرب فيه أن ينام هادئا بعيدا عن فراشه الناعم، وأخذ يكتب في أوراقه:

«يوم عادي يمر كأى يوم بين زملاء الحبس. ضحكات هنا وهمهمات هناك. الساعات تمر ببطء وثقل، وعقارب الساعة وكأنها تود ألا تمر لولا أن سيف الزمان مسلط علي رقبتها فتتحرك متهادية متباطئة مرغمة. أين كنت وكيف أصبحت يا شريف. كانت زوجتك دوما تقول لك: العيب الوحيد فيك لسانك. لن أسكت يا أمينة. سأناصر المظلومين بلساني. لن أسكت. سأكون سيفاً مسلطاً علي رقاب الفاسدين والمفسدين. سأتكلم وسأكتب. اشتقت إلي قهوة الصباح وابتسامة نيفين. اشتقت إلي ضحكات ولدي ومسابقاته التي كنت أنهزم فيها من أجل أن أري نور السعادة وبشائر الأمل في عينيه. ذات مرة قال لي: أبي أنا لا أحبك ثم غمز بعينه. أنا أعلم أنك تنهزم من أجلي. أريد أن تسابقني حقا. يمكنك أن تسرع في البداية فأيقن أنني مهزوم لا محالة، ثم تتباطأ بعد ذلك لألحقك. لا تجعلني أهزمك. دعنا نتساوي ونصل إلي شجرة النهاية معا. آه يا ولدي لو تعلم كم العشق الذي أكنه لك في قلبي. آه لو تعلم أنني أعيش فقط من أجلك. أنا لا أحتاج إلي أي شئ إلا أنت. أخذت من الدنيا كل

شيء. تعلمت وعملت وعلمت الكثيرين. أحببت. أحببت زوجتي في البداية. ظننتها ستكون أما لي. ظننتها ملاكا بريئا فوجدتها تستحيل مع الأيام إلي شيطانة مريضة. تأكدت أنها لم تكن تحبني. شيء صعب أن تصدم في أقرب الناس إليك. أيعقل أنها كانت تريد أن تبث روح الكراهية في نفس ابني تجاهي؟ أنا لا أصدق. سألتها عن سبب قبولها الزواج مني فقالت لأنك طيب لن تظلمني. أخبرتني أن الحب وهم للضعفاء وغذاء لضعاف القلوب. ليتني طلقته في هذا اليوم. تذرعت بابني وبحبي له. ليتني لم أعش في أحضانها دقيقة واحدة بعد اليوم. أخبرني أحمد أنها ستتزوج عادل. لم أكرث في البداية إلا بعد أن قال لي: ستتزوج عادل فوزي. جربت أصعب انواع الخيانة. خيانة الحبيب. خيانة الزوجة. خاننتني وباعتني لأمها وفضلت أن تكون مع أمها. خانني أعز أصدقاء العمر عادل. تعلمنا معا وكبرنا في المهنة معا ورأيت يغضب لأن نجمي يعلو. تزوج ابنة مدير المخابرات لتعلو بها خسة نفسه، ولكنه سرعان ما عاد يشكو لي من سوء خلقها ومعاملتها معه. رأيت الحقد يطل من عينيه عندما عينت مديرا لتحرير جريدة النهار. هنأني بكلماته وكأنه يطعنني. أعلم أنه يدبر مع زوجتي السابقة ضدي. لن يصيبني أبدا إلا ما كتب الله لي. جربت الحب الصامت. أود أن أكون حرا لأخبر نيفين أنني أحبها. نظراتها المحبة وتعاملها الراقي الرقيق وابتسامتها الهادئة. أشعر أنني أفقدها، ولكنني لن أدفنها حية مع كهل عجوز مثلي. لها الحق أن تنعم ببريق شبابها مع شاب مثلها. يكبران معا. يحبان ويخبران الحياة وينعمان بمتاعبها اللذيذة»

رأي حامد يتحرك. تساءل شريف في نفسه كيف يمكن له أن ينام؟ أنا قلق علي أمه وأخته. إنه يري أنه قدم للوطن خدمة جليلة بقتله سيد علي الحوفي. أليس هذا الشاب أكثر جرأة مني؟ اعتقد أنه قتل الفساد. أنا مثله ظننت أن طلقات المقالات والأخبار التي ألقها علي الفساد والظلم في كتاباتي أفضل، ولكنني أعلم أن القوة أفضل في التعامل مع سارقي أحلام الوطن وآماله. إنه أفضل مني. سيعدم. سيحكم عليه بالإعدام. لكنه ينام قرير العين. أخبرني أنه غير نادم ولكنه

قلق علي أمه وعلي أخته. اطمئن سأظل أساعدهما طيلة عمري. ليت لي حماس الشباب الذي لديك يا حامد. اقترب منه ولمس جبهته. تحرك حامد. ود شريف لو قبله. ود لو احتضنه. إنه يراه كابنه. كان يجد ريح التحدي للزمن والمستقبل في عينيه. أنت جرئ يا حامد. أنا جبان. الكلمات والمقالات والأخبار لا تقتل الفساد. أنت قتلت رمزا للفساد. ضحيت بنفسك ليعيش غيرك. أنا سعيد أيضا أنني هنا في الحبس. ضحيت بنفسي من أجل أن تري العيون العمياء. من أجل أن تسمع الآذان الصماء. من أجل أن تفقه القلوب المتجاهلة. أنا هنا من أجلك يا مصر. من أجل ثلة اللصوص والمرتشين ومن أجل جماعة الظلم ومن أجل مناهضتي لرجال الحزب الوطني وأعوانه. أنا هنا لأنني رفضت التوريث. مصر جمهورية وليست ملكية ولن تكون. نظر إلي عوضين الطويل. تمنى أن يحتضنه. سمعه كثيرا يتحدث عن مريم ابنته. يود شريف أن يحتضن مريم هذه كما يحتضن ولده. أبوك يسرق من أجلك يا مريم. يقبضون علي هذا اللص الذي يسرق لحاجة ويتركون من يسرقون أقوات الملايين ويسرقون البنوك باسم القروض التي يهبونها ويخرجون بعيدا عن مصر. يتركون المرتشين وسارقي أقوات الفقراء. إن خرجت سأزورك في بيتك يا عوضين. أيها الطيب. سأري ابنتك. سأحتضنها. سأكتب عنوان كل من زملائي في هذا الحبس. أنا أخ لكم جميعا. ستواصل مريم تعليمها. يوما ما ستشرق شمس جديدة عليك يا مصر ولا مكان لمحتاج أو عاجز أو فقير علي أرضها. يوما ما ستشرق الشمس فوقك يا بلادي وأنت أغني بلاد العالم. لن نستورد القمح. سنصدره. لن يعمل أبناؤنا خارج مصر ولن يذلوا أو يهانوا. كنا سلة الغذاء للعالم كله. الآن نستورد غذاءنا. من المسئول عن شحنات القمح الفاسدة المسرطنة؟ من المسئول ومن يتقاضي العمولات عن هذه الشحنات؟ أيها المصريون ستعلمون. حتي أنت يا منصور يا أبو دومة. كان من حقك أن تتعلم، ولكنك صرت مسئولا عن أسرة بعد موت أبيك. إنك طيب بالفطرة. أنا أحبك بالرغم من تمثيلك دور الشرير. لقد لفظك المجتمع بدلا من أن يحتضنك ويوفر لك الحب والأمن والعمل. أخبرتني أنك لا تسرق

إلا من الأغنياء. تسرق الشقق المغلقة التي هجرها أهلها. تسرق من اللصوص. تسرق السيارات المكونة منذ سنين ثم تبيعها كقطع غيار أو تذهب بها إلي أي ميكانيكي أو ورشة سيارات. لا أحد يسأل عن هذه السيارات. هي إذا ملك الشعب. كنت تسرق الفاسدين. تسرق المرتشين. أنت أفضل مني يا أبو دومة. قلت لي إنك لم تسرق فقيرا قط.

ذات مرة حكيت لي أنك كنت تركب المترو فشاهدت رجلا حسن الملبس متأنق تماما. ظننته من كبار الموظفين ولما سرقت محفظته في غمرة الزحام لم تجد فيها سوي عشرة جنيهات فرددتها إليه في هدوء. لقد دمعت عينايا عندما قلت لي وددت لو أن معك مئة جنيه لتضعها له في محفظته. شكرك الرجل وقال لك وكأنه علم أنك تود سرقة: يا ولدي لا يغرنك الظاهر. أنا أستاذ جامعي ويجب أن أتأنق في ملبسي أمام طلابي. يعلم الله أن راتبي لا يتجاوز ألفي جنيه في غلاء هذه المعيشة ولدي خمسة أطفال. وقتها قلت لي وددت أن أحرق الحكومة وكل الوزراء. أهذا حال الأستاذ الجامعي الذي يعلم الأجيال ويربي عقول أبناء مصر. أخرج العشرة جنيهات وقدمها لي يا أستاذ شريف برضاء نفس وقال: خذها. أشكرك لأنني كنت سأتعيب والى وأدور لأعمل البطاقة وكرانيه الجامعة. أقسم أنني لن آخذ العشرة جنيهات. هي لك. بكيت يا أستاذ شريف طيلة اليوم. كنت سأسرق رجلا فقيرا عضه الفقر بأنيا به. لقد عرف أنني كنت أود أن أسرقه. رفض أن يأخذ العشرة جنيهات. قبلته. أنا أحب كل الناس. لست لصا. الفقير يفعل أكثر من هذا. طيلة عمري وأنا فقير. أنا لا أحقد علي الناس. أحقد علي الأغنياء فقط وأكرههم. هم السبب فيما نحن فيه يا أستاذ شريف.

ظننت أنك تحارب الفساد بأسلوبك يا أبو دومة. ود لو أيقظه واحتضنه. أعلم أنك لم تتزوج. سأزوجك. سأضمن لك عملا شريفا. سترفع رأسك في الأيام القادمة. ربت علي ظهره. اتجه إلي بسمة الأمل التي رآها في عيني منصور العالم. لقد تيقظ منصور. تذكر ابتساماته وسرعته ليلبي طلبات الزبائن في المهني. رضي

بأن يكون بوليكا. يلقبه الجميع في المهني ببوليكا. رضي بأن يعمل في مهني بدلا من أن يقف في مختبره ويجري أبحاثه. بدلا من أن يكون في المكتبات وبين جنبات التجارب. رأي الدنيا كلها تطارده. حتي صاحب المهني يسخر منه. أنتم كلكم أقوي مني. وقفتم في وجه الظلم والفساد. وقفتم بقوة، أما أنا فكنت أظن أنني بقلمي العاجز الضعيف أستطيع أن أحارب الفساد والظلم والمحسوبية. لكم كنت ضعيفا !! أنتم أكثر قوة مني.

احتضنه وود لو كان ابنه. أتمني أن أري ابني مثلك. ماذا لو أصبحنا علي ضياء شمس جديدة نري فيها مصرنا مختلفة. أنا مسئول عنك إلي أن تنتهي من الدكتوراة. أنا مسئول عن كل مصر. إن أموالني لن تسع الجميع ولكن خيرات الوطن المنهوبة المسروقة تسعنا جميعا. منذ متي يا مصر وأنت تسرقين؟ منذ متي يا بلادنا ونحن نذهب وتخرج خيراتنا إلي غيرنا؟ مسح علي جبهته. منصور العالم. الأول علي طلاب الثانوية العامة علمي. هل مكانه أن يقف كصبي في مهني؟ تبا لكم أيها الظالمون. أكثر من مرة حكى له وهو يبكي أنه تم استبعاده من بعثة لدراسة الماجستير والدكتوراة من الولايات المتحدة الأمريكية. كان تقديره ممتاز في البكالوريوس. فضلوها ابنة رئيس القسم الحاصلة علي تقدير أقل منه. إنها ابنة رئيس القسم. نحن أولاد العبيد وهم السادة. هل يعقل ما يحدث لك يا مصر. أترمين خيرة شبابك وزهور علمائك الأجلاء ورموزك المبهرة في ضلالات اليأس وربوع الخوف من المجهول؟ أليست هذه هي المحسوبية والوساطة؟ إذا كان رئيس الدولة يريد أن يكون ابنه الرئيس من بعده فلماذا نلوم علي رئيس القسم في الجامعة؟ لقد أضاع حق منصور العالم. لقد رفض تعيينه كمعيد في الجامعة وعين ابنته. درت في أرجاء القضايا والمحاكم وضاع حقلك. ثبتك الله يا منصور.

نظر إلي قلمه في يأس واستسلام. دارت عينه في الحبس حتي توقفت علي الشيخ مختار شلبي الذي كان يغط في نوم عميق. إنه حتي لم يستيقظ ليصلي الصبح. أأست المسئول أيها الشيخ عن كل ما يحدث في مصر. أكنت تعلم الناس الصلاة فقط والعبادة ولم تعلمهم

حسن المعاملة. حرام ألا نصلي ولكن أليس حراما أن نضيع مصر؟ أليس حراما ألا نعمل؟ أليس حراما ألا نساعد كل من يحتاج إلي المساعدة؟ أليس حراما أن نضيع بلادنا. أكثر من مرة قال له: أنا أمشي جنب الحائط يا أستاذ شريف. أنا لا أريد المشاكل مع أمن الدولة. لا أريد أن يقبض علي من وسط أولادي. أنا عائلهم. أكبر الإثم أن نضيع من تعول. آه. ونضيع منا البلد يا شيخ مختار ونقع فريسة للمرتشين والظالمين والفاستدين والمفسدين. أخبرني أنهم قالوا لك أكثر من مرة لا تتكلم في السياسة. قالوا لك لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. كذبوا هم يريدون الدين ليزلنا ويقهرنا فقط. وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم. أما فسادهم وظلمهم فلا يتحدثون عن أنه لا يفلح الظالمون.

تتقظ يا شيخ مختار. أنتم يا رجال الدين السبب في تخلف مصر. أنتم تمتلكون المنابر وكان يمكنكم أن تعلموا الشعب أن الدين يرفض للمسلمين أن يكونوا ضعافا. يأبى أن يكونوا أذيانا أو أتباعا. يريد الله لهم العزة ولا عزة إلا بالعمل والإنتاج. حصرتم الدين في العبادات ونسيتم أن المسلمين الأوائل كانوا سادة العالم. كانوا العلماء في الطب والفيزياء والكيمياء وكافة فروع العلم وكان من يريد أن يتعلم يبدأ أولا في تعلم اللغة العربية. أضعتم اللغة العربية والدين.

أضعتم مصر. أنتم السبب. أنا أحبك يا شيخ مختار، ولكنني مشفق عليك. لقد صار رجل الدين موظفا. لم تعد لديه رسالة النهوض بالمسلمين. اقتربت منك وتحدثت معك كثيرا. أحببتك. أنت من الملايين الفقراء الذين ينتظرون راتبهم آخر كل شهر. لقد اضطرت للعمل في أكثر من عمل لتسير سفينة حياتك، ولكن الفقر والعوز كانا يقفان كرياح هائجة في سبيلك. قلت لي إن سادة القوم يحصروننا في بطوننا. يريدون أن يسدون الطريق علي عقولنا فلا نفكر إلا في بطوننا. أذاقونا نار الفقر وأغرقونا في بحور الغلاء وأرهقونا بالوقوف في طوابير الخبز. قلت لي يا شيخ مختار أكثر من مرة: كيف يمكن لأمة من الجوع أن تنهض وأن تقود العالم؟ ماذا يحدث فيك يا مصر. اضطرت إلي العمل كمحفظ للقرآن لدي علية القوم. لم ولن يقف أحد بجوارك.

أنت خادم لهم. تري ابنة اللواء تماما مثل امرأة اللواء عارية أو شبه عارية ولا تستطيع أن تتحدث. كنت أغض بصري فحسب. كنت أنتظر هباتهم ونفحاتهم المالية ولمست فيهم البخل الشديد. نحن أكرم منهم علي فقرنا. صحيح لا تهون الدنيا إلا علي الفقراء. إنهم متمسكون بالدنيا تمسك الغريق بأي شئ ينجيه من الغرق ولو كان قشة. تحفظ أولادهم القرآن وهم يرفعون أصوات المغنيات ويعلقون صور الراقصات والمغنيات العرايا أو أشباه العرايا.

ضبطت ابن اللواء أكثر من مرة في الأسانسير يحتضن فتاة ويقبلها. نصحته لله، ولكنه صرخ في وجهي قائلا: «أنت هنا لتحفظ أخي الصغير القرآن. لا تترقني بكلامك. أنا عارف. أنا أريد أن أدخل النار. ارحمنا يا شيخ. يمكن أن نأتي بأي شيخ غيرك» صدقني يا أستاذ شريف اضطرت لأن أترك كل هذا عندما وجدت ابن اللواء يقبل ابنة البواب ذات مرة وأنا أصعد السلم لأن الأسانسير معطل. فاجأتهما. قال لي: «أنا أقبلها بمزاجها. أخرج ورقة بخمسين جنيها وأعطائها لابنة البواب. أنا لا أجبرها يا شيخ. خذ أنت أيضا خمسين جنيها ولا تخبر أحدا. صفعته علي وجهه وكان ما كان. أخبرت البواب الذي ضرب ابنته أمامي. قلت له أن يحافظ عليها. أنا هنا لهذا السبب. لقد تتبعتني اللواء. نحن فقراء جدا ومساكين. ذهبنا إليه زوجتي فطردها وقال: زوجك قليل الأدب ويجب أن يتم تربيته من جديد؟ هل أنا قليل الأدب أم أن ابنك هو الفاسد العاهر؟ طيب والله يا أستاذ شريف وأقسم لك أن امرأته أكثر من مرة كانت تكلمني وتلمس يدي وذات مرة طلبت مني ان أقبلها. عرفت أنها تنام مع أكثر من شاب. يا أولاد الكلاب أيها الفاسدون. والله حكي لي الكثيرون أن زوجها سيادة اللواء المحترم يخونها مع الخادמות ويخونها مع بنات في سن بناته. صدقني يا أستاذ شريف عرفت أن ابنة اللواء المحترم أيضا تدمن المخدرات وتم ضبطها أكثر من مرة مع شباب من زملائها في سيارات بتهمة الفعل الفاضح في الطريق العام. إنهم يعتقدون أن الله سيتركهم. لا. ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون. الله يا أستاذ شريف عادل. يمهل ولا يهمل. سبحانه وتعالى

يمهل ولا يهمل.»

وأنا أحببك يا شيخ مختار. أنت ضحية وكلنا ضحايا. تري ما الذي يمكن أن نفعله؟ نظر إلي قلمه في حسرة. اقترب من الشيخ. أيقظه. كانت تبدو عليه علامات الحزن. واصل نومه. حاول أن يوقظهم جميعا. قام بعضهم وتكاسل آخرون. لقد كنتم أكثر قوة مني. علي الأقل حاولتم أن تحاربوا الفساد والظلم. أما أنا فظننت القلم يكفي. أمسك قلمه بغضب. ضرب الحائط بالقلم. القلم لا يكفي. أمسك القلم بكل قوة وعنف ثم نظر إليه في غضب. لا تكفي. كسر القلم بقوة وبعنف وصاح: «أنتم أقوي مني. القلم لن يفيد. يبدو أن القلم لا يجدي. كل أمل يمكن أن يتحقق بالقوة. القوة وحدها هي التي تجدي. لن يفيد القلم معكم أيها الفاسدون. القوة هي التي تناسبكم. القلم لن يفعل معكم أي شئ. لقد قتلتم العدل بقوتكم وذبحتم الحرية ببطش قوتكم واستعبدتم الناس بقوتكم. لقد أخرستم الحق بقوتكم. يجب أن يتسلح العدل بالقوة، ولا بد للحرية من أن تسير في قوة، أما الحق فيجب أن تكون له قوة لتحميه ولتعينه علي محاربة الباطل. كل شئ بالقوة. صدق عبدالناصر عندما صرخ من قبل قائلا: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. أفيقوا. استيقظوا. طلع الصباح. أتى الفجر. استيقظوا يا أحبائي»

استيقظ الجميع فلقد بدأ يوم جديد من أيام الحبس البغيضة التي لا يعرف أحد ما الذي يمكن أن يحدث فيها ولو بعد ساعة واحدة. استيقظوا وهم ينظرون إلي عيني شريف فيجدون فيها بريقا جديدا ينطق بالحب لهم جميعا كما ينطق بنظرات التحدي والغضب والاستعداد ليوم ممثلي بأحداث بعضها سعيد وبعضها الآخر في غاية الحزن والألم.

مزید من القوة والعنف

لم تغمض لمبروك عين في هذه الليلة. إنها أول ليلة يبيت فيها بعيدا عن أمه. هذه أول ليلة يبيت فيها مع أخيه ممدوح. لقد خرج ممدوح ليسعي وراء لقمة عيشه. حجرة صغيرة ضيقة سيشارك فيها بقية حياته مع أخيه. كنت أعمل مع أبي طيلة عمري وها هو ذا يطردني كالكلب. لم أحصل علي جنيته واحد منه. ضاع عمري في خدمة حذاء أبي. كنت ألعق حذاءه ولا أفهم أنه كان يمكن أن يطردني يوما ما.

خرج أخي بالتاكسي ليبحث عن رزقه. هل سأكون عالة عليه؟ أنا لا أحسن إلا العمل في الجزارة. البلد حالها واقف. الناس لا با يشترون اللحوم. هل أبداً من جديد؟ كيف أبداً وليس لدي شهادة دبلوم لا قيمة له أتكى عليه؟

أبي أضاع حياتي أم أنا الذي أضعت حياتي؟ لم أكن أحب الدراسة ولا التعليم. كانت نظرات أبي توحى إلي أننا نمثل كل شيء. نحن لا نحتاج إلي الدراسة. بنت عمك ابنة الشاويش المسكين الذي يكاد مرتبه أن يكفيه بالكاد هي التي نجحت. رسبت يا مبروك؟ رسبت يا أيها العجل؟ ولا يهتمك. محللك موجود. مال أبيك يكفيك. أنا عارف أنك غبي ولا تفهم. البهيمة تفهم أكثر منك. ولا يهتمك. لا تدخل الجيش. سأدفع لك. كن معي في المحل وأنا أبوك. سأجعل من يأتيك بشهادة المعافاة. ابني كبدي. أنت حبيبي. لن أجعلك تضع سننتين من عمرك في الجيش. ستقف معي في المحل. كل حاجة في البلد تمشي بالجنيه. أبوك سبع. تقدر بالجنيه أن تشتري كل شيء. أبوك أكبر جزار في المنطقة.

كبرت والله يا بقف. سأزوجه. ما رأيك في بنت عمك؟ ستتزوجها يا عجل. يا دغف لا تقلق أبدا. الرجل لا يعيبه إلا جيبه. لا أحد يستطيع أن يكسر كلمتي. يا حاج هي متعلمة. هي لا يكتفيها مرتبها.

نحن معنا المال. المال يشتري العلم يا دهل. هل نسيت أننا كنا نشترى المدرسين. المدرس يأتيك إلي البيت ويعطيك أعلى الدرجات. يا ابني كله بالجنيه.

كنت أخشي أن أقول إنني أتمني أن أتزوج سامية. لم تسمح لي بمجرد التفكير في سامية. تريدها لنفسك أيها الظالم؟ نعم. أحبها يا أبي. أنت أيضا تهيم بحبها. لم تكن تريد مني أن أتزوج مني بنت عمي إلا لأبتعد عن سامية. أنت أنا. أكلت أمي لحما وتريد ان ترميها عظما. أنت السبب في تشيت شملنا. هرب ممدوح من مضايقاتك وفر بعيدا من سوء معاملتك وتعنيفك.

عمي نجح يا أبي فيما فشلت أنت فيه. تعلمت ابنته وصارت معلمة. تحب عمي. كلنا نكرهك. أنا وأمي وأخي نكرهك. لم نشعر أنك كنت أبا لنا. نجحت مني. كنا نشعر بحب أبيها لها. حبها لأبيها الذي كان يغيظنا. لماذا لم تجعلنا نحبك. قلت لي إنك ستزوجني إياها. أذكر حوارا دار بيننا يا أبي. كرهتك أكثر. لقد فهمت أن المال كل ما يشغلك. لقد فهمت أن قلبك ممتلئ بالسواد وبالكراهية لكل الدنيا. أنت تكره عمي أيضا. أنت تحقد عليه بالرغم من تظاهره بأنك أغني منه وأكثر منه مالا وولدا. أنت تفخر بأنك أنجبت رجالا في حين لم ينجب هو إلا مني. إنه يتفاخر بأنها أفضل من ألف رجل. لقد صفعتني في آخر هذا الحوار. جعلتني أغلق قلبي تجاهك. قال له والده:

- سأزوجك مني يا دهل
- يا أبي هي متعلمة
- وهل أنت جاهل يا حمار؟ أنت تعرف القراءة والكتابة
- يا حاج البنت طالعة فيها
- مرتبها لا يكفي أن تشتري حذاء وشنطة
- يا حمار لا يوجد من يتزوجها. ستصير عانس. ستقبل بك أيها الغبي
- يا أبي أنا لا أحبها
- عارف
- وهي لا تحبني

- عارف
- لماذا أتزوجها إذا؟
- لتطلقها وتكسر أنفها وأنف أبيها
- عمي؟
- نعم. عمك. إنه يفتخر بها ويظن أنها أفضل منكما
- أبي هل تقصد أنك تريد أن تذل عمي عندما أطلقها
- طبعاً. سأريه أنكما أفضل من بنته. سأجعله يبكي بعدما تطلقها
- أبي أنا أحب...
- إياك أن تنطق اسم سامية علي لسانك.
- أحبها يا أبي
- اخرس يا بغل. سامية لي.

لقد أتاها عريساً مرة واحدة. أتاها المهندس محب ورفضته وتقريباً طرده. أتذكر جيداً عندما كنت بجوار عمي وطرق خال محب الباب. فتحت لهما. كانت مني نائمة متعبة. طلب محب من عمي أن يدخل ليطمئن عليها. أخبره أن قلبه منقبض ويشعر بالقلق عليها. دخل عمي وغطاها ثم خرج إلينا ورجاه خال محب أن يسمح لمحب أن يلقي نظرة ليطمئن عليها. إنها في حكم خطيبته. وافق عمي وليته لم يوافق.

دخل عليها وكنت معه. كانت نائمة في وداعة. أخرج قلمه. كتب كلمات حب أثرت في. كنت أود أن أقول مثل هذه الكلمات لسامية. تذكرت عندما تعرض للضرب عندما تبعها. كانت علة ساخنة. إنه يحبها مثل حبي لسامية أو أشد. رأيت نظرات اللهفة في عينيه. كانت كنظراتي عندما أرقب سامية أو أنظر إليها.

كتب :

باحث عيوني في المساء بحبها	وشكت ظنوني من أنين بعادها
ذهبت جروحي بالصباح لنورها	فأبت حياتي أن تعود بدونها
مالت شجوني تستغيث بعشقتها	وشكت جفوني من لهيب هجيرها
يا روجي عودي للنعيم وحبها	وهم حياتي إذ لا أكون بقربها

بدأ يرسم ملامح وجهها بكل حب في قلبه. أشعر بقلبه ينبض بشده. إنه الحب الذي يملأ قلبي لسامية ويشغل فكري عندما أكون

بجوار سامية أو بعيدا عنها.

ابتسمت وهي نائمة. فرح محب وكتب :

بسماتك فجر يتجلي نظراتك سحر يتحلي
عبرتك أمس وتولي لحظاتك بشر يتسني
خطواتك نور وأهل وأراك فجرا وأطل

ابتسمت في نفسي. إن حبه ينطقه بكل هذه الكلمات. أليست سامية جديرة بأن أكون جوارها. أخلق مني أبي رجلا عديم الشخصية؟ لن أكون هكذا. سأذهب إليك يا سامية. سأغوص في كل البحور حتي أصل إليك. لن أتركك لأبي. لن أضحي بحبي لك من أجله. إنه لم ولن يضحي من أجلنا. لمحته يخرج ورقة ثانية ويرسم ملامح وجهها الجميل. أول مرة أري بنت عمي بهذا الجمال. أنا لست مناسبة لها. يناسبها محب. إنه متيم بها ويدوب في عشقها. كف عن الرسم وكأنه أراد أن يرسم حبها بكلماته. كتب :

زمن أهل بوجه جميل بفجر وشمس عليك تميل
ليل تولي بفم تحلي ونور أطل بأحلي جبين
شعر تغني بعطر أطل أحلي يمين ويدر تمنى
النوم بحضن الرمش الكحيل قال أحبك نهرا يلين
وتلا كلام النيل النبل قالت أحبك شعرا يبين
جمالي وحسني وهذا دليل عشت حياتي قليل طويل
وسلي ظلام العمر البخيل إنى أحبك يا مستحيل

بدأت منى تفيق قليلا. رأتني. رأت محب. سألتني كيف دخل

محب. قال لها محب :

— حمدا لله علي سلامتك يا أستاذة منى

— كيف دخلت هنا؟

— استأذنت عمي؟

— وهل استأذنتني؟

— بدا الغضب عليها وقالت :

— لو سمحت اخرج من هنا

شعرت أن قلبه كان يبكي. أية قسوة هذه يا منى؟ اتجهت منى

إلي وقالت في غضب :

- وكيف تسمح له أن يرسم بنت عمك وهي نائمة؟
- استأذن والدك. عمي سمح له بالدخول. إنه في حكم خطيبك ليس خطيبي. لم أقبل خطبته
- ثم اتجهت إليه في غضب وقالت :
- لو سمحت تفضل اخرج
- خرج بهدوء وأنا أشعر ان كلمات مني كانت بمثابة الطلقات في قلبه. اتجه نحو خاله بهدوء وأخذ بيده بدون أن يتكلم كلمة واحدة وخرجا. نظر عمي إلي مني في عتاب وقال لها :
- ما كان لك أن تتحدثي معه بهذه اللهجة. إنه خطيبك
- لم أقبل يا أبي
- لقد طلبك خاله يا مني
- أنا لن أتزوج. سأواصل دراستي ولن أتزوج
- أنت مخطئة يا مني
- لست مخطئة. سأواصل حياتي بدون زواج
- خفت من النظر في عينيها. من أين أتيت بكل هذه القسوة يا مني. إنها تكره نفسها وتكره الدنيا كلها. إنها نفس النظرات التي رأيته في عيني أبي عندما حاورته وانتهى حواراه بصفحه لي. لحظات وسمعت طرقات أخري علي الباب. اعتقدت أن محب قد رجع ليعتذر لمني. إن المحب يعتذر حتي وإذا لم يكن علي خطأ. وجدت ضابطا بملابس الشرطة. في البداية خفت وتراجعت ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، ولما طال وقوفي علي الباب خرج عمي وسلم علي الضابط وكأنه يعرفه. احتضنه الضابط. ظننت أنه أحد رؤساء عمي وقد جاء ليطمئن علي مني. تعجبت عندما طلب الضابط من عمي أن يدخل إلي مني. خرجت مني في غضب وهي تتحامل علي تعبها وآلامها :
- أفندم يا حضرة الضابط
- نظرات الكراهية لنفسها وللدنيا كلها تملأ وجهها. سكنت الضابط. صاحت مني في غضب :
- حضرة الضابط المحترم محمد بيه عجوة يأتيني ليقبض علي؟ أهلا وسهلا. أنا لست مجرمة
- ثبت الضابط في مكانه وأنا مرتبك متحير من هذا الموقف. سكنت

- في البداية ثم تحدث بهدوء وقال :
- فعلا الضابط محمد عجوة أتى ليطلب يد بنت الحاج عشاوي جمعة مرة ثانية بعد أن طلب يدها في المستشفى للمرة الأولى.
- طلبك مرفوض يا حضرة الضابط. هل تريد ان تعمل تحريات عني؟ هل اعترفت أُمي بأي شئ علي؟
- لا يا مني. أنا هنا لأنني أريد أن أخطبك
- أنا آسفة يا حضرة الضابط
- نظر إليها عمي في ضيق. قال للضابط في هدوء:
- معذرة يا محمد بيه. مني متعبة جدا
- أنا بخير يا أبي. لن أتزوج. سأواصل دراستي
- خرج الضابط وهو في حالة سيئة. قال أبي للضابط:
- سامحني يا محمد بيه. أنا آسف. بغض النظر عن موضوع مني.
- أنت لك واجب الضيافة
- اعتذر الضابط وخرج. قبل أن يغلق عمي الباب خلفه قال الضابط موجها كلامه لمني:
- أنا آسف يا آنسة مني. معذرة. يبدو أنني جئت في وقت غير مناسب. عذري أنني استأذنت من الحاج عشاوي لأزورك بعد العشاء اليوم
- نظر عمي للضابط وقال له:
- حضرتك شرفتنا. أهلا وسهلا بك في أي وقت يا حضرة الضابط.
- خرجت بعد خروج الضابط خشية أن تضربني مني أو تطردني أو تقتلني. وأنا في طريقي إلي ممدوح أخي رمقت سامية بكل نظرات الحب وقلت لها بعيوني بعضا ما حفظته من كلمات محب التي كتبها لبنت عمي مني هذه الفتاة القاسية. لا أستطيع أن أنام. لقد رجع أخي ممدوح قبيل الفجر. ماذا أحكي له. كان حزينا. قال لي كلمة واحدة:
- سأقتله يا مبروك. يجب علي أن أقتله. لقد صبرت عليه كثيرا واشتكيته كثيرا. يبدو أنني لم يعد لدي طريق آخر إلا القتل.
- نظرت في عينيه المليئة بالغضب والحزن. تري من ذا الذي سيقته؟
- ما كل هذه الكراهية والعنف؟ ماذا حدث للدنيا؟ أتراها تستحق كل هذه القوة وكل هذا العنف؟

الانقلاب

يسير الشاويش عشماوي جمعة في هدوء يشوبه القلق علي مستقبل ابنته الوحيدة. لقد كرهت الدنيا كلها بسبب أمها. لقد طردت المهندس محب والضابط محمد عجوة تقريبا. أتيا لخطبتها فإذا بها تعاملهما بهذه القسوة وبتلك القوة !! لقد اكتشفت ما حاول أن يخفيه أبوها عنها طوال السنوات السابقة. تعجب من إحكام القدر قبضته علي مني، وتعجب من أحوال رياح الأيام التي تأتي بما لا تشتهي سفن حياتنا. كيف ستتزوج بنتي وسنوات العمر تنفطر من بين يديها. لا يمكن له أن يجبرها علي زواج لا تريده. لقد أصر علي تنفيذ نذره. سيستقيل من الشرطة. إن ابنته بريئة، ولقد نذر ولن يرجع عن تنفيذ نذره. ولكن كيف سيواصل حياته؟ سيبحث عن أي عمل آخر. كلها سنوات ويحال إلي التقاعد.

لم يذهب إلي عمله منذ يومين. يمشي في طريقه وتقديم استقالته هدفه الوحيد. سيتفرغ لابنته التي أفني عمره من أجلها. ستكون هناك أزمة مالية، ولا يهتمك. ومنذ متي وأنا لا أتعرض لأزمات مالية ويفرجها الله؟ وهل يكفي مرتب الحكومة؟ طبعاً لا يكفي.

لمحه أخوه زين الذي كان يدخل الشيشة في مقعده أمام دكانه والذي يعده ويجهزه ليتحول إلي محل لبيع الفول والطعمية. أخرج زين الدخان من فتحتي أنفه ومن فمه. وقف واتجه لأخيه ودعاه ليتناول معه الشاي. اعتقد أنه سيحدثه من أجل خطبة مبروك إلي ابنته مني. خاب ظنه عندما قال له زين في رجاء واضح:

— لم أطلب منك طلباً واحداً طيلة عمري فيما يتعلق بعملك في الشرطة

— طلباتك أوامر يا معلم زين

— هناك من يعكر مزاجي

— خيراً. ماذا تريد؟ ما عاش ولا كان من يعكر مزاجك

— سامية

— مالها؟

- أريدها أن تتأدب في قسم الشرطة. الحمد لله أن لي ظهرا في البوليس
- ماذا تقصد يا حاج؟
- أريدك أن تؤدبها
- كيف؟
- أريدك أن تأخذها في القسم وتخيفها
- لست ضابطا ولا أستطيع أن أؤذيها. البنت مسكينة وفي حالها
- أنت لا تعلم شيئا. لم تدفع لي الإيجار منذ ثلاثة أشهر
- البنت مسكينة. اصبر عليها يا حاج زين. الظروف سيئة مع كل الناس والغلاء يذبح الناس. مات زوجها وصارت وحيدة. لا تكن أنت والدهر عليها يا حاج.
- بدا أن زين قد غضب. رشف عشاوي آخر رشفة من كوب الشاي. أ يخبره أنه سوف يتقدم باستقالته من الشرطة؟ أيريده أن يجر المسكينة إلى القسم ويهينها؟ إن مبروك قد أخبره أكثر من مرة أن والده سيجن من حب سامية. خرجت سامية لتفتح دكانها. كاد قلب زين أن يخرج من صدره عندما رآها. يا جمالها ويا لفتنتها !!
- ألقى تحية الصباح علي عشاوي الذي رآها وكأنه يراها لأول مرة. لم تلق التحية علي زين الذي وقف لتوه وقال لها في حب ظاهر يكاد يطل من عينيه: «صباح الخير علي أحلي عيون. صباح الخير علي عيونك يا ست سامية».
- تعجب عشاوي من تناقض سلوك زين مع كلامه الذي قاله قبل أن تخرج إليهم سامية. نظر عشاوي إليه وقال متسائلا وهو يضحك:
- أنت تحبها يا زين؟
- أحبها؟ أحبها كلمة صغيرة. قل أعشقها. أكاد أجن عندما أراها.
- مبروك يحبها أيضا. لقد أخبرني أنه يريد أن يتزوجها
- لم يكذب يلفظ هذه الكلمة إلا وتغيرت ملامح زين، وأخذ يسب ولده بأفظع الشتائم وعشاوي يحاول أن يهدئ من غضبه. لحظات وممر بهما أمين شرطة يرتدي زي الرسمي. كان يقود سيارته الفخمة ويدخن سيجاره الأنيق. خلع نظارته الشمسية ونزل من السيارة وكأنه نجم سينمائي. اقترب من عشاوي واحتضنه. إنه زميله في القسم. إنه حسني الغندور. سلم عليه زين وطلب له كوبا من الشاي.

نظرات الغرور تملأ أمين الشرطة. لم لا وهو صاحب العمارة الجديدة التي تبني علي ناصية الشارع. ستكون أطول عمارة في المنطقة. سعر الشقة فيها لن يقل عن ربع مليون جنيهه. إن لديه بضعة سيارات أجرة يشغلها لحسابه. إنه لا ينظر إلي راتبه. يتقاضى الكثير من الرشاوي ويعيش كملك من استغلال نفوذه وإخافة الأمنين. صحيح أنه قد يقتصم بعض ما يحصل عليه مع أحد الضباط، ولكن هذا لم يمنعه من تكوين ثروة طائلة جعلته يعيش في سعة من العيش. لقد تزوج مرتين وسيخطب فتاة رائعة الحسن لتكون زوجته الثالثة يوم الجمعة القادم.

عرفه عشاوي بأخيه. شعر زين أنه وجد ضالته في حسني. سيادة أمين الشرطة حسني بيه. سأل حسني عشاوي عن سبب نيته في الاستقالة فقال:

- تعبت وأود الراحة
- كان يمكنك أن تكسب ذهباً لو استمعت إلي كلامي وعملت معي
- يا شاويش عشاوي
- حد الله بيني وبين الحرام
- دع الحلال يكفيك
- الحلال قليل ولكن الله سيبارك فيه. ربنا يبارك لنا في القليل.

أصر عشاوي علي الذهاب للقسم حتي يتقدم باستقالته، في حين أصر زين علي أن يطلب القهوة لسيادة الأمين لأنه يريد منه أن يجر سامية إلي القسم. أخرج زين ورقة بمئة جنيهه لسيادة أمين الشرطة حسني بيه منصور. أرجع حسني الورقة إلي زين الذي أقسم أن يدعها حسني في جيبه وأتبع قسمه بقوله:

- عربون محبة يا باشا. عيناك لك.
- يا معلم زين حال البلد صعب والمئة جنيهه لا تكفي
- كم تريد يا باشا؟
- من أجل خاطرك ولأنك من طرف حبيبي الشاويش عشاوي
- الرجل الطيب سأكتفي بثلاث ورقات غيرها
- ولا يهكم يا باشا
- سنكسر رأس سامية ومن خلف سامية.
- تسلم لي يا باشا. أريد أن أخوفها فقط لترضخ لي وتنفذ كل ما أريد

- البنت شكلها مسكينة. ستخاف وتقبل قدميك. لدينا أساليبنا في القسم يا معلم. إذا كان الرجال يخضعون فما بالك بهذه المسكينة؟
- المسكينة؟ يا باشا إنها لا تطيقني. مكسور عليها ثلاثة أشهر.
- ناداها حسني باشا. أتت في صرامة وقالت:
- أمرك يا باشا
- المعلم زين غير راض عنك
- الزواج ليس بالعافية يا باشا
- تكلمي بشكل أحسن يا روح أمك.
- سأ تزوج مبروك ابنه يا سعادة الباشا
- نظر حسني إلي زين وقال لسامية:
- طريقك زراعي يا سامية. دعيني أتكلم مع الحاج زين علي انفراد.
- سأخذك إلي القسم بعد أن أنتهي من كلامي معه. سيرفع عليك قضية طرد من الدكان يا سامية. الأفضل نحل المشكلة بهدوء من غير محاكم ولا شرطة ولا يحزنون. شكلك طيبة يا بنت الناس ولا أريد أن أدخلك في سين وجيم.
- سأترك الدكان يا باشا وسأترك الحجرة التي أجرتها منه أيضا.
- كلام العقل
- أعطني مهلة ثلاثة أيام فقط
- ابتعدت سامية عن مجلسهما وهي تبكي. ماذا يمكن لها أن تفعل أكثر من هذا؟ كانت تثق من قذارة زين. كانت تتوقع منه مثل هذا وأكثر. ضرب حسني بيده علي المائدة وقال:
- يا معلم زين ستزيد أتعابي إلي ألف جنيه
- لماذا يا باشا؟
- ستأخذ المحل وتؤجره بالقانون الجديد وستأخذ الحجرة أيضا
- أمرك يا باشا
- تعجبني يا معلم زين
- أخرج حسني هاتفه المحمول من جيبه واتصل بأحد الأرقام. لم تمر سوي دقائق معدودة إلا ووصلت إحدى سيارات الشرطة. تم إلقاء القبض علي سامية. ابتسم زين وسامية تركب سيارة الشرطة في حين كان قلبه يبكي. ماذا أفعل؟ أنت أجبرتني يا سامية. أحبك. سأنتقم

منك بطريقتي يا سامية.

لم يكمل زين كلماته مع نفسه إلا وكان مبروك يجري وراء أخيه ممدوح ليمنعه من الاقتراب من دكان والده. كان ممدوح يحمل حديدة ضخمة. ظن أنه سيضرب والده بها. كان منصور كالثور الهائج الذي اتجه نحو حسني بيه أمين الشرطة وضربه بالحديدة علي رأسه. وقع حسني والدماء تسيل منه من كل مكان. فقد وعيه. صرخ والده. قال ممدوح:

كان يجب أن أقتله. كل يوم مخالفات مرور لم ارتكبها. أقسمت بالله أن أقتله ولقد قتلته. حسبي الله ونعم الوكيل فيه وفي الضابط الذي وراءه

ضربه ممدوح ثلاث ضربات أخرى. سكنت حسني تماما ولم تغلح محاولات أخيه في منعه من ضرب حسني الذي كان من الواضح أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. صوت سيارة الإسعاف وسيارات الشرطة تقترب من المكان وتكاد أن تصم الآذان.

تصحح بعض أخطاء التلاميذ في الكراسات في حجرة المدرسين قبيل الفسحة. يدخل عليها أحمد في هدوء. يسألها قائلاً:

— مس مني، هل حصلت علي الدرجة النهائية في الامتحان؟
— طبعاً يا أحمد. أنت ممتاز

اقتربت منه وأعطته قطعة شيكولاته. أخذها الولد بعد تردد. كان باب الحجرة مفتوحاً ولذا استطاع أحد الأشخاص أن يراقب ما يحدث. لم تره مني. ربتت مني علي ظهر أحمد وقالت له في ود ومحبة:
— أنت ممتاز، ولكني لا أريدك أن تتعامل مع زملائك بهذا العنف
— حاضر يا مس

— هل تزوجت ماما؟

— ستتزوج غدا؟

— هل ستحضر حفل زفافها؟

ارتبك الولد ولم يعرف كيف يجيب عليها. أخبرها بأنه لن يوجد حفل ولا حتي أي مظهر من مظاهر الفرح؟ لقد اشترط عادل عليها أن يكون الزواج سرا. ودت مني لو قالت له إن الأخصائية الاجتماعية

- تنصح ألا يحضر أحمد حفل الزفاف. شكرها أحمد وقال لها:
- أنا لا أتدخل في أمور الكبار يا مس مني
- هل تحب ماما يا أحمد؟
- صمت الولد ولم يجب. كررت عليه السؤال مرة ثانية ولم يرد.
- سألته قائلة:
- هل تحب بابا؟
- نعم أحبه. أحبه أكثر شئ في هذه الحياة. أحبه أكثر من نفسي.
- احتضنته ومسحت بأصابعها علي شعره. أنت مثلي يا أحمد. أنا أحب أبي. أحبه أكثر من أي شئ في هذه الحياة. دمعت عيناها.
- استأذنها الولد في أن يخرج ليكمل الفسحة في اللعب مع أقرانه.
- لم يدخل الشخص الذي كان يتابع الموقف وخلفه امرأة أشار لها بيده أن تبتعد قليلا. انتظر إلي أن يخرج أحمد ثم طرق باب حجرة المدرسين بأدب جم، في حين كانت مني منهمكة في تصحيح باقي الكراسات.
- لم ترفع مس مني عينيها عن الكراسات واستمرت في تصحيح الإجابات. قالت في صرامتها المعهودة:
- ادخل
- لم تسمع صوتا، وتواصلت الطرقات مرة ثانية. قالت بصوت أكثر صرامة وواصلت التصحيح في حين كان الشخص الواقف أمامها ينظر إليها في محبة بالغة. كان يتفحص وجهها بكل إعجاب. لقد تعجب من طريقة معاملتها له ليلة أمس. خمنت مني أن يكون محب قد وافته الجرة ويقف أمامها الآن. فليقف دهورا طويلة.
- لن تقبل الزواج. وقفت ونظرت أمامها، فإذا بها يخيب ظنها. لم تكن تعلم أن محب سيزورها فعلا اليوم ولكن بعد ساعة من الآن.
- اقترب منها الضيف ومد له يدها وقال:
- أهلا بك يا مس مني.
- أصابها الارتباك فقالت:
- أهلا وسهلا بحضرتك. تفضل. الشاي يا عم حسنين
- لم آت للضيافة
- أهلا وسهلا بك. أنا آسفة جدا لما حدث أمس
- ما هذا الانقلاب الذي حدث لك يا مني؟

هكذا تساءل الضيف في نفسه. قال لها في حب تجلي من خلال
نبرة صوته :

أنا الذي يجب أن أتأسف لك

— حضرتك مقامك عال. أنا المخطئة. يبدو أنني كنت متعبة جدا.
يبدو أنني لم أكن أعني ما أقوله. حضرتك وقفت بجواري.
لقد أركبتني السيارة بجوارك ولم تدعني أركب سيارة الشرطة
كالمجرمات. لم تدعني أبيت في القسم. كان يجب علي أن أشكر
واحمل جميلك فوق رأسي طول العمر

— هذا واجبي. كنت أثق من براءتك

— شكرا لك. لكم أنت نبيل يا حضرة الضابط

— شكرا يا سيادة الأستاذة مني. أسنظل نتعامل بالألقاب؟

— لا يا افندم

نظر إليها طويلا. نطقت نظراتها له باعترافه بجميله. نظر إليها وقال :

— يا لحظه !!

— من؟

— أحمد الطالب الذي كان معك منذ قليل

— آه لو تعرف حظه. لقد انفصل والداه. إن حالته سيئة

— أقصد أنه محظوظ. كان الأول في الامتحان وأخذ قطعة شيكولاتة

من مس مني واحتضنته.

— ولد مسكين وظروفه صعبة جدا. كان الله في عونك

— ليتني كنت طالبا عندك

عضت مس مني علي شفتيها واعتراها الخجل فظهر جمالها.

قالت مني في نفسها: «أتراه يريدني أن اعطيه شيكولاته أم أنه يلمح

إلي أنه يريدني أن أحتضنه كما احتضنت أحمد؟» وبعدها قال محمد

عجوة في نفسه وكأنه قد فهم أنها أدركت ما كان يقصده: «لا أدري

لماذا تصوير النساء أجمل عندما يعلوهن الخجل ويتزين بالأدب؟»

أشار بيده للمرأة التي كانت خلفه. دخلت ولم تنتبه مني لوجودها.

دخلت المرأة وحاولت أن تحتضنها، رأتها مني وابتعدت عنها. إنها

جماليات والدتها !!

كلمات كثيرة كانت المرأة تود أن تقولها. أصمت مني سمعها كما

أصمت قلبها. لم تستمع لأمها ولن تستمع لها ثانية. ماذا يمكنها أن تقول. لقد اعترفت أمها أمامها بكل شيء وقالت لمحمد عجوة وقتها أنا مجرمة ولكن ابنتي بريئة.

كاد محمد عجوة أن يخرج ليترك مني مع أمها. ما أن وقف ليخرج إلا وقالت له مني:

— أهلا وسهلا بك يا محمد بيه. أما هي فأنا غير راغبة في وجودها هنا

— لقد طلبت مني وهي تبكي كثيرا أن تأتي لتراك

— لا أريد أن أراها. لقد ماتت أمي بعد أن ولدتنني. هكذا قال لي

عشماوي جمعة والدي الحبيب. أبي وأمي ودياي كلها. لا أعرف

في الدنيا سواه

— لقد طلبت أن تراك

— كان يجب أن تسألني. أنا لا أريد أن أراها. لقد ماتت أمي بعد

أن ولدتنني

بكت المرأة طويلا. ضربت نفسها وضربت رأسها في الحائط، خرج

محمد عجوة وأخذ بيدها في حين واصلت مني تصحيح الامتحان في

كراسات تلاميذها.

انتهت الفسحة وضرب جرس المدرسة إيذانا بابتداء الحصة. لم تكن

مني قد انتهت من تصحيح الامتحان. شرعت في تصحيح الكراسات

القليلة الباقية لتنصرف إلي البيت. بدأت في تصحيح أول كراسة لها

بعد انتهاء الحصة. سمعت صوت طرقات علي الباب. أتكون أمها قد

أصرت علي أن تعود من جديد مع محمد عجوة لتراها؟ إن جاءت

مرة أخرى فستطردها. إنها قد تبرأت منها بالفعل.

عاودت السماع إلي الطرقات من جديد. قامت من مكانها في

غضب وصاحت قائلة وهي تفتح الباب:

— يا ستي في ألف سلامة لا أريد أن أراك ثانية

قالتها بغضب وبحدة. كانت تغلق عينيها. سكنت ضيقتها. قالت:

— آسفة يا بنتي

إنه ليس صوت أمها. إنه صوت والددة محب. وقف محب علي

بعد وقال:

— أنا آسف يا مس مني.

— أنا آسفة. سامحيني يا ماما. آسفة يا أستاذ محب
نادت عم حسنين ليأتي بالشاي للضيفين. كانت دقات قلب
محب تتقاذز في صدره. إنه يراها اليوم في قمة جمالها. ليس اليوم
فقط، وإنما هي جميلة في عينيه لأنه يراها بقلبه. آه لو تدركين كم
أحبك يا مني. أمه تحدثها وهو لا يستمع إلي كلمات أمه لأنه
يحدثها بنظراته. إنه يتملي في صرامتها ويكتوي بنار عشقها.
أمه تحدثها وهو لا يستمع إلا إلي دقات قلبه وكل دقة تسبح
بحبها. إنه يراها في كل مرة وكأنه يراها لأول مرة. أتعلمين خطبتي يا
مني؟ إنه يحلم بها وهو متيقظ. يحلم بها وهي معه وأمامه ويحلم
بها وهي بعيدة عنه. لم كانت قسوتك في المرة الماضية.
انتهت المقابلة وأبلغته أمه أنها كانت رقيقة جدا معها. لقد
دعتهما مني لزيارتها في بيت والدها غدا بعد العشاء. تري لماذا هذا
الانقلاب يا مني؟ تري ما الذي حدث وما الذي تخططينه؟

حيرة

تقف أمام المرأة في حيرة مريبة. لقد وضعها أبوها في هذا الموقف الصعب. عادت لتوها من عملها ففوجئت بوالدها يخبرها أن تستعد لأن الدكتور كامل سيأتي خلال ساعة واحدة علي الأقل أو ساعتين علي الأكثر حسب ما أخبره، وأن عليها أن تستعد لاستقباله معه. لقد كان اليوم من أصعب أيام حياتها. كان يوما صعبا ولكنه والحمد لله انتهى بخير بفضل حنكة زميلتها التي تعمل معها في نفس المكتب. لم تكن تدري أن والدها يدبر لها في المساء ما هو أصعب. يبدو أنه يدبر لها ما قد لا تستطيع الفكك منه كما أنقذها الله من صعوبة صباح اليوم.

دخلت عليها أمينة صبري في قمة غضبها كالمعتاد وكانت تبدو عليها علامات السعادة والتشفي والظفر والانتصار. نظرت إليها في احتقار ثم قالت لها آمرة:

— قفي أيتها الوقحة

لم تقف نيفين ولم يبد عليها أي اهتمام. صرخت أمينة قاذلة في غضب:

— أمينة صبري دائما ما تكسب يا نيفين

لم تعرها نيفين أي انتباه وإنما واصلت ما كانت تكتبه علي جهاز الكمبيوتر الخاص بها أمامها. نظرت إليها زميلتها في المكتب وطالبتها ألا تفتح فمها علي الإطلاق. أشارت لها زميلتها بأن تغلق فمها تماما وعملت بيدها علامة القفل علي فمها بيديها. فهمت نيفين أن اليوم لن يكون سهلا وأن عليها مواجهة أمينة لآخر مرة. لقد تذكرت أن شريف أوصي عادل فوزي بها خيرا. تعلم أيضا أن زواج أمينة بعادل فوزي قد يكون في آخر الأسبوع.

جلست أمينة علي الكرسي المقابل لمكتب نيفين وأخرجت سيجارة وبدأت تدخنها. بدأت تنفث دخان السيجارة من فمها في وجه نيفين بكل وقاحة ونيفين لا ترد تنفيذا لتعليمات زميلتها. استمرت نيفين في الكتابة علي الكمبيوتر في هدوء وفي محاولة مستميتة لتجاهل أمينة الغاضبة دوما.

وقفت أمينة واقتربت من وجه نيفين وأخذت تنفث دخانها في وجهها بشكل أكثر وقاحة من ذي قبل ، ونيفين تواصل تجاهلها. قدمت أمينة سيجارة إلي نيفين وقالت لها :

— تفضلي سيجارة أيتها الخاسرة

بدا أن صبر نيفين سينفد. أزاحت يد أمينة وقالت في برود :

— آسفة يا هانم. أنا لا أدخن. التدخين ضار جدا بالصحة

— أحسن أنك لا تدخين

واصلت نيفين كتابتها علي الكمبيوتر. وضعت أمينة ساقا علي ساق والتوت في جلستها فانكشف جزء كبير من فخذها. تعمدت أمينة أن تعري جزء أكبر من فخذها، فقالت لها نيفين في سخرية :

— عليك أن تغطي لحمك يا أمينة هانم

— طبعاً أمينة هانم رغما عنك وعن الطرطور الذي أتى بك للعمل هنا

— اللهم طولك يا روح. شريف بيه ليس طرطورا

— أنا التي صبرت عليك كثيرا يا خطافة الرجال

— أنا لم أخطف أحدا يا أستاذة أمينة

— خطفت زوجي يا وقحة.

— أنا لم أخطف الأستاذ شريف منك يا هانم. أنت التي ضيعت

الرجل من بين يديك

— عملت له كل أنواع السحر

— السحر يا أستاذة يا متعلمة !!

— هل أنت أجمل مني أيتها الجربوعة؟

وقفت أمينة وأخرجت المرأة من حقيبتها وتحسست شعرها وأظهرت جزء كبيرا من صدرها بعد أن تحسسته بيديها في فخر وكبرياء، ثم جلست وعرت فخذها ولا مستهما في اعتزاز وغرور ثم قالت لها متعالية وكأنها تستغني بجمالها عن الدنيا كلها:

— أنت لا تعرفين من أنا يا غبية. الرجال يتساقطون تحت قدمي

كما سقط شريف صريعا لسطوة حسني وجمالي من قبل. ألا ترين

أني مثيرة وأنني أجمل منك؟

سكتت نيفين ولم ترد. واصلت أمينة كلماتها قائلة :

- أنت وصلت إلي هذا السن ولم يتقدم أحد للزواج منك. أنا شريف شكري ذاب في حبي وتزوجني منذ فترة طويلة عندما أما كنت أصغر منك بكثير. أنا لا أقاوم يا بنتي. أعرف أنني جميلة ومشييرة ومرغوبة. أنا أجمل منك علي الرغم من أنني أكبر منك في السن وعلي الرغم من أنني تزوجت وأنجبت إلا أنني أحافظ علي أنوثتي وجمالي ورشاقتي
- ربنا يزيدك جمالاً وإثارة ورغبة يا أمينة هانم
- أتأخذيني علي قدر عقلي؟
- لا والله. أنت أجمل مني وأكثر إثارة
- أنا هنا لأخبرك أن اليوم آخر يوم لك هنا يا جربوعة
- احفظي لسانك يا أستاذة أمينة
- وماذا ستفعلين إذا لم أحفظ أدبي؟
- سأطردك من هنا يا أستاذة
- أنت تطردينني؟ هل جننت؟ ألا تعرفين مع من تتحدثين؟
- أتحدث مع أمينة صبري الصحفية. طليقة الأستاذ شريف شكري. المرأة الفاشلة التي طلقها الصحفي الناجح شريف شكري. أنت امرأة مطلقة فاشلة يا أستاذة. لم تقدر علي الحفاظ علي زوجك وابنك. الأستاذ شريف...
- شريف شريف. أستاذ عليك وعلي أهلك
- نعم أستاذ علي وعلي أهلي
- تركته لك. اشبعي به
- هو الذي تركك
- لا. أنا التي تركته
- طلقك
- طلقني من أجلك أيتها الجربوعة
- آخر مرة سأقولها لك. احفظي لسانك
- لن أحفظ لساني أيتها الجربوعة. أيتها العانس. يا من لا تجدين أحدا لينظر إليك وليتزوجك
- النصيب يا أمينة هانم
- النصيب أم لأنك معفنة؟ علي كل أنا هنا لأخبرك أن عادل بيه فوزي مدير التحرير القادم ورئيسك في العمل سيتزوجني غدا

- ألف مبروك يا أمينة هانم
- سیتزوجني وسيطردك من هنا. أنا لا يقوي أحد علي الوقوف في طريقي. لن تأتي أنت علي آخر الزمان لتتقفي في وجهي
- أشارت أمينة إليها بأصبعها السبابة في احتقار. كادت نيفين أن تفقد صوابها. شعرت بأنها تريد أن تضربها لتشفي غليلها من سلطة لسان هذه المرأة. نظرت نيفين إلي زميلتها في المكتب فوجدتها تشير إليها بأن تصمت وألا ترد. قالت نيفين في برود وتمالك أعصاب لم يسبق لها من قبل:
- ألف مبروك يا أمينة هانم. أين سيكون الزفاف؟ أين دعوات الفرح؟
- بهتت أمينة من سؤالها. إن نيفين تعرف أن زواج أمينة بعادل سيكون سرا خوفا من زوجته كما أخبرها أحمد بهذا. اغتاضت أمينة. أتريد نيفين أن تخبرها أنها تعرف سرها؟ قامت أمينة وأمسكت بخناق نيفين وقالت:
- ستكون هذه هي الزيجة الثانية لي وأنت لم ينظر رجل واحد في وجهك يا أقبح نساء أهل الأرض. لنينفعك شريف. سأدمره تماما
- الله معه. كيف ستدمرينه يا أمينة هانم؟
- لن يخرج من محبسه أبدا. لفقت له تهمة لن يخرج منها أبدا. لا يقف أحد في وجهي أبدا. من يحاول أن يقف في وجهي أدمره تماما
- الله معه
- الله معكم أنتم أيها الضعفاء والمساكين. اخلعي هذا الحجاب. تزيني والبسي علي آخر موضة مثلي، فقد تفك عقدك وينظر إليك أحد الرجال
- أنا مقتنعة بنفسي هكذا
- إذا لن ينظر إليك رجل. الرجال عقولهم في شهواتهم يا بنتي وبالضبط في فروجهم
- ليس كلهم يا أمينة هانم
- نصحتك لوجه الله. علي كل حال لا أريد أن أري وجهك هانم
- ثانية.
- أنا موجودة هنا يا أمينة هانم لأن هذا مكان عملي
- سيطردك منه زوجي عادل فوزي
- تقصدين زوجك الثاني؟
- وهل أرتكب جرما؟

— المرأة العاقلة الشريفة العفيفة لا تنكشف علي رجلين يا أمينة هانم ولا تتعري إلا أمام زوج واحد

فهمت أمينة أنها تريد أن تهينها. قامت وأمسكت بنيفين من عنقها. انكفأت عليها نيفين وضربتها بشدة وعضتها بكل ما أوتيت من قوة. حاولت زميلة نيفين أن تنتهي المعركة ولكنها لم تستطع. لقد أمسكت نيفين بها بكل ما أوتيت من قوة كما يفعل النسر مع فريسته. شدتها من شعرها ولكمتها في وجهها. نادى زميلة نيفين لأفراد الأمن الذين أتوا علي الفور واستطاعوا بصعوبة أن يخلصوا أمينة من براثن نيفين. كانت الدماء تسيل من وجه أمينة. يبدو أن زواجها سيتأخر بفضل ما أحدثته نيفين فيها من جروح وندبات. خرجت أمينة من المكتب وهي ترغي وتريد. نظرت إليها زميلة نيفين وقالت لها:

— ألف سلامة عليك يا أستاذة أمينة. لقد سجلت كل ما دار بينكما بالصوت والصورة. كل ما حدث قد سجلته علي تليفوني المحمول يا هانم احتضنتها نيفين وشكرتها. خرجت أمينة وهي تتمني لو أن لسانها كان قد قطع ولم تتحدث مع نيفين ولم تخبرها بكل هذه الأسرار التي تم تسجيلها. ستذهب مع نيفين إلي مكتب الشؤون القانونية. القانون سيأخذ مجراه.

دارت كل هذه الأحداث في ذهن نيفين وهي تقف أمام المرأة لتستعد لمقابلة الدكتور كامل كامل. يبدو أن والدها مصر علي أن يزوجه في هذه المرة. الدكتور كامل كامل رجل لم يتزوج من قبل. إنه جاهز ومستعد تماما للزواج. معار للعمل في إحدى الجامعات الخليجية. راتبه محترم ويقدر الحياة الزوجية. كبر في السن لأنه كان مسئولاً عن أخوته. رجل محترم يقدر المرأة وسيحمل زوجته فوق رأسه. سيأخذ زوجته معه إلي الخليج. إنه عريس لقطعة. هكذا أخبرها والدها. لن يدعها يمر بها قطار العمر بلا زواج. صحيح أن الدكتور كامل كامل يقترب من الخمسين ولكنه يعيش في رغد من العيش وفي بحبوحة من الحياة. لا يهم السن كثيراً.

لقد تغير والدها معها في الفترة الأخيرة. كان يحادثها غاضباً بأنها

قد دخلت في سن حرجة. سيزوجها رغما عنها.
تشعر نيفين بأن موعد العريس يقترب. ينبض قلبها بشدة ليس
خوفا من العريس، وإنما ينبض بشدة لأن الغد موعدها للذهاب إلي
مدرسة أحمد. ستأخذه وتذهب معه لزيارة والده شريف شكري.
أنت لا تدري يا أبي أنني لا أري أحدا في هذه الحياة سوى شريف
شكري الذي ملأ علي عقلي وروحي وقلبي. أنا أحبه. أشعر أن
نظراته تجاهي تغيرت في الفترة الأخيرة. أشعر كأنه يريد أن يعترف
لي بحبه. لا. لا يا أبي. لن أقبل بهذا العريس مهما كان. لن أضحى
بحبي من أجل الزواج.
طرق الباب وفتح والدها الباب.

أي عريس هذا؟ إنه ذو بطن عظيمة. كرش هائل. رقبتة سمينة.
إن منظره يبعث علي الضحك وعلي الرثاء معا. لا يهم. سأتسلي قليلا.
آه يا شريف!! أين أنت مني الآن أيها الحبيب الغالي؟
نظرت نيفين إليه ورحبت به بنظراتها الساخرة. أنحن في القرن
الحادي والعشرين؟ هل يأتي رجل ليخطب فتاة لا يعرف عنها
أي شئ؟ إنه لا يعرف أي شئ عن الماضي الذي عشته ولا عن
الحاضر الذي أحياه ولا يعلم أي شئ عن أحلامي وطموحاتي في أيامي
المستقبلية. لاضير أن أستمع إليك يا دكتور كامل.
سيحان الله. الشكل غير المضمون تماما. كلامه عاقل متزن رصين.
إنه ينظر إليها في تحفظ وود معا. أخبرها أنه سيحقق لها كل ما
تتمناه.

نظراته لها كطلقات الرصاص التي تقتلها. أين نظراتك الحانية
وبسماتك التي تجعل الدنيا حلوة جميلة. الدكتور كامل يقول لوالدها:
«أنا لست متعجلا يا عمي. يمكنكم أن تسألوا عني. سيكون مشرفا
لي أن أتزوج ابنة حضرتك. سأنصرف الآن وأرجو أن تسمح لي يا
عمي بزيارتكم في المرة القادمة مع أخوتي».
أعلم أن كل الشواهد تؤكد أن والدي قد اقتنع به تماما. قبل أبي
ظاهر يده وباطنها. أقسم أن الله قد عوضني بهذا العريس المحترم.
أما أنا فلأزالت روحي تطوف حول حبيبي ونور عمري وجنة أيامي.

ملاكى وحبى وعشقى شريف. سأل أحبك يا شريف. سأحبك حتى وإن فقدت الأمل فيك. سأحبك بلا أمل. إن أمني فيك يتزايد ويتناقص، أما حبي لك ففي تزايد مستمر.

سأستطيع التفاهم مع الدكتور كامل كامل. إنه إنسان محترم. سأقنعه بزميلتي في العمل. أليس من واجبي أن أرد لها الجميل. إنها صديقتي وصاحبة فضل علي. أه. لقد نسيت أن آخذ نسخة من التسجيل الذي سجلته اليوم. سيسعد به شريف جدا. سأتصل بالمحامي لأخبره. الحمد لله. كل هذا سيصب في مصلحتك أيها الحبيب الغالي.

وكما كانت نيفين تفكر في شريف، كان شريف أيضا يفكر فيها. سالتقيها غدا. إنه يود أن يخبرها بأنه يحبها. كيف يمكنه أن يبوح بحبه لها. إنه في حيرة من أمره تماما كما كانت نيفين اليوم في حيرة من أمرها. لقد حيرهما الحب معا.

الانقلاب الأصعب

تنظر في عينيه وتسكت. لا تدري لماذا تخاف من النظر في عينيه. إنها تخاف من مجرد التواجد معه. لا تشعر بالأمان في صحبته. تحس بالأمان والطمأنينة فقط عندما يتركها. تشعر بأن في عينيه مزيدا من القلق والخوف. تتوجس شرا منهما دوما. تشعر بأن هناك أعاصير وعواصف متراكمة بعينه، وكأنه يخفي فيهما أشياء لا تستطيع أن تدركها. تشعر أن عينيه بهما الكثير مما لا يريد الإفصاح عنه بلسانه. تحيرت في البداية، هل تسأل عينيه أم أن عليها أن تسأل لسانه وتصدق كلماته التي يتلفظ بها ولا تعبرفلا عما يجول بخاطره وبما يعتمل في وجدانه ويبدو في تقلبات عينيه. أترها يجب أن تتجاهل هذه الكلمات وتصدق ما تراه من رياح تموج بعينه ببذور الخوف وآفات التوجس والحيرة. ينظر إليها بعينه المعربدين. تنطق شفاته مع عينيه في كل مرة ينظر إليها بكل معاني الشهوة التي تحاول أن تطفئها بتحفظها وبتعمدها الهرب من الوقوع في أسر شفثيه وعينه. أين هاتان العينان من عيني حبيبي الوديعتين؟ شتان بينهما. إن عيني هذا الكائن أمامي تنطقان بالشر ويبدو عليهما التخطيط لأمر مريبة. أين عيناك يا محب؟ كانتا تنطقان بكل معاني البراءة والود.

هل أخطأت عندما قبلت هذه الخطبة؟ ما كان لدي بديل آخر. لقد ابتعد عني محب ابن عمتي كثيرا منذ ظهور مني. لقد بدأت أشعر أنني غريبة عنه. لا أدري لماذا قال لي أكثر من مرة إن علي الصفتي أسوا رجل في الدنيا. أأكون قد ملأته الغيرة من هذا الضابط؟ أستبعد هذه الفكرة من ذهني تماما. إن من لا يحب لا يمكن أن تضطرم نيران الغيرة في قلبه. إنه منشغل بحبيبة أخرى لا تعبأ به ولا تهتم بمشاعره علي الإطلاق. كنت كلما أسأله يهرب من سؤالي وكأنه لا يستطيع أن يجيب أو لا يريد أن يجيب. إن محب هذا اعتقد أنه امتلكني عندما كنت أتلطف علي لقائه والحديث معه، ولذلك يبدو

أنه زهдени. كان علي أن أفهمه أنه لم يمتلكني. كان علي أن أفهمه أنني لست سهلة المنال.

كنت أتحامل علي نفسي وأستمع إلي سخافات وهو يحدثني عن حبه الذي يراه مختلفا عن حب البشر. حبه الذي أكدت له أكثر من مرة أنه من طرف واحد. في البداية ظن أنني أغار من حبيبته مني، ولكنني مع الأيام حاولت أن أفهمه أنها لا تريده أصلا وأنه لم يطف حتي بجدران قلبها. أنا فتاة مثلها. أعرف نظراتها جيدا. أعرف نظرات الفتاة المحبة. إنها لا تحبك أيها الأبله. اضطرت إلي مجاراته والذهاب إليها معه أكثر من مرة حتي أؤكد له وأقنعه، ولكنه لم يكن يري بعيني، للأسف كان يري بقلبه الأعمى. كان علي أن أفهمه أنه لم يعد شيئا بالنسبة لي حتي يلتفت إلي، ولكنه للأسف ازداد تعلقا بمني. تذكرت أغنية عبدالوهاب الشهيرة وقتها وتلخص لعبة الحب التي تطاردنا دائما مع لعنته: «بافكر في اللي ناسيني وانسي اللي فاكروني وابيع اللي شاريني وادور علي اللي بايعني»، كان علي أن أفقد الأمل فيه حتي أتححر من قيود حبه. لقد كان قبولي خطبة علي الصفتي أول خطوات طريقي في مساري نحو الحرية من أسر محب، ولكنني ليتني ما قبلت الخطبة. يبدو أن الصرامة والقسوة والجدية من أهم سمات الضباط. إن علي الصفتي عابس دائما. نادرا ما كان يضحك. لم أشعر تجاهه بأية عاطفة إلي الآن. لمحت علامات عدم موافقة أبي علي خطبتي ولكنني أصرت. لن أظل طيلة عمري أتعبد في محراب عشق محب وأصلي تجاه روحه التي تنأي عني إلي فتاة أخرى لا تظهر له أي اهتمام. صحيح أنني لا أحب علي الصفتي ولا أشعر بأي ميل تجاهه، ولا أستطيع أن أثبت نفسي أنني أطيّق القرب منه، ولكنني كان يجب أن أقبل الخطبة. لقد فر محب بكامل قلبه وعقله وكيانه إلي قلب مني وتركني. علي أن أتعامل مع الأمر الواقع. وهل تبني كل البيوت علي الحب؟ كنت أعتقد أن الحب أهم دعائم أي بيت، ولكن ها هو ذا حبي ينهار وتتهايي أركان حياتي، ومع ذلك لازلت أحيّا. أنا مع خطيبي الآن. ضابط محترم. إنه يوصلني إلي بيتي بعد أن انتهت نوبة جية الليلة.

أفهمته أن عمل الطيبة صعب ولا يقبله معظم الرجال. رد علي قائلاً وهو يضحك: الحال من بعضه، وعمل الضابط أصعب ولا تقبله كل النساء. أول أمس أوصلني للبيت. حاول أن يلمس يدي، ولكنني رفضت بكل قوة. عبس قائلاً: يوماً ما سألمس كل جزء في جسمك. يالواقحته!! أهكذا كل الضباط؟ بعد أقل من دقيقة وأنا أحاول أن أكتم غضبي قلت له بعد أن سمعت صوت آذان الفجر: هل ستصلي الفجر؟ لم يرد علي. كررت السؤال مرة ثانية فإذا به يرد في غضب أيضاً: أنا لا أصلي يا دكتورة. هل استرحت الآن؟ ربنا يهدينا يا ستي كما هداك. أمس كلمني في التلفون وطلب مني الذهاب إلي السينما، ولكنني رفضت فقال: «يا ستنا الشيخة كيف ستنقضي أيام خطبتنا؟ أريد أن أكون معك علي انفراد. سبحان الله. ألسنا مخطوبين؟»

بأي حقوق يطالب هذا الغبي؟ إن الخطبة لا تحل حراماً. كنت أرفض وبشدة أن يمد يده ليسلم علي. كنت أطلبه بالأ تزيّد مدة المكالمة عن خمس دقائق. كنت غالباً ما أظاهر بالتشاغل عنه وكان يبدي تبرمه، وكان يقول: «ولا يهملك يا جميل. غدا نتزوج وتصيرين ملكاً لي» ذات مرة حاول أن يضع يده علي فخذي وهو يوصلني بالسيارة متظاهراً أنه يريد أن يمسك عصا الفرامل. غضبت بشدة وأصررت علي النزول وأخذت التاكسي إلي بيتي. اتصل بي واعتذر. أفهمته بأنني فتاة ملتزمة وأراعي الله في كل أمور حياتي.

ذات مرة حاول أن يحتضنني عندما كنا في مكان منعزل من المستشفى فصرخت في وجهه وصدفتة بالقلم علي وجهه. بدا أنه غضب. إن هذه أول مرة يحدث لي مثل هذا الموقف. لا أدري لماذا تخيلت الشرر يتطاير من عينيه. ابتلع غضبه وكظم غيظه. قلت له في تأسف ممزوج بالخوف: «آسفة. سامحني. لم أتعرض لمثل هذا الموقف من قبل. أرجوك أن تسامحني»

بدا عليه البرود وقال وهو يبتلع إهانتني: «ولا يهملك. أنت في الأصل لا تحبينني. أنا آسف. لو كنت حقاً تحبينني ما قمت بضربي، ولكنني سأتحملك. أنا أحبك يا دكتورة نوال» لا أدري لماذا شعرت بأن نظراته تكاد أن تقتلني. شعرت أنه يقول هذه الكلمات

وفي قلبه كلمات أخرى لم يفصح عنها. أنا أعرف متي تكون الكلمات خارجة من صميم القلب صادقة ومتي تكون غير صادقة ومن وراء القلب. شعرت أن بعينه الكثير من الكراهية لي. أخفي كل هذه الكراهية خلف نظرات عينيه؟ لماذا خطبني إذا؟

وتماما كما كانت الدكتورة نوال العدوي تتساءل عن سر غموض النظرات في عيني علي الصفتي خطيبها، كانت أمينة تتساءل عن سر تحول لهفة عادل فوزي عليها. لم يعد يهتم بمحادثتها. لم تعد اللفة تطل من عينيه عندما كان يلتقيها كما كان الحال من قبل. كان يهاتفها كل يوم. الآن صارت هي التي تحاول الاتصال به، ولكنه يتهرب من الحديث معها ويدعي الانشغال عنها. لاشك أنه قد عرف ما دار بينها وبين سكرتيرة شريف من مشاجرة عرف بها كل من في الجريدة. أكون هذا هو السبب في خوفه من لقائها؟ لقد كان يأتيها في منتصف الليل. كان يحبها. تري ما الذي تغير؟ أكون كل هذا خوفا من أن تعرف زوجته أم خوفا من أن يزج اسمه في التحقيقات؟ ماذا يحدث لو فكر في أن يتركها ولم تتم الزيجة؟ لاشك أن نيفين يسري ستنظر إليها بكل سخرية واستهزاء. لا. يجب أن أنتصر. سأسعي بكل الطرق للزواج به. يجب أن يطرد هذه السكرتيرة الحغيرة. لا أحد يتحدثني أو يقف في طريقي. من يقف في طريقي سوف أنسفه من الوجود تماما. أنا أمينة صبري والأجر علي الله. فكرت أن تخرج من الجريدة وأن تتجه إليه في بيته. لقد زارها في بيتها فلماذا لا تزوره في بيته؟ ليتها ما فكرت في هذه الفكرة. لقد صرخ في وجهها ولطمها بقوة علي وجهها. صرخ في وجهها قائلا: «أيتها المجنونة. لاشك أنك قد أصابتك لفحة من الجنون. الحمد لله زوجتي ليست هنا. لو كانت هنا لطردتني من شقتها. أنت لا تعرفين زوجتي. ستسود معيشتي لو عرفت أنني أعرف امرأة أخرى. قد أذهب وراء الشمس إذا أخبرت والدها بهذا. أنت لا تعرفين امرأتي. إنها تغار علي من نسمة الهواء. ياللمصيبة !! لا أعرف ماذا ستفعل إن جاءت الآن ووجدتك هنا. قد تقتلني. اهربي بسرعة»

ما الذي يحدث لك يا أمينة؟ لقد كان شريف يرحب بي في كل مكان وفي كل وقت، وهو أيضا الذي طلقني وطردني من حياته. يبدو أن أيام شريف قد انقضت. ولماذا ضربني هذ الغبي؟ إن يد شريف لم تمتد علي قط. خرجت والدموع تبلل عينيها. طاف خيال بذهنها أن عادل ليس بمفرده في الشقة. سمعت ضحكات امرأة معربة. قالت لنفسها: «أتخون زوجتك أيها الوقح؟ أنت تخونني إذا» مسحت دموعها واتجهت إلي البواب وسألته:

— عادل بيه فوزي موجود يا حاج؟
— نعم. رأيت سيارته اليوم
— هل هو موجود مع زوجته؟ أقصد هل زوجته معه؟
— لا يا هانم. أعوذ بالله. سامحنا يا رب. استر علينا يا رب
— أخرجت من جيبها ورقة فئة الخمسين جنيها. أخذها علي الفور. لمعت عيناه بالشكر لأمينة وقال لها:

— طلباتك يا ست هانم
— أتعرف رقم زوجته؟
— طبعاً يا ست هانم
— أخرجت له ورقة أخرى بمئة جنيه وقالت له:

— اتصل بها واطلب منها أن تأتي لتري زوجها وهو في أحضان امرأة أخرى
— يا ست هانم لا. ستخرب بيته. إنها امرأة شريرة ودائماً ما تصيح في وجهه. لقد كان هذا سكنهما في البداية ولكنهما تشاجرا وتفرج عليهما كل أهل المنطقة. اضطر لشراء شقة جديدة لها في مصر الجديدة. وقد تأتي زوجته أحيانا هنا، ولكنها لا تعلم أنه يلتقي فيها بالفتيات الساقطات. سامحني يا رب. علي كل سأصل بها حالا. قبل الورقة المالية فئة المئة جنيه، اتصل بالهاتف، ولكن أحدا لا يرد. كاد يضحك. إن المرأة التي بالشقة زوجة عادل ولقد أتت برجل ليكون معها. أخذ يستغفر في نفسه. لا يريد أن يفضح سرا. تركته وانصرفت وهي تشعر بالقرف والقلق. يبدو أنه أسوأ بكثير مما كانت تتخيله. لقد صدقت مقولة ابنها. إنه فعلا شيطان، ولكن ماذا بوسعها أن تفعل. عليها أن تتزوجه. يجب أن تظهر قوتها. يجب أن يطرد نيفين يسري حتي تستريح.

في اليوم التالي سألته قائلة عندما استدعته في شقتها: «أليست هذه الشقة التي زرتك فيها بالأمس شقتك يا عادل؟» رد في خوف وقال وهو يكاد يكتم صوته: «لا. إنها شقتها. لقد أجبرتني علي أن أكتب الشقة باسمها حتي تؤمن مستقبلها وأجبرني أبوها علي هذا وإلا فسيحبسني» قلت له متسائلة: «وأي سن تزوج إذا يا عادل؟» ربت علي ظهري وابتسم في خبث وقال: «في شقتك يا حبيبتي. لا يوجد فرق بين الرجل وزوجته. سنزوج في شقتك» قلت له وأنا في صدمة من هول الموقف: «ولكنها شقة شريف و...» رد بسرعة بعد أن كتم صوتي بقبلاته: «شريف في الحبس ولن يخرج منه أبدا. سنزوج في شقته يا روعي». قالت له وهي تبتعد عن جسده الذي كرهت رائحته متسائلة: «ستحضر لي أثاثا جديدا؟» انتفض بعيدا عني وقال في غيظ وهو يحاول أن يمسك صدرها والغل يطل من عينيه: «لا يا أمينة. سأتزوجك في شقة شريف شكري وعلي فراشه» خلصت نفسها من أسر أحضانه وقالت له: «ولماذا لا نتزوج في شقتك التي في مصر الجديدة و التي لا تعرف عنها زوجتك شيئا والتي استدرجتني إليها ذات مرة وحاولت أن تكون معي فيها؟». رد علي بكل بساطة: «لقد عرفت زوجتي موضوع هذه الشقة وأجبرتني علي أن أكتب هذه الشقة باسمها رغما عني أيضا» وددت لو قلت له إنه ليس برجل. أي رجل يدع كل شيء لزوجته بهذه السهولة. إننا نحن النساء متقلبات. قلت له متسائلة في سخرية: «أتراك تريد أن تقول لي إن العصمة بيدها يا عادل؟» هز رأسه بالموافقة. أي رجل هذا؟ شعرت بالاشمئزاز منه. ابتعدت عن أحضانه. يبدو أنه أحس أنني رخيصة. لقد سمحت له أن يأتي إلي شقتي والتي هي في الأساس شقة شريف. هربت من محاولته أن يقترب منها في الحرام، ولكنها ضعفت وصارت تدعوه إلي شقتها. لم تسمح له بسوي هذه القبلات والأحضان حتي الزواج. يبدو أنها كانت واهمة. لن ينال منها شيئا. ليس لديه سوي القبلات والأحضان. سألته قائلة: «هل تحبني فعلا يا عادل؟» تهرب من النظر إلي عيني. يبدو أنني بدأت أفهم ما يدور من حولي. يبدو

أنه يريد أن ينتقم من شريف زميل عمره. لقد أكدها عندما قال: «بل سأتزوجك في شقة شريف وعلي فراشه» رنت كلماته في أذني. أتمني لو أستطيع أن أطرده الآن من أمامي، بل أريد أن أطرده من حياتي. إنني أكرهه حقاً. أنت شيطان فعلاً كما كان يقول أحمد ابني عنك. شيطان ولكن علي أن أتزوجك. سئمت من نظرات الناس لي والتي تتهمني بأنني مطلقة. فاشلة ويشهد طلاقى بغشلي. أي زوج هذا الذي سأتزوجه؟ صحيح أنه ليس برجل، ولكنه سيساعدني للانتقام من شريف. يجب أن يظل شريف في الحبس دائماً. لقد فرط في وطلقني بسهولة. يجب أن يندم طيلة عمره.

لو كانت تعلم أمينة ما ينتظرها لما تزوجته ولا سعت إلي الزواج منه. أليست هي التي كانت تود أن تقول له إنه ليس برجل. نظرت إليه في احتقار وطرده فعلاً من شقتها، ولكنها في الليل اتصلت به وطلبت منه أن يحضر اثنين من أقرب أصدقائه مع المأذون ليعقد قرانهما، وليتها ما فعلت.

لم تكن الدكتورة نوال تعرف أن هذه النظرات الغريبة في عيني علي الصفتي ستظهر لها يوماً علي حقيقتها وستنافي كل كلمة كانت تقال علي لسانه. لم تكن تعرف أنه يخطط ليرد لها الصفحة التي أعطته إياها. كانت تعتقد أن كل ضباط الشرطة يتسمون بقلّة الأدب. أفهمته أكثر من مرة أنها تتضايق من محاولاته أن يلمسها. إنهما في فترة خطبة وهذه فترة اختبار. الخطبة ليست زواجا ولكنها وعد بالزواج. كان يرد عليها دوماً بسخرية قائلاً: «حاضر يا ستنا الشيخة الدكتورة» لا تدري إن كان ينظر إليها بسخرية أم أن هذه طبيعته. نظراته لها تتهمها بأنها قد عرفت رجلاً قبله. إن نظراته وكأنها تسألها دوماً: «ألا يمكن لأحد أن يكون قد لمسك من قبل أو احتضنك أو قبلك؟ لا يمكن. أين أنت من بنات اليوم؟ لاشك أنني سأناك بأية طريقة يا بطتي الشهية»

إنها لم تسأل عليه. أخبرها انه لم يتزوج من قبل وأنه بكر مثلها. لم تسأله عن سبب تأخر زواجه إلي الآن. لقد قارب الأربعين. لم تكن

تعلم الحقيقة. لقد صدمت عندما أخبرتها زميلتها والتي يعمل زوجها ضابطا بالقوات المسلحة أنه تزوج مرتين وفشل في زواجه. قد يكون مظلوما. إنه لم يخبرها بأنه قد تزوج من قبل مرتين. لقد كذب عليها. إن قلبها لا يكذب أبدا.

ماذا لو واجهته؟ ستنظر قليلا وعساه أن يعترف لها أو يخبرها. ستنظر. أخبرتها زميلتها أن زوجته الأولى طلبت الخلع منه وحصلت بالفعل عليه، أما زوجته الثانية فقد انتحرت بسبب سوء معاملته لها. صارت تشعر بالخوف منه أكثر. يبدو أنني تسرعت في الخطبة. يا رب ماذا أفعل؟ لقد قبلت الخطبة لأخرج من جحيمي في حب ابن عمتي، فإذا بي أقع في نار أكبر. إن وجه علي الصفتي ينطق بالشر، ولكنه يقول إنه يحبني. أنا لا أصدق أبدا ولم أصدق قط. كان يوصلها لبيتها بعد أن انتهت النوبة الخاصة بها كعادته منذ أن خطبها. تظاهر أنه يتنفس بصعوبة. أوقف السيارة وقال لها:

— أشعر أنني أختنق. لا أستطيع أن أتنفس

— هيا نرجع إلي المستشفى ثانية

— لا أستطيع. يبدو أنني سأموت قبل أن أتزوجك. آه

أغمض عيني وتظاهر بأنه سيموت فعلا. أمسكت بيده. شعرت بالنبض في عروقه. قال لها بصعوبة وهو يمثل أنه يزدرد ريقه بالكاد وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

— شقتي هذه. يمكنك أن تصعدي لأمي وتأخذي منها الدواء الذي أتناوله. ستفتح لك. أرجوك بسرعة. بسرعة

— إن شاء الله ستكون بخير

— إذا مت فسأحمد الله أن آخر وجه رأيته في الدنيا كان وجه حبيبتي وخطيبتي نوال

خرجت من السيارة. سألته:

— أية شقة؟

— شقة رقم خمسة. الدور الثالث

— إن شاء الله أعود إليك حالا

تلمست يده وربتت عليها. تظاهر بأنه يتحامل علي نفسه. قبل يدها وتراجع بسرعة خشية أن تصغه. لم تصغه وإنما نظرت إليه بحنان.

جرت بأقصى سرعة لديها تجاه شقته. لم تنظر خلفها وليتها نظرت. إنه يتبعها ويتخفي خشية أن تراه. يبدو أنها قد وقعت بالفعل في مصيدته. كانت تجري باتجاه شقته ولا تلتفت وراءها. تجري وتتمنى أن تمر أزمته علي خير، انطلق آذان الفجر معلنا انتهاء هذه الليلة وانتهاء هذه الخطبة التي وافقت عليها نوال علي عجل وفي عناد غير مسبوق. رددت آذان الفجر في حين كان علي الصفتي يمضي نفسه بنوال وهو يأكلها فريسة سهلة بين أحضانه. تخيلها تقاومه وهو يمزق ملابسها لتقف أمامه عارية تماما. تخيلها تتوسل إليه أن يتركها بكرا كما هي، لقد أصم أذنيه تماما عن صوت المؤذن، بينما كانت نوال تردد الأذان وكلها رجاء أن تمر أزمة خطيبها التي افتعلها علي خير.

المؤامرة

ما كان محب ليصدق أن تدع مني له الفرصة لزيارتها من جديد. لقد قابلته وقابلت والدته بود غير معهود عندما زارها في المدرسة أمس. لا يعقل أن نحب أحدا بدون أن يحبنا. يبدو أنها تأثرت بحبي وبأشعاري. سيزورها اليوم بعد صلاة العشاء. يبدو أنها قد رضيت عنه. هكذا كان ينطق حدسه. تذكر أول مرة دخل فيها بيتها. لم ينم طيلة الليلة الماضية ولن ينام إلا بعد أن توافق علي خطبته الليلة. لا يدري لماذا تعلق قلبه بها بهذه الدرجة. إنه يشعر أحيانا أنها كأمه. إنها أبعد ما تكون عن شبه أمه. أمه أجمل منها في الحقيقة ولكنه شعر أنها كأمه. شعر فيها بحنان أمه علي الرغم من القسوة البالغة التي كانت تعامله بها. لا يزال يتذكر نظراتها الباردة عندما انقض عمه عليه يضربه ويكيل له اللكمات. أيا حب الرجل فتاة لأنها تذكره بأمه؟ أيمكن يا محب؟ لكم تمنى أن يناديها بماما مني. ذات مرة كتب لها:

ماما يا ماما يا أجمل أم	أنا من غيرك حالتي تغم
بعدك زاد شيلني الهم	مشغول عنك وانت أهم
ماما ادعيلي عليك أتلّم	أملا احضانك واشبع ضم
نفسي بيك يا روحي أهتم	باعشق فيك حنانك الجم
نفسي افديكي ولو بالدم	ياما اديت وياما هزيت وكرمك تم

فيك يا روحي أحلي روايح الجنة باشم

عندما سمعت أمه هذه الكلمات ظنت أنه قد كتبها لها، ولكن الحقيقة التي لم يجرؤ علي قولها أنه كتبها مني. تذكر زيارته الأولى مني. إنه يتذكر كافة تفاصيل هذه الزيارة ويتذكر الشعر الذي ألقاه لأمه وخاله عندما كانا في السيارة قبل أن يراها. وقتها، فوجئت منى تماما من زيارة محب وأمّه وخاله ونوال ابنة خاله. كانت تتحدث في هدوء مع والدها الشاويش عشاوى عندما فتحت الباب ورآها. دخلت المرأة الغامضة التي زارتها في

المدرسة مرتين من قبل. كانت منى لا تعرف أنها والدة محب، منار المعداوي. رمتها بتعجب. قالت والدة محب:

— أسمحين لى بالدخول

كانت المرأة الغامضة تحمل علبة حلويات كبيرة. أدخلتها منى وهمت بإغلاق الباب إلا أن المرأة الغامضة قالت لها:

— سيأتى الآن ضيوف غيرى. دعى الباب مفتوحاً

ذهلت منى عندما دخل خال محب وعندما دخلت نوال وبلغ بها الدهول مداه عندما أراد محب أن يدخل. قالت له محذرة وهي تكاد أن تبتسم:

— أنت مرة ثانية؟ ألم تكفك العلفة الماضية؟ هل تريد أن يضربك المعلم زين من جديد؟

ابتسم وقال لها فى حب حقيقى:

— ولن تكفينى ألف علفة.

ود لو قال لها وقتها: « ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب ». كان الكل يتحدث ولكن منى لاذت بالصمت وإبداء الدهشة من هذا العاشق. لقد رآها محب فى المدرسة خلسة خشية أن تخرجه بكلماتها أو أن تعتقد أنه يطاردها، ولم تره ساعتها لأنه أرسل نوال من بعيد لتراها وتحديثها، وزارتها أمه فى المدرسة ولم يتحدث معها. كانت الأمور تسير فى نفس الاتجاه الذى خطط له محب وابنة خاله نوال. كان محب يتمنى أن تتردد الزغاريد فى أنحاء شارعها كله. كان يود ألا تجد منى بداً من السكوت ولو إلى أن ينصرف الضيوف حتي ولو كان سكوتها غصباً. لكن لم يحدث له ما يريد. لقد تعللت باستكمال دراستها. شكر خاله لأنه تعرف علي والدها وحاول أن يتقرب منه، ولكن ما تحقق هدفه. أيمكنه أن يتحقق حلم حياته الليلة؟ تيقظت أمه بعد آذان الفجر فوجدته لا يزال متيقظاً. أطار الحب النوم من عينيه كما أطار عقله. قال لها فى رجاء:

— دعواتك يا ماما. أحبها وأتمنى أن تتم خطبتنا الليلة

— قلبي ليس مستريحاً يا محب

— دعواتك وكل الأمور ستسير علي ما يرام

— سأدعو لك ولكن قلبي يأكلني علي نوال بنت خالك

— إن شاء الله ستكون الأمور كلها بخير
عاد بعد صلاة الصبح وكأن زفقات العصفير ذكرته بحبه مع
ميلاد اليوم الجديد. أمسك أوراقه وكتب :

أي صبح دوت به صرخات عشق وارتوت؟
أي صبح فيه أنات المشاعر قد علت؟
صاحت أحبك يا من له العواطف قد جرت
وتفجرت دقات قلب من هواك أثمرت
أنات حب في هواها لم تمت

ولهيبي دمعات في لقاءك أهدرت
أحلام شوق في الخريف تبعثرت
زفرات روحي في هواك تذمرت
هفوات قلبي في رضاك أشرقت
سألت لحظات حبي وسمت

ببذور حب في سماك وما ارتوت
قالت أحبك يا حبيبي لا تفت
السنة حقد للحبيب قد انبرت
أخشي عليك من عيون في لقاء تبحرت
ونفوس عشاق في الأوهام تكسرت
وجحود أشواق إليك قد اشتكت
وظلام أيام بالفراق وقد مضت
حياتي إن أيامي بدونك قد خلت
وبنور أشواقي إليك اكتفت

سأظل أيامي بقربك إذ لم أمت

نامت أمه والقلق يساورها علي نوال، ونام هو بعد أن قضى الليلة
في سهاد. الدقائق تمر وتسحبه في نوم عميق. رنات علي هاتفه وكأنه
يحلم. رنات استغاثة من نوال ولم يقدر علي القيام. ترن نوال علي
هاتفه مرة ثانية وثالثة وهو يشعر أنه يحلم. إنها تستغيث به من ذئب
ماكر كان محب هو السبب في أن يجئ إليها ويحاول افتراسها. كانت
نوال تقاوم وتقاوم بكل شراسة، في حين كان النوم يفترس محب بين

- مخالبه وأسنانه تماما كما كان علي الصفتي يحاول أن يفترس نوال.
- طرقت نوال الباب مرتين ولم ترد والدته علي الصفتي. تعجبت. نظرت وراءها فوجدت علي يمثل أنه يتنفس بصعوبة. قال لها والقلق يعتريها:
- خشيت ألا تستيقظ أُمي فقلت سأتي أنا وأحاول أن أفتح.
- صدقته في البداية. ما أن دخل الشقة إلا وجذبها بسرعة وأغلق الباب بعنف. دخلت نوال ونادت علي والدته بصوت مرتفع.
- نزع عن وجهه قناع التمثيل وقال لها وهو يضحك وكأنه انتصر:
- أُمي ماتت من عشر سنوات. لا أنصحك أن تنادي ثانية
- قهقه بصوت مرتفع. قالت له وهي تدعي البراءة وأنها لم تفهم:
- أين الدواء الذي كنت تريده يا حضرة الضابط؟
- أنا بخير. أنا لا أحتاج إلي دواء.
- ماذا تحتاج إذا؟
- أحتاج إلي أحلي دواء في الكون. أحتاج إلي دواء من شفيتك.
- سأشفي تماما بثلاث قبالات من فمك الممتلئ بالسكر
- كنت تخدعني إذا؟ أمك ماتت وأنت أتيت بي هنا علي غير رغبتني.
- رغبتك؟ أنت التي أتيت برجليك يا دكتورة
- ماذا تريد يا علي يا صفتي؟
- أريدك. أحبك.
- أنت كاذب. أنت لا تحبني
- أحبك حبي للحياة و...
- كذاب. من يحب أحدا لا يخدعه ولا يكذب عليك. من يحب
- أحدا يحافظ عليه
- طيب. إذا كان الكذب لا ينفع معك فلنتحدث بصراحة
- تفضل يا حضرة الضابط
- أنا لا أحبك. أنا أراقبك منذ فترة. أعرف أنك تحبين محب ابن
- عمتك وهو لا يحبك وإنما يحب مني عشماوي جمعة
- ممتاز
- يا بنتي أنا ضابط أمن دولة
- جميل جدا. ما المطلوب مني إذا؟
- من أعطي فيدبو قتل مصري المحلاوي للصحافة؟

- لا أعلم. أيعقل أنك خطبتني من أجل هذا الغرض فقط؟
- لا. أعلم كل شيء عنك وعن الحزب السري الذي تجتمعون به لقلب نظام الحكم
- أنت واهم. هذه حركة سياسية ولها جريدها. نحن نعمل في النور
- لقد ترك محب الحزب بسبب خوف أمه عليه. الأفضل لك أن تتركي الحزب
- لا. لن أتركه
- دعينا في المهم. أنا لا أحبك ولكني أريدك
- هل تعتقد أنني أخاف منك؟
- طبعاً تخافين. أنا وأنت هنا فقط وأنا أقوى منك. أنا أريدك و...
- وأنا لا أريدك. لقد صدق محب عندما أخبرني أنك أحقر إنسان في العالم
- وماذا قال لك أيضاً يا قطتي؟ أقال أنه رآني وأنا أقتل مصري المحالوي بيدي؟
- لا لم يقل هذا.
- سكت قليلاً ثم انقض عليها يقبلها. أزاحت وجهه بيديها وحاولت أن تخربش وجهه. مسح بعض آثار أظافرها وقال وهو يهجم عليها مرة ثانية: «أحب المرأة الشرسة» استطاع أن يمزق جزءاً من جلبابها. بصقت في وجهه. صفعها بكل ما أوتي من قوة. عضت كتفه. احتضنها وظن أنه سيتمكن منها لا محالة. صرخت بقوة، أغلق فمها بيده. ابتعدت عنه بعد أن عضته بكل ما أوتيت من قوة فصرخ وابتعد. دخلت إحدى الحجرات وأغلقت الباب وراءها. كان المفتاح موجوداً بالباب، فأغلقت الباب بالمفتاح.
- أتاها صوته من خلف الباب:
- افتحي وإلا كسرت الباب
- تجاهلت صوته واتصلت بالشرطة ولم يرد أحد. اتصلت بمحب مرتين ولكنه لم يرد، فلقد كان غارقاً في نومه. صاح بها قائلاً في غضب:
- أتريدين أن تفهميني أنك شريفة ولم يلمسك أحد؟
- أنا أشرف من الشرف ولم يلمسني أحد فعلاً

- طيب وإن طلب منك محب حبيب القلب أن يلمسك وأن يقبلك
- لن أسمح له. ولن أسمح لمخلوق أن يلمسني في الحرام
- سأكسر الباب وسألمس كل جزء في جسدك

تركته يتحدث وأخذت تنظر في الحجرة عليها تجد مخرجاً. فتحت البلكونة. تستطيع أن تقفز من البلكونة. كسر الباب بالفعل ودخل عليها. ألقت بنفسها من البلكونة وهي تبصق عليه. نطقت الشهادتين. شعرت بنفسها تتهاوي إلى الأرض لتنقذ نفسها من شرور علي الصفتي. نظر إليها علي والذهول يملأ وجهه. صاح قائلاً في فزع: «ماذا فعلت بنفسك يا بنت المجنونة؟»

الحزن يملأ قلب المعلم زين علي ولده ممدوح. لقد قتل أمين الشرطة الذي كان يضايقه ويأخذ منه كل يوم رشوة. كان يفرض عليه مبلغاً من المال كإتاوة. الحياة صعبة ولم يدفع ممدوح. سلط عليه أحد زملائه في المرور ليحرر له كل يوم مخالفة. أقسم بالله أن يقتله، ولقد نفذ قسمه فعلاً. لقد ضاع مستقبل ولده وسيعدم أو يلقي به في السجن عشرات السنوات. سمع امرأة تقول لابنها الصغير: «الحرام لا ينفع أبداً. أمين الشرطة حسني بيه الغندور يبني هذه العمارة ولن يدخلها» ربت امرأته علي ظهره، أزاح يدها بعنف. إنه لا يزال يراها كالجاموسة، ولا يزال يفكر في ساميته. لقد قتل ابنه حسني الغندور الذي كان سيجعل سامية تأتيه راغمة لتقبل يديه ورجليه.

خرجت سامية من القسم والناس يرددون أن فيها شيئاً لله. أمين الشرطة الذي كان يكيد لها تم قتله بعد دقائق من ظلمها. سمع زين بهذا الكلام وأقسم أن فيها فعلاً شيئاً لله. أقسم أمام زوجته وأمام ممدوح أنه سيتزوجها حتي وإن كان هذا الزواج سيتم رغماً عنها. لقد خسر ابنه، ولكنه لن يسمح أن يخسر حبه أيضاً. استبد به الشر وقرر أن ينزل إليها في منتصف الليل بعد أن نام منصور ونامت زوجته. سيغتصبها بالقوة. سيجعلها هي التي ترجوه أن يتزوجها. كان يتجاهل النظر إليها، يغض بصره عندما يراها. سينزع الحزن من قلبه. يبدو أنه يري أنه عاملها بلطف أكثر مما تستحق. أنا أعرف

مثل هذه الأشكال. لن أطردها. ستظل في بيتي. سأتزوجها رغما عنها.
يجب أن يخطط لها وأن يحسن التخطيط. كان يخطط لها في نفس
الوقت الذي تخطط أيضا له لتتقي شره.

ظنت في البداية أن الله قد هداه إلي رشده وأعادته إلي صوابه فلم
يعد يضايقها. إنه حتي لم يعد ينظر إليها.

الساعة تقترب من الواحدة مساء. نزل من شقته علي أطراف
أصابعه. لقد أعطي سيد حموكشة مثتي جنيه. ثمن خطته. سيصبح
بأعلي صوته. سيراه المعلم زين ويقر سيد حموكشة أنه كان في أحضان
سامية. سيصرخ ويجمع كل الناس عليها. سيظهر المعلم زين في الصورة
ويظهر أنه لا يصدق هذا الكلام وسيقسم بأن سامية أشرف امرأة في
الدنيا، وسيعرض عليها الزواج وستقبل أملا في درء الفضيحة. سيكون
جميلا لن تنساه لك يا زين. هكذا الخطط وإلا فلا.

الواحدة والربع ولم يأت سيد حموكشة. ابن الكلب. أ يكون قد نام
ونسي ما كلفته به. حار ونار المثتي جنيه فيك يا بعيد.

الواحدة والنصف ولم يأت سيد حموكشة. أليس لدي أحد أي
ضمير في هذه الأيام؟ سمع المعلم زين صوتا من خلف باب حجرة
سامية. أ يكون في حلم. إنها تنادي عليه بكل رقة ودلال. أكيد أنه
يحلم. إنها تنادي عليه بصوت يمتلئ بالدلال:

— تفضل يا معلم زين.

— أين أنفضل؟

— بيتك ومطرحك يا معلم.

— أنا أحلم؟

— لا. أنا أناديك حقيقة يا معلم زين يا كبير المعلمين

— أنت راضية عني إذا؟

— وكيف لا أرضي عنك وأنت كبير معلمي المنطقة

— أنا كنت سأغضب منك يا معلم زين

— لماذا يا ست الكل؟

— سيد حموكشة قال إنك كنت تخطط لتؤذيني

— أنا؟ لا سمح الله. أنا لا يمكن أن أؤذيك أبدا. كنت فقط أريد أن

أتزوجك علي سنة الله ورسوله

- كنت تريد ان تفضحني يا معلم زين؟
- لا. كنت سأسترك بعدها واطلب منك الزواج
- خذ يا معلم زين. سيد حموكشة بعث لك مئتي جنيه
- هي لك يا سامية
- لا آخذ إلا حقي
- بالله خذيها وخذي كل ما أملك
- طيب. تصبح علي خير يا سيد المعلمين
- وضعت النقود في صدرها. برزت فتنتها وأبرقت عيناه ببريق الشهوة. كانت ترتدي ثوبا شفافا يكشف كثيرا من فتنتها. لا. إنه يحلم. فرك عينيه. إنه متيقظ. قالت له في غضب:
- عيناك يا معلم
- ستعمي كل العيون إذا لم تنظر إليك يا سامية
- اتق الله يا رجل
- ارحميني أنت يا سامية
- يا معلم عيب عليك. ابنك مبروك خطبني ووافقت
- لا يمكن أبدا. أنا أحبك
- وأنا أحبه، ولقد اتفقنا علي الزواج يا معلم
- بلغ الغضب بالرجل مداه. أكد أنه أفضل من مبروك. هجم على المرأة. أراد أن يلتهمها. أمسك صدرها بيديه فأبعدته. كانت تنتظر أحدا أن ينقذها. برم شاربه وارتدى عليها. ابتعدت من أمامه، أخذ ينهج صدره يعلو وينخفض. بلغ به الجهد مداه. قالت له آمرة:
- اخرج من هنا يا معلم زين
- أنا أحبك. أنا عبدك. أنا خدامك. سأحمل حذائك فوق رأسي
- طيلة عمري، أنا أحبك
- يا معلم كل شئ بالخناق إلا الزواج بالاتفاق
- أحبك يا سامية
- عاد ثانية محاولاً الهجوم عليها. كاد أن يقطع ثوبها هذه المرة. كانت تمنعه. استطاعت أن تخلع عنه جلبابه.
- ابتعدت عنه قليلاً. ثم قالت:
- سأصوت وألم خلق الله عليك يا معلم زين، ستكون فضيحتك

- بجلاجل. أتتهجم على أرملة وحيدة يا معلم؟! يا عالم يا هوه.
- أنقذوني من المعلم زين. الرجل يتهم علي في منتصف الليل
- أطار حبك قلبي. أريدك في أحضاني ولو لدقائق
- وكم ستدفع يا معلم زين؟
- ادفع عمري وحياتي
- صفقت سامية وضحكت ونادت:
- تعالي يا حاجة حسنية لزوجك. تعالي يا مبروك وانظر إلي ما يفعل أباك
- لقد انقلبت كل الموازين. نظرت حسنية إلى زوجها باحتقار أما مبروك فترك المكان وانصرف لحظات ولكنه عاد بعد ذلك ومعه سيد حموكشة. نظر إليه المعلم زين بأسف. لقد فشلت خطته في حين نجحت خطة سامية. يبدو أنه قد خسر وفشلت خطته، وعليه أن يتقبل الخسارة بهدوء وبدون فضائح. أخذت سامية مبروك في حضنها وقالت وكأنها تتشفي:
- من غير فضائح يا حاج زين. كتب الكتاب والدخلة يوم الخميس القادم
- انهار زين جالسا وهو يهز رأسه بالموافقة. ربت سامية على ظهر المعلم وقالت:
- وهناك طلب آخر يا سيد المعلمين
- لم ينظر زين إليها وإنما وضع رأسه في الأرض. قالت سامية وهي تضحك
- وتكتب المحل والشقة لزوجي مبروك. المعلم مبروك.
- خرج زين وبيده زوجته حسنية في هدوء والحسرة بادية علي وجهه. لقد كان مضطرا أن يوافق رغما عنه وإلا أقامت سامية الدنيا ولم تقعدا وسيشهد ضده ولده وزوجته كما سيشهد عليه سيد حموكشة أيضا. خرج زين وهو يحس أن كرامته قد ذبحت تماما وما أن خرج إلا وكان مبروك ينعم بأحضان سامية ويمطرها بوابل من قبلاته كالأبله في حين كانت سامية سعيدة بأن خلصها الله من مكيدة زين إلي الأبد. أبعدت مبروك عنها وقالت في ضيق:
- اذهب لأهلك يا مبروك. ألا تستطيع أن تنتظر إلي الخميس اللقادم؟
- أعوذ بالله هل سألاقيها من مبروك أم من أبيه؟
- نظر إليها مبروك ممتنا شاكرا لها حسن حيلتها. انصرف من أمامه وهو يتساءل في نفسه: «متي سيأتي يوم الخميس؟»

حنان في ظلال زيارة الشيطان

يتفحص شريف وجوه من معه في الحبس مرة تلو الأخرى بكل حب وتقدير. يتفحصهم ثم يعاود تفكيره. لقد أكد لنفسه أكثر من مرة أنه يحبهم، وأنه سعيد بتجربته هذه لأنها سمحت له أن يلتقي بأناس في قمة البراءة. جميعهم يتسمون بالبراءة حتي وإن كانوا في نظر الناس مجرمين. إنه يحبهم. إنه يشعر أنه منهم وأنهم منه. لم لا وقد عاشهم هذه الأيام. يقتسمون اللقمة والضحكة والسيجارة أحيانا. يشعر بروح الود والمحبة تجمعهم جميعا فلا مجال للأحقاد والكراهية. يعيشون في مكان واحد. تذكر كيف حزنوا عليه عندما مرض وذهب إلي المستشفى. لا مجال لمصلحة أو نفاق. إنه يحبهم جميعا. يشعر أيضا أن مريم ابنة عوضين الطويل مثل ابنه أحمد. لاشك أنها تفتقد والدها كما يفتقده أحمد ابنه. تعاطف مع كل من في الحبس. شعر أنه يعيش حياتهم. أعجبه طيبة مختار وتدينه. أعجبه اشتراكية منصور أبو دومة وطيبته. لقد كسر فيه روح الغرور بأنه أقدم مسجون وعلي الجميع سمعه وطاعته. لقد صار هو الآن أقوى من في الحبس بعد أن هزم منصور. سينشر نور العدل والمساواة والمحبة في محبسه هذا. شعر بأنهم مساكين فعلا. إن حبهم يملأ قلبه الآن. يتساءل في نفسه قائلا: «أهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا في الحبس فعلا؟ أيستحق أن يكون منصور العالم هنا بدلا من أن يقوم بأبحاثه من أجل مصر في مختبره؟ أيستحق أن يكون هنا بدلا من أن يدرس للطلاب في الجامعة وهو أجدر من ابنة رئيس القسم التي ظلمه أبوها من أجلها؟ أبدلا من أن يكرم في عيد العلم وتسلط عليه الأضواء والكاميرات يتم تكريمه هنا في السجن؟ إن ابنة رئيس القسم لم تنتهي إلي الآن من رسالة الماجستير الخاصة بها في حين أن منصور كاد أن يقترب من إنهاء رسالته للدكتوراة علي الرغم من تعبته وشقائه وسهره في المقهي إلي وقت متأخر. هل أستحق أنا أن أكون في الحبس وعادل

فوزي في منصبي؟ أهو مدير التحرير الآن وأنا في الحبس؟ ياله من جبان قذر خائن!! أعرف أنه سيتزوج من طليقتي وسينام علي فراشي وفي شقتي وعلي زوجتي السابقة؟ إنه منذ زمن بعيد وهو عبد لأمن الدولة. لم يكن يحضر المحاضرات وكان ينجح وبتقدير مرتفع. كان يسرب أسرارنا. لعب علي جميع التيارات السياسية ونحن في الجامعة. كان ينقل أخبارنا. أنا الوحيد الذي كشفته وأبلغت زملائي فصرنا نتحاشي الحديث أمامه. بعد التخرج وجد عملا وشقة وسيارة وزوجة من عليّة القوم. لقد فعلوا له كل شيء. أعطوه كل شيء ومنعونا. يا رب أيستحق حامد علي إبراهيم هذا الشاب الذي تفتتح زهرة شبابه أن يكون حبيسا وسيد الحوفي النصاب حرا طليقا؟ إنهم يدفنون زهرة شبابنا ليستعلي الفساد ويكسر كل شيء حوله» تذكر أنه هاجم أكثر من مرة فتوي رجال الدين بتحريم سفر الشباب غير المشروع إلي إيطاليا لأنهم يعرضون أنفسهم للقتل ويلقون بأيديهم إلي التهلكة. صرخ في أكثر من مقال وأكد أن الحرام هو أن نقتل شبابنا وندفنهم في قبور الفقر والمرض والبطالة. كان يتساءل في مقالاته عن سبب انتشار المخدرات. كان يتعاطف مع هذا الجيل المطحون وظروفه السيئة التي طعنت كل بادرة أمل لهم في أن ينتظروا مستقبلا أفضل. توجه إلي الشيخ مختار وسأله:

— هل حرام يا شيخنا أن يسافر الشباب إلي إيطاليا؟
ترك مختار مصحفه وقال في قهر:

— لا. الحرام أن يموتوا من الجوع في وطن صرنا لا نجد فيه اللقمة الحاف. الحرام في أناس يتحكمون في اقتصاد البلد ويمتلكون كل شيء ويتركون الناس تموت جوعا. الحرام في أن تسمن أعناق الأغنياء علي حساب الشعب الفقير. الحرام أن نقف علي طوابير العيش بالساعات ونتقاتل من أجل أرغفة الخبز وهناك من يأتي للكلاب التي يربونها بالطعام بالطيارة من باريس وأوربا. الحرام أن يحصل أناس علي الملايين ولا يحصل باقي الشعب علي الملايين.

كان الشيخ يتحدث بحماسة. صفق له منصور أبو دومة وقال:

— يعني نحن علي صواب. نحن لا نسرق إلا الأغنياء يا شيخ
ربت شريف علي كتف منصور العالم وقال للشيخ:

— هل حلال أن يكون هذا الشاب هنا في السجن والمرتشون والأفاقون والمنافقون أحرارا يا شيخ مختار؟ هل من الحلال أن يكون هذا الشاب حامد هنا بدلا من أن يكون علي منصة القضاء أو وكيل النيابة بدلا ممن حصلوا علي تقدير مقبول وليس لهم أي مؤهل سوي المحسوبة والواسطة؟

لم يرد الشيخ عليه وإنما قال في شبه يأس واستسلام:

— وهل حلال أن أكون أنا هنا بدلا من أن أكون في مسجدي أعلم الناس، هل من الحلال أن أكون أنا هنا والداعرات والعاشرات علي شاشات التلفزيون؟ أعوذ بالله سيكفروننا.

وضع شريف يده علي فم الشيخ مختار ليسكت، ثم عاد إلي تفكيره بعد أن اقترب أحد الضباط من الحجز وقال في حزم بعد أن رفع رأسه من علي الدفتر الذي كان يكتب به:

— لا أريد أن أسمع صوتا. ممنوع الكلام في السياسة يا روح امك انت وهو. سكت الجميع. بدا وكأن شريف قد أصابه الندم لأنه أثار التبرم والسخط في نفوس كل من كان بالحجز. عاد إلي تصوراتهِ وغاص في تفكيره ثانية. تبا لهم. قتلوا كل الآمال وحطموا كل الأحلام. كتب ذات مرة في أحد مقالاته التي جلبت له المشاكل وأحالاته إلي التحقيق: «الحمد لله أننا ننتمي إلي جيل فقد الأمل في كل شئ، حتي في قياداته السياسية. جيل فقد حتي القدرة في أن يحلم فلقد صار الحلم رفاهية بعيدة المنال. لقد حصروا الشباب في احتياجاته الأولية. الطعام والشراب، وعندما لم تتوفر لهم هذه الاحتياجات حولهم إلي أجيال لا هم لها إلا باللعب في أعنائهم التناسلية، فقدموا لهم الرقصات والمغنيات والعاريات علي أساس أنهم الأمل والقُدوة والطريق إلي مستقبل أفضل. لقد اغتالوا كل الأحلام وذبحوا جميع الآمال. حطموا المبادئ والقيم والأخلاقيات وذبحوها قربانا للعهر والفساد والانحلال» صوت الشاويش يرتفع:

— شريف شكري ومنصور العالم وحامد إبراهيم زيارة.

بانست الحسرة في وجه عوضين الطويل ومنصور أبو دومة والشيخ مختار. لن يزورهم اليوم أحد. كيف يزورهم أحد. منصور أبو دومة لم يتزوج. لم يرد أن يأتي بامرأة تشاركه بؤس الحياة وشظف العيش.

كان عوضين الطويل يأمل أن تزوره زوجته وأن يكحل عينيه برؤية مريم ابنته. أما الشيخ مختار فلقد خلعت امرأته بعدما أيقنت أن الفقر سيلازمها دوماً مع رجل لا يتعدي راتبه بضعة مئات من الجنيهات. تركته وحيداً. حمد الله أنها ظهرت علي حقيقتها. سأله شريف: ولماذا لا تتزوج؟ رد عليه في أسي: ومن تلك التي ترضي بفقير مثلي. آه يا زمن. في الماضي كان الرجل يتزوج بالفاتحة، وأنا أحفظ القرآن كله ولا أستطيع أن أتزوج. لقد تغير الزمن وتغيرت الأيام. يا تري إلي أين سنذهب. حاول شريف أن يهدئ من روعه قائلاً: ولا تهتم. حتي الأنبياء لم يسلموا من أذي الزوجات. أنت تعرف أكثر مني قصة نوح ولوط. ربت شريف علي ظهره. أكثر من مرة اشتكي الشيخ مختار لشريف من قوانين الهانم وقوانين الأسرة. كان شريف يستمع إليه ويود أن يخبره بالتأثير السلبي الذي عملته هذه القوانين وحرمته من رؤية ابنه والتمتع بأحضانه والبقاء معه، ولكنه فضل أن يسكت وألا يبوح بسره. تهللت الفرحة في وجوه من أنتهم زيارة اليوم. أخذ شريف عناوين رفاقه في الحجز جميعهم. أليسوا رفاق هذه الأيام السوداء؟ عليه أن يساعدهم. سيطلب من نيفين يسري أن تساعدهم جميعاً. لديه الكثير من المال. أصابت شريف صدمة هائلة عندما لم يجد نيفين. كان يتوقع أن تكون نيفين هي الزائرة، ولكنه صدم عندما لم يجدها. إن من أتى لزيارته عدوه اللدود الذي يتظاهر بالمحبه. إن زائر الآن عادل فوزي. أطلق عادل ابتسامته البغيضة وقال له:

— اشتقت إليك فأتيت لأزورك. أنت رفيق العمر وزميل الدراسة.

— أهلاً بك

— اسمع كلامي جيداً ونفذه بالحرف الواحد. أنا أخاف عليك.

— وأنا لا أخاف. لقد نزع الخوف من قلبي.

— اتصل بي علي الصفتي وطلب مني أن أخبرك أنك ستلاقي أياماً

سوداء إذا لم تعترف

— أعترف بأي شيء؟

— الفيديو الخاص بقتل مصري المحلاوي

نظر شريف إليه بكل كراهية وسأله:

- علي الصفتي. ضابط أمن الدولة الذي قتل مصري المحلاوي. أهو
- الذي أوصلك لكرسي مدير التحرير؟
- أنا أتيت أنصحك
- لا أقبل النصائح من أحد أيها الخائن
- أنت حبيبي وزميل عمري
- أنت تحقد علي منذ أن كنا طلابا
- كنت غيبا ولم تكن معي
- كنت وطنيا أحب بلدي أيها الخائن
- انظر لحالك. ها أنت ذا في الحبس وأنا حر
- أنت عبد لأمن الدولة
- سأتزوج أمينة صبري زوجتك الليلة
- كانت زوجتي وطلقتها
- سأتزوجها وسأضاجعها في شقتك وعلي فراشك وأمام عيني ولدك
- أنت حقير وجبان
- بلغ الغضب بشريف مداه فبصق بكل ما أوتي من قوة علي وجه
- عادل فوزي الذي مسح بصاقه في برود وقال له :
- دعنا في المهم. عليك أن تعترف. أنا أعرف من أحضر لك الفيديو
- من يا أبا العريف؟
- محب عاشور
- طبعاً لا يا جاهل
- أتحدث من أجل مصلحتك
- لا وأنت الصادق. تتحدث من أجل مصلحة نفسك
- هذه آخر نصيحة أقدمها لك يا شريف. أنا أراعي زالتنا والعيش والملح
- أخشي أنك قد تضر والدتك وأمك من أجل مصلحتك.
- أنا؟
- طبعاً أنت. هل أذكرك كيف ماتت أمك فقرا وجوعا في قريتك
- لأن زوجتك الهانم بنت مدير المخابرات منعتك من الإنفاق عليها
- وعلي أبيك العاجز الكفيف؟ هل أذكرك بأنك كنت تطرد أختك
- الوحيدة عندما كانت تأتيك لتطلب منك مالا وتركتها تضيع بين
- أحضان الرجال في بيوت الدعارة؟ هل أذكرك بتاريخك الأسود؟
- لا. حدثني عن المستقبل

حتي وإن أعطوك منصب وزير الإعلام فلسوف تصير في عيني
حقيرا سافلا. ستكون في نظري وزيرا بدون حرف الواو أي ستكون
زيرا يفعلون بك ما يريدون.

— أنا أحذرك. احفظ لسانك. أعوذ بالله هل أفعل خيرا لتواجهني بكل
هذا الشر وكل هذا الحقد؟ لقد أبلغتك الرسالة التي أمروني أن أوصلها
إليك. الموضوع صار خطيرا، والناس الكبار لن تسكت علي هذا.
— أنا لا يمكن أن أحقد عليك يا عادل أبدا لأنك لست أحسن مني.
أنا للأسف أشفق عليك. أنت مسكين. لقد بعث نفسك بأخس
سعر. حقا أنت مسكين. إنني أشفق عليك وأرثي لحالك. انتهت
الزيارة يا عادل. في ستين داهية

عاد إلي الحبس ثانية وهو يود أن يبصق علي الدنيا كلها. كان
الحزن أمواجاً تحمله وتطيش به في دوامات الغضب. علي النقيض من
هذا وجد منصور العالم سعيدا. قال له :

— صاحب المقهي تنازل عن بلاغه ضدي وسأخرج اليوم
تظاهر شريف بأنه قد ابتلع أحزانه وآلامه وابتسم وكأنه مجبر
وقال له :

— ألف مبروك يا دكتور منصور
بلا دكتور بلا قرف. أتعرف لماذا تنازل عن المحضر؟
لماذا؟

— قل إيراد المقهي وطالب الناس بعودتي. طالبوا بعودة بوليكا.
الناس يذهبون إلي المقهي ليتفرجوا علي بوليكا طالب الدكتوراة
وليسخروا مني. يضحكون علي الدنيا وعلي بلد الشهادات
ولكنك فتحت رأس المعلم صاحب المقهي

— هذا لا يهمه. يهمه أن يكسب. لقد طالب الشعب بعودتي
ومتي يطالب الشعب بعودتنا جميعا؟ ألف مبروك يا منصور
احتضنه والتفت إلي حامد علي إبراهيم فوجد السعادة تتقافز من
عينيه. قال للجميع :

— الحمد لله. باركوا لي
أخذ يرقص في جنبات الحبس. سأله عوضين الطويل :
— هل عينت قاضيا أم وكيلا للنيابة؟

- لا تحلم. شئ أفضل من هذا
- عينت وزيرا للعدل ؟
- لا. أكثر من هذا

اقترب شريف من حامد وقال له :

- خيرا يا باشا
- الحمد لله لم يمت سيد علي الحوفي. ستصير تهمتي الشروع في القتل. لست قاتلا. أختي أيضا اخبرتني أن فتاة طيبة أعطت أمي مبلغ العشرين ألف جنيه التي أخذتها منها لأسافر إلي السعودية وأخذها هذا النصاب. ستتزوج أختي وقد أخرج من الحبس لأن سيد الحوفي سيتنازل عن القضية. الحمد لله. لكم أريد أن اشكر هذه الفتاة. إنها قالت عندما سألتها أختي : إن فاعل خير أرسل لنا هذا المبلغ.

خفض شريف شكرى رأسه في سعادة. سقطت بعض دمعاته وهو يحمد لله في سره أن جعله سببا في سعادة هذه الأسرة. إنه يبكي ويخفي وجهه بعيدا عنهم جميعا. لكم أود أن أسعدكم جميعا يا رفاقي الأعزاء في هذا الحبس. لكم أود ان اسعد جميع الأشقياء في هذا العالم. الحمد لله. تبا لكم يا حكامنا. تبا لكم أيها المسؤولون عنا. ألا كان يمكن أن تشعروا بمثل هذ السعادة عندما تعطون الناس بدلا من أن تسرقوهم وتأخذون منهم أقواتهم؟ يبدو أنكم ما جربتم قط ان تسعدوا من تحت أيديكم. والله إنها لسعادة أكبر بكثير من سعادة الملايين التي تسرقونها ظلما وزورا وبهتانا.

مسح دموعه واتجه إلي حامد ليحتضنه كما احتضن منصور العالم من قبل. ود لو احتضن كل من في الحبس، وود أن يحتضن كل من في الدنيا. شعر في حضنيهما بنفس اللذة التي كان يحصل عليها عندما كان يحتضن ابنه أحمد. آه يا ولدي الحبيب. لكم أفتقدك الآن؟؟!
لكم أفتقدك الآن حقا؟؟!

الحرية

يسير رجل بصعوبة بالغة وهو يمسك جنبه. الرجل ضعيف نحيل تبدو عليه الملامح الصعيدية الأصلية وتختلط في وجهه بملامح تعب ومرض وتفكير عميق لا ينتهي. ضوء الشمس يلمع في بشرة الرجل السمراء، وعيناه تلمعان ببريق ماء النيل المترقق، ولكنهما يخفتان من أثر الإرهاق والتعب. جلبابه ناصع البياض إلا أن بعض بقع الدم تلوث أسفل جلبابه. علي رأسه عمامة بيضاء أحكمها علي رأسه فتبرز بشرته الداكنة الممتلئة بالخصب والنماء لولا آثار الشحوب التي تعلق وجهه. تمسك بيده امرأة يبدو أنها زوجته. تبدو عليهما ملامح الطيبة المترجعة بالفقر والقهر. تمسك المرأة الأخرى صبي لا يتجاوز السادسة من عمره. يحاول أن يترك يدها ويسير بفرحة في فناء المستشفى الواسع إلا أنها تنهره بنظراتها فيعود إلي قبضة يدها من جديد. جميلة بيضاء كانت هذه المرأة. الرجل أسمر والمرأة بيضاء. هكذا المرأة في الصعيد. ممتلئة بعض الشيء. يضحك سنها علي الرغم مما يبدو عليها من أسي لمرض زوجها ويبدو أنها تقاسمه التفكير العميق فيما يفكر فيه. الرجل لا يسير مرتفع الرأس شامخ البنيان وإنما يسير منحني الظهر وعلامات الألم والمرض تلمع في عينيه علي الرغم من أنه لا يزال في أيام الشباب. لمحتة الدكتوراة ريم وهو يتالم. إنها تري الطب مهنة إنسانية نبيلة سامية، علي العكس من خطيبها الذي لا يراها إلا مهنة من المفترض أن تحقق له دخلا أكبر. أكثر من مرة كانت تقول له: «الطب رسالة لا مهنة. الأطباء رسل الرحمة يا دكتور» كان يسخر منها ويقول: «آه. رسالة وليست مهنة. سنأكل الطوب. وأسكنك برسالة الطب. أنا أحتاج إلي المال يا دكتوراة. يا دكتوراة هي رسالة علي عيننا وعلي رأسنا ولكن يجب أن نعيش وأن نتقوت. إذا كان العلماء أجازوا لمحفظ القرآن أن يتقاضى أجرا ليعيش. إن مرتباتنا لا تكفيها. نحصل علي الملايم بعد كل سنوات

الدراسة وبعد تفوقنا. لو بعنا الجرائد لكسبنا أكثر من مهنة الطب. ما هذا الظلم؟ ما هذه البلدة الظالم أهلها؟ أعوذ بالله» كانت تنظر لخطيبها وتقول: «كفاك نظرة مادية. أنت طبيب. أنت عليك أن تخفف من آلام المرضى ولو بابتسامتك» يرد عليها قائلاً وهي لا تصدق كلماته: «أنت الشئ الوحيد في حياتي الذي يجعلني أبتسم» يحاول أن يمسك يدها، ولكنها تسحبها في رقة ووداعة وخجل. يقول لها: «ربنا يحن قلبك علي كما هو حنون علي المرضى يا دكتورة ريم. طيب اعتبريني أحد مرضاك» تتركه وتنسحب في هدوء وهي تبتسم. ودت لو استطاعت أن تقدم للرجل وزوجته أية خدمة. نادى إحدى الممرضات وطلبت منها أن تأتي له بعجلة طبية لتدفعه عليها. لا تدري لماذا تذكرت الأستاذ شريف شكري عندما كان يحادثها عن شباب مصر الذي أفقره وأنهكوه بالأمراض. تذكرت كلماته عندما قال لها وهي تحادثه عن رغبتها في فسخ خطبتها من الدكتور صابر: «لقد جعلونا عبيدا يا دكتورة ريم. عبيدا للجهل والفقر والمرض. أذلونا بالحاجة دوما. جعلونا عبيدا للقمصة العيش. جعلوا الفلاح يهجر أرضه من أجل ألا يطعمنا. جعلوا علماءنا وأطبائنا يهاجرون للخارج طمعا في عيش أفضل وحياة أكثر رغدا، ليتسنى لهم حكم شعب جائع مريض جاهل. جعلونا شعبا نخاف من العصا ونستلذ بظلمنا» ساعتها نظرت إليه في دهشة وقالت: «أيعقل هذا؟ ألا يوجد فيهم رجل واحد يحب الوطن ويخاف علينا؟» نظر إليها شريف وقال: «للأسف يا دكتورة ريم. لقد خنقوا الضمائر وخربوا الذمم. إنهم لا يحرصون إلا علي شئ واحد. تنمية ثرواتهم والرقص علي جماجم شعب جائع جاهل مريض. الكل يسرق ويتسابق علي تحقيق أكبر قدر ممكن من الثراء قبل أن يفيق هذا الشعب. ألا يستحي أي حاكم عربي من نفسه وهو يري الرؤساء في الولايات المتحدة الأمريكية وهم يتعاقبون عليه واحدا تلو الآخر ولا يزال هو الرئيس الوحيد لهذا الشعب؟ الغريب أنه يسعى وبكل قوة ليورث ابنه» «للمصيبة !! إنه يتحدث عن الرئيس. أتهرب وتتركه. لقد ملأها الخوف تماما. طلبت منه الدكتورة ريم أن يخفض صوته. قال لها: «للأسف إنهم

يسمحون لنا بالقول في الجرائد وفي كل مكان كنتفيس عما في صدور الناس ولكنهم لا يسمحون لنا بالفعل أو بالتعبير عن غضبنا» قالت له الدكتورة ريم لتجعله يبعد عن السياسة: «لماذا تنصحني ألا أفسخ الخطبة؟ أنا أشعر أنني غير مستريحة مع الدكتور صابر خطيبي» ابتسم وقال لها: «حرام عليك أنت تكوني أنت مع الزمان ضده. دعي له الفرصة في أن يحب وأن يحلم بمستقبل أحسن مع طبيبة شابة جميلة مثلك» ابتسمت وقالت له في حياء: «هل أعتبر هذا من قبيل الغزل يا أستاذ شريف؟». سكت ولم يرد عليها وغاص في آرائه السياسية. اقتربت الدكتورة ريم من هذا الرجل الصعيدي وهي تتذكر كلمات شريف. إنها لم تر الدكتور صابر منذ يومين ولم يرد عليها. صارت هي التي تحاول أن تكلمه في التليفون ولكنه لا يرد عليها. لقد استجبت لطلبك يا أستاذ شريف. إن صابر هو الذي يبتعد. أنا التي سأبتعد فعلا. تري أين أنت يا أستاذ شريف، وتري هل أطلقوا سراحك أم أنك لا زلت قيد الحبس؟ لكم أشتاق إلي قراءة مقالاتك. ابتسمت في وجه الرجل الصعيدي وزوجته، وأعطته علبة عصير كانت في يدها. أعطي الرجل العلبة لولده وهو ينظر إليها وكأنه يشتهيها، ولكنه فضل أن يعطيها لولده. فهرعت إلي كافيتريا المستشفى وأحضرت علبتين للرجل وزوجته. شكرها وقال لها وهو يهمس خشية أن يسمعه أحد:

— دكتورة لو سمحت أين الدكتور صابر الجبالي؟

— خيرا

— أريده في موضوع هام جدا

— تفضل. أخبرني بما تريد

— آسف يا دكتورة. أصل الحكاية... أصل الحكاية... في سر يجب

— أن أخبره به

— تفضل أخبرني

— أخشى أن... لقد قال لي ألا أخبر أحدا بهذا الموضوع

سكت الرجل. بدأ القلق يعيث بذهن الدكتورة ريم. سر؟ وهل في عملنا بالمستشفى أسرار؟ يجب أن تكلم الدكتور صابر. حاولت أن تكلمه ولكنه لا يرد. سألت إحدى الممرضات التي قالت لها إنه لم يحضر إلي المستشفى منذ يومين. أعجبها أن الرجل لا يريد أن

يخبرها في هذا المكان المفتوح. فلتذهب به إلي ركن بعيد منعزل من المستشفى حتي لا يسمعه أحد. خمنت أن خطيبها قد يكون أقرضه مبلغا من المال أو أنه قد يكون يعطيه الدواء من العينات المجانية نظرا لفقره. سأعرف القصة الآن يا دكتور صابر. يبدو أنني كنت أظلمك يا خطيبي العزيز. لاشك أنك تعمل خيرا وتساعد مرضاك. هذه هي رسالتنا. الطب رسالة وكلنا كأطباء نؤمن بهذا. كلنا عرضة للمرض والمريض ضعيف وعلينا أن نساعد الضعفاء.

اقتربت الدكتورة ريم من زوجة الرجل وسألتها عن اسم زوجها فقالت:

— محمددين سليم عنتر

— كم عمره؟

— ستة وثلاثون عاما

— مم يشتكي؟

— كليته

— أين التحاليل والأشعة التي عملها؟

— أعطتها المرأة ما بيدها. قالت المرأة للدكتورة ريم في لهفة:

— أرجوك يا دكتورة يجب أن نقابل الدكتور صابر

— لم يحضر للمستشفى منذ يومين

— ياللمصيبة !! يجب أن نقابله وإلا ستموت أم زوجي. ستموت

— حماتي إذا لم نقابله

— أفهميني ماذا تقصدين

— يجب أن نقابله لأننا...

صرخ الرجل في وجه زوجته وقال:

— لا تتكلمي معها يا مرة. يجب أن ننتظر الدكتور صابر. هذا كلام

رجال ولقد وعدته ألا أخبر أحدا بهذا الموضوع.

أعجبت الدكتورة ريم بانصياع زوجة محمددين له. هكذا الرجال وإلا

فلا، كما أعجبت أيضا بإصرار محمددين على كتم السر الذي لا يريد

لأحد أن يطلع عليه. هكذا رجال الصعيد. الكلمة عندهم عهد وميثاق.

نظرت الدكتورة ريم إلي محمددين وكأنها تريده أن يثق فيها وقالت:

— ولا يهملك يا حاج محمددين. أنت علي حق. أنا خطيبته.

— سنحكي لك كل شئ ولكن لا نريد أن يعرف أحدا بهذا الأمر

استبد القلق والخوف بالدكتورة ريم. تري ما الذي تفعله من ورائي يا دكتور صابر؟ تري ما السر الذي تخفيه عني؟ أنا لم أكن مستريحة لهذه الخطبة منذ البداية. كان يتحدث معي بسخط دائما. كان لا يعجبه أي شيء. يشعر بأنه مظلوم في هذا البلد. يشعر أنه يستحق أن يكون أفضل مما هو فيه. يشعر بعدم الرضا والسخط. ليتني ما سمعت كلام الأستاذ شريف. ليتني فسخت الخطبة وقتها. قالت لمحمدين في هدوء:

- ما الحكاية بالضبط يا حاج؟
- لم أستلم من الدكتور صابر سوى ثلاثة آلاف جنيه فقط
- لماذا؟

تردد الرجل في أن يتحدث برهة. تعجبت الدكتورة ريم. ثلاثة آلاف جنيه. أعطيت لمرضاك صدقة كل هذا المبلغ يا دكتور صابر؟ لا. يبدو أن الأمر أخطر بكثير مما أتصور. استلم محمدين ثلاثة آلاف؟ إنها ليست صدقة إذا. سأعرف كل شيء يا صابر. سكنت لحظات ثم قالت في تردد: أعطاك المبلغ كمساعدة يا حاج محمدين؟

- لا يا دكتورة. هذا حقي. ثمن كليتي يا دكتورة
- ثمن كليتك؟
- نعم. بقي سبعة آلاف جنيه.
- هل بعت كليتك بعشرة آلاف جنيه يا محمدين؟
- أمي ستموت وتحتاج إلي عملية يا دكتورة. الحمد لله. لي كليتان بعت واحدة وبقيت واحدة. المهم أن تعيش أمي.
- حرام عليك يا رجل
- حرام أن تموت أمي وحرام ألا أساعدها. لقد أخذني إلي أحد المستوصفات وعمل لي العملية وقال إنني سأكون بخير لأن جسم الإنسان يمكن أن تكفيه نصف كلية
- سأعمل لك أشعة فورا
- يا دكتورة أنا أريد بقية المبلغ. أمي تموت ويجب أن تعمل العملية
- اطمئن يا محمدين
- الكل يقول اطمئن يا محمدين. أريد باقي حقي. الدكتور صابر

قال اطمئن ولم أحصل علي باقي المبلغ يا دكتورة
اتصلت الدكتورة ريم بالشرطة وهي تبكي. كانت تتسائل في حزن: أبعث
نفسك لتجار الأعضاء البشرية يا صابر؟ حد الله بيني وبينك. أنا كنت
أعرف أنك إنسان مادي. لم أكن أعتقد أن يصل بك الحال إلي هذا الحد.
انخرطت الدكتورة ريم في بكاء طويل لم تنته منه إلا عندما أخبرها
أحد الضباط أن الدكتور صابر قد غادر مصر بعد أن أجري العديد
من العمليات للمرضي الذين باعوا أعضاءهم. رمت الدكتورة ريم دبله
خطيبها والألم يعتصرها. لقد كان الأستاذ شريف علي صواب فيما
قاله لها. أين الحرية التي نسعي إليها وقد ألقوا بنا في أسر الفقر
والجوع والمرض؟ أين أنت أيتها الحرية؟ أين المسؤولون ليروا ما
يحدث فيك يا مصر؟ لو كنت مكانهم لحكمت بالإعدام علي هؤلاء
التجار الذين يتاجرون في كل شئ. لا حول ولا قوة إلا بالله. ها أنا ذا
قد تحررت من قيدك يا صابر. صرت حرة من اليوم. متي يحصل
الفقراء علي حريتهم. لقد كنت علي صواب يا أستاذ شريف. الشئ
الوحيد الذي أخطأت فيه أنك رجوتني أن أستمري في خطبتي لصابر.
ليتني أستطيع أن أخبرك أنك كنت علي خطأ في هذا الجانب.

جرس الهاتف يرن باستمرار والعريس لا يريد أن يرد. لقد نام
وأعطي ظهره لزوجته التي تزوجها منذ أقل من ساعة فقط. يبدو
عليه التعب والإجهاد، ولكنه يصطنع عدم القدرة والرغبة في النوم.
كانت زوجته الجديدة تشعر بالغيظ الشديد. لماذا تزوجتني إذا يا
عادل فوزي؟ إنك تنام بالفعل وكأنك لم تنم منذ سنوات. أعلم أن
لك أهدافا من زواجك بي كما أن لي أهدافي من زواجي بك. يجب
أن يعلم زوجي بزواجي. سيحزن لأنني تزوجت رجلا مثله. لا. إنه
أفضل منه. إنه مدير التحرير الحالي في حين أنك في الحبس يا
شريف. أود أن أري وجهك وعلامات الندم ظاهرة عليك. سيربي ولدك
غيرك يا شريف. أنا سعيدة أنني تزوجت. أنت لن تتزوج. أعلم
أنك تحب أحمد ابنا، ولن تسمح لامرأة أخرى أن تكدر حياته.
ستنتظره طول العمر لأنك تحبه كما أخبرني. لقد قلت له هذا.

إن عادل يشعر الآن بلذة الانتصار علي شريف. كأنها تقرأ في عينيه كلماته التي يود أن يقولها لشريف ولقد قالها له بالفعل عندما كان يزوره. لقد تزوج زوجته في شقيقته وعلي فراشه. غضبت عندما أخبرها عادل أن شريف قد قال له: «أنت لم تتزوج زوجتي. أنت تزوجت طليقتي. لقد رميتها وأخذت أنت بقية ما رميته» ما كان لك أن تقول لي هذه الكلمات وتصدمني بها يا عادل. لقد جرحتنني هذه الكلمات بشدة. يبدو أنه كان يريد أن يؤلني بهذه الكلمات. قد لا يكون شريف قالها. أنا أعرف شريف. إنه عف اللسان. هزت أمانة صبري جسد زوجها الجديد وقالت له بصوتها المثير:

— رد علي التليفون

— أنا عريس

— العريس لا ينام وإنما يكون في حضن زوجته

— أنا متعب الليلة يا أمانة. أماننا العمر كله. حضنك لن يطير يا أمانة

شتان بين هذه الليلة وبين ليلة عرسها الأولي. تود أن تقسم أنها لم تتزوج سوي مرة واحدة. أصر شريف علي أن يصلي بها ركعتي الزفاف قبل أن يلمسها. شرع يقرأ القرآن ويتمني من الله أن تكون زوجة صالحة، ولكنها ما كانت صالحة قط. شرب من اللبن وأشربها وسأل الله خيرها واستعاذ بالله من شرها. لقد أذاقته من شرور ما جبلت عليه. أنا المخطئة يا شريف. يبدو أن الله قد ابتلاك بي. لقد صبرت. أشهد الله أنك صبرت علي يا شريف. أنا التي تمردت عليك. لقد غرني حلمك. غرني صبرك. غرني الأمل في أن أسيطر عليك وأن أتحكم فيك كما كانت تريد أمني. لو كنت مكانك لأوقعت بي الطلاق من أول شهر. لم أحفظ لك سرا ولم أطع لك أمرا، ومع ذلك كنت حنونا ودودا كريما. لست السبب، ولكن أمني السبب. أنا السبب. أمني تكرهك يا شريف، ولقد نجحت في أن تجعلني أكرهك، وما كان علي أن أنصاع لها. لقد كنت حبيبي ولازلت. انتبهي يا أمانة. لازلت؟ لا. أنت علي ذمة رجل آخر. رن الهاتف من جديد. كأن من يتصل يلح علي عادل أن يقوم لأمر عاجل. هزت أمانة جسد زوجها فتحرك. أمسك بالهاتف. سمعته يتحدث:

- ألو. عمنا الضابط الكبير علي الصفتي باشا. مساء الفل يا زعيم
- الآن لا يمكن. أنا عريس جديد.
- آه عريس ونصف. ماذا تقصد؟
- يا ليلة سودا!! رمت نفسها من البلكونة؟
- سأبعث لك محررة من الجريدة. أنا لا أستطيع. يا باشا تحت أمرك. أنا خدامك وخدام أمن الدولة. فضلكم علي لا ينكر.
- في الصباح أكتب ما تريدون ونسوء سمعتها. الإعلام يمكننا من أن نفعل كل شيء. اطمئن يا باشا. يمكننا أن نجعل القديسة عاهرة والعكس. يا باشا. نحن الإعلام نجعل من الحبة قبة، ونصغر القبة فنجعلها أصغر من الحبة. رجالكم في كل مكان يا باشا. الجريمة وقعت فجرا؟ طيب يعني هذا أن أحدا لم ير شيئا. سنكتب ما نريد أن نقول. ولا يهتمك سنقول إن الشقة ملكي. نغير عقدها وبتاريخ قديم. هي عاهرة. الناس ستراها هكذا. ليس لك حظ يا باشا. قال الدكتور نوال. يا باشا عليك أن تختار من ستكون زوجة لك يا باشا. عليك ببنات الأصول. بنات الأصل والفصل في كل مكان. لماذا لم تختار سوي هذه المرأة سيئة السمعة. علي كل اعتبار أن الأمر قد انتهى. طبعاً أعرفها. نوال. ابعث لي كل التفاصيل علي الفاكس. سلام يا باشا. دعني أنعم بالليلة. الليلة ليلة العمر. انتهت المكالمة وعاد إلي نومه. إنه يحدث شخيراً عالياً. عادت أمينة إلي تذكر زوجها السابق. إنه لم يغضبها قط. لم يرفع صوته عليها قط. يبدو أنني سوف أظل أسيرة لحبك يا شريف ولن أتححر منه قط. هزت أمينة جسد زوجها الجديد وكأنها ترغبه. قالت له في دلال:
- هل تحبني يا عادل؟
- سكت ولم يرد عليها. كررت السؤال وهي تحاول أن تضع فمها علي فم عادل. أبعد يدها بقوة وقال:
- أعوذ بالله. أنت لا تفهمين. أريد أن أنام. علي الصفتي من كبار رجال أمن كان يريدني ولم أذهب إليه ولحم أكتافي من خيره ومن خير أمن الدولة. أنا عبد لهم. أريد أن أنام. يا مرة افهمي
- مرة؟ ما هذا اللفظ
- آه. مرة. ألسنت مرة؟

- اسمها امرأة
- لا. هذا شيء مقرف
- أنت عبد لأمن الدولة؟
- طبعاً يا أمانة. كيف وصلت إلي ما أنا فيه الآن؟ وصلت بمساعدتهم. دعيني أنام
- قامت من فراشها ولبست فستان نوم أزرق. بدت فيه أكثر إثارة وفتنة. اقتربت من زوجها وقالت:
- يبدو أن هذا القميص أفضل. ما رأيك؟
- لم يرد عليها. صرخت فيه بإثارة وإغراء وقالت:
- قم يا عادل ولا تكن سخيلاً. الليلة ليلتي.
- ما تحرك له ساكن. قالت له في رقة:
- ألم تكن تنتظر هذه الليلة مثلي بفاغ الصبر؟
- هزت جسده بعنف. أيها الغبي. لقد طلقت منذ سنتين. ألا تفهم.
- نظر إليها وهو يتناوم. قالت له:
- قم يا عادل. أنا أريدك
- أيتها الغبية. أريد أن أنام. ألا تفهمين؟
- قم يا عادل. أريد طفلاً منك
- هزته مرة أخرى. طراً بذنها أن تسأله. إنه لم يحدثها عن أن له أطفالاً. سألته قائلة:
- هل لديك أطفال من زوجتك يا عدولتي؟
- إنه لا يرد ولا يتحرك. سألته قائلة:
- وهل نمت هكذا وتركت زوجتك في أول ليلة كما تفعل الآن؟ عدولتي حبيبي.
- لم يرد عليها، وإنما قام مغتاضاً وصفعها بقوة قائلاً:
- قلت لك أريد أن أنام يا مرة. أعوذ بالله. ألا تفكرين إلا في هذا الموضوع؟ الزواج أكبر من هذا. الزواج ليس جنساً فقط أيتها الغبية. أنت مرة عبيطة.
- عاد إلي نومه، وأمانة تود أن تبكي وأن تصرخ بصوت عال. إن شريف لم يمد يده عليها قط. كانت تتعمد أن تغيظه وأن تدفعه إلي الجنون أحياناً كثيرة، ولكنه ما مد يده عليها قط. قالت له ذات

مرة: «هل ستضربني إن أغظتك يا شريف؟» رد عليها قائلاً وهو يقبل يديها: «تقطع يدي قبل أن تمد عليك. أنت حبيبتي وروحي وعمري» إنها تريد أن تصرخ طالبة الطلاق منه. إنها تريد أن تتحرر من علاقتها بهذا الخنزير. إنه حيوان بلا شك. لقد ضربي في أول ليلة. أود أن أصرخ. طلقني أيها الحيوان. لا. علي أن أصبر. لقد تزوجته من أجل أن يطرد نيفين يسري من المكتب، وتزوجته لينتقم لي من شريف حبيبي. أه إنه حبيبي وخير الرجال. إن ظفرا واحدا من قدم شريف خير من مئة رجل من أمثال عادل. إنه يعترف أنه عبد لأمن الدولة. أين الحرية. أنا التي أريد الحرية. طلقني أيها الوغد. صرخت بالفعل طالبة الطلاق. إنها تريد الحرية من أثر هذا الرجل. لا. إنه ليس برجل. إنه شبه رجل. لقد رأته يبتلع قرصاً أزرق. إن رجولته لا تنتصب ولا تشعر بها أبداً.

سمع صرخاتها فقام وانقض عليها ضرباً بكل عنف وهي تصرخ. كان يضربها وكأنه يستمتع بضربها. أفرغ كل رغباته السادية. تذكر كيف صفعته عندما كان يزورها. إنه ينتقم منها. يعضها ويقرصها. يغرس أنيابه في صدرها وفي رقبتها ثم يعض ثدييها. ينشب أظافره في وجهها. أخذت تصرخ ولا يهتم. إن عينيه تلمعان بالفرحة وهو يضربها. ضربها ثم خلع ملابسها كلها. لقد أدمي وجهها ثم ركب فوقها تماماً دون أن يخلع. حاول أن يسترد ذكريات رجولة سلبية ولكنها لم تنتصب لترفع رأسه أمامها. أخذ ينهج. أصابه التعب ثم نام علي ظهره عاجزاً ضعيفاً باكياً. لقد تم لها ما أرادت وتزوجته، ولكنه للأسف خذلها. كانت تصرخ وتبكي متأوهة من طلب اللذة ومن الألم، ولكنها صرخت طالبة الطلاق ومنادية بالحرية التي لن تنالها إلا بالدم من رجل خان ظنها.

مصري المحلاوي من جديد

أصابع الشاب تتحرك في سرعة مبهرة علي جهاز الكمبيوتر الخاص به أمامه. يكتب ويرسل صوراً ويتلقى الكثير من الرسائل ويعمل محادثات علي الإنترنت في نفس الوقت. حجرة متواضعة. أثاث بسيط جداً. سريران أحدهما ينام عليه والآخر مرتب ونظيف، ولكنه فارغ دائماً. يبدو أن صاحبه قد هجره للأبد. في وسط الحجرة مكتب يضع عليه جهاز الكمبيوتر، وتوجد بعض الكتب المتناثرة في أرجاء الحجرة. دولابان صغيران. أحدهما له، والآخر كان لأخيه الذي رحل وتركه وترك أمه في حالة بكاء دائم ونواح لا ينتهي.

تدخل عليه امرأة تتشح بالسواد وتطل ملامح الحزن من عينيها. تتحسس الطريق أمامها. تبسمل وتحوقل وتهلل ثم تقدم له بعض الساندوتشات. تتلمس بيدها الحائط إلي أن تصل إلي صورتين معلقتين علي الحائط. الأولي لرجل وسيم الطلعة، هادئ القسمات، مريح البسمة، ذي شارب رائع، والصورة الثانية لشاب يشبه الرجل التي في الصورة الأولي تماماً. نفس الشارب ونفس طريقة تصفيف الشعر. نفس العينين ونفس النظرة. علي الصورتين خط أسود علي الجانب الأيسر يؤكد أنهما قد فارقا الحياة.

تربت المرأة علي كتفه وتقول له :

- يا بني ارحم نفسك. أنا أخاف علي عينيك من هذا الجهاز.
- لا تقلقي يا أمي
- ليس لي غيرك في هذه الحياة يا صلاح يا بني
- لنا الله يا أمي

يقوم الشاب في حنان وينظر لأمه في حزن. يأخذ بيدها ويقعدها بجواره. إن عينيها مفتوحتان تماماً ولكنها لا تري إلا بالكاد. تنظر إليه وتكلمه ويكاد قلبها أن ينفطر من الحزن. نظر إلي صفحة الإنترنت التي أمامه. لقد أنشأ هذه الصفحة منذ أيام. أسماها «صفحة أحبائي مصري المحلاوي. أحباب مصر». كثر عدد المعجبين بهذه الصفحة

واشترك فيها عدد كبير من الشباب. ليتك تستطيعين الرؤية بشكل جيد يا أمي. ليتني أستطيع أن أريك ما أفعله. إن ذكري مصري المحلاوي لن تنقطع من الدنيا. أخذ بيد أمه وأجلسها علي سرير مصري، وقال لها في حنو يغلفه الأسى:

— ألم يطلب منك الطبيب الكف عن البكاء يا أمي؟
— سأظل أبكي طيلة عمري يا صلاح يا محلاوي.
— البكاء يضرّك يا ماما ويؤذي عينيك
— ليتني فقدت عيني وفقدت عمري ولم أفقد مصري. ابني ونور

عيني
— يا ماما البكاء لن يعيد لنا من راح
— أنت لا تعرف معني أن يموت ابنك وأنت حي. ليتني أنا التي مت
— ماما. مصري لم يمت. مصري قتل
— يا بني التقارير تؤكد أنه مات ميتة طبيعية. الحكومة ورجال
الحكومة لا يكذبون
— كذب يا ماما. أنا متأكد أنه قتل. الحكومة ورجال الحكومة
كاذبون.

— كيف تقول هذا يا ولدي؟
— إنهم مجرمون يا ماما. لفقوا له من قبل قضية الإتجار في المخدرات
— كذب. ابني لم يلمس سيجارة قط
— هذا هو ما سنكشفه أمام العالم كله. لن أهدأ ولن أستريح حتي
أكشف الظالمين وأفضحهم أمام الناس
— يا بني اهتم بمذاكرتك. كلية الحقوق صعبة. كان مصري في كلية
الهندسة. لعن الله السياسة ومن يسير في دروبها. اهتم بمذاكرتك
فقط. أرجوك. لم يعد لي أحد في الدنيا غيرك. مات أبوك بالفشل
الكلوي، وأخوك ومات في القسم.

رد عليها بغضب وغيظ، وزانت الحسرة صوته وهو يقول لها:
— مات أبي بالفشل الكلوي من تلوث المياه وتلوث الغذاء بسبب
الذين يضعون لنا السم والمواد المسرطنة في مائنا وغذائنا، ومات
أخي من التعذيب في القسم. سيدفعون الثمن غاليا يا أمي. كم من
الشعب أصيب بالأمراض المزمنة ومختلف الأنواع من السرطانات؟
الصفقات المشبوهة وكأن الشعب بهائم يطعموننا أي شئ ويقول

المسئولون: شعبنا معدته كالظلمة. إنهم يهضمون كل شيء. حتي المبيدات التي يرشون بها الزرع مسرطنة وكذلك البذور. سيدفعون الثمن يا أمي. أقسم لك أن أخي قد قتل. صبري المحلاوي قتل يا أمي. قلبي لا يكذب أبدا.

تفتح أمه فمه عنوة وتضع قطعة في فمه. يترك ما أمامه ويقوم ويجلس بجانبها. يفتح فمها ويضع قطعة في فمها أيضا. تقول له:

- ليس لنا دعوة بالسياسة يا بني
- اطمئني يا أمي. ليس لي دعوة بالسياسة
- أنا جعلتك تحلف علي المصحف
- اطمئني يا أمي.

يقوم بعيدا عنها، يستغفر الله ويود أن يبكي. ود لو صرخ وقال لها: «ليس لنا دعوة بالسياسة. سنتركهم بذبحوننا ويقتلوننا واحدا تلو الآخر ونقول لا دعوة لنا بالسياسة. يريدون أن يسوقوننا إلي المذابح كالنعاج ونسكت. لا. لقد أقسمت أن أنتقم لك يا مصري يا أخي ولكل من قتلوه من أمثالك. ستعود الحركات السرية. حرام أن نترك الظالم. ستتساقطون أيها الكلاب وستنكشفون واحدا واحدا» أتركك يا ولدي الآن لتواصل مذاكرتك، سأقوم لأصلي العشاء وأنام مبكرا حتي أستيقظ لأصلي ركعتين قبل صلاة الفجر. هكذا قالت له أمه. أخبرها أنه لم يعد يصلي؟ قال لها:

- دعيني انام حتي الساعة
- وصلاة الفجر يا ولدي؟
- ربنا غفور رحيم
- وربنا شديد العقاب. ليس لنا إلا الله

أخبرها انه كاد أن يفقد إيمانه؟ أين الحق يا ربي؟ ألسنت أنت الحق. لقد قتلوا أخي. أين أنت يا الله؟ أين عدلك. لن أصلي حتي تظهر الحق. أستغفرك يا رب. أنا أؤمن بك، ولكن أين الحق وأين العدل؟ أليس أنت الحكم العدل؟ دوما نقول دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلي قيام الساعة. أين العدل. دولة الظلم منذ ثلاثين سنة. يا رب أين عدلك؟ أستغفرك يا رب من كل ذنب عظيم. يا رب أتعذ الظالمين يسלטون سيوف القتل علي رقابنا ولا تنصرونا؟ لن أصلي حتي

أري طريق عدلك يا رب. أنت لا ترضي الظلم.
طرقات علي باب الشقة.

طلب من أمه أن تخرج لتفتح الباب. أصابه القلق والذعر. أخرج البندقية التي يخفيها بعناية في حقيبة من تحت سريره. لن أدهم يذبحوني وأسكت. سأقتل منهم من أستطيع. لن أدهم يقتلون أمي. سأقتل منهم من أستطيع. إنه يتخيل في كل وقت أنهم سيأتون. ستأتي قوة من رجال البوليس. سيكسرون باب شقة والده المعلق عليه اسمه: «نادي المحلاوي». يتخيل أن ضابطا يكسر الباب بقدمه وسيتبعه مجموعة من الجنود. سيطلقون النار بعشوائية فيقتلونهم ويقتلون أمه. أي رعب هذا الذي نعيش فيه؟ أين الأمان لنا في بلادنا وفي مساكننا؟ أي وطن هذا الذي نعيش فيه؟ ألا توجد حرمة للمسكن الخاص؟ صدعتم أدمغتنا بالمواطنة وبحقوق المواطنة وبفكركم الجديد في الحزب الوثني. ارحمونا. أتضحكون علي أنفسكم أم تضحكون علي الشعب الجاهل المسكين الذي ضللتموه بإعلامكم النجس؟

أنا مستعد. يدي علي الزناد. لن أموت كالنعجة التي تتوسل إلي من يذبحها أن يذبحها بسرعة. لست وحدي. يوجد العشرات من الزملاء الذين عجبتهم الفكرة. تنظيمنا السري سيخيفكم. لقد أفزعموننا وأخفتموننا في دياركم. سنفزعكم ونخيفكم. ستصير الدماء بحورا ولن ننسي ثأرنا. كم من المساكين قد قتلتموهم زورا وظلما. أخي واحد منهم. تلمست أمه الطريق إلي الباب. تابعها بنظراته من فتحة صغيرة صنعها ببابه. دخلت فتاة لطيفة وسلمت علي أمه. التقط أنفاسه وهذا. إنه يتوقع أن يأتي زوار الفجر كما كانوا يأتون من قبل في السنوات الماضية. إنه يتوقع أن يأتوا في أي وقت. تنفس الصعداء وخرج للضيقة. خرج بعد أن أخفي بندقيته في مكانها البعيد عن العيون. سلم علي الضيفة التي قالت له:

— أنا نيفين يسري من طرف الأستاذ شريف شكري.

قال لها صلاح في تعجب:

— الأستاذ شريف شكري مدير تحرير النهار؟

— نعم

- لم يكتب منذ فترة. يبدو أنهم أجبروه علي التوقف عن الكتابة.
إن كتاباته لا تعجبهم. أعتقد أنهم سيكسرون قلمه قريباً.
- أخرجت نيفين يسري مبلغاً كبيراً من المال ودسته في يد المرأة.
يبدو أن حدس الشاب سيصدق انتفضت المرأة وقالت:
- حد الله بيننا وبين الصداقات. الحمد لله. مستورة
- يا حاجة هذا المبلغ أرسله الأستاذ شريف لك ولأستاذ صلاح
- لا نعرف الأستاذ شريف
- هو يعرفكم جيداً، ولقد قال لي أن أبلغكم أن هذا المبلغ كان ديناً عليه للباشمهندس مصري المحلاوي. هذا حق ابنك
- ابني كان طالبا بكلية الهندسة
- لقد ساعد كثيراً في مشروع هندسي لجريدة النهار وهذا حقه لا صدقة كما تظنين
- قالت نيفين لوالدة صلاح:
- أين الشاي. منذ ربع ساعة ونحن نتحدث. أريد أن أشرب ولو كوب ماء
- آسفة يا بنتي
- هذا بالضبط ما كانت تريده نيفين. كانت تريد أن تنفرد بصلاح.
- أخذ بيدها إلي حجرته. قالت له في همس وهي تخرج إحدي الفلاشات من حقيبتها:
- هنا يوجد الدليل علي أن مصري المحلاوي قد قتل
- شاهد صلاح الفيديو مع نيفين. أتت أمه فأوقف الفيديو. قالت نيفين لوالدته:
- لم أكل منذ الصباح يا حاجة. هل يمكن أن أدعو نفسي علي العشاء معكم؟
- تحت أمرك يا أستاذة نيفين
- أنا نيفين بنتك يا حاجة
- دقائق وأجهز العشاء
- تسلم يدك يا حاجة
- لم تمر دقائق إلا وكان صلاح قد رفع الفيديو علي الإنترنت. رن هاتف نيفين التي وقفت مسرعة. أتاها صوت شريف شكري. أخبرته

بمكانها. سألته كيف يحدثها. أخبرها أن كل شئ في الحبس يمكن عمله بالمال. طلب منها أن تذهب إلي عناوين حدودها له. ستذهب إلي مريم عوضين الطويل وإلي بيت منصور العالم. شكرته وتمنت له كل خير. سألته قائلة:

— أتريد أن تبليغ نيفين سكرتيرتك أي شئ

— أبلغها شكري

— والد حضرتك؟

— ليس هذا وقت الهذر

كم كانت تود أن يبلغها أنه يحبها. لقد تركت صلاح المحلاوي يقوم بعمله. اهدأ أيها القلب. لماذا تضطرب هكذا؟ في الحقيقة لم يكن قلبها فقط هو الذي يضطرب. لقد كان قلب شريف يود أن يخبرها رغما عنه أنه يحبها ويود أن يحدثها في كل دقيقة عشرات المرات. لقد أخذ تليفون الشاويش وأعطاه ألف جنيه. إنه يود لو استطاع أن يقول لها ألف مرة إنه يحبها. أيمن أن تنتقل همسات المشاعر ودفعها عبر التليفون.

كان صلاح المحلاوي يعمل بكل سعادة وهو يقول: «الله أكبر. الحمد لله. كنت متأكدا من أنه قد قتل. الحقيقة ستعم وستنتشر. لك الحمد يا ربي. يبدو أن قضيتك ستعود يا مصري يا محلاوي من جديد»

ترك نيفين تتحدث في التليفون وهرع إلي أمه في المطبخ ليساعدها وليطلب منه أن توقظه لصلاة الفجر. سينتصر الحق. سيعم العدل وسينحسر الظلم.

واصلت نيفين محادثتها مع الأستاذ شريف. أملاها ما ستفعله. كان صوته حنونا رقيقا كالعادة ينساب في أذنها كموسيقى حالمة ومشاعر دافئة. تري متي تقول لي إنك تحبني يا شريف. سككت قليلا فسألها لماذا لا تتحدث. لم ترد عليه وإنما قالت له مرة واحدة:

— أستاذ شريف. سأفعل كل ما تأمر به

— بارك الله فيك

— أريد أن أقول لك كلمة واحدة

— خيرا؟ هل أحمد بخير؟

- اطمئن يا أستاذ شريف
- ماذا تريدین قوله يا نیفین؟
- أحبك

لم تسمع شیئا. لقد فرغت بطارية هاتفها. أترك قد سمعت هذه الكلمة التي كنت أود أن أقولها لك منذ زمن طويل يا شریف؟ أدخلت هاتفها في حقیبتها وهرعت لتلبي نداء صلاح وأمه. العشاء جاهز يا أستاذة نیفین.

كان یمکن أن تدفع نصف عمرها من أجل أن تسمع شریف هذه الكلمة، ولكنه للأسف لم یکن قد سمعها. كانت تتمنی أن تدفع نصف عمرها الآخر من أجل أن یقول لها شریف كلمة أحبك، ولكنه لم یقلها. لو كانت تعرف أنه أيضا یرید أن یقول لها نفس الكلمة لرقصت فرحا، ولألت الدنيا غناء وفرحة وسعادة. هكذا الدنيا تریدنا أن ننتظر. فلننتظر أيتها الحیاة. سنأخذ ما نریده، ولكن متی؟

موعد علي العشاء

يشعر الشيخ مختار بالجوع. ليس الوقت مناسباً ولا حالته النفسية ليتناول العشاء. نظر إلي بعض الفطائر التي أتته ابنته بها، ولكنه لم تحضره الشهية. ترك الفطائر لأصحاب نصيبهم. سيأتي من يأكل هذه الفطائر بلا شك. يبدو أن هناك موعداً. لكل ساقطة لاقطة. لا تعلم يا شيخ من سيأكل هذه الفطائر. طالما أنك لا تشعر بالجوع فدع هذه الفطائر لأصحاب النصيب. لم تثر شهية الأستاذ شريف شكري أيضاً لتناول بعض الخبز مع الجبن. كان مشغولاً يفكر في صمت وحيرة. «أحاول أن أكلمها ولا ترد. تري ماذا أصاب هاتفها؟»

هكذا كان شريف يحدث نفسه. قال له الشيخ مختار: «يبدو أنك تريد أن تتكلم مكالمة مهمة يا أستاذ» ماذا يقول له؟ أ يخبره أنه يريد أن يعترف بحبه لفتاة يكبرها بأكثر من عشرين سنة؟ أ يخبره أنه في حيرة من أمره؟ إنه يحبها فعلاً ولكنها لا تصلح له. من الأفضل أن تتزوج شاباً في مثل سنّها. هل يظلمها ويعترف لها بحبه؟ إنها ليست صغيرة السن. إنه لن يجبرها علي فعل شيء. سيعترف لها بحبه. إنه يريد أن تستريح. إنها عاقلة. يمكنها أن ترفض حبه. سيعترف لها وليكن ما يكون.

نصحته الشيخ مختار أن يجرب أكثر من مرة. لا ترد. لا يهم. ستأتي لزيارته في الغد. سأطلب منها أن تأتيني بكروت شحن كثيرة وسأطلب منها تليفوناً حديثاً لأستطيع الاتصال بالإنترنت. إنها تأتيني بكل شيء قبل أن أطلبه. إنها تفهمني بل تفهم لغة عيني في أحيان كثيرة من قبل أن أتكلم. أليس هذا هو معني الحب؟ طلب من الشاويش أن يعيد شحن هاتفه المحمول وأعطاه مالا.

أدار شريف التليفون المحمول علي كل من كان بالحبس. اتفق مع الشاويش أن يراقب الأمر حتي لا يأتي أحد الضباط ويكتشف وجود الهاتف معه. كل شيء بثمنه. أدفع له كل ما يريد. تحدث عوضين

الطويل مع مريم ابنته وزوجته، طلب الشيخ مختار من شريف أن يطلب له ابنته ليحادثها ويطمئن عليها. حاول شريف مرات عديدة أن يكلم نيفين يسري ولكن هاتفها مغلق. أخبره الشيخ أن الخيرة فيما اختاره الله. سعد أن اطمأن علي ابنته.

شرع الشيخ مختار يقول بصوت كالغناء وهو ينظر لعيني شريف: «إذا أنت لم تحب ولم تذق طعم الهوي فقم فاعترف تبنا فأنت حمار». أيقصده الشيخ مختار بهذا الكلام؟ أيفضحه حبه؟ وهل الحب فضيحة؟ بادر شريف الشيخ قائلاً: «وأنت ألا تحب يا شيخ؟» سكّت مختار. قال مختار بعد لحظات: «الحب فطرة بشرية. تزوجت وخلعتني المرأة لفقرتي وتركت لي صغاري مع هدي أكبر بناتي. أنا أحب أولادي. لم أكره المرأة بسبب ما فعلته زوجتي المجنونة. أحب يا سيدي وسأ تزوج إذا خرجت من هنا. امرأة كنت أحلم بها منذ عشرين عاماً. مات عنها زوجها. أقسمت أنها ستعثر أولادي كأولادها. هي لم تنجب. أين أنت يا سمر يا حبيبة القلب؟» سمر. اسم عصري يا شيخ مختار. اعتقدت أنك تحب خديجة أو أم السعد. خطوات عسكرية ذات دوي مسموع. سكّت كل من كان بالحبس. أحكم شريف إخفاء الهاتف في ملابسه بعد أن أغلقه. يبدو أن هناك دفعة جديدة من المحبوسين. سمعوا صياح أحد الشباب وهو يقول بعنف: «القصة ليست قصة فتنة طائفية يا شاويش. لا تستغل الموقف. لن أدفع لكم ثانية. أنا أحب محمد وهو يحبني. أنا جرجس مصباح ولن أسمح لك يا شاويش باستغلالني. أنا مسيحي وأحب محمد المسلم. أرجوك يا بطرس لا تحقق غرض الشاويش. سننزل عن المحضر. ليتني أطعت كلامك يا بطرس. اخرج منها يا شاويش وهي تعمر. طيب والله عندما نخرج سأفتح محلي علي محل محمد بالعند فيك يا شاويش»

أربعة شبان في مقتبل العمر. كل اثنان في سلسلة واحدة. لمح الشيخ سلسلة معلق بها الصليب علي صدر أحدهم فامتعض وجهه. قال بصوت مسموع: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». دفعهما الشاويش بقسوة داخل الحجز.

قال الشاب صاحب السلسلة المعلق بها الصليب متسائلاً: «مالكم في سكوت هكذا يا جماعة؟ وحدوه». رد الجميع قائلين في نفس واحد: «لا إله إلا هو»، ولما لح امتعاض الشيخ مختار قال له بصوت مرتفع وهو يبش في وجهه: «يا جماعة موسي نبي وعيسي نبي ومحمد نبي وكل من له نبي يصلي عليه» رد الجميع في صوت واحد: «اللهم صل عليك يا نبي». عم الهدوء الحجز لحظات. صاح الشاب صاحب السلسلة المعلق بها الصليب لمن كان مربوطاً معه: «عمنا محمد. أرجوك لا تغضب مني. أنا أخوك بطرس. صدقني كان يجب أن أؤدب جرجس. كان يجب أن أمنعه من أن يضرب عمر. نحن أخوة. يا جماعة. الدين لله والوطن للجميع».

رد عليه محمد: «بسيطة سنتصالح كما يحدث في كل مرة. نحن أخوة. لقد قسوت علي جرجس. حرام عليك. والدك المقدس مصباح أوصاني بكما خيراً. أنا مخطئ. سأترك لكما ربحي في هذه العملية إكراماً لكما ولذكري والدكما الطيب» ابتسم بطرس وقال: «نحن أخوة يا حاج محمد. كان علي أن أضرب أخي ليعقل. لقد حدثك بشكل غير لائق. أنت في مقام والدنا. المسلم والمسيحي يد واحدة. أخي أخطأ. لقد كان علي أن أؤدبه». قال له محمد في ود: «الشاويش استغل هذه الواقعة البسيطة وأراد أن يشعل فتنة وقبض علينا. بسيطة سنتصالح ونرد كيده. إنه يريد أن تظل العداوة والمشاكل بيننا قائمة دوماً»

نظر لكل الموجودين في الحجز وقال: «نحن ضيوفكم هذه الليلة فقط. غدا نتصالح ونخرج. سأجعل أخي يتنازل عن المحضر من أجل أخي محمد» لم يكذب ينتهي من كلماته إلا وكانت هناك دفعة جديدة من المحبوسين في طريقها إلي الدخول. صرخ فيهم الشاويش وهو يضربهم بيده ويركلهم صائحاً: «أتحرقون الكنيسة يا أولاد الكلب؟ حرام عليكم» أبعد بطرس يد الشاويش عن أحد النزلاء الجدد الذين وصلوا لتوهم وقال: «ابعد يدك يا شاويش عن عم اسماعيل حلاوة. ابعد يدك عنه يا شاويش. لقد فهمنا لعبة أمن الدولة. لقد كان مدعوا لعرس أختي في الكنيسة. أتقبضون علي العاطل مع الباطل. ملعون

أبو أمن الدولة. العبوا غيرها. المسلمون والمسيحيون يد واحدة. فهماها يا أمن الدولة. أخذته بالحضن. ابتسم اسماعيل وقال: «والله ما فعلنا أي شيء. تهم توجه إلينا جزافا. أنا احرق بيت الله؟ أنا أحترم الكنيسة كما أحترم المسجد» شرع اسماعيل في بكاء من اتهم ظلما. انفجرت أسارير الشيخ مختار قليلا وقال بصوت فرح: «مرحبا بك يا عم بطرس» ثم اتجه إلي أخيه وقال: «مرحبا بك يا عم جرجس» وأخرج من أشياءه بعض الفطير وقال: «عشاؤكم عندي الليلة. بسم الله يا جماعة. فطير عملته ابنتي هدي. ألف هنا وألف شفا». أخرج شريف علبة بسكويت وبعض الخبز والجبن للضيوف.

بدأ الجميع يأكل ما استطاعت يده أن تمتد إليه إلا مختار الذي كان ينظر إليهم في محبة ومودة وسعادة، ولما انتهى الفطير والخبز والجبن صاح مختار الذي لم يذق أي قطعة من الفطير بسعادة بالغة: «الحمد لله رب العالمين». قال بطرس: «أنت لم تاكل شيئا يا شيخنا»، رد عليه بسعادة قائلا: «الحمد لله. طالما أنكم قد أكلتم فكأنني أكلت تماما»

وهنا أيضا موعد آخر علي العشاء، حيث نظر الأب إلي ابنته في غضب. هرعت الفتاة بمجرد أن دخلت الشقة إلي جهاز الشحن الخاص بها لتشحن تليفونها المحمول الذي فرغت بطاريته. تهلل وجهها وامتلأ بالسعادة. إن شريف حاول أن يكلمها عشر مرات. حاولت أن تحدثه، ولكن تليفونه مغلق. غدا ستأتي له بتليفون حديث وعشرات كروت الشحن. ستجعل له خطا مفتوحا. تابع الأب ما تفعله ابنته وقال لها بهدوء من يحاول أن يكظم غضبه:

- ستتناولين العشاء مع خطيبك
- يا بابا تعشيت والله مع والدة صلاح المحلاوي
- ومن والدة صلاح المحلاوي؟
- قصة طويلة سأحكيها لك فيما بعد وقد كلفني الأستاذ شريف شكري بزيارتها
- يا بنتي الرجل ينتظرك منذ ثلاث ساعات. ستتعشين مع خطيبك
- بابا هو ليس خطيبك.
- يا بنتي لقد قبلت الخطبة وأنا أبوك

- تزوجه أنت يا بابا. آسفة يا بابا. أنا لم أقبل الخطبة
- يا بنتي لقد كبرت. الدكتور كامل كامل رجل كامل. جاهز للزواج.
- يا بابا أرجوك.
- يا بنتي قد كبرت وأنا بصراحة أراه مناسباً لك. أنا أخاف عليك من ال..
- تخاف علي من العنوسة. لا تخف يا بابا
- أي عناد هذا؟ أري في نظراتها حب شريف شكري. إنها ابنتي وأنا أعرف ماذا يدور بذهنها وبقلبها. قال لها في رجاء:
- فليس أقل من أن تجلسي معنا ونحن نتعشي يا نيفين. أعتقد أن هذه أدنى قواعد الذوق
- عندك حق يا بابا

لماذا لا تقابله وتجلس معه. لماذا لا تنفذ خطتها وتعرفه علي مها زميلتها في المكتب. إنها تريد أن تتزوج. هنيئاً لمن وفق رأسين في الحلال. خرجت نيفين مع والدها. ابتسمت للعريس الذي كاد أن يأكلها بعينه. إنه طيب بلاشك. إنها تراه رجلاً مناسباً لها. ستكافئ مها لأنها سجلت كل ما دار من حديث بينها وبين أمينة صبري تلك المرأة العنيفة. أخذ الدكتور كامل يتحدث عن حياته في الغربية في الخليج. قال إن صورة المصريين في الخارج سيئة. ذكر أن قناة الجزيرة تتناول أحوالنا المعيشية السيئة وتركز عليها. تركز علي طواوير الخبز والمشاجرات اليومية بين المصريين للحصول علي العيش. تكلم عن حجم الفساد الموجود في مصر والمتغلغل في كل مكان بالدولة. أومأت نيفين برأسها موافقة علي كلامه وقالت: «معك حق. الفساد متجذر في كل مكان يا دكتور كامل» كان يتحدث ونيفين ووالدها يستمعان. قال إنه وجد شباباً في الخليج يحملون شهادات الماجستير والدكتوراة ويعملون في مهن حقيرة. أقسم أنه وجد شاباً قد حصل علي الدكتوراة في التاريخ من جامعة عين شمس ويعمل في محطة بنزين وهذا الموقف قد أبكاه كثيراً وحرمه من النوم لمدة أيام عديدة. أليست هذه ثرواتنا التي يجب أن نحافظ عليها؟ قالت له نيفين في جراءة:

- أيمكن أن تزورني في جريدة النهار غدا حيث أعمل سكرتيرة لمدير التحرير؟

بانبت السعادة علي وجه الدكتور كامل، كما ظهرت علي وجه والدها. لقد خمن أبوها قائلًا في نفسه وهو لا يدري أنه مخطئ في تفكيره: «يبدو أن الخطبة ستتم»

طعام العشاء تضعه أمينة علي المائدة وتنتظر زوجها الجديد الذي أقسم أنه سيتناول معها العشاء الليلة. تمر الدقائق ببطء وعادل لا يأتي. أطفأت الشموع التي حول المائدة. يبدو أنه سيتأخر. قد لا يأتي. لقد مرت اليوم بمكتبه فلم تجده. لقد وجدت نيفين يسري وكأنها تتحداها بوجودها.

اتصلت به أكثر من مرة. إنه يغلق الهاتف في وجهها. أين أنت يا شريف. كنت تتصل بي دائما بسبب وبدونما سبب لتطمئن علي وحتي ونحن في أشد حالات خصامنا. إنني أفتقدك يا شريف حقًا.

برد الطعام. ماذا فعلت بنفسك يا أمينة؟ إن شريف لم يكن يتناول أية وجبة خارج البيت. آه يا شريف. لكم أشتاق إليك و أتمني النظر إلي عينيك الحبيبتين!! أود أن أرتمي علي يدك الحنونتين. منذ أكثر من أسبوع وأنا مع فوزي. إنه لم يقبلني بحنان مثلك. لكم كنت تشناق إلي يا شريف.

سأتصل به ثانية عله أن يرد. إنه يغلق الهاتف في وجهي. سيتعلل بزواجه. لقد رضيت أن أكون رقم اثنين في حياته بعد أن كنت رقم واحد في حياة شريف. يا ويلي. تبا لي. كم كان يدللني ويشعرنني بأنني ابنته وزوجته وأخته وأمه.

سأدخل وأنام إلي أن يأتي عادل. قد لا يأتي. أنا الذي صرت أنتظر؟ يا إلهي!!

سأبعث له برسالة علي تليفونه المحمول.

لا يعقل أن أظل في حالة انتظار هكذا. أنا أكره الانتظار.

وضعت رأسها علي مائدة الطعام، ولكنها لم تنم. كانت ترتدي قميص نوم وردي يحاؤل أن يشي بفتنتها التي تولت وذهبت مع راحة فكرها التي طارت في فضاء لا تدرك مداه ولا تدري مكانه.

تحسست ذراعيها ونهديها في رغبة مكبوتة تواتيها في حياء مجنون.
خيل إليها أنها تستمع إلي صوت أقدام شريف قادمة تجاه باب
الشقة. تجري تجاه العين السحرية فتراه واقفا كالبدن المنير أمامها.
تتلمس شعرها وتصلح خصلاته التي يقبلها في سعادة غامرة بعد أن
يعتصرها في أحضانه. تود أن تقوم وأن تقف راقصة لتتلقاه في حضنها
وتطفئ جوعا قد طال بجسدها وظمأ قد دام بروحها. شريف. حبيبي
هل أتيت أخيرا؟ طالما انتظرتك. إنها تتقلب بين أحضانه، وتشبع
أعلا قد ابتعد عنها وتسرب من بين دموعها واستقر في صميم فؤادها.
تستمتع بقبلاته وبلمسات يده الحانية التي تمس كل مكان بجسد
أنهكه البعد وأرقه السهد.

تغمض عينيها في سعادة غير منقطعة النظير وتتأوه فرحة وهي تغوص في
أعماق السعادة بين يديه. نشوة ما بعدها نشوة أن تذوب في أحضان الحبيب.
تعود إلي الدنيا حولها فتجدها في ظلام. تستمع فعلا إلي صوت
أقدام آتية. إنها تضرب بعنف في الأرض وتدق الأرض في غضب وكأنها
تخرقها. طرقات علي الباب أم أنها تحلم؟ تتزايد الطرقات ثم يأتيها
صوت عادل في صياح عال طالبا منها أن تفتح الباب. أليس معك
المفتاح؟ قالتها له وهي في حالة نعاس وتعجب من خرج من لذة
السعادة إلي قهر الحزن. قال لها في غضب:

ألا تريدان أن تفتحي لزوجك؟ هل حرام أن تنتظري زوجك؟
نظرت في الساعة فوجدتها تقترب من الواحدة صباحا. ألم تعدني
أن تأتي قبل التاسعة؟ إياك أن تتعلل بالظروف فنحن الذين نصنع
ظروفنا كما أننا نصنع سعادتنا أو شقاءنا. سألته إن كان يريد أن
تسخن له عشاءه. رفض ودخل مسرعا إلي غرفة النوم. خلع ملابسه
ونام في فراشه فورا. أضاءت المصباح فطلب منها أن تطفئ جميع
الأنوار. إنه متعب جدا ويريد أن ينام.

وأنا. أنا أريدك يا شريف. أقصد أريدك أن تكون في أحضاني يا عادل.
إنه لا يسمع. إنه يغط في نومه ويصدر شخيرا يصل إلي أعنان السماء.
نظرت إليه في غيظ وقرق. تركته في سريره وخرجت إلي غرفة
مائدة الطعام حيث نظرت إلي طعام العشاء في حسرة فأكلت لتنسي

كل همومها علي أمل أن تجتر أيام سعادة قتلتها بيدها عندما كانت زوجة أولي مع زوج كان يحبها ويقدها ويجعلها في المرتبة الأولي في حياته. لكم اشتاقت إلي أحضانه وإلي لمساته.

سمعت شخير زوجها الجديد يتصاعد فأغلقت الحجرة عليه في غضب متزايد. لن أنتظر أي موعد لك يا عادل. إنك تخلف مواعي دوما. أين أيامك يا شريف. آه. ياللي عمرك ما خلفت معاد في عمرك. أين أنت يا شريف. لكم أود أن أراك ولو مرة واحدة. أين أنت يا حبيبي؟ أين أنت وأين أيامك يا حبيبا أضعته بغبائي وبسيري في طريق غواية أمني؟

وارتمت باكية من جديد علي مائدة الطعام عساها أن تغوص في أحلامها من جديد في حزن حبيب لايزال في محبسه ينتظر لقاء نيفين في الغد علي أحر من الجمر.

أناس بلا قلب

تنظر إليه أمه في حسرة وألم.

إنه هكذا منذ عاد من عندها منذ يومين. صامت لا يتكلم، ساكن لا يتحرك، حزين لا يبتسم. لم تكن لتصدق أن قلبها ليكذبها. منذ أول مرة رأت مني فيها أيقنت أنها فتاة بلا قلب. متحجرة المشاعر. لا تبدو علي وجهها أية علامة من علامات الحياة. وجهها خال تماما من أية تعبيرات أو ملامح تشي بالحياة. فلتشرب يا محب. كان قبل أن يذهب إليها مقبلا علي الحياة سعيدا فرحا. ظن أنها ستقبل خطبته. منذ عاد وهو علي هذه الحالة. تري ماذا فعلت بك يا ولدي؟ إن كل كلماتك لها لم تثر فيها ساكنا. لو كان قلبها من حجر لنطق. لو كان لها أحاسيس لأثمرت من كلمات حبك يا محب ولتفجرت من أنهار مشاعرك. هي النهاية المحتومة إذا. يبدو أنها طردته. هكذا خمنت أمه، وهذه بالفعل كانت الحقيقة. قدمت له كوب الحليب فأشاح بوجهه. يبدو أنه لا يريد الحياة بدونها. كيف يمكن أن يعيش بدونها، ماذا تعني حياته بدون وجودها أو بدون وجودها في تفكيره علي الأقل. إنه يشعر أنه ميت بدونها. إنه جسد بلا روح لأنها أخذت روحه معها. كيف سيعيش بدون أن يفكر فيها وأن يكتب لها، كيف سيعيش بدون أمل في لقائها؟ كيف سيحيا بدون أن يتقرب خطواتها. ليتها غضبت وضربته. ليتها صاحت في وجهه وطردته. ليتها طلبت منه أن ينتظرها دهرًا أو دهرين. يغمض عينيه حتي لا يري حياته بدونها.

إنه يتناوم. يتظاهر بالنعاس ويغلق عينيه كلما تحاول أمه أن تحدثه. ربت علي كتفيه وقالت له في حنان وكأن كلماتها تقيه من غدر ما وقع به :

ماذا حدث يا محب؟ يومان وأنت علي هذا الحال؟
أراد أن يدير وجهه، ولكن أمه قالت في رجاء :

- أنا أمك. أعلم أنها لم تحبك ولن تحبك
- كنت علي صواب يا منار يا معداوي
- إنها إنسانة بلا قلب
- معك حق، ولكن قلبي ليس ملكي. إنه معها.
- انتزع قلبك منها وعش حياتك يا بني
- لقد قتلتنني يا أمي
- أعلم أنها إنسانة معقدة
- أحبها يا أمي. لقد قتلتنني رغما عنها
- عليك ألا تحبها. إنها إنسانة عديمة المشاعر ميتة الأحاسيس
- الحب والكراهية ليسا بأيدينا
- ماذا فعلت بك يا ولدي؟ أخبر أمك. أنا حبيبتك

حاول أن يتذكر ما حدث له. بعد صلاة العشاء ذهب حسب مواعده. وجد ضابط الشرطة محمد عجوة. انتظرا طويلا. قال والدها: «هذه أول مرة تتأخر فيها هكذا» طال الانتظار، وجاءت بعد ساعات. لم تدخل بمفردها. أدخلتها سامية وهي تترنح كأنها شبه مخمورة. كانت تسير وتتخبط. أحست سامية أن شيئا غير طبيعي قد حدث لها. إنها لا تعرف سامية أيضا. نظرت إلي والدها وكأنها لا تعرفه. يبدو أنها فقدت الذاكرة. نظر محمد عجوة في عينيها. إنها مغيبة عن الدنيا تماما. لم تعتذر عن تأخرها. دخلت حجرتها وغيّرت ملابسها. يبدو أنها قد جنت تماما. حدثت والدها وكأنها لا تعرف من أمامها. نظرت مليا في وجه والدها وسألته: «من أنت؟» سلامة عقلك يا مني. شدت يد أبيها وقالت له: «أين أمي؟» لقد نظرت إلي محب وقالت له: «ومن أنت وماذا تريد؟»

قال أبوها وهو يخشي من النظر في عينيها اللتين اتسعتا بشكل مخيف: «هما ضيفاك وأنت قمت بدعوتهما بعد العشاء» ابتسمت بطريقة مخيفة. كان شعرها منكوشا، لم تلبس الإيشارب وهي خارجة إليهما. نظرت إلي أبيها وقالت: «من أنت يا رجل؟ أين أنا؟» في وسط زهول من الجميع استدعي الضابط محمد عجوة أحد أصدقائه من الأطباء النفسانيين. أتى علي عجل وفحصها. طلب بعض الأدوية لها. هرع محب ليأتي بالأدوية. أتفعل هذا من أجل أن أبتعد

عنها؟ ماذا حدث لك يا مني؟ أنت حبيبة العمر.
رجع بسرعة فوجدها تمسك الأكواب من المطبخ والأطباق وترميها
علي الأرض. كانت تكسر كل شئ حولها. أصابت نفسها وجرحت
يدها. أمسكها الطبيب مع محمد عجوة وأعطاه حقنة. قال والجهد
قد بلغ به مداه:

— ستهداً بعد هذه الحقنة. لقد تعرضت لأزمة نفسية عنيفة.

قال له والدها في رجاء:

— إنها لا تعرفني ولا تعرف الأستاذ محب ولا حضرة الضابط وقد
قامت بدعوتهما بنفسها

أخشي أن تكون قد أصيبت بفقدان الذاكرة المتعمد نتيجة صدمة
قاسية أو صراع نفسي عنيف

خرج الطبيب وترك الجميع في حيرة. أخبر محب الضابط أنها
قد دعتة بعد العشاء ليخطبها، وأبلغ الضابط محب أنها دعتة لنفس
السبب. كشف الضابط لمحب ظروف تعرفه بها. أصابته الدهشة
وتساءل في نفسه قائلاً: «وما ذنبها؟» إنها لا يمكن أن تكون ضحية
لأمها. انتصف الليل. طلب محب والضابط من الشاويش عشاوي
أن ينصرفا، ولكنه ألح عليهما أن يظلا معه حتي يطمئن علي ابنته.
أفاقت. قبلت يد والدها. دخلت المطبخ لتعد شيئاً لضييفها وقد
بدا عليها أنها تحسنت. قالت لوالدها:

— آسفة علي التأخير يا بابا. تأخرت في محاضراتي ولكنني لا أعرف
ماذا حدث لي بعد ذلك

اتجهت إلي محب وسألته عن والدته، وفعلت نفس الشئ مع
الضابط. قالت إنها متأسفة علي تأخرها. من يراها الآن لا يمكن أن
يصدق أنها هي نفسها مني التي كانت معهما منذ ساعات قليلة.
دخلت المطبخ وأحضرت الشاي.

نظرت إلي الجميع وصرخت قائلة:

— أين أنا؟ من أنتم؟

يبدو أنها قد عادت لجنونها من جديد. بكى محب ولم يصدق
نفسه. اقتربت منه، وربت علي ظهره قائلة:

— لا للبكاء. أنت رجل. أنت قوي.

لم يتمالك الضابط نفسه من البكاء. خرج بسرعة من الشقة. لم يبتعد تماماً عن الشقة. وقف والذهول يملكه تماماً. أغلقت مني الباب في وجهه، ولكنه ظل واقفاً بعد أن حاول أن يمنعها، تركت الباب مفتوحاً ونظرت في غضب إلي محمد عجوة. اتجهت إلي محب وقالت له في غضب متسائلة:

— أنت أيضاً ستخرج؟ سيذهب هذا الضابط إلي أمي. فاهم إلي أمي. أنت تعرف حكاية أمي؟ أبي السبب. لا. أنا السبب. أمك لم تحضر معك.

اختبأت خلف والدها. قالت وهي تتجه نحو محب:

— أنت تكتب لي الشعر؟ أنا عاقلة لست مجنونة. أنت تحبني؟ لو تزوجتني سأقتلك. أنت الأستاذ محب؟ لا. الباشمهندس محب. لم أحبك. لن أحبك. أخرج من هنا وفورا. أنا الدكتورة مني. من تظن نفسك؟ دكتورة؟ ها. ها. ها.

بعد لحظات أتت زميلة لها تدرس معها في نفس الكلية بصحبة أخيها الأكبر. تساءلت في فزع عن مني عشاوي.

حكى للجميع ما حدث اليوم من اقتحام أمن الدولة ورجال الشرطة للحرم الجامعي للقبض علي الأستاذ الدكتور وكيل الكلية بتهمة الانضمام لتنظيم سري ضد الدولة.

دخلوا للأستاذ وهي في وسط محاضراته لطلاب الماجستير. كان منظراً صعباً. اقتحم الضابط حجرة المحاضرة وأشهر سلاحه في وجه الدكتور. صرخ: «لا تتحرك. المكان كله محاصر»

نظر الطلاب في دهشة. ضباط وجنود يزحفون علي بطونهم للقبض علي الأستاذ وعشرات الجنود يقفون في تربص وتيقظ تام. أصيب الجميع بالرعب. صرخت مني. قال أحد الضباط بعنف: «أطلقوا النار» صارت قاعة المحاضرة ساحة حرب حقيقية. أصابت رصاصة الدكتور المحاضر فمات في الحال. تناثرت دماؤه علي الطلاب واختلطت دماؤه بكراسات الطلبة. صرخات الفزع تملأ المكان. تم اقتياد كل من كان حياً بقاعة المحاضرات إلي أمن الدولة.

أتت لتطمئن علي زميلتها مني عشاوي. احتضنتها في فزع وفي ذهول. حكى محب لوالدته التي قالت له: «لا أصدق كل هذه القصص

المفبركة يا محب. يبدو أنها تؤلف كل هذه القصص لتتهرب منك»
ماذا يقول لها؟ أيقول لها إنه رأي الضابط يقتل مصري المحلاوي
بعينه؟ لقد وعدها وأقسم لها أنه سيكون بعيدا تماما عن مجال
السياسة.

أيعقل يا أمي أن تكوني قاسية القلب إلي هذه الدرجة؟
يبدو أن أمه كانت صادقة. في اليوم التالي اتصل بمني فإذا بها
لا ترد. لقد تزوجت الضابط محمد عجوة. أيتها الوقحة. أكانت أمي
صادقة؟ أيعقل أن أكون قد وقعت ضحية لمؤامرة خسيصة صدقتها
بغبائي وطيبة قلبي؟ هكذا قال لي والدها الشاويش ع شماوي. قال
بالحرف الواحد: «الزواج يا بني قسمة ونصيب. لقد تزوجت محمد
بييه عجوة. أرجوك ألا تتصل هنا ثانية. أنت ابن ناس وابن أصول.
من فضلك لا تتصل بهذا الرقم ثانية. ربنا يرزقك بزوجة أفضل من
بنتي. مع السلامة»

لقد حجبت صفحاتها علي الفيسبوك وعلي التويتر عنه. لم يعد
صديقا لها إذا حتي علي مواقع الإنترنت. بعث لها أكثر من مرة
طلب صداقة جديد، ولكنها لم ترد ولم تقبل. لقد خدعت إذا يا
محب. خدعتك مني. لفقت كل هذه الأكاذيب لتختار الضابط. لقد
افتخرت أمامه بأن المهندس يخطبها وهي ترفض. أنت فتاة معقدة يا
مني. لست إنسانة طبيعية. إنسانة مريضة فعلا. وأنا الذي كدت أن
اصدق. أنت فتاة بلا قلب وبلا أحاسيس كما قالت أمي. أتمني أن
أصرخ وأقول آلاف المرات أنني أكرهك. أتمني أن أمحو كل كلمة حب
كتبتها لك. أود لو أستطيع أن أمزق قلبي الذي أحبك بكل سكاكين
الدنيا.

حكي لأمه كل ما حدث، حكي لها كراهيته الشديدة التي كادت
أن تعميه عن الدنيا كلها. قال بعض الأبيات وهو يريد أن يبكي ولكن
الدموع عاندته:

العمر يجري والزمان سكبته في حجر عاهرة لعبوب
الدهر يفني والحنان رميته في ظل ضائعة كذوب
لا تظلمن فتاة الوهم يا قلبي عساها يوما أن تتوب

وابحث لنفسك عن عذراء ناسكة ولو طوفت في كل الدروب
فكم لاقيت من جراء صحبتها وكم قابلت من روح الحروب
أضعت عمرا لست تطلبه وسلكت في إثرها كل الخطوب
نظرت له أمه في رضا وقالت: «الزمن أفضل دواء. ستنساها يا
ولدي. لا تظلمها قد تكون الأحداث التي مرت بها أثرت في عقلها
وسلوكلها. ما مرت به ليس سهلا» قبل يد أمه. لقد كانت علي
صواب منذ البداية. احتضنها وسحت عيناه الدموع. لم تر أمه هذه
الدموع. سمعته ينشد قائلا:

صعلوكة أنت لعقت الوحل والأوساخ ضارعة
لقلبي إلي أن رق للأشواق إحسانا
فلما رأيت الحب يملكني ونيران الجوي
تلهب الأيام تسبقني نسيت كل ما كانا
أفيقي مليكة الماضي الأليم فإنما
عرش قلبي لازلت أملكه حقا لا زورا وبهتانا
سأسكن مكانك العشرات ظلما سأظل قيسا
أصبح أميرات الجمال والفاتنات الحسانا
لو كان سراب أمل يكبلني يدق باب عقل واهم
فلا تثقي بحلم ساذج كفاك هذيانا
لا تأملي في عودتي أبدا ضاع حبك
في أرجاء غلظتنا بل قد طار طيرانا
لا تقلقي فمثلي صامد صلب
لا يعدم الخل الأليف ولن يظل حيرانا

تركته ونام نوما عميقا. قلبت أوراقه فقرأت فيها:
«قالت أحبك قلت كاذبة أين وعدا بحب صاف عميق يشع برهانا؟
لو كان حبك صدقا أيا فاتنتي لما استطعت للأشواق هجرانا. لو
كانت الأشواق تملؤك لهرعت خلف القلب جريانا. قالت أحبك قلت
واهمة أريد أن يملأ الحب منك قلبا وشريانا. رأيت حبي يقتل الكفار
يشغلهم حتي آمنوا بي فأصبح عشقي لدي الكفار سلطانا. أطاعوا أمر
حبي فلما رأوه انقلبوا عبيدا لقلبي وخروا لعشقي صما وعميانا»

نام محب. ود لو قال لأمه بحزن إنه فاشل وخسر كثيراً. عرض على شاعر كبير ما يكتبه فقال إنه ليس بشعر وأن كثيراً من أبياته مكسورة الوزن غير أنها معبرة. ظلت أمه بجواره متيقظة طيلة الليلة. لقد تحول ابنها إلي الهجاء. كان يقول الشعر حبا فيها، فإذا به يتحول عن حبها. يصفها بالصلوكة. أهكذا أنتم أيها الشعراء. أي حب كان في قلبك يا محب؟ أيتحول الحب إلي كراهية بهذه الطريقة؟ يبدو أن محب يقول هذه الكلمات ويكتبها من وراء قلبه. أليس الحب باقيا مهما حدث؟ أليس الحب كائنا حيا وقد يكتب عليه أن يموت كما يموت كل الأحياء؟ هكذا كانت تتسائل في حين كان العرق يصب من جبين ابنها فتمسحه برفق خشية أن يستيقظ، فالنوم خير في كثير من الأحيان من الاصطدام بواقع مؤلم مرير.

صرخت في وجه عادل قائلة :

- هل تظن بيتي مكانا تنام فيه فقط ؟ أعتقد أن منزلي فندق؟
- اللهم صبرني عليك يا أمينة
- أنا التي صبرت عليك كل الفترة الماضية
- كيف صبرت علي يا أمينة؟
- لماذا لم تطرد نيفين يسري؟
- التحقيقات مستمرة أيتها الغبية
- أنا غبية؟
- طبعاً. كل شيء في التسجيل الذي قدمته مها بصوتك وفي التسجيل ما يديننا
- أنتم في أمن الدولة تستطيعون فعل كل شيء
- سنحاول . دعيني أنام
- تنام؟
- طبعاً أنام
- هل تأتي هنا من أجل النوم فقط؟ ظننتك رجلاً
- بدا أنه بدأ يفهم ما تلمح إليه. إنه لم يلمسها حتي الآن كزوج.
- اقترب منها وحاول أن يقبلها. تراجع عندما رن هاتفه. أخذت الهاتف من يده وأغلقتة. صفعها بقوة وقال :

- أيتها الغبية قد تكون زوجتي وقد يكون أحد من ضباط أمن الدولة
- قالت له في دلال وإغراء وهي تخلع ملابسها ليظهر قميص نومها الأزرق: أنا أهم من الكل. أنا أمينة حبيبك
- أبعدتها عنه بكل قوة، ثم دفعها فارتطمت بالحائط. قال لها في عنف وعيناه تطلقان شرارا من شدة الغضب:
- يا نهار أزرق. أنت أهم من أمن الدولة يا جاهلة؟ أنت أهم من زوجتي؟
- نظرت إليه في كراهية وقالت:
- أنا زوجتك وأنا أهم من الدنيا كلها
- لم يهتم بها وأعاد فتح تليفونه. بصقت في وجهه قائلة:
- لم أكن أعرف أنني لم أتزوج رجلا صفعها بشدة وقال:
- أنا رجل رغما عن أنفك وعن أنف أهلك كلهم
- إن ظفرا واحدا من شريف شكري برقبته
- شدها من شعرها بعنف وأطبق علي رقبتها. خنقها بقوة وقال:
- إياك أن تذكر اسم هذا الوقح
- قالت وهي تحاول أن تبعد يده عن رقبتها:
- أنت الوقح. أنت لست رجلا. لو كنت رجلا طلقني. أنا لا أحبك. أنا أحب شريف شكري
- عضته بكل ما أوتيت من قوة. لطمها بشدة وقال:
- هو رجل لأنه كان ينام معك في الفراش كل ليلة أما أنا...
- أما أنت فعاجز
- أعيرتني بعجزتي؟ أنا رجل. أيتها الغبية ليس الجنس كل شيء
- أيها الغبي. أتعترف أنك لست برجل؟ لقد عرفت لماذا تعاملتك زوجتك هكذا.

بصقت في وجهه، ودفعته بكل ما أوتيت من قوة. أخذ يصفعها بشدة مرات عديدة. حاول أن يمزق ملابسها بكل قوة ولكنها لم تتمكن. عض صدرها وحاول أن يستعيد ذكريات رجولة ولت. نام علي ظهره وأصابه الوهن. لم تنتصب رجولته من جديد. عضته وعضها.

- خدشته في وجهه بأظافرها. تمنى لو كان رجلا بحق ليسكت غرائزها.
- قالت له وهي ترتعش من جهدتها الذي تبذله ليبتعد عنها:
- طلقني أرجوك. أقبل يديك ورجليك طلقني.
 - رفسها بكل قوته في بطنها فوقعت أمامه. قال لها:
 - سأطلقك برغبتني وعندما يأتيني مزاجي لا برغبتك أيتها الوقحة.
 - أرجوك طلقني. لا أستطيع أن أري وجهك.
 - أيتها الغبية إذا كنت تريدين الجنس فسوف أحضر لك بعض
 - زملائني من رجال أمن الدولة ينامون معك
 - أيها الوقح. أيها الديوث طلقني. هل كنت تأتي برجال لزوجتك
 - الأولي؟ كنت أظنك تعابث النساء في شقتك
 - لا. كلها إشاعات
 - إذا كنت تأتي بالرجال لزوجتك فيها ليناموا معها. طلقني أرجوك
 - لن أطلقك. نجوم السما أقرب إليك يا أمينة.
- عيرته بعجزه فلطمها. سقطت أمينة وهي لا تدري بما يدور حولها. يبدو أنها ستري الكثير. حتي وهي تسقط علي الأرض تراءي لها وجه زوجها الأول شريف شكري وهو يبتسم لها، فابتسمت وهي تسقط. ودت لو أنها سقطت في أحضانه.

اللقاء الأخير

الأب يتابع نشرة الأخبار في اهتمام بالغ وابنته في غاية الرعب والفرع تتذكر ما حدث لها اليوم عندما أرادت أن تزور صلاح المحلاوي. صاح والدها بها قائلاً:

— سيأتي الدكتور كامل بعد ساعة يا نيفين

لم تعره أي انتباه. تذكرت أنها أصيبت برعب شديد عندما دخلت باب البيت. سيارات قوات الشرطة تملأ المكان. العساكر المدججون بالأسلحة يتوافدون بأعداد هائلة. بعضهم من صعد إلي شقة مضيفته وبعضهم ملاً سالماً البيت، في حين صعد آخرون إلي أعلي سطح البيت. حمدت الله أن منعها أحد الضباط الذين يرتدون بذلة سوداء من التقدم نحو البيت. ستنفذ ما طلبه شريف منها. ستعطي المرأة وولدها بعض النقود. ستأخذ حساب صلاح علي الفيسبوك وموقع الصفحة الالكترونية التي أنشأها باسم أخيه. لقد كانت تود أن تزورهما اليوم. تذكرت كل ما دار في لقاءها السابق بهما وتناولها العشاء معهما، ولكنها لم تكن تدري أن لقاءها الوحيد بهما سيكون اللقاء الأول والأخير أيضاً.

كانت تتابع من كذب. دخلت باب البيت بأعجوبة وسط الكتل البشرية. كأن إرهابياً خطيراً تتم مطاردته. صعدت بعض درجات السلم بصعوبة. لمحت أحد الجنود يضرب باب الشقة بكل عنف بقدمه ثم بكتفه وهو يشهر بندقيته الآلية في وجهه أي أحد يتوقع أن يجده وأصبعه علي الزناد. لمحت أم صلاح المحلاوي تخرج في فرع ورعب والجنود يحيطون بها. سألتها الضابط في استفزاز بعد ان صفعها علي وجهها قائلاً:

— أين ابنك؟

تحسست خدها الذي شعرت أنه قد تورم من أثر الصفعة وقالت له في عتاب:

- أتضربني يا بني وأنا في سن والدتك؟ ماذا تريدون من ولدي؟
- ابنك إرهابي يا حاجة
- إرهابي؟ أعوذ بالله. ليس له لحية ولا ينضم لأية جماعات دينية
- ينتمي لتنظيم سري لقلب نظام الحكم
- وأشار بيده للجنود ليفتشوا الشقة. كانت قد لمحت البندقية أسفل سريره. ليته يكون قد تخلص منها. تنفست الصعداء عندما خرج الجنود وأكدوا له أنه لا يوجد أي شيء. نظرت له والدة صلاح وقالت:
- لم يجدوا شيئاً يا حضرة الضابط. ابني في كلية الحقوق. سيرفع عليكم قضية. بالمناسبة يا حضرة الضابط هل لديك إذن لتفتيش الشقة؟
- لا نحتاج إلي إذن يا حاجة. يبدو أن ابنك قد سمم أفكارك بدراسته للقانون
- أريد أن أثبت أنك صفتني بدون وجه حق
- أثبتي هذا الكلام في النيابة
- وهل يقبض علي بدون تهمة وبدون إذن
- نحن نفعل كل شيء ولا يسألنا أحد
- الله وحده هو الذي لا يسأله أحد
- يبدو أنك ستوجعين رأسي. متي سيرجع صلاح؟
- إنه في الكلية.
- طيب سنقبض عليك ونقتادك إلي النيابة حتي يأتينا المحروس
- ابنك برجليه من أجلك
- هل ستقتلونه كما قتلتم ابني مصري أيضاً؟
- لم نقتل ابنك. لقد مات ميتة طبيعية
- كنت أصدق ما تقوله من قبل وأحاول أن أقنع ابني بتصديقه، ولكن بعد ما فعلتموه الآن صدقت أنكم قتلتم مصري ابني. حسبي الله ونعم الوكيل. ربنا ينتقم منكم يا بعدا
- عليكم بالدعاء. الدعاء سلاح العاجزين
- دفعها بيده ورفع يده ليففعها ثانية إلا أنها أمسكت بيده بقوة وقالت في شجاعة:
- سأذهب معكم. انتظر فقط لأرتدي جلبابي الأسود ولأضع إشاربا فوق رأسي يا حضرة الضابط

ودت نيفين لو صعدت إلي الضابط وبصقت في وجهه، كما ودت لو احتضنت والدته صلاح. إنها تشعر بالفخر لأن هذه المرأة تتسم بالشجاعة والقوة، ولكنها فضلت أن تختفي حتي لا تلمحها والدته صلاح. خرجت مسرعة مبتعدة عن المكان. جرت بسرعة فائقة وأخرجت هاتفها وحادثت صلاح وطلبت منه ألا يعود، ولكنه أصر قائلاً في عناد واضح:

— سأعود حتي لا تؤذي أمي. أنا أعرف سفالتهم.

— أرجوك ألا تعود

— لا يمكن أن أترك أمي في قبضة هؤلاء الأنجاس. سأذهب إليهم

إنها تشعر أنها تعيش ملحمة حقيقية. أحيانا تشعر أن ما تراه أمامها كالحلم، وأحيانا تتأكد من أنها متيقظة. أهذه هي مصر التي لا أعرفها؟ أهذه هي مصر التي لا تظهر علي شاشات التلفزيون؟ شكرا لك يا شريف. لقد تعلمت الكثير من كتاباتك، ولكن يبدو أنك لم تكن تكتب كل شيء. تذكرت لحظات القبض عليه من مكتبه. لقد حدث كل شيء أمام عينيها. تذكرت أنها قرأت في إحدى رواياته مشهدا لاعتقال أحد الشخصيات. لقد كان بهذه الكيفية بالضبط. أترأى يا أستاذ شريف قد رأيتاه وكتبتاه أم انه كان من نسيج خيالك. سأسأله غدا عندما أزوره. ارتفع صوت والدها مطالبا إياها أن تفتح الباب للدكتور كامل.

فتحت الباب فوجدته واقفا أمامها. يبتسم لها في ود. شكرها لأنها عرفت به. لقد أعجب بمها زميلتها اليوم وأعجبت بها أيضا به. جاء يشكرها في هذا اللقاء الذي سيكون اللقاء الأخير بالنسبة لهما. تحدث مع والدها عن سوء أحوال المصريين في الخارج وكيف أننا صرنا أفقر شعب في الشعوب العربية علي الرغم من أننا نمتلك ثروات طائلة. كشف له الحقيقة التي أوردتها المنظمات العالمية للشفافية. إن الفساد عندنا ينتشر في مصر وفي المنطقة العربية بأسرها، وإن بنوك سويسرا والدول الغربية تكتظ بأموال الفاسدين من عندنا في مصر في حساباتهم السرية، وأخذ يتحدث معه عن عمليات غسيل الأموال القذرة. نظر إلي والدها وسأله قائلاً:

- هل لك أن تبارك حفل خطوبتي؟
- الحمد لله. أخيرا وافقت نيفين؟ هل اتفقتما من ورائي؟
- لا يا عمي. تشرفني علي حفل خطبتي لها زميلة نيفين في المكتب.
- نظر الأب إلي ابنته في عتاب وكأنه يريد أن يقول لها: «أضعت هذا العريس اللقطة من يدك يا نيفين؟»

لم يسألها. التفت والدها وضيغه ونيفين إلي التلفزيون الذي أعلن فيه عن أن الرئيس التونسي زين العابدين ابن علي هرب من تونس إلي الخارج. لقد بدأت ثورة تونس بعد أن حرق محمد بوعزيزي نفسه بسبب تعسف السلطات التونسية معه. بدأت التقارير تتحدث عن ثروة الرئيس التونسي وزوجته. قالت نيفين في فرحة:

كم من المصريين يودون أن يحرقوا أنفسهم؟ أرجو من الله أن يحدث عندنا ما يحدث في تونس

نظر إليها الدكتور كامل وقال في ترقب:

— أنت ثورية يا أستاذة نيفين. أنا فخور جدا بك. يبدو أن الثروات المسروقة ستتكشف

اتصلت بها مها فرد عليها قائلا:

— أهلا حبيبتي. لقد دعوت نيفين ووالدها كما أمرت. تفضلي نيفين معك. تود أن تكلمك

طالت المكالمات بين الزميلتين في حين انهمك والد مها وضيغه في متابعة التقارير الإخبارية عن ثورة تونس وكأن علي رأسيهما الطير.

تقدم نفيسة كوب ماء لابنتها التي سرعان ما انخرطت في بكاء عنيف. رمقها أبوها في حزن ونظر لأمها وكأنه يتهمها بأنها السبب فيما آلت إليه حياة ابنتها. نظرات عنف وقسوة تنطلق من عيني والدها تجاه أمها. لم يعد يكلم أمها إلا فيما ندر. صار التعامل بين والديها بالإشارات وبالنظرات. مسحت دموعها عندما رجع أحمد من مدرسته. احتضنته في حنان بالغ، بينما استقبلها ابنها في فتور. سحب نفسه من حضنها ودخل حجرته في هدوء وبرود لم تعتده من ابنها، وكأنه لا يريد أن يراها. لا تدري لماذا أحست بأن هذا هو اللقاء الأخير بأفراد أسرتها قبل وقوع أحداث عظيمة لها. صرخت أمينة صبري فيهم جميعا:

— حرام عليكم. تعالوا واجتمعوا حولي. قد تكون هذه آخر مرة نلتقي فيها.

رجع أحمد إليها. نظر إليها ولم يتكلم. نفس النظرات في عيني والده. أيعقل أن تكون كرهتني يا أحمد كما كرهني أبوك. هو زوجي وطلقتني، لكنك ابني. لا يمكن أن تكرهني. أحاطته بذراعيها، ولكنه سرعان ما ابتعد عنها وجلس بجوار جده. كأنها في معسكر واحد مع أمها، وكأن والدها وأحمد في معسكر منفصل عن معسكرهما تماما. لقد ذهبت اليوم إلي زوجها الأول شريف شكري. سعد عندما أخبره الشاويش أن هناك من يريد زيارته. اعتقد أنها نيفين. ما أن التقت عينيه بعيني أمينة زوجته إلا وذهبت اللفهة التي كانت في عينيه. غص بصره عنها. نظر إليها ثانية وثالثة في إشفاق و كأنه يسألها: «لماذا أنت هنا يا أمينة؟ هل أنت سعيدة بحالنا الذي وصلنا إليه الآن بسببك؟» لم تجب نظراتها وإنما هرعت لتقبل يديه. سحب يديه. أعطاهما ظهره وأراد أن يعود حتي لا يراها. كنت أتحمل أي شيء في الدنيا إلا أن تكوني أنت أيضاً ضدي يا أمينة. هكذا كانت تتحدث نظراته. كنت أود أن أصارع الدنيا كلها وتصارعني، لكنني لم أرد قط أن تكوني أنت في صف الدنيا وضدي. ردت عيناها بدموع سقطت رغما عنها: «أنا مخطئة. لقد تتبعت خطوات أُمِّي وكانت أقسى من خطوات الشيطان. أنا وحيدة بدونك. أحبك يا شريف ولم ولن أحب أحدا غيرك». ردت عيناها في غضب: «لقد تزوجت من عدوي. تزوجت من هذا الجاسوس التافه. إنه من أسوأ الشخصيات التي قابلتها في عمري يا أمينة» نظرت إليه بحسرة ندم وقالت نظراتها: «ليتني ما تزوجته. إنه ليس برجل. وهل هناك في الدنيا كلها رجل سواك. أنت أيضاً أخطأت. لماذا لم تضربني مئة مرة عندما طلبت الطلاق؟ لماذا طلقتني بهذه السهولة. أنت تعرف المرأة قد تعني لا عندما تقول نعم وقد تعني نعم عندما تقول لا. أنت أدري بالمرأة. لقد قرأت هذا في كتاباتك يا شريف. يا حب عمري ونور أيامي وهناء ليالي التي أظلمت بدونك» قامت والدتها وقالت إنها ستعد الغداء وألحت علي أمينة أن

تتناول الغداء معها. ظهر الغضب في عين والدها وقال وهو يبتعد بوجهه عن زوجته وكأنه لا يوجه الكلام لها:

— ستتناول الغداء مع زوجها يا نفيسة

ردت نفيسة في غضب قائلة وهي تتحاشى النظر إلى وجه زوجها:

— ستتغدي هنا والكلمة في هذا البيت كلمتي وكلمتي هي التي تمشي علي الكل. مفهوم.

نظر والدها بكل غضب إلى أمينة وقال لها وكأنه يوجه كلماته إلى نفيسة زوجته:

— غداؤك مع زوجك في بيتك يا أمينة. لا تجعلني أحدا يخرّب بيتك كما خربه من قبل

اشتد غضب أمينة وصرخت قائلة:

— حرام عليكم. أتنشاجران دوما كعادتكما؟ أتريدان أن أقتل نفسي بسببكما. الرحمة يا ناس. أشعر أن هذه آخر مرة سأراكم فيها.

أريد جلسة محبة ومودة ورحمة وحنان

أخذت ابنها في حضنها وبدأت تبكي. استكان أحمد في حضنها هذه المرة وبدأ يمسح دموعها بمذيله. احتضنته بقوة. قالت له:

— أبوك أفضل رجل في الدنيا يا أحمد. أنا فخورة أن اسمك أحمد شريف شكري. لا يوجد رجل في الدنيا مثله. سامحني يا ابني

حاولت أمها أن تتكلم. فتحت فمها، ولكن أمينة منعتها. اغتاپت أمها وصرخت قائلة في عنف:

— لا. أبوك شريف شكري كلب وابن ستين كلبا

نظرت أمينة إلى أمها بسخرية وقالت:

— كفاك يا ماما. حرام عليك. خربت بيتي الله يسامحك. كفاك كراهية. ماذا فعلت كراهيتك لشريف بنا؟ أكنت تريدين أن يكون شريف

نسخة من بابا في ضعفه؟ حرام عليك. أنت المسؤولة عن خراب بيتي. ثم اتجهت إلى أبيها باكية وقالت:

— ليتك منعتها من تحطيم بيتي. ليتك ضربتني بالحداء لتمنعني من خراب بيتي وإيذاء طفلي وإيذاء نفسي. ليتك منعت أمي من

تخريب بيتي. أنت السبب يا أبي.

فقد الرجل صوابه ورفع يده وهوي بها علي صدغ امرأته التي

صرخت قائلة :

- أنضربني بعد كل هذا العمر يا صبري
- أضربك وأقتلك يا خرابة البيوت. كنت طيبا معك لأبعد حد.
- تركتك تفعلين كل شئ. وصلنا إلي ما نحن فيه بسببك
- اتجه نحو الباب. فتح الباب علي مصراعيه وقال لها :
- أنت طالق

صرخت نفيسة. تمالكت نفسها وقالت في تحد :

- اخرج أنت يا صبري. الشقة من حق الزوجة. هذه هي القوانين
- قصدك قوانين الظلم
- هذا هو القانون. الشقة من حق الزوجة. والأولاد حقها
- ملعون أبو القوانين. ملعون أبو الشقة. سأخرج وأترك لك كل شئ. أنت طالق بالثلاثة

خرج الرجل من بيته وسار بلا هدف. دخلت أمينة حجرتها وأخذت تبكي وتبعتها أمها. أخذت ابنها في حضنها. نامت علي سريرها وابنها في حضنها. غمضت قليلا وواصلت تذكرها للقاءها الأخير مع شريف الذي لم يتكلما فيه كلمة واحدة. تركوا لغة الشفاة فتحدثت عيونهما بكل ما يريدان قوله. نظرت إليه وكأنها تطلب منه أن يسامحها. ابتعد عنها بنظراته إلي زائرة أخري هرعت إليه. إن أمينة تعرفها جيدا. إنها نيفين يسري. كأن عينيا شريف تريدان طرد أمينة من المكان. أرادت أن تثبت أمينة، ولكنها لم تستطع. لقد أمسك شريف بيد نيفين بلهفة وقبلها قائلا بصوت أسمع أمينة : «أهلا وسهلا يا نيفين يا حبيبتي. أوحشتني جدا». كانت كلمات شريف بمثابة الطلقات التي أصابت قلبها. سحت الدموع من عينيها واتجهت خارج المكان وهي تقاوم غريزتها في معركة مع نيفين. لقد تأكدت أنها ستخسر المعركة. فلتخرج مرفوعة الرأس من لقاء أدركت أنه اللقاء الأخير مع حب العمر الذي أضاعته بغباؤها.

يتحرك مبروك في سريريه. يتحسس الفراش بيده فلا يجد سامية. تري أين ذهب يا سامية؟ لا يدري أين تذهب. منذ أن تزوجها وهو يشعر وكأنها مجبرة عليه. يبدو أنها لا تطيقه. وكأنها قبلت الزواج

منه علي مضض. يبدو أن زواجها به كان مقبولا غصبا.
بالأمس غضبت منه وتركت له السرير ونامت بعيدا عنه. فضلت
أن تنام علي الكنبه بمفردها. المهم أنه تزوجها. لقد كان يحبها. سعد
جدا بالمكيدة التي دبرتها ليتسني له الزواج بها. لقد خدعت والده،
ولكنه لم يكن يعلم أنها ستخدعه أيضا. طلبت من والده أن يكتب
له المحل والشقة. وذات شجار بينهما تدللت عليه. ود أن يحتضنها
فتمنعت عليه. تمنعت عليه أكثر من مرة وقالت له :

- أخشي منكم أنتم أيها الرجال. عيونكم زائغة
- أنت حبيبتي وعمري
- هذا كلام فقط يا مبروك.
- كلام وفعل يا روعي
- اتجه نحوها ليقبلها، ولكنها ابتعدت عنه ومثلت دور الغضب قائلة :
- آه. وتطلقني وترميني عندما أكبر وتنظر لفتاة صغيرة. أبوك كان
سيطلق أمك من أجلي.
- يا حبيبتي لا يمكن أن أكون مثل أبي
- كلام. أريد الفعل يا مبروك. من يحب يفعل لا يتكلم
- تحت أمرك سأفعل ما تأمريني به يا حياتي
- هرع ليقبلها ويحتضنها من جديد، ولكنها قالت له مقسمة بأغلظ
الأيمان :

- لن تنال مني شعرة حتي تكتب لي الشقة والدكان باسمي يا
مبروك
- سأكتب لك كل عمري يا سامية
- وقع أولا بالتنازل يا حبيبي عن الشقة والدكان
- أوقع يا حبيبتي.

لم تترك له شفيتها إلا بعد أن وقع لها تنازلا علي العقدين
معا. نامت مستسلمة بأحضانها. انقض عليها يقبلها في جوع وحش
كاسر ظنا أنه فاز بها. انقض عليها ظنا منه أنها الفريسة،
ولكنه اكتشف اليوم أنه كان فريسة لسامية التي خططت ودبرت
وأحكمت التخطيط. الشئ لم يدركه مبروك أن لقاءه بسامية في
فراشه وهو ينقض عليها ليلة أمس كان اللقاء الأخير له معها.

لقد باعت الدكان والشقة لشخص أتاه يوما يطلب منه أن يغادر الشقة والدكان فقد اشتراها من سامية. تري كيف سيبلغ والده المعلم زين هذا الأمر؟

لاشك أن والده سيسبه بأفزع الشتائم. وما ذنبه. إنها سامية التي تمثلت لهما في هيئة حواء وخدعتهما معا. قد يضره والده، فليضره. لقد نجحت خطة سامية أيما نجاح، وغدا تضيع في زحام القاهرة الممتلئة بالملايين الذين لا يكادون يعرف بعضهم بعضا. قد يلجأ مع والده إلى الشرطة والقانون، فليحاولا. القانون لا يحمي المغفلين. لقد نجحت يا سامية. دبرت جيدا وخططت. هكذا النساء وإلا فلا. هكذا كانت تقول حسنية لنفسها وهي تكاد أن تموت من الضحك. لقد كتمت ضحكاتهما أمام زوجها الذي بدا عليه وكأنه سيجن من فعلة سامية. أخذت ترتج بلحمها البقري علي حد قول زوجها. فلتشرب يا معلم زين مما فعلته بك وبابنك هذه السامية الرشيقة الجميلة. لقد أخذت بحقنا وبحق جميع بنات حواء. لكم أنا فخورة بك يا سامية !!

أحست أمينة بصوت أقدام عادل تقترب من حجرتها. تود أن يكون هذا آخر لقاء لها بهذا الحيوان الديوث. ذات مرة وجدت بجيبه أحد الكروت لطبيب مشهور بعلاج الأمراض الجلدية والتناسلية. تيقنت أنه عاجز جنسيا. لقد فوجئت لأنه كان يحاول أن يقبلها ويحتضنها قبل الزواج. قالت له بهدوء:

- لك عندي مفاجأة
- خيرا يا حبيبتي
- تم ضبط زوجتك بنت مدير المخابرات مع علي الصفتي في شقته
- كيف عرفت يا أمينة؟
- حاستي الصحفية
- ولا يهمك. بسيطة. أكيد أنهما كانا يخططان لتلفيق تهمة لشريف شكري
- ولا يهمني؟ ألا تغار علي زوجتك أم أنك ستغضب لأنك أنت الذي لم ترتب اللقاء؟
- يا أمينة أنا متعب جدا وأريد أن أنام

- امرأتك في أحضان رجل آخر وتم ضبطهما في شقته
- عليك أن تكوني سبور يا أمينة. هذا هو عالم عليّة القوم. عالم الأثرياء الذي يجب أن نعيش فيه. لا تكوني حنبليّة
- أنت علي صواب. طيب وماذا ستفعل في كلام الناس؟
- الناس يتكلمون دوماً. أنا أثق في زوجتي كما أثق فيك. إشاعات.
- يعني لن ترفع قضية زنا علي زوجتك؟
- زنا؟ لا طبعاً. لا أحب الفضائح
- طيب بماذا تفسر وجودها معه في شقته.
- قلت لك كانا يخططان للإيقاع بزوجك السابق شريف شكري.
- كانا يودان أن يلققا له تهمة تنتهي به إلي الإعدام
- لا. يبدو أنها كانت تصلي معه العشاء في جماعة
- لا تشغلي رأسي بهذا الموضوع. أنا متعب جداً وأريد أن أنام
- كاد الغضب أن يعصف برأسها. ودت لو صفقته عشرات المرات.
- كيف يمكن لها أن تعيش مع مثل هذا الخنزير. كيف يمكن أن تأمن علي نفسها مع هذا الخريتيت. الحيوان قد تكون له نخوة. أما هذا فهو مالم تكن تتخيله قط.
- نام وعلا شخيرته. دخلت المطبخ وأتت بسكين وبضعة تفاحات.
- هزته في سريره. قطعت له تفاحة وقالت له :
- سمعت أنك تعالج عند الدكتور فريد لطفي
- كنت أعالج عنده وشفيت والحمد لله
- شفيت ؟ يبدو أنك لن تعالج أبداً
- الضعف الجنسي لم يعد مشكلة يا أمينة
- أنت ليس عندك أي ضعف جنسي. أنت رجل وسيد الرجال.
- انت عندك عجز جنسي
- لا داعي للسخرية يا أمينة
- أنت ليس لك في النساء أصلاً
- أريد أن أنام
- سأتركك تنام ولكن طلقني
- لن أطلقك
- طيب لماذا تزوجتني يا عادل بصراحة
- لأغيظ شريف شكري

- فقط؟
- ولأن المخابرات طلبت مني أن أتزوجك
- أنت حقير
- اللهم طولك يا روح. أريد أن أنام
- ستنام للأبد
- أغمدت السكين في صدره أكثر من مرة وهي تضحك كالمجنونة قائلة:
- مثلك يجب أن يموت عشرات المرات أيها الوغد
- يبدو أنه لم يرد أن يقاومها. لقد كان غارقاً في دماؤه علي السرير.
- ظلت تطعنه في قلبه وفي بطنه عشرات المرات. لا تدري لماذا لم يقاومها. كانت تطعنه وتقول: «مت أيها الديوث. مت أيها الخنزير»
- اتصلت بالشرطة التي أتت في سرعة فائقة. كانت تضحك بشكل جنوني. ألقت النظر علي وجوه الضباط والعساكر، كما ألقت نظراتها علي جدران شقة شريف شكري التي التقته اليوم في لقاء أصعب ما كان فيه أنه اللقاء الأخير وهو يقبل يد نيفين يسري. لقد خسرت كل شيء يا أمينة. خسرت للأبد
- هكذا كانت تحدث نفسها وتبتسم بشكل هستيري تارة وتبكي تارة أخرى بشكل يدفع بمن يراها إلي الرثاء عليها. لم تقاوم رجال البوليس كما لم يقاومها زوجها الثاني وهي تقتله.

التحدي

للمرة الثانية يرفض الضابط قبول استقالة الشاويش عشاوي ويقول له: «البلد في حالة صعبة جدا والبلد تحتاج لك الآن» لن يحنث في عهده مع الله. ما الذي يمنعه أن يتغيب عن عمله؟ سيستقيل وسيترك العمل بالشرطة مهما كلفه الأمر، ولكنه يريد أن يحصل علي معاشه وكافة مستحقاته. الحمد لله تزوجت مني من الضابط محمد عجوة. لكم كان هذا الضابط رائعا. إنه ضابط شهم. يبدو أنه يحب ابنتي. سبحان الله. رب ضارة نافعة. تعرف عليها وهو يقبض علي أمها الفاجرة. فعلا وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، تزوجها لينتشلها من أزمتها النفسية الطاحنة التي مرت بها. تزوجها علي الرغم من تحذيرات صديقه الطبيب النفساني. علم بقصة محب وسأل مني أكثر من مرة إن كانت تريد أن تتزوجه أم أنها تفضل محب. ضابط شهم ونبييل. أخذها بحقيبة ملابسها. أخذ إجازة ليسافر معها إلي أوروبا لقضاء شهر العسل. ظن أن في سفره راحة لأعصاب مني ومحاولة للنسيان قد تفيدها كثيرا في حالتها. يشعر عشاوي أنه يشفق جدا علي محب، ولكن هذه هي الحياة. هذا اختيار الله. قبل أن يتم الزواج سأل ابنته أكثر من مرة فأكدت له أنها تميل إلي محمد عجوة أكثر. ابنته كانت تحكي ما تعرضت له من عنف وما رآته في التحقيقات. حكّت له عن مناظر التعذيب والعنف التي كانت تقشعر لها الأبدان. صارت تصاب بالرعب من اللون الأحمر. دائما تتذكر الدماء التي ملأت قاعة المحاضرات عندما قتل البوليس وكيل الكلية أثناء محاضرتهم لهم.

يخرج عشاوي من حجرة الضابط فيجد أحد زملائه فيسلم عليه. كان قريبا من مكان الحجز. ود لو سلم علي كل من بالحجز. نظر بود إلي شريف وإلي رفاقه من المحبوسين. رفع الشيخ مختار صوته قائلا:

- أهلا يا عم عشماوي. افتقدناك يا رجل.
- أهلا بالشيخ مختار
- كل سنة وأنت طيب يا عم عشماوي
- تحرير شريف شكري ومعظم من كان بالحبس. لماذا يقول مختار للشاويش عشماوي كل سنة وأنت طيب. سأل الشاويش عشماوي الشيخ مختار قائلا:
- كل سنة وأنا طيب؟ لماذا يا شيخ؟
- عيد الشرطة يا باشا. نحن في الإسلام لا نعرف إلا عيد الفطر وعيد الأضحى أما دولتنا العبقريّة فأضافت لنا عيد الشرطة وعيد المعلم وعيد الفلاح
- ضح المكان بالضحك. قال الشاويش عشماوي وهو يضحك:
- عيد الشرطة يوم الخامس والعشرين من يناير ولا يزال أماننا ثلاثة أيام
- رفع الشيخ مختار صوته وقال ساخرا:
- نهنتك قبل حلول وقفة العيد بيومين
- أراد الشيخ أن يواصل ضحكه وسخريته فنظر إلي بطرس وجرجس بجواره وقال:
- نسينا أن نهنت إخواننا الأقباط بعيد رأس السنة. أنا آسف لم أصم وقفة عيد رأس السنة الميلادية. ألا يا شاويش عشماوي هل صيام وقفة عيد الشرطة جائز أم مكروه؟
- ضح المكان بالضحك مرة ثانية. نظر بطرس إلي الشيخ مختار وقال له بكل ود وهو يضحك:
- هل تهنئنا بعيد رأس السنة بعد مرور أكثر من شهر؟ آه نسييت صحيح لقد صرحت دار الإفتاء المصرية أن يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر الماضي كان المتم لشهر ديسمبر لثبوت رؤية هلال شهر يناير لعام ٢٠١١ ولذا لا يجوز صيام الأول من يناير لأن هذا حرام شرعا فلا يجوز صيام يوم العيد.
- امتأ المكان بالضحك. قال شريف في نفسه: «أليست هذه هي مصر؟ روح الضحك والسخرية والمحبة. المسلم والمسيحي يضحكان سويا ويتحديان الزمن والأيام بالسخرية. شعب سيموت من الضحك. إذا لم يجد ما يسخر منه سيسخر من نفسه. أليس هذا سرا من أسرار عظمة

مصر والمصريين؟ الكل بعد أن يضحك يقول خيرا. اللهم اجعله خيرا.
أتى شاويش آخر في حزم وقال بصوت آمر بعد أن غادر عشاوي
المكان وهو يضحك:

— كفاكم ضحكا. الصمت. أنتم لا تعرفون ما الذي يحدث في مصر
يا حوش.

الكل لا يعرف، ولكن شريف يعرف. هناك دعوة لتجمع كبير في يوم
الخامس والعشرين من يناير. إنه يتابع كل شئ علي تليفونه الحديث
المتصل بالإنترنت. ستقلب البلد. لقد طغا الفساد وانتشر الظلم. لقد
انتشر فيديو قتل الشرطة لمصري المحلاوي وتم تداول الأنباء عن القبض
علي أخيه. ستندلع النار وسيحترق كل شئ. قرأ الأخبار التي تتهم
الدكتورة نوال المعداوي بعلاقاتها غير المشروعة وعن محاولة انتحارها
بعد أن ضبطت متلبسة في شقة عادل فوزي الصحفي ومدير تحرير
جريدة النهار. تابع جرائد المعارضة التي تنفي عنها هذه التهم وتؤكد
أن هذه محاولات أمن الدولة لتشويه سمعتها. قرأ الكثير من الأخبار
عن مdahمة رجال أمن الدولة لكل مكان للقبض علي الشرفاء من أهل
مصر الذين يقولون كلمة الحق. تري ماذا تخبئين لنا أيتها الأيام؟
كف منصور أبو دومة عن الضحك وقال لشريف:

— أتصدقني يا أستاذ شريف؟

— طبعا أصدقك. تفضل

— أشعر أنني أشم رائحة الحرية. صدقني. لطالما سجننت. أحس
بريح الحرية. أشعر أنني سأخرج قريباً جداً. لم تكذب حاستي
هذه قط. كل مرة كنت أهرب فيها أو أخرج من محبسي كنت
أشم هذه الرائحة.

نظر إليه الشيخ مختار وقال ساخرا:

— بركاتك يا شيخ منصور. طيب هل يمكن أن تشم لي وللأستاذ
شريف ولبطرس هل سنخرج معك أم لا؟

— لا تسخر مني يا شيخ مختار

صحيح. أنت مجرب. هذه أول مرة لي. تصدق بالله. لقد
أحببت الحبس من أجلكم. أحببته من أجل بطرس وجرجس
والأستاذ شريف. ما رأيكم عندما نخرج نعمل رابطة المحبوسين

انتشر الضحك من جديد في الحبس. انقبض قلب شريف للمرة الأولى. لقد رأى نفس الضابط الذي رآه في فيديو قتل مصري المحلاوي. إنه هو الذي قتله فعلا. إنه علي الصفتي. أكد له محب أن هذا اسمه عندما أعطاه مقطع الفيديو. لقد تأكد من هذا عندما صرخ الضابط منير فخري في الجنود قائلا:

— انتباه.

ثم اتجه إلي الضابط الذي بجواره وقال:

— أهلا وسهلا علي بيه الصفتي

سأل علي الصفتي قائلا:

— أين شريف شكري؟ أخبرني عادل فوزي أنه زاره هنا

دقات قلب شريف تزداد. يبدو أن ساعة المواجهة تقترب. اقترب

علي الصفتي من شريف بعد أن أشار إليه منير فخري وصفعه علي

وجهه بعد أن أخرجه من الحبس. ركله الضابطان بكل ما أوتيا من

قوة فوق علي الأرض ثم قام ونظر لهما في تحد وقال لهما:

— سأبلغ كل لجان حقوق الإنسان بما تفعلونه

— سلم لنا علي حقوق الإنسان

— ممنوع الضرب والتعذيب يا ضباطنا الكرام

— هذا الكلام الذي تقوله دخل المتحف

— ما تهمتي يا حضرة الضابط؟

نظر إليه علي الصفتي وقال له:

— أنت الذي سربت شريط الفيديو؟ أنت تسيئ إلي صورة مصر

— أنا؟

— لن تحميك نقابة الصحفيين. لن يحميك أي شيء مني

— الله يحميني

— ولن يحميك الله مني

صفعه بشدة مرة أخرى. ركل منير فخري شريف بكل قسوة. نظر

إليهما شريف بمزيد من التحدي وقال لهما:

— الله سبحانه وتعالى سيحميني وسيحمي كل مظلوم

— لو نزل الله من السماء فلن يرحمك مني

- انقض علي الصفتي علي شريف وأمسك برقبتة وكاد يخنقه. كان الشيخ مختار يستغفر الله في سره. بلغ التأثير بكل من في الحبس مداه. أمسك منير فخري بيد علي الصفتي وقال له :
- ستفعل به كل شيء ولكن بعيدا عن الحجز
- ابتسم علي الصفتي وقال في غرور:
- لن أستريح حتي أحقه بمصري المحلاوي
- نظر إليه شريف بكل سخرية وقال:
- مات رجلا
- سأقتلك بنفس الطريقة. أتعرف أين وضعت العصا؟
- قتلت بريئا. قتلت شخصا أعزل. سيحيا مصري المحلاوي وستموت أنت
- لا تتحداني بكلماتك الصحفية. سأجعلك تنسي اسمك
- أخذ منير فخري بيد علي الصفتي وابتعدا بعد أن أمرا أحد الجنود بشد شريف من شعره وجره بعنف علي ظهره إلي حجرة التعذيب. نظر مختار إلي منصور أبو دومة وقال له في سخرية: «لقد هبت نسائم الحرية. ربنا يستر»
- استمع الجميع لشريف وهو يصيح في تحد أغضب علي الصفتي:
- الله معي. الله سيحميني. الله أكبر منكم. الله أكبر

تعد طعام العشاء لوالدها في صمت حزين. كانت تعرج ولايزال الجبس في رجلها. ماذا يمكنها أن تقول له؟ أيام صعبة تقضيها في العمل والكل ينظر إليها نظرات الريبة. لا يمكنها أن تستقيل من عملها. تتذكر قسوة الأيام الماضية ومرارتها. إنها بريئة لم ترتكب جرما، ومع ذلك تنهشها العيون وتسلقها الألسنة. لم تدر بنفسها إلا في أحد المستشفيات. تابعت الجرائد فوجدت كل شيء ينافي الحقيقة قد كتب علي صفحاتها. الجرائد تقول ووسائل الإعلام تسوء صورتها وتشوه سمعتها. أنا سيئة السمعة والراقصات سمعتهن سيئة ويتم استضافتهن في البرامج ويقدمن كقدوة؟ أي إعلام هذا؟ أنحن في زمن تستساغ فيه سمعة الحرائر؟ أنحن في زمن يقدم فيه العاهرات علي أساس أنهن شريفات عفيفات وتتهم فيه الشريفات في شرفهن؟

أنا شريفة عفيفة فضلت أن ألقى بنفسي من البلكونة علي أن أغتصب من هذا الخائن علي الصفتي. لقد صدقته واعتقدت أن أمه موجودة بالشقة وستعطيني الدواء. سأفوض أمري إلي الله. كان الوقت فجرا. لم ير أحد شيئا. كيف استطاعوا أن يأتوا بشهود الزور؟ كيف قبلوا أن يشهدوا زورا. شهادة الزور من أكبر الكبائر. أنا موافقة علي أن يجري لي كشف العذرية. لم يمسنني أحد من قبل ولم أسمح لأحد ولن أسمح لأحد أن يقترب مني. صحيح أن بعض صحف المعارضة تقف بجوار قضيتي ولكنها جرائد غير مقروءة. الاتجاه السائد في الجرائد يتهمني. لماذا خرجت في هذا الوقت؟ هذه مهنتي. أنا طبيبة. كيف يمكن أن يصل صوتي؟ أود أن أقابل أحد الشرفاء في الجرائد الحكومية أو في التلفزيون لأخبره بالحقيقة. لا أحد يريد أن يستمع إليه. لقد حكموا علي دون أن يستمعوا إلي. نظرات الممرضات والزملاء تقتلني في العمل. أين أنت يا علي الصفتي؟ لو رأيتك لمزقتك بأسناني. لا أدري كيف قبلت خطبة رجل بهذا السوء. صدق محب. أسوأ رجل في الدنيا.

يلوك أبوها لقمات الطعام في صمت. لقد حمد الله علي أن الأمور لم تكن أصعب مما وصلت إليه. قال لابنته :

- أنا أعلم أنك حزينة يا نوال. ما رأيك في أن تأخذي إجازة؟
- لا يا بابا. يجب أن أتحدى الجميع بوجودي وبصلايتي، لن أدع فرصة لهم حتي ينهشوا سمعتي ويذبحوا كرامتي
- لن نستطيع أن نمسك السنة الناس

غيابي سيعطيهم فرصة. الحمد لله كسرت رجلي، ولكن رجلي الأخرى سليمة. أشعر أنني سأتحداهم بوجودي. الدنيا لم تخرب. كل شيء مستقر. أذهب إلي عملي وأعود. حادث يمكن أن تتعرض له كل فتاة

- يا بنتي نحمد الله علي هذا. أنا أثق فيك وأعرف أنني رببتك علي الخوف من الله

- يا أبي أنا قوية بما فيه الكفاية. لا يوجد أعظم من السيدة عائشة ولقد تعرضت للطعن في شرفها وبرأها الله من فوق سبع سموات
- معك حق يا نوال

— الغريب أن محب لم يسأل علي ولم يحاول أن يطمئن علي

- اتصلت بأمه فوجدتها تبكي ليل نهار. من يومين خرج من عمله ولم يعد إلي الآن. الله يلطف بها. تكاد أن تجن
- فلنزرها يا بابا ولنقف بجوارها
- أخشي أن يكون قد أصابه مكروه. لقد تزوجت مني التي كان يملأ الدنيا شعرا بحبها. أخشي أن يكون قد قتل نفسه. أيمكن أن تعميه المصيبة وينتحر ويموت كافرا؟
- لا يا بابا. قلبي يحدثني أنه لا يمكن أن ينتحر
- الغريب يا نوال أني بحثت عن علي الصفتي ولم أعثر له علي مكان ولم أجد له أي أثر
- يبدو أننا في حلم عبثي يا بابا
- فتح أبوها الجريدة المسائية. بدأ يقرأ بعض الأخبار، ولكنه لم يكمل. صوت طرقات تكاد أن تقتلع باب الشقة. أراد أبوها أن يفتح الباب، ولكن الدكتور نوال أصرت علي أن تفتح الباب في تحد واضح أثبتت لوالدها أنها لا تخاف. نظرت من العين السحرية بالباب فوجدت علي الصفتي وحوله مجموعة من الجنود.
- فتحت الباب في شجاعة واضحة ورحبت به في سخرية قائلة:
- أهلا وسهلا يا حضرة الضابط. أبي كان يبحث عنك
- لقد جنّته بنفسه
- أهلا وسهلا. أنت لم تأت بمفردك. جنودك في الخارج يا باشا.
- ظننت أنك ستأتي في أمر عائلي
- ليس بيننا أي أمر عائلي
- صحيح لقد فسخت خطبتك ورميت كل الماضي وراء ظهري، ولكن لديك معي أمران
- ما هما؟
- كان يتحاشي النظر إليها. نظرت له في احتقار. تعمدت أن تريه رجلها المكسورة. كان يشعر أن نظرات عينيها تكاد أن تلتهمه. يشعر أن نظراتها أقوى سلاح لديها. تحسست رجلها وقالت له وهي تتألم:
- أسمح أن يكون ذلك علي انفراد؟ أي بيني وبينك وبين والدي؟
- أمر الجنود أن يظلوا واقفين خارج الشقة. أغلق الباب وقال لها:
- تحت أمرك يا نوال

- اسمي الدكتور نوال يا علي يا صفتي
- تفضلي يا دكتورة نوال
- بصقت في وجهه ورمت له دبلة خطوبته في وجهه. مسح مكان بصاقها. اعتدل واقفا. أراد أن يرد الصفحة لها، ولكنه تماسك وقال لها:
- أنا أنفهم موقفك. وسائل الإعلام عملت ما طلبناه منها في أمن الدولة. لقد لطخت سمعتك
- حسبي الله ونعم الوكيل
- يا ستي تركنا لكم الشرف والعفة
- أنتم أوساخ وأنذال
- أنا لست هنا من أجلك
- لماذا أنت هنا إذا؟
- أنا هنا من أجل ابن عمك محب
- ظننت أنكم قبضتم عليه
- للأسف. ظننته هنا
- ليس هنا ولا نعرف عنه أي شيء
- أنا مضطر إلي القبض عليكما بتهمة التستر علي مجرم
- قلت لك يا بني آدم إنه ليس هنا ولا نعرف عنه أي شيء
- سنقبض عليكما إلي أن يظهر محب
- وما تهمة يا حضرة الضابط؟
- سرب فيديو خطير يمس سمعة أمن الدولة
- ضحكت مني بصوت عال، وقالت له في سخرية متسائلة:
- يمس سمعة أمن الدولة؟ وماذا عن سمعتي أنا يا حضرة الضابط؟
- سمعتك في الحفظ والصون. أنا أشهد الله أنك أشرف بنت عرفتها
- نظر لوالدها وكأنه يظهر له صك براءة ابنته. خرج لجنوده وقال بصوت آمر:
- اقبضوا عليهما فوراً. اكتب أنت يا حضرة الضابط محضر اعتقالهما
- ووضح فيه أننا وجدنا أسلحة وذخائر. يبدو أن المتهم كان يتردد عليهما باستمرار
- نظرت إليه الدكتورة نوال في غضب. منعت نفسها من البصق عليه. وجدت نفسها ووالدها يرددان معا في صوت واحد:
- حسبنا الله ونعم الوكيل

لم يكثرث علي الصفتي بما يقولوا ولكنه رد علي هاتفه. لقد كان عادل فوزي مدير تحرير جريدة النهار الذي قال له بصوت يمتلئ بالفرح: - أبشريا باشا. تم القبض علي محب في أحد مقرات حزب حريات في الصعيد.

نظر علي الصفتي إلي نوال ووالدها وقال في نفسه: «وجودهما سيفيدنا في التحقيق. يمكننا أن نضغط عليه بخاله وبابنة خاله ليعترف وليقرر بكل ما فعل وبكل مالم يفعل»

★★★

رنين الهاتف يتعالى

تشعر بروحها تنسحب منها. تشعر بنفسها تعود إلي الدنيا شيئا فشيئا تشعر للحظة أنها تحلم، ولكنها تغوص في أجفان النوم ثانية لا تدري بنفسها أين هي. تكاد أن تكون معلقة بين اليقظة والغفوة يسكت صوت الهاتف، ولكنها تبدأ في العودة إلي الدنيا ثانية. تتيقن من أنها كانت نائمة أو معلقة بين الموت والحياة. تتحسس يدها فلا تجد أي أثر لدماء. يدها غير مبتلة.

لا تجد أي أثر لقيود رجال الشرطة.

تشعر أن رأسها ثقيلة عليها. تحاول أن تقوم من فراشها، ولكنها لا تستطيع تتحسس بيدها سريرها فتجد جثة زوجها الثاني. الظلام دامس. ليتهما ما قتلتنه. لقد أعمدت السكين في صدره عدة مرات بالأمس إثر مشاجرتها معه. إنه ديوث لا يغار عليها وكان يجب عليها أن تقتله. إنها علي فراشها. إنها ليست في قسم الشرطة. لا تدري ما هذه الظلمة الدامسة التي تسبح فيها عيناها.

أيعقل أنها تنتظر الحكم بالإعدام؟ يبدو أنها فقدت الشعور بالزمن والإحساس بالوقت. أيعقل أن تكون قد جنت؟ إنها لاتزال تسمع شخير المرتفع.

صاحت به قائلة:

- كفك شخيرا.

إنها تشعر به يتنفس. وضعت يدها علي صدره. وضعت يده علي بطنه. إن بطنه تملو وتنخفض.

رن هاتفه من جديد فتأكدت من أنها متيقظة الآن. لن تري أحمد ثانية. سيعدمونها. إنها قاتلة ولقد قتلت زوجها. اعتلاها الرعب وغشاها الفزع. قام فجأة وأضاء الأباجورة التي بجوار السرير. أصابها الرعب. كيف يمكن أن يتحرك بعد أن طعنته عشرات المرات. صحيح أنها لم تر الدم، ولكن هذه الطعنات كانت كافية للقضاء عليه. أغضت عينيها. إنها لا تحب أن تري أثر الدماء. وجدته يرد قائلاً:

— تأمري يا علي بيه. سأكون عندك حالا.

أيعقل أن يكون هذا شبحة بعد أن قتلته؟

وضعت يدها علي عينيها. إنه يتحرك تجاه الدولار. إنه يرتدي قميصه. وقفت غير مصدقة وقالت له وهي تفرك عينيها وكأنها غير مصدقة:

— عادل. هل أنت بخير؟

— بخير يا مرة. أنا مثل الجن

— جن؟ أعوذ بالله. أيعني هذا أن هذا شبحة؟ أنا متأكدة أنني قتلتها. بحثت عن ثمرات التفاح والسكين فلم تجد لها أثراً في الحجرة. دخلت المطبخ فوجدت طبق التفاح والسكين.

أنا سعيدة فرحة. الحمد لله. لست قاتلة. لم أقتله بعد. يبدو أنها كانت تحلم. تحسست أكتافه وتلمست يديه. قالت له وهي سعيدة:

— هل تشاجرنا بالأمس يا عادل؟

— أبدا يا أمينة. لقد رجعت ونمت كالقتيل من شدة التعب.

— يعني لم أتشاجر معك ولم أضربك؟

— وهل تستطيعين؟ وحتى لو ضربتني يا أمينة أنت زوجتي ويجب أن تضرب الزوجة زوجها مرة كل أسبوع

— يعني أنت لم تمت يا عادل؟

— أموت؟ أعوذ بالله. فال الله ولا فألك

— إنها لا تصدق. أتصل كراهيته لها لدرجة أن تحلم بأنها تقتله؟ قال لها في ود:

أريد أن أكل أي شيء من يديك قبل أن أنزل

لم تتح لها الفرصة لترد عليه. صوت هاتفه يرن من جديد. إنه علي الصفتي. قال له الضابط في صوت أمر:

— لا تحضر بمفردك. أحضر زوجتك معك. ستفيدنا جدا

- الوقت متأخر و...
- لا أريد أي أعذار
- كيف أقنعها؟
- قل لها يجب أن تأتي
- سأحاول
- لا تقل لي سأحاول يا روح امك. ستأتي بها يعني ستأتي بها
- تمام يا أفندم
- اتجه لزوجته وقال لها في رجاء:
- علي بيه الصفتي يقول إنك يجب أن تأتي معي
- إلي أين؟
- إلي بيته
- لماذا؟
- لا أدري
- ألا تخاف علي؟
- اطمئني أنا معهم منذ زمان بعيد
- أمتأكد أنهم لن يؤذوني؟
- ربنا يقدر لنا كل خير
- أنا أخاف علي نفسي
- لا تخافي. سأكون معك
- هل تحبني يا عادل؟
- ليس هذا وقت الكلام يا أمينة. إنها أوامر ويجب أن تنفذ
- أخشي ألا أعود هنا ثانية

قالتها ولم تكن تدري أنها بالفعل لن تعود لبيتها ثانية. ليتها لم توافق علي الذهاب معه. ليتها تحدثه ورفضت أوامره وأوامر علي الصفتي. لا تدري لماذا أطاعته بهذه السهولة وذهبت معه راضية طائعة. إنها تشعر بأنها شاة تذهب مع جزارها لتذبح برضاها. قد تقاوم الشاة وقد تشعر بدنو أجلها أو بالخطر الذي يتربص بها، أما أمينة فقد كانت تسير مع زوجها الثاني وكأنها مغيبة عن الوعي. يبدو أنها كانت سعيدة فعلاً لأنها تيقنت أنها لم تقتل زوجها. لقد كانت تحلم. لو كانت تعلم ما سيحدث لها لكانت قتلتها بالفعل عشرات المرات.

إنها لن تعود مرة ثانية إلي شقتها. إنها ليست شقتها. أليست هذه شقة شريف شكري الذي يخضع لكل أنواع التعذيب الآن؟ ستذهب إليه. ستراه. ليتها ما ذهبت وليتها ما رآته. ستري نتيجة ما فعلته. وبنفس القسوة ومراسم العنف تقتحم قوات البوليس شقة نيفين يسري بعد منتصف الليل. يجرها الجنود من شعرها ويمسحون بها أرض الشقة لأنها ترفض أن تنزل معهم بهدوء. يصيح الضابط أمرا إياها أن تكتم صوتها. ترفض وتنظر إليه بكل نظرات التحدي الحارقة. يصفعها بقوة. يقف والداها عاجزا عن فعل أي شيء. وماذا عساه أن يفعل أمام قوات مدججة بالسلاح في حين يقف وهو أعزل لا يستطيع فعل أي شيء إلا أن يبكي.

تمسح دمعات أبيها. تقف في شجاعة وتقول للضابط وكلماتها تتحداه:

— أنا قادمة معكم.

— ستذهبين إلي حبيب القلب

— من؟ شريف شكري؟

— هو بعينه

— سنعد لكما لقاء رومانسيا

نظرت إليه في احتقار. نظرت لوالدها بكل حب وحنان وقالت له:

— دعواتك يا بابا

نظر إليها في حزن ودموعه تتساقط منه رغما عنه. يقول لها بقلب صادق:

— يا رب يحفظك وترجعني بالسلامة

غمزته بنظرات الشكر. نظرت للضابط بتحد من جديد وقالت لوالدها بكل ثقة:

— اطمئن يا أبي. سأرجع لك بالسلامة إن شاء الله

نظر أبوها للضابط في كراهية شديدة وقال بكل تحد وهو يرفع رأسه إلي السماء:

مع السلامة يا بنتي. في حفظ الله

مسح دمعاته ونظر إلي السماء وهو يقول وكأنه يدعو علي كل الظالمين:
حسبي الله ونعم الوكيل

النهاية

تتلفت خلفها وتسير في خوف. تتساءل في نفسها لماذا فعلت هذا؟ إن مبروك لم يعاملها إلا بكل خير. لقد تزوجته لتهرب من أبيه. لاشك أنها ظلمته مرتين بهذه القسوة. ما ذنبه. لقد كان يحبها فعلا. ظلمته عندما تزوجته وهي لا تحبه، وظلمته عندما جعلته يتنازل لها عن الدكان والشقة ثم باعتهم. ما فائدة هذه الأموال التي في حقيبتها؟ ماذا ستفعل لها النقود التي بيديها؟ إنها في نظره الآن خائنة ولصة. لاشك أن والده المعلم زين سيشمت كثيرا فيه. ماذا سيقول أهل المنطقة عليها؟ أيمكنك أن تتراجعني الآن يا سامية؟ هل سيقبلك مبروك الذي لا يزال زوجك إلي الآن عندما تعودين إليه؟ كيف سأفسر له مبيتي ليال كاملة خارج بيته؟ ماذا ستكون ظنونه في؟ يبدو أنك قد جننت يا سامية. مبروك يعشقك وكنت تشفقين عليه من معاملة والده. سيهينه أبوه. لقد خططت للهروب من ظلم أبيه فإذا بك تظلمينه الآن. يبدو أنه لا مفر من العودة. ضميري يؤنبني. كيف تجربين مرارة الظلم يا سامية وتحاولين الهرب منه ثم تظلمين شابا بريئا لا ذنب له إلا أنه أحبك ووثق فيك؟ اتخذت قرارا. سترجع إلي مبروك. ستعود إليه. ستعتذر إليه وسترتمي في أحضانه، ولكن تري هل سيصدقها؟ فلأرجع وأطلب منه السماح والعفو. إن حبي في قلبه جدير أن يمسح خطيئتي. إنه طيب محب لي وسيسامحني.

يضحك علي الصفتي بصوت مرتفع وهو يصفع شريف شكري الذي يبصق عليه ردا علي صفعته. يصفعه ثانية ثم يتجه إلي الضابط منير فخري ويسأله: «ما أخبارك مع الراقصة سوسو عبده؟ إنها وجه النحس. رافقتها شهرين وجلبت لي كل أنواع المصائب» يرد عليه منير متسائلا في غضب: «وكيف عرفت يا علي باشا؟». يبتسم علي الصفتي ويفاجئ شريف بلكمة في بطنه يتالم

منها. ويعود للحديث مع منير فخري قائلاً: «كل الداخلية وكل مصر عرفت فضيحتك معها. لا شيء يختفي في مصر يا باشا» يبدو أن شريف أراد أن يدخل الحمام. طلب من علي أن يذهب إلي الحمام في رجاء. رفض وقال له: «يمكنك أن تفعلها هنا». حاول شريف أن يتماسك. نادي علي الصفتي أحد الجنود وقال له: «أدخل الضيوف يا ولد»

فوجئ شريف بدخول زوجته الأولى أمينة صبري وهي مقيدة معصوبة العينين، كما فوجئ بدخول نيفين يسري مقيدة ومعصوبة العينين أيضاً. دخل معهما عادل فوزي الذي أشار له علي الصفتي بالأيتكلم واضعا يده علي فمه، كما أمر جنديان بالإشارة بيده أن يضعا يدهما علي فم كل من نيفين يسري وعادل فوزي، في حين كمم هو فم شريف شكري. قال علي الصفتي لأمينة وهو يتلمس شعرها: «أهلا وسهلا. شرفت يا هانم. سأسألك سؤالاً واحداً. ما رأيك في شريف شكري؟» لم يتأثر عادل فوزي وسكت تماماً تنفيذاً لأمر علي الصفتي. بدأت أمينة تتكلم. قالت: «أفضل رجل في الدنيا. لا يوجد في الدنيا رجل مثله. هو سيد الرجال..»

لم يدعها تكمل. أشار علي الصفتي إلي منير فخري أن يمزق ملابسها. نفذ منير ما أمر به علي الصفتي. لم يتحرك عادل فوزي لحماية زوجته الجديدة، في حين صرخ شريف شكري وكأنه يرفض أن تتعري زوجته الأولى. عض يد علي الصفتي الذي ضربه بقوة علي رأسه فسقط علي الأرض. صرخ شريف قائلاً: «غطوها يا كلاب. غطوها يا مجرمين». فرحت أمينة وانفجرت أساريرها وهي تحاول أن تغطي ما ظهر من جسدها بيديها بلا جدوي. قالت موجهة حديثها لمصدر صوت شريف: «الحمد لله أن أسمع صوتك ثانية. شريف. أنا أحبك. أتمني أن أموت وأنا علي يديك»

قال شريف وهو يتألم: «زوجك الندل عادل فوزي موجود ولا يدافع عنك». اتجه علي الصفتي نحو نيفين يسري ونزع العصابة عن عينيها وقال لها وهو يتحسس جسدها بشهوة، في حين تحاول هي أن تبعد يديه عنها، ولكنها لا تستطيع: «ما رأيك في هذا المنظر الرومانسي؟»

المرأة تحب زوجها بعد أن طينت عيشته وطلقها، وهو يحبها بعد أن تزوجت بآخر. وأنت يا حلوة تحبينه. ما الحل يا نيفين؟»
نادي علي الصفتي أحد الجنود وأمره أن ينزع عنها ملابسها.
كان شريف يتألم بشدة من هذا المشهد ويصرخ بكل ما أوتي من قوة قائلاً: «غطوها يا كلاب»

اتجه علي الصفتي إليه قائلاً: «أيؤلك هذا المشهد؟ لا يوجد سوي حل واحد. اعترف بكل التهم المنسوبة إليك. بسيطة»
اتجه شريف نحو المرأتين وحاول أن يغطيها بنفسه. خلع قميصه وحاول أن يغطي ما ظهر من جسديهما. قال بسرعة: «سأعترف بكل شيء. سأعترف بكل ما فعلته وبما لم أفعله. أتركوهما وافعلوا بي ما تشاؤون»
ابتسم علي الصفتي وقال: «تعجبني يا شريف. هذه هي الشبهة والرجولة. نخرج النساء من اللعبة. لم أكن أعلم بنبلك إلا الآن. توقعت أن تدع أمينة لتفعل بها ما نشاء. أنت نبيل فعلاً»

نظر إليه شريف في احتقار وبصق علي وجهه قائلاً: «وكم أنت خسيس وكم هي خسيصة أساليبكم القذرة!!». بدا الغضب علي وجه علي الصفتي وقال له: «ستعترف بكل شيء وسنفعل بك ما كنا سنفعله بالمرأتين». لم يبد الاهتمام علي وجه شريف. أمسك علي الصفتي برقبة شريف وقال له: «سنفققاً إحدي عينيك أيضاً ونترك لك الأخرى للتحسر طيلة عمرك. سنشد أظافرك ونخلعها ظفراً ظفراً. سنجعلك تتمني الموت ولا تجده»

بدا أن شريف قد أصابته نوبة عدم اهتمام من كلام الضابط. رمقته أمينة بكل حب، وتبعته نظرات أمينة نظرات نيفين المحبة. بصقت أمينة علي وجه زوجها الثاني، وتمنت في داخل نفسها لو أنها كانت قد قتلتها. نظرت أمينة إلي نيفين وكأنها تطلب منها أن تسامحها. أشعل علي الصفتي سيجارته وأخذ نفسين ثم أطفأ السيجارة في جسد شريف الذي لم يستطع أن يفعل شيئاً إلا أن قال بصوت مرتفع: «حسبي الله ونعم الوكيل» قهقه الضابط وأشار للموجودين بالانصراف من الحجرة ليستمتع بتعذيب شريف شكري.

ممدوح زين لا يكاد يصدق. إنه حر طليق يجري في الشوارع. كان عليه أن يقتل أمين الشرطة. ما الذي يحدث. وجد الباب مفتوحا. أمة لا إله إلا الله تملأ القسم. الناس يكسرون كل المكاتب. العساكر تهرب. الضباط يهربون في فزع. إنه يخرج من باب القسم ولا يكاد يصدق. لا أحد يمنعه أو يمنع رفاقه من المحبوسين. لاشك أنه يحلم. إنه ينعم بالحرية. لقد جعله أمين الشرطة يكره نفسه. كان علي أن أقتله. ما أن رأيته يجلس مع والدي إلا وانقضت عليه بالحديدة. هشمت رأسه. هكذا أنتقم. مخالفات لم أفعّلها. يسحب الرخصة. أدفع له إتاوة كل شهر ولا يشبع. أعوذ بالله. إنهم يمصون دماءنا. يبني هذه العمارة من الحرام. من الرشوة ومن سرقة خلق الله. لا يدري إلي أين يذهب. سيذهب إلي بيت أبيه. من أري. إنها سامية. إنها تتلفت خلفها. ما هذه الحقيبة التي تحملها؟ أه لكم أنت جميلة يا سامية. منذ فترة طويلة وأنا في الحبس. لم أر صنف النساء طيلة هذه الفترة. اعقل يا ممدوح. احمد الله أنك حر طليق. لقد حدثت معجزة. أنا الآن حر. تصعد سامية الطابق الثاني في بيت أبيه وكأنها تعرف الطريق. تسير واثقة. أعرف أن أبي يهواها. لا يمكن. أنا أعرفها امرأة شريفة. أتغيرت الدنيا بعدما دخلت الحبس؟ لا تجعل الشيطان يلعب بعقلك. يبدو أنها رضخت وتزوجت أبي. لا. إنها رمز الصمود. لقد كانت تتحداه كما كنت أتحداه أنا أيضا. يتبعها. تطرق الباب. يفتح لها أخوه مبروك. يأخذها في حضنه. أستغفر الله العظيم. ما الذي حدث في الدنيا. أيعقل أنها تلعب علي أبي وعلي مبروك؟ ما الذي يحدث في الدنيا يا عالم؟ ألا يكفي ما نحن فيه من فساد؟ أيعقل أن يمتد الفساد إلي بيوتنا. أنا لا أكاد اصدق. مبروك يقترب منها. يبدو أنه يود أن يسألها أين كانت. تضع يدها علي فمه. يقبل يدها. يأخذها في حضنه ويدخلا. يترك الباب مفتوحا. يتنحّض ممدوح ويقول بصوت تملؤه الفرحه عله يفاجئ مبروك فيبتعد عنها:

— أنا رجعت يا مبروك

يبتعد عن أحضان زوجته ويقول له بفرح:
— حمدا لله علي سلامتك. نورت بيتك يا ممدوح

- ماذا اتى بسامية إلي هنا؟
- صارت زوجتي يا ممدوح. زوجتي علي سنة الله ورسوله
- مبروك يا مبروك. صعبة. ألف مبروك يا ابن والدي. مبروك يا ست سامية. أين أنت يا معلم زين. أنا رجعت يا أمي. أنا رجعت يا ناس.
- تنزل أمه السمينه في فرحة بالغة وتزغرد. يضع ممدوح يده علي فمها ويقول:
- لا أريد أن يعرف أحد أنني هربت
- هربت؟
- هربت يا أمي وهرب كل المحبوسين
- يا ألف نهار أبيض. الحمد لله أنك أتيت بالسلامة
- نزل أبوه واحتضنه. أوحشني حضنك يا أبي. أوحشتموني جميعا. أنا لا أصدق أنني حر. الحمد لله رب العالمين.

- الأحداث تتطور في مصر يا محمد وأخشي علي أبي
- لا تقلقي يا مني. ستكون الامور كلها بخير
- هكذا كانت مني عشاوي تحدث زوجها الضابط محمد عجوة. يبدو أنه منحاز إلي الرئيس في حين تبدو عليها الشماتة. تود أن تقول له أنت تؤيد النظام لأنك ضابط. لا تدري كيف عاش هذا الشعب وعاني. ود أن يرد عليها قائلا. وأنا من أبناء هذا الشعب. قال لها في حب وهو يحتضنها:
- لن أسمح بالخلافات السياسية في بيتي. أنا أحب امرأتي وهي تحبني ولا خلاف بيننا. وأحسن شئ يمكن أن نقوله: الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية. سأتصل بالحاج عشاوي لنطمئن عليه يا حبيبتي يا روح قلبي.
- دخلت في أحضانه وابتسمت. لقد تأكدت من الحمل بالأمس وأخبرته. طار فرحا وبلغت به سعادته مداها. سيصير أبا بعد بضعة أشهر. كلمت والدها واطمأنت عليه. لم تقبل استقالته من الشرطة. طلبت منه أن ينحاز إلي الشعب.
- أنهت مكالمتها مع والدها، وشعرت بألم شديد في بطنها. لا تدري

لماذا استحضرت صورة أمها أمام عينيها. ما أن وقعت علي الأرض إلا وأسندها زوجها وذهب بها إلي سريرها. قبلها بحب ودلال. رن تليفونه. أخذ هاتفه وخرج بعيدا عنها حتي لا تسمع. عاد بوجه غير الذي ذهب به. عليه أن يخبرها. لا يمكن أن يخفي عنها. قال لها بصوت حزين: البقاء لله يا مني. ماتت جمالات أمك.

لم ترد. ساد الصمت بينهما. لم تجب سوي بعض الدمعات التي سقطت من عينيها. قالت له وهي تمسح دموعها:

— فليرحمها الله وليرحمنا جميعا.

— فليرحمها الله وليرحمنا جميعا

— أسمح لي ان أراها قبل أن تدفن؟

— طبعاً يا مني يا حبيبتي. سننزل مصر حالاً

— أخذته في أحضانها. قبلته بحنان وقالت:

— الحمد لله لقد عوضني الله فوجدت كل الحنان فيك يا زوجي الحبيب

— الحمد لله يا حبيبتي.

بدأت تستعد لتجهيز حقائب السفر، ولكنه أقسم عليها أن تظل في مكانها من أجل ألا ترهق نفسها. إنها حامل ويجب ان تستريح وإن عليه أن يحافظ عليها وعلي وليده. سألته ولماذا لا تكون أنثي؟ قال لها لأنه متأكد أن الجنين سيكون ولدا بنفس ملامح أمه. ابتسمت له قائلة في دلال: «يبدو أنك تريد ألا تقبله أية أنثي. أتمني أن يكون في وسامتك يا حبيبي» سيعد هو هذه الحقائب. ليس الأمر صعباً يا حبيبتي.

— أصدقني يا بطرس؟ أصدقني يا جرجس

— يبدو أنك علي صواب يا منصور يا ابو دومة

— الكل يهرب يا جماعة. قلت لكم إنني أشم رائحة الحرية.

سنخرج جميعاً

— أنا لا أصدق. هيا نهرب جميعاً

— كيف نهرب وندع الأستاذ شريف؟

— سيهرب. الناس يحطمون كل شيء. لقد هرب الجنود وهرب

الضباط

- هيا سنهرب
- لا يمكن أن نترك الأستاذ شريف. لقد جروه إلي غرفة التعذيب.
- إذا هو قريب منا
- خرجوا جميعا وهم يصيحون: «أين أنت يا أستاذ شريف؟» الكل ينادي بصوت واحد. هرب الضباط. اقتحم خلق كثيرون كل مكان في القسم. حرقوا ما استطاعوا أن يحرقوا ونهبوا ما امتدت إليه أيديهم. صاح بعض عقلاء الناس:
- هذه ممتلكات الشعب
- لم يعد يستمع أحد إلي صوت العقل. ماذا فعل بهم صوت العقل إلا المعيشة عقود من الذل والقهر. فليحطموا وليحرقوا.
- استجمع شريف بعض شتات قوته. سمع صوت مختار. هذا صوت جرجس. ينادون عليه. فتح علي الصفتي الباب. لطمه جرجس. هجم عليه بطرس. أوسعه مختار ضرباً.
- أحاطوا به من كل اتجاه. صار يتوسل إليهم أن يتركوه يهرب. بصق شريف في وجهه. لطمته أمينة وعضته بكل غل. كانت تقف بالباب. ركلتة نيفين يسري وبصقت عليه وصغته علي قفاه.
- نظر إليه شريف وقال:
- من يمنعك مني الآن يا علي بيه؟ يمنعك مني الله. قيدوه.
- قيدوه واقتادوه إلي الخارج. لا يوجد أحد بالقسم. هرب منير فخري. لا إله إلا الله. لمن الملك اليوم. الملك اليوم لله الواحد القهار. هكذا صرخ شريف وهو يخرج من القسم رافعا رأسه.
- الكل موجود بميدان التحرير. تابع شريف علي الإنترنت ما يحدث. أمرهم ألا يحطموا أقسام الشرطة. كتب قائلاً علي الفيسبوك علي حائط صفحته: الله أكبر وتحيا مصر. فلنتجه جميعاً إلي ميدان التحرير. أخذ بيد نيفين وقبلها. طلب من زوجته السابقة أن تذهب وتحضر أحمد إلي ميدان التحرير.
- خرجت من أمامه ودموع الندم تغرقها، ولكنها نظرت بحب وود إلي غريمتها نيفين يسري التي فازت في النهاية. جرت بكل ما أوتيت من قوة. ستحضر ابنها. أليس هذا أمر شريف شكري. ليتها

نفذت أوامره منذ البداية. أين أنت يا أحمد؟ أبوك يريدك.

محب يأخذ بيد نوال ويتجهها نحو ميدان التحرير. لا يصدق أن المعجزة قد حدثت وأنهما قد خرجا من القسم دون أن يصيبهما أي سوء إلا تعذيبا أشعرهما بمرارة الذل والقهر. شعرا أنهما فقدتا إنسانيتهما. تريد أن تترك يده وتسير بمفردها. يقول لها في حب: — لقد عشنا أقسى تجربة في العمر. لقد عانينا من التعذيب معا. لا يمكن أن تتركي

— سأتركك. أنت تحب مني
— كنت أحبها. لقد اعترفت علي نفسي بكل شيء حتي لا تصابين بأذي

— سأتركك يا محب. يجب أن تختبر مشاعرك. أنت لا تحبني. أنت تحب مني

— لقد تزوجت
— سأتركك. هذا قراري

— أرجوك

استحضر أشعاره وقال لها:

وَيَوْمَ بَدُونُكَ يَعْنِي النَّدَمَ	حَيَاةَ بَدُونِكَ تَعْنِي الأَلَمَ
وَنَجْمًا أَنَارَ طَرِيقَ المَحَنِ	أَهْوَكَ بَدْرًا عَلَاهُ الشَّجَنِ
تَفْيِضُ يَدَاهُ بِكُلِّ المَنَنِ	أَرَاكَ نَهْرًا غَزِيرَ الكَرَمِ
رَبَاهُ يَسُودُ وَيُشْفِي السَّقَمَ	أَرَاكَ بَحْرًا يَعْلُو سَنَاهُ كُلِّ القَمَمِ
بَدُونُكَ عَمْرِي أَرَاهُ صَنَمَ	رَدِي عَلَيَّ فَقَلْبِي دُونُكَ صَمَمَ
فَضُوؤُكَ أَرَاهُ كُلَّ المَنَنِ	بِحَبِّكَ أَهْدِي جَمِيعَ السَّفَنِ
وَفِيهِ أَكُونُ بِقَلْبِ الحَرَمِ	وَعَفْوُكَ أَرَاهُ أَصْلَ الكَرَمِ

نظرت له وقالت في دلال:

— لن تضحك علي بهذه الكلمات. أنت لا تحبني
صرخ فيها قائلاً:

أنا يا سيدتي ألف ألف أهواك
أدور وأثور وفي القلب سكنك
أنا إن عطش الفؤاد فأين سقياك
وإن سقمت عيوني فدواي لقياك
أهواك أملا عانق الروح مرآك
بقيت دهرًا في حماك فكيف كيف أنساك
أرجوك أن تبقي لي حلما يلوح
فيبقي في الوري يسري لتراه عيناك
ردي علي النهر كي أرافقه
فكيف أسعي لعمر قد تولي دون رؤياك
إلهي رحمتي أملي أشكو حبا
إليك يرجو دعاء ومن لدعاه أو لدعائي إلّاك

واصلا سيرهما تجاه الميدان. يا إلهي. أكل هذه الملايين أتت في
هذا الميدان. بدأ محب يشعر بقوة هائلة. انخرط في الزحام وهو يمسك
بيد نوال وينظر للمستقبل. لمح الأستاذ شريف شكري. سلم علي
أحمد الذي كان يرفرف بعلم مصر قائلا مع الملايين الذين يهتفون
بصوت واحد:

الشعب يريد إسقاط النظام

obeikandi.com

obeikandi.com

